الطبعة الثانية

فرانز فانون

معذبو الأرض

ويليه مُلحق: غيابُ البُعد الإسلامي في نصوص فانون؛ الإسلام المسكوت عنه في كتاب معذبو الأرض



معذبو الأرض

«.. هذا الكتاب في العلاقة بين المستعمِر والمستعمَر، في كيفية إشعال الثورة من أسفل والحفاظ عليها من تلاعُبات الاستعمار والنُّخب المحلية الخاضعة له. ورغم أنَّ فرانز فانون كتبه لثورات التحرُّرِ الإفريقي والآسيوي من الاستعمار القديم، إلا أنَّ ما جرى، على الحقيقة، بعد مرور أكثر من نصف قرن على هذه الثورات أنَّ الأوضاع الاستعمارية لم تتغير كثيراً. بل استُبدِلَ بالاستعمار العسكري المباشر ذي الكُلفة المادية والبشرية الضخمة، استعمارٌ محلي، أقل كلفة، خاضعٌ تمامًا لقوى الاستعمار السابقة، وترتبط مصالحه الثقافية والسياسية والاقتصادية بها داخل إطارٍ من ديباجات النعرات القومية والقبلية القُطرية الضيقة المصنوعة -أساسًا- بواسطة جهاز المعرفة الاستشراقية. لكل هذا كان مُهِمًّا إتاحة هذا النصِّ للقراءة والتأويل مرة أخرى في ظرفٍ تاريخي ربما يكون أصعب من الظرف الذي كُتِبَ فيه.»

فرانز فانون

طبيبٌ نفسي، وفيلسوفٌ اجتماعي أسود، وُلِد في فور-دوفرانس بجزر المارتينيك عام ١٩٢٥، وخدم في "جيش فرنسا الحرة" خلال الحرب العالمية الثانية، محاربًا للنازيِّين، ثم التحق بالمدرسة الطبية في ليون، وعمل كطبيب عسكري فرنسي في الجزائر إبَّان فترة الثورة الجزائرية، ثم انتقل للعمل كرئيس للقسم النفسي في مستشفى (بليدا- جوانفيل)، وعمل في أثناء ذلك سرًا مع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية، ثم علنًا بعد استقالته من عمله في المستشفى، حتى توفي ودفن في مقبرة مُقاتلي الحريَّة الجزائريين عام ١٩٦١.



معذبو الأرض

هذه هي الترجمة العربية لكتاب

Les Damnés de la terre

By: Frantz Fanon

معذبو الأرض

فرانز فانون

نقله إلى العربية: د.سامي الدروبي - د.جمال الأتاسي

صورة الغلاف بريشة الفنان: أمجد رسمي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٢٠١٣/١٠٢١٥

الترقيم الدولي: ISBN 978-977-85022-3-7

الطبعة الأولى: ربيع الأول ١٤٣٥/يناير ٢٠١٤م

الطبعة الثانية: ربيع الأول ١٤٣٦/يناير ٢٠١٥م

العنوان: ٥ ش ابن سندر - الزيتون - القاهرة - جمهورية مصر العربية

التليفون: ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٠ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧١ - ٠١٠٢٤٤٤٦٣٧٢

البريد الإلكتروني: info@madarat-rp.com



فرانز فانون

معذبو الأرض

ويليه مُلحق: غيابُ البُعد الإسلامي في نصوص فانون: الإسلام المسكوت عنه في كتاب معذبو الأرض

نقله إلى العربية

د.سامي الدروبي - د.جمال الأتاسي



مـدارات للأبحاث والنشر
Madarat for Research and Publishing

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ

"سورة العنكبوت، آية ٦٩"

المحتويات

الموضوع **الصفحة**

●●●

كلمة المركز

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن سار على سنتهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين.

وبعد..

فهذا كتاب «معذبو الأرض» للمناضل العظيم، فرانز فانون (١٩٢٥-١٩٦١م)، والذي كتبه في عامه الأخير، وطُبِعَ وهو على فراش المرض، ونُشِرَ بعد وفاته في سنٍ مبكرة بعد معاناة مع مرض سرطان الدم (اللوكيميا).

وقد وضع فانون في هذا الكتاب جلَّ خبراته التي استقاها من وضعه كوطني مارتينيكي أسود في مقابل «الآخر» الفرنسي الغازي، وسجَّلها في كتابه (بشرة سوداء، أقنعة بيضاء ١٩٥٢م). إلى جانب تجربته في العمل مع جيش التحرير الوطني الجزائري والتي سجَّل جانبًا منها في كتابه الثاني (العام الخامس للثورة الجزائرية ١٩٥٩).

وقد جاء نشر هذا الكتاب في إطار سعينا إلى إتاحة هذا النص الهام للقراءة مرة أخرى بعد الثورات العربية الأخيرة، رغبة منَّا في تدعيم الإطار التحليلي للأوضاع القائمة بعد خفوت أصوات هذه الثورات، وتصعيد نخب محلية جديدة إلى الحكم بدلاً من النخب القديمة.

هذا الكتاب في العلاقة بين المُستعمر والمُستعمَر، في كيفية إشعال الثورات من أسفل، في كيفية الحفاظ على الثورة من تلاعبات الاستعمار والنخب المحلية الخاضعة له، ورغم أن فرانز فانون كتبه لثورات التحرر الافريقي والأسيوي من «الاستعمار القديم»، إلاَّ أننا رأينا، بعد مرور أكثر من نصف قرن على هذه الثورات، أن الأوضاع الاستعمارية لم تتغير كثيرًا، وأن ما جرى، على الحقيقة، أن استبدل بالاستعمار المباشر ذي الكلفة المادية والبشرية العالية، استعمارُ محلي، أقل كلفة، وخاضعٌ تمامًا لقوى الاستعمار السابقة، وترتبط مصالحه الثقافية والسياسية والاقتصادية بها، داخل إطار من ديباجات النعرات القومية والقبلية القطرية الضيقة المصنوعة -أساسًا- بواسطة جهاز الاستشراق.

أما المؤلِّف فهو: فرانز فانون (٢٠ يوليو ١٩٢٥- ٦ديسمبر ١٩٦١) طبيبٌ نفسي، وفيلسوفٌ اجتماعي أسود ولد في فور-دوفرانس في جزر المارتينيك، وخدم خلال الحرب العالمية الثانية في «جيش فرنسا الحرة»، وحارب النازيين، ثم التحق بالمدرسة الطبية في ليون، ثم عمل كطبيب عسكري فرنسي في الجزائر إبَّان فترة الاحتلال، ثم انتقل للعمل كرئيس للقسم النفسي في مستشفى (بليدا- جوانفيل)، وعمل في هذه الأثناء مع جبهة التحرير الوطنية الجزائرية بشكل سري، ثم بشكل علني بعد استقالته من عمله في المستشفى المذكور، حتى توفي ودفن في مقبرة مقاتلي الحرية الجزائريين عام ١٩٦١م.

●●●

مقدمة

في المقدمة التي وضعها جان بول سارتر لهذا الكتاب، أهاب بالأوروبيين أن يقرأوه، رغم أنه ليس موجهًا إليهم. نعم، إن المؤلف لا يتوجه بكلامه إلى الأوروبيين. إنه لا يريد أن يفضح الاستعمار للمستعمرين، كما فعل ذلك قبله عدد من المؤلفين المستعمَرين، الذين هضموا ثقافة المستعمر، ثم رأوا ما هنالك من تناقض بين الدعوى الإنسانية التي تدعيها أوروبا وبين جرائمها في حق الإنسان. إن فانون لا يطمع في أن يحاور أوروبا، أن يخجلها من نفسها، أن يعرى كذبها. إنه يعلم أن الاستعمار لا يمكن اقتلاعه بالإقناع، وأن التحرر من الاستعمار لا يكون إلا بالعنف. إنك لا تستطيع أن تصفّى الاستعمار إلا بحمل السلاح، بإسالة الدماء. إن فانون يائس من أن تثوب أوربا إلى رشدها. وهو لذلك لا يتحدث إليها، وإنما يتحدث إلى إخوته الذين حملوا السلاح وأخذوا يُسيلون الدماء فعلاً، فإذا الاستعمار مكره على أن ينسحب من أراضيهم بخطوات ما تنفك تزداد سرعة. ولكن فانون يعرف أيضًا أن الاستعمار قد يخرج من الباب ليعود من النافذة، لابسًا ثوبًا جديدًا، مبدلاً ملامح وجهه، مغيرًا معالم صورته. لذلك يفيض فانون عليه، ويسلمه إلى جماهير الشعب التي أخرجته من ديارها، لتصفّيه. إن فانون يفضح الاستعمار الجديد. يفضح البورجوازية «الوطنية» التي لم تشارك في ثورة الشعب مشاركة صادقة، ولا أهابت بالجماهير يومًا إلى النضال المسلح والكفاح العنيف، وكانت لا تزيد على أن تقوم بمناورات سياسية من أجل أن يتصدق عليها المستعمر ببعض الامتيازات. إن فانون يبين لنا كيف تحاول هذه البورجوازية «الوطنية» أن تسرق ثورة الشعب في لحظة النصر، وأن تنسبها إليها، وأن تتسلم مقاليد السلطة من يد المستعمر لتحل محله، لتنوب عنه في استغلال الشعب واستثماره واضطهاده، وكيلة عن الاحتكارات الاستعمارية الكبرى، عميلة لها، شريكة معها في الغنائم. إن فانون يفرق بين الاستقلال الحقيقي والاستقلال الكاذب، ويصف تواطؤ البورجوازية الوطنية، ويفضح عجزها عن أن تكون بورجوازية خالقة، ويبين أن البلاد المتخلفة يجب أن تستغنى عن المرحلة البورجوازية، وأن تنتقل رأسًا إلى بناء مجتمعها الاشتراكي.

نعم إن فانون لا يحاور أوروبا، بل يخاطب الشعوب التى شهرت السلاح، وأخذت تنتزع استقلالها بالقوة، فمنها من ظفر بسيادته ومنها من لا يزال يقاتل. إنه يتحدث إلى إخوته المجاهدين.

●●●

هو زنجى من المارتينيك، من مستعمرة يحمل سكانها الجنسية الفرنسية. عانى فى بلده شعور المذلة والهوان من وجود الاستعمار الفرنسى. ولكن أفقه الواسع وعقله النير وثقافته الغنية، كل ذلك جعله لا يحقد على الاستعمار فى وطنه فحسب، بل فى العالم كله. حتى أنه لا يتصور زوال الاستعمار تشفيًا من المستعمرين، بل خلاصًا لهؤلاء المستعمرين أنفسهم من اللا إنسانية التى تردَّوا فيها. جاء إلى فرنساَ طالبًا، فدرس الطب فى مدينة لَيون، فأظهر فى حياته الدراسية من التفوق والنبوغ ما خطف الأبصار، فكان طالبًا مرموقًا بين زملائه وأساتذته. وكان أثناء دراسته يقوم بنشاط سياسى: يشارك فى أعمال طلبة المستعمرات، ويتصل بالمناضلين السياسيين. حتى إذا تخرج متخصصًا فى الطب النفسي عُين طبيبًا للأمراض العقلية بمدينة بليدة بالجزائر. وهناك عمَّق شعوره الثورى، وأدرك أن الاستعمار واحد، وعرف من دراسته لمرضاه من الجزائريين أن الاستعمار يشوه الطبيعة الإنسانية، يضيع الإنسان. ومن مراقبته للثورة رأى كيف تحمل إلى النفوس البرء والتطهر، وكيف تغسل المجتمع الثائر من أدران الجمود والتأخر، فتبث فى الحياة اندفاعة جديدة، وتحمل إلى الثائرين قيمًا جديدة، وتعتقهم من قيود العادات البالية التى كان تمسُّكُهم بها قبل ذلك صورةً من صور المقاومة للاستعمار وقيمه وأخلاقه وحضارته. وهذا ما سجله فى كتابه «العام الخامس للثورة الجزائرية». لقد كان فانون طبيبًا لامعًا من أطباء الأمراض النفسية يشار إليه بالبنان، وهو ما يزال فى ريعان الصبا، حتى لقد نُشرت له بحوث دلت على إحاطة نادرة وحدس قوى ومنهج سليم فى البحث والتقصى. وكان إلى ذلك إنسانيًا رحيم القلب فياض العاطفة رقيق الشعور، فهو يعايش مرضاه حياتهم الداخلية، ويتعاطف معهم، وينفذ إلى أعماق نفوسهم، فيدرك بوجدانه من أمر مشكلاتهم ما يعجز عنه التحليل النظرى وحده. ولكن عاطفته الرقيقة هذه مع المرضى والمتعبين والمعذبين كانت تقابلها فى نفسه ثورة عارمة عنيفة على الاضطهاد والاستغلال والغطرسة العنصرية، فكان

فى سلوكه متن العنفوان والإباء والجموح مع الذين يمثلون الروح الاستعمارية أو لا يتنكرون لها ولا يقاتلونها ما حمل بعض السطحيين من الأوروبيين على القول بأن فى الرجل «عقدة نقص»، فهو يكره البيض لأنه أسود. والواقع أن فانون لا يكره البيض، وإنما يكره الاستعمار الذى يمارسه البيض، وهو على كل حال لا يدع لعاطفته الفردية أن تملى عليه سلوكه، وأن تكون ينبوع تفكيره. وهذا ما يشير إليه سارتر فى مقدمته، وهو ما يظهر لنا من إصرار فانون فى غير موضع من كتابه، على أن تستمد الثورة عقيدتها وروحها وخطتها من التحليل العقلى والإدراك الموضوعى، وأن تستند دائمًا إلى وعى واقعى وتنظيم عملى ونظرية متكاملة. وعن هذا إنما تحدث حين عقد فصلاً من كتابه «مُعَذَّبو الأرض» للكلام على مواطن الضعف فى الانطلاق العفوى.

رافق فانون ثورة الجزائر منذ بدايتها، وآمن بأنها ثورة جذرية، ثورة إنسانية أصيلة لن تنحصر فى أرضها، وشعبها، بل ستردد أصداؤها أفريقيا كلها، وفى جميع البلاد المستعمَرة المتخلفة، وستكون نداء وإهابة، مثالاً وقدوة. وآمن فانون بأن الثورة هى الطريق الوحيدة إلى تحرير الإنسان، وبأن العمل الثورى هو السبيل إلى أن يتجاوز الإنسان وضعه، وإلى أن ينتقل من العبودية والضياع إلى الوجود الحر الكريم الخصب.

وقرر فانون أن ينضم إلى صفوف الثائرين، أن يشاركهم الكفاح مشاركة فعالة، أن يخوض هذه المعركة التى تخوضها الجزائر بكل ما أوتى من قوة. حقق فانون فى نفسه وفى سلوكه الانسجام بين القول والعمل. أدرك هذا المثقف المستعمَر رسالة المثقف المستعمَر، فأبى أن يعيش حياة فردية، أبى أن يستسلم لمغريات التأمل السادر والتذوق الفنى بل والبحث العلمى، أبى أن يستسلم لمغريات المعيشة السهلة التى يرضاها لأنفسهم مثقفون مستعمَرون أصبحوا بلا جذور تربطهم بشعبهم، فضوت نفوسهم وجف ماؤهم، وصوحت شجرة حياتهم فهى لا تعطى جنى بل تتساقط منها ثمار كاذبة. أدرك فانون أن على المثقف المستعمَر أن يحارب مع شعبه بعضلاته قبل أن يتصدق عليه بفضلات يسميها إنتاجًا أدبيًا أو ثقافيًا أو فنيًا أو علميًا. فلا ثقافة لأمة إلا فى إطار حريتها وسيادتها.

ففى عام ١٩٥٧ قدم فانون استقالته من منصبه كرئيس لمستشفى الأمراض العقلية، فى رسالة رائعة تصف جريمة الاستعمار الغربى الذى يضيع الإنسان ويقتل إنسانيته. لقد رأى

فانون أن استمراره فى العمل الطبى والعلمى يصرفه عن الواجب الأكبر الذى تصغر إزاءه كل الواجبات الأخرى، فاستقال من وظيفته، وانخرط فى ثورة الجزائر انخراطًا كاملاً. واستقبلته ثورة الجزائر باسطة له ذراعيها فاتحة له قلبها، وأسندت إليه مهمات شتى، منها تمثيل ثورة الجزائر فى كثير من المؤتمرات الدولية رئيسًا لوفودها، فكان فى هذه المؤتمرات فكرًا ناصعًا ونارًا مشبوبة وحركة لا تهدأ، واشتهر خاصة بالخطاب الرائع الذى ألقاه فى مؤتمر تضامن الشعوب الآسيوية الأفريقية الذى عقد بمدينة أكرا، وفيه عبر فانون عن إيمانه بأن العنف هو السبيل الوحيدة التى يجب أن يسلكها المستعمَرون للتحرر من السادة المضطهدين المستغلين الذين يتشدقون بالكلام على الحرية وعلى الإنسان وهم يذبحونهما حيثما وجدوا.

قلنا إن هذا المثقف المستعمَر قد أدرك أن على المثقف المستعمَر أن يقاتل مع شعبه بعضلاته أولاً وقبل كل شىء. وقد حارب فانون بعضلاته فعلاً، حارب بجسمه، مثلما حارب بفكره وقلمه، ولكن جسم فانون لم يسعفه إلى آخر الشوط، بل تداعى فى منتصف الطريق. لقد اضطر فانون إلى الانسحاب من المعركة التى يستعمل فيها عضلاته، إلى معركة لا يستطيع فيها أن يستعمل إلا فكره الذى تخصبه ثورية باسلة، وتغذيه ثقافة قوية، وترفده قدرة فذة على الملاحظة والتتبع والاستدلال. وفى هذه المرحلة من حياته وضع كتابه «مُعَذَّبو الأرض» بينما المرض الخبيث يأكل دمه. فانظر إلى الشجاعة: كان فانون «الطبيب» يعرف أن الموت يهم به فى لحظه، وأن سرطان الدم لن يمهله إلا بضعة أشهر فى أكثر تقدير، فأخذ يُسرع خطاه ليفرغ من وضع كتابه قبل أن يستقبل الموت راقدًا فى فراشه لا واقفًا على قدميه. لقد ألف كتابه «العام الخامس لثورة الجزائر» قبل أن يستفحل الداء، حتى إذا استشرى مرضه أدخل أحد مستشفيات سويسرا، ثم نقل من سويسرا إلى مستشفى بواشنطن، وهناك أنجز كتابه (مُعَذَّبو الأرض). وفى السابع من ديسمبر ١٩٦١ نفذت برودة الموت بخطى بطيئة إلى قلب فانون، ولفظ الرجل آخر أنفاسه، ولما يتم الأربعين من عمره. وحملت الطائرة جثمانه إلى تونس، ومن هناك اخترق المجاهدون بنعشه الحدود مكفنًا بالعلم الجزائرى، ليدفنوه فى تراب الجزائر عند مرابض المقاتلين كما أراد. كذلك مات فانون المارتينيكى الأصل

الجزائرى النضال، الإنسانى التفكير، تاركًا فى جسم المستعمرين آثارًا من خدش أظافره، وتاركًا فى ربوع الوطن الجزائرى أنوارًا من دفق عقله وقلبه، حتى قال عنه بن بيلا: «لم يكن فانون رفيقًا فى المعركة فحسب، بل كان مرشدًا وموجهًا، لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكرى والسياسى ما هو ضمانة للثورة الجزائرية».

هناك دروس كثيرة استخرجها فانون من مشاركته فى ثورة الجزائر، ومن تتبعه لسائر الثورات التحريرية التى شبَّت فى أفريقيا خاصة، وفى العالم الثالث عامة. ولا نريد فى هذه المقدمة العجلى أن نلخص هذه الدروس، فهى مبسوطة للقارئ فى الكتاب الذى نضعه بين يديه، وإنما نريد أن نضع خطًا تحت فكرة أساسية بين أفكاره تطل على ثورتنا العربية الراهنة، وهى الفكرة المتعلقة بدور البرجوازية. وربما كان من الواجب أن نشي قبل ذلك إلى صفة يتسم بها كتاب فانون، تجعله ذا طابع أصيل، كما تجعل استخراج خطوطه الأساسية وأفكاره الموجهة أمرًا ليس على قدر كبير من السهولة. إن فانون لا يعرض آراءه عرضًا تعليميًا إن صح التعبير. إنه لا يقرر مبادئ معينة ثم يروح يستخرج من هذه المبادئ ما يترتب عليها، ويتفرع عنها مستمدًا من التجربة والواقع أمثلة توضحها، كما يفعل ذلك مؤلف تصفح الوقائع أولاً ثم استخرج قوانينها، حتى إذا أراد بسط النتائج التى خلص إليها، ابتدأ بعرض الأفكار العامة، كاسيًا إياها بالملاحظات العيانية بعد ذلك، وإنما هو يشرك قارئه رأسًا فى ملاحظة الواقع نفسه، نافذًا إلى أعماقه متسللاً بين ثناياه متعرجًا فى منعطفاته، مدركًا إياه بالملاحظة القوية والعاطفة المتقدة فى آن واحد. ومن هنا ينشأ ما قد يضيق به القارئ من تكرار حينًا، ومن تناقض ظاهرى حينًا آخر، ومن قفز ووثب وتدفق وجريان سريع قد لا تستطيع مجاراته بغير لهاث فى أحيان أخرى. ولكن لعل هذا الذى قد يبدو آفة من ناحية، هو ناحية أخرى ميزة كبيرة، ففى الفكر الثورى يجب أن يتعانق العقل والواقع هذا التعانق، فيما يغيب الواقع الثورى المتأجج وراء المعانى المجردة الباردة، وإنما يجىء فى الصورة من الغليان مثل الذى فى الأصل. إن فى كتاب فانون فكرًا وشعرًا معًا: فيه إلى العقل الذى يحلل خفقُ جناح يثب، وأنغام موسيقى تدوِّى.

●●●

إن الفكرة الأساسية التى يدور عليها كتاب فانون «مُعَذَّبو الأرض» هى أن العنف هو السبيل الوحيدة للقضاء على الاستعمار. إن هذا العالم الاستعمارى الذى قام على العنف لا يمكن الخلاص منه إلا بالعنف. والجماهير المستعبدة تشعر بهذه الحقيقة شعوراً قويًا، ولكن شعورها هذا لا يصير إلى كفاح مسلح فوراً. ذلك أن الأحزاب السياسية البورجوازية تستبعد فكرة العنف بل تخشى العنف. هى عنيفة فى أقوالها معتدلة فى مواقفها، لا يزيد نشاطها على مقالات وخطب تتحدث عن حقوق الإنسان وتقرير المصير. إن هذه الأحزاب لا تدعو إلى العنف لأنها لا تهدف إلى قلب الأوضاع التى أنشأها الاستعمار رأسًا على عقب، ولا تطمع فى أكثر من استلام مقاليد الحكم من يد المستعمر. كل ما تريده هو أن تفاوض المستعمر وتنتهى معه إلى تسوية. إن البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التى يمكن أن تنجم عن لجوء الشعب إلى العنف، تخشى النتائج التى يمكن أن تنجم عن هذا الإعصار الجبار، تخشى أن تكنسها هذه الريح العاصفة فلا تفتأ تقول للمستعمرين «ما زلنا قادرين على أن نوقف المذبحة، فالجماهير ما تزال تثق بنا، فأسرعوا إذا كنتم لا تريدون أن تعرضوا للمخاطر كل شىء».

هكذا تصبح الأحزاب البورجوازية وسيطًا بين المستعمر والمستعمَر، وسيطًا بين الطرفين يعرض عليهما المصالحة وينصحهما باللاعنف. إن الأحزاب البورجوازية ما إن ترى الشعب يتحرك لمواجهة الاستعمار بالعنف، حتى تهرع إلى المستعمرين قائلة: «الأمر خطير جدًا. وليس يدرى المرء كيف يمكن أن ينتهى هذا كله، فلابد من إيجاد حل، لابد من إيجاد تسوية». إن البورجوازية التى تسمى وطنية لا تزيد فى الواقع على أن تتواطأ على الشعب مع جلاديه فى مرحلة كفاح التحرير، حتى لكأن مهمتها هى أن تحول دون سير الكفاح إلى آخر مداه، وأن تجعله يجهض فى منتصف الطريق بتسوية تحقق مصالح فريقين أحدهما الاستعمار والثانى هو البورجوزاية الوطنية، وعلى حساب الشعب إنما تضمن مصالح هذين الفريقين، على حساب السيادة الوطنية والاستقلال الحقيقى. لو أراد فانون أن يستشهد على هذه الحقائق بأمثلة مستمدة من غير حركات التحرير التى شبت فى أفريقيا خاصة فى السنين الأخيرة، لو أراد أن يستشهد بحركات التحرير الوطنى التى قامت فى البلاد العربية مثلاً، لذكر تآمر البورجوازية الوطنية فى سورية حين تنازلت للأتراك عن لواء

الاسكندرون فى سبيل الوصول إلى تسوية ١٩٣٦ ، ولذكر المؤامرة الكبرى التى حبكتها بورجوازية البلاد العربية مع الاستعمار ، وأخرجتها فى تلك التمثيلية الرهيبة التى أدت إلى احتلال فلسطين ، وتشريد أهلها ، وارتكاب جريمة من أكبر الجرائم التى عرفها التاريخ .

ولكن تواطؤ البورجوازية مع الاستعمار لا يستطيع أن يقف حائلاً دون لجوء الشعب إلى العنف وانتزاع استقلاله بيده .

فما هو دور هذه البورجوازية بعد الاستقلال؟ إن البورجوازية الوطنية التى تتسلم مقاليد السلطة فى نهاية العهد الاستعمارى هى بورجوازية متخلفة . قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفرًا ، أو هى على الأقل لا تقاس أبدًا بالقوة الاقتصادية التى تملكها بورجوازية البلاد المستعمرة التى تريد هذه البورجوازية الوطنية أن تحل محلها . تظن البورجوازية الوطنية لغرورها أن فى وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار ، وأن تكون خيرًا منها . ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها فى مآزق حرجة ، فإذا هى تلجأ إلى الدولة التى كانت تستعمر البلاد ، وترتمى فى أحضانها .

إن هذه البورجوازية الوطنية عاجزة . إن نشاطها لا يتعدى التجارة والزراعة البدائية والمهن الحرة ، فليس بينها أناس من رجال الصناعة الذين يمتازون بالإقدام . إن البورجوازية الوطنية فى البلاد المتخلفة ليست متجهة نحو الإنتاج والابتكار والبناء والعمل . وإنما هى تنفق نشاطها كله فى أعمال من نوع الوساطة . إن نفسية البورجوازية الوطنية هى نفسية سماسرة ، لا نفسية رواد ومجددين . إنها تكتفى بأن تكون وكيلة . وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة بل جعل نفسها وسيطًا بين البلاد وبين رأسمالية متخفية ، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد . إن البورجوازية الوطنية عاجزة عن النهوض بالدور التاريخى الذى نهضت به البورجوازية الأوروبية . فما عُرفت به بورجوازية أوروبا من أنها كانت نشيطة رائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة ، لآفاق جديدة ، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية العاجزة التى دلفت إلى الشيخوخة قبل أن تمر بعهد مراهقة جريئة مبدعة . وقل مثل هذا وأكثر من هذا عن الإقطاعية المتفسخة التى لا تقوم بأى عمل إيجابى . فلا تجديد فى أى أساليب الزراعة ، ولا خطة للتنمية الاقتصادية ، ولا مبادهات فردية . إن البورجوازية الزراعية فى البلاد المتخلفة بورجوازية كسولة ، ليس لها من هم إلا

تكديس الأرباح، والتمرغ في الشهوات، واقتناء الأشياء التي يدفع إلى اقتنائها حب الظهور من سيارات فخمة، وفيلات باذخة، ومظاهر لاحظ علماء الاقتصاد أنها من مميزات البورجوازية المتخلفة.

هذا على الصعيد الاقتصادي، فماذا على الصعيد القومي، صعيد الوحدة القومية؟ إن من المعروف أن البورجوازية الوطنية في أوروبا هي التي حققت الوحدات القومية فيها. فما هو دور البورجوازية المتمثلة في رسالة التوحيد القومي هذه؟ يقول فانون: «إن البورجوازية الوطنية، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة، ولأنها لا تنظر إلى أبعد من أطراف أظافرها، تنكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية، عاجزة عن بناء الأمة على أسس خصبة وطيدة مثمرة». وقد بين فانون كيف أن البورجوازية الوطنية في البلاد الأفريقية التي استقلت حديثًا قد أيقظت الخلافات الإقليمية، والمنازعات القبلية، وفتلت الوحدة القومية لحرصها على منافعها، وتفضيلها هذه المنافع على المصلحة القومية والوحدة القومية. إنها تحول دون كل جهد تبذله شعوب إفريقيا من أجل تحقيق وحدتها. إن البورجوازية الوطنية التي تسارع إقليمًا بعد إقليم إلى تشييد كيانها الخاص، وإلى إقامة نظام وطني استغلالي، تنشيء الحواجز تلو الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق «حلم» الوحدة. إن البورجوازيات الوطنية التي تعرف أغراضها حق المعرفة، قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذي يقوم به مائتان وخمسون مليونًا من البشر، في سبيل تحررهم وتحقيق إنسانيتهم «لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الإفريقية لا يمكن أن تتحقق إلا باندفاع الشعوب، أي رغم أنف البورجوازية ومصالحها».

لئن ضرب فانون أمثلة مستمدة من أفريقيا على كون البورجوازيات الوطنية تحارب الوحدة القومية، فلقد كان في وسعه، لو شهد نكسة الانفصال التي مُني بها الشعب العربي، أن يضرب مثالاً فذًا بين الأمثلة على تآمر البورجوازية الوطنية مع الاستعمار على الوحدة القومية في سبيل مصالحها. ولو نظر إلى واقع البلاد العربية التي تحكمها بورجوازيات وأوتوقراطيات مستغلة، لكان له في منظر هذه الأقطار أوضح مثال على ما أراد بيانه. إن البورجوازية حين تحكم لا يمكن إلا أن تضعها مصالحها في صف الانفصالية، مهما تتظاهر بغير ذلك. هل من المعقول أن يقبل الوحدة عن رضا أولئك الذين يستأثرون

بالانتفاع بثروات البترول لأشخاصهم؟ إن الوحدة القومية لا يمكن أن تقوم إلا على أساس إزاحة البورجوازيات المتحكمة، وفسح مجال اللقاء للشعب فى جميع أقطاره على صعيد المصلحة الشعبية والبناء الاشتراكى. ولا يكون ذلك إلا بنضال شعبى موحد فى جميع الأقطار يهيىء لانقضاض الشعب على بورجوازيته الحاكمة، وإزاحتها وتدميرها. فى البلاد المتخلفة يجب أن لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والتحكم. إن على البلاد المتخلفة أن تثب فوق المرحلة البورجوازية، لأنها مرحلة عقيمة، إن بورجوازية كالبورجوازية التى نشأت فى أوروبا قد استطاعت أن تضع أيديولوجيا. أن تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة قد قامت بدور ما.

أما فى البلاد المتخلفة فليس هناك بوجوازية تشبه البورجوازية التى نشأت فى أوروبا، بل هناك فئة محتكرة طويلة الأنياب، نهمة، شرهة، تسيطر عليها فكرة الربح التافه، عاجزة عن تمثل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار. إنها لا تقوم بأى دور وليس لها أية فائدة. إنها تافهة، وإن كانت تحجب تفاهتها بمظاهر شتى: من أبنية فخمة، وسيارات أمريكية. إنها لا تستطيع أن تحقق النمو والازدهار. إن على البلاد المتخلفة أن تسير رأسًا فى طريق الاشتراكية.

حين نرى ثورة الجزائر تقفز الآن فوق المرحلة البورجوازية، وتمضى قدمًا إلى بناء المجتمع الجزائرى الاشتراكى، وتدرك مصيرها العربى فتربط بين الجزائر وبين سائر الأقطار العربية برباط الوحدة القومية العربية، فإننا نفهم عندئذ معنى قول بن بيلا عن فانون: «لم يكن فانون رفيقًا فى المعركة فحسب، بل كان مرشدًا وموجهًا، لأنه ترك لنا من إنتاجه الفكرى والسياسى ما هو ضمانة للثورة الجزائرية».

●●●

تصدير

بقلم: جان بول سارتر

منذ زمن غير بعيد جدًا، كان عدد سكان الأرض مليارين، منهم خمسمائة مليون من البشر، ومليار وخمسمائة مليون من «السكان الأصليين». فالأولون يملكون «الكلمة»، والآخرون يستعيرونها. وبين هؤلاء وأولئك يقوم بدو الوسطاء ملوك صغار مشترون، وإقطاعيون، وبورجوازية زائفة ملفقة تلفيقًا.

وكانت الحقيقة فى المستعمرات تبدو عارية، وكانت عواصم «البلاد المستعمرة» تؤثرها مكسوةً، وكان على السكان الأصليين فى البلاد المستعمَرة أن يحبوا هذه العواصم، كما يحبون أمهاتهم إن صح التعبير. وشرعت الصفوة الأوروبية تصنع صفوة من السكان الأصليين. أخذت تصطفى فتيانًا مراهقين، وترسم على جباههم بالحديد الأحمر مبادئ الثقافة الأوروبية، وتحشو أفواههم بأشياء رنانة، بكلمات كبيرة لزجة تلتصق بالأسنان، ثم تردهم إلى ديارهم بعد إقامة قصيرة فى العاصمة وقد زُيِّفوا. إن هؤلاء الأفراد الذين هم أكاذيب حية تسعى، قد أصبحوا لا يملكون ما يقولونه لإخوتهم، لأنهم لا يزيدون على أن يرجِّعوا ما يسمعون؛ فمن باريز ولندن وأمستردام كنا نحن نهتف قائلين: «بارتينون، أخوة» فإذا بشفاه تنفرج فى مكان من الأمكنة بأفريقيا أو آسيا، لتقول: «بتينون! . . أخوَّة! . . » وكان ذلك هو العهد الذهبى.

وانتهى ذلك العهد، وأخذت الأفواه تنفتح من تلقاء ذاتها. وظلت الأصوات الصفراء والسوداء تتحدث عن نزعتنا الإنسانية، ولكنها أصبحت تفعل ذلك لتأخذ علينا أننا غير إنسانيين. وأصبحنا نصغى إلى تلك الآراء اللبقة التى تعبر عن المرارة، دون أن نشعر بالاستياء. لقد أحسسنا فى أول الأمر بدهشة يمازجها كبر: كيف؟ أيتكلمون من تلقاء أنفسهم؟ انظروا مع ذلك ماذا خلقنا منهم؟ وكنا لا نشك فى أنهم يقبلون مثلنا الأعلى، ما داموا يتهموننا بأننا لسنا أوفياء له. وآمنت أوروبا عندئذ برسالتها: لقد حملت الثقافة الإغريقية إلى الآسيويين، لقد خلقت هذا النوع الإنسانى الجديد، نوع الزنوج الإغريق-

اللاتين. وكنا نضيف إلى ذلك سراً فيما بيننا: دعوهم يعوون، فذلك يُسرِّى عنهم. إن الكلب الذى ينبح لا يعض.

وجاء جيل جديد نقل المسألة إلى أفق آخر. لقد حاول كتاب هذا الجيل وشعراؤه أن يشرحوا لنا، فى كثير من الصبر، أن قيمنا لا تناسب حقيقة حياتهم، وأنهم لا يستطيعون أن ينبذوها نبذاً كاملاً، ولا أن يهضموها. وكان معنى ذلك على وجه الإجمال هو هذا: إنكم تشوهوننا، فالمذهب الإنسانى الذى تأخذون به يدَّعى أننا وسائر البشر سواء، وأعمالكم العرقية تفرق بيننا وبين غيرنا. وكنا نصغى إلى كلامهم فى كثير من الاسترخاء: إن حكام المستعمرات لا تُدفع لهم أجور من أجل أن يقرأوا هيجل، وهم لذلك لا يقرأونه كثيراً، ولكنهم ليسوا فى حاجة إلى هذا الفيلسوف لكى يعرفوا أن هذه الضمائر الشقية المعذبة تربكها تناقضاتهم. ولا جدوى. فلنجعل شقاءهم إذن يستمر، فلن يخرج من ذلك إلا هواء. وكان الخبراء يقولون لنا: إذا كان فى تأوهاتهم هذه ظل من مطمح، فهو التوق إلى الانضمام. ولا مجال طبعًا لمنحهم هذا الانضمام: وإلا كنا نهدم النظام الذى يقوم على زيادة الاستغلال كما تعلمون. ولكن يكفى أن ندع هذه الجزرة ماثلة أمام أعينهم حتى يركضوا.

أما أن يثوروا فذلك ما كنا مطمئنين إلى أنه لن يكون: أى واعٍ من هؤلاء السكان الأصليين يمكن أن يمضى إلى قتل أبناء أوروبا الحسان لأن غايته الوحيدة هى أن يصير أوروبيًا مثلهم؟ لقد كنا إذن نشجع تلك الألوان من الأسى؛ وفى ذات مرة لم نجد ضيراً فى أن نمنح أحد الزنوج جائزة جونكور: وكان ذلك قبل عام ١٩٣٩.

١٩٦١. اسمعوا هذا الكلام: «علينا أن لا نضيع الوقت فى ثرثرات عقيمة أو فى لغو يبعث على الاشمئزاز. فلنترك هذه الأوروبا التى لا تفرغ من الكلام عن الإنسان وهى تقتله جماعات حيثما تجده، فى جميع نواصى شوارعها، وفى جميع أركان العالم. لقد انقضت قرون. . . وهى تخنق الإنسانية كلها تقريبًا باسم «مغامرة روحية» مزعومة». إن هذه اللهجة جديدة. من ذا الذى يجرؤ أن يتكلم بهذه اللهجة؟ إنه إفريقى، إنسان من «العالم الثالث» كان مستعمَراً. وهو يضيف إلى ذلك قوله: «إن أوروبا قد بلغت من الجنون والاضطراب فى سرعتها أنها ماضية إلى الهاوية. . التى

يحسن الابتعاد عنها». وبتعبير آخر. إنها قد أفلست. هذه حقيقة لا يجمل قولها - أليس كذلك يا أعزائى أهل أوروبا؟-، ولكنها حقيقة نحن جميعًا مقتنعون بها فى قرارتنا، بين اللحم والجلد منا.

على أن هناك تحفظًا لابد من ذكره. حين يقول فرنسى لفرنسيين مثلاً: «لقد أفلسنا» - وهذا ما أعرف أنه يحدث كل يوم تقريبًا منذ عام ١٩٣٠- فهو إنما يلقى خطابًا يفيض بالعاطفة، خطابًا تضطرم فيه نيران من الحنق والحب، والخطيب هنا يضع نفسه فى المغطس مع جميع أهل وطنه. ثم إنه يضيف على وجه العموم قوله: «اللهم إلا أن. . .». ومعنى ذلك واضح، فهو يريد أن يقول: علينا أن لا نقترف بعد الآن خطيئة واحدة. فإذا لم تُتَّبع وصاياه بحذافيرها، فعندئذ، عندئذ فقط، تنهار البلاد. ومعنى ذلك أن ههنا وعيدًا يعقبه نصح، وكلام الخطيب لا يؤذى سامعيه ما دام يصدر عن الذاتية القومية المشتركة. أما حين يقول فانون إن أوروبا ساعية إلى حتفها، فهو لا يصيح صيحة من ينبه إلى الخطر، وإنما هو يشخص الداء. إن هذا الطبيب لا يدَّعى أن أوروبا مائتة لا محالة -فقد رأى الناس معجزات- لا ولا يقدم لها وسائل الشفاء، وإنما هو يلاحظ أنها تُحتضر. ويلاحظ ذلك من خارج، معتمدًا على الأعراض التى استطاع أن يجمعها. أما أن يعالجها فلا. إن فى رأسه همومًا أخرى. إنه لا يعنيه أن تفطس أو أن تعيش. وكتابه لهذا السبب يبعث على الفضيحة. وإذا همستم ساخرين منزعجين: «يا لهذا الذى يقدمه لنا!» غابت عنكم الطبيعة الحقيقية للفضيحة: ذلك أن فانون لا «يقدم» إليكم شيئًا البتة. إن كتابه الذى يراه الآخرون كاويًا يظل عندكم صقيعًا. إن مؤلف هذا الكتاب يتحدث عنكم فى كثير من الأحيان، ولكنه لا يتحدث إليكم أبدًا. انتهى عهد جوائز جونكور السوداء وجوائز نوبل الصفراء. لن يعود زمن الحائزين على الجوائز من المستعمَرين: «أيها السكان الأصليون فى جميع البلاد المتخلفة، اتحدوا!». يا له من سقوط! لقد كان الآباء لا يتحدثون إلا إلينا، فإذا بالأبناء أصبحوا يرفضون حتى أن يعدونا أهلاً لأن يخاطبونا. والكلام يدور علينا. صحيح أن فانون يذكر فى عرض الحديث جرائمنا المشهورة: صطيف، هانوى، مدغشقر، ولكنه لا يضيع وقته فى استنكارها، وإنما هو يستعملها. ولئن كان يفضح أساليب الاستعمار، ويحلل ما هنالك من حركة معقدة فى العلاقات التى تجمع وتفرق بين المستوطنين وبين

«سكان العاصمة الأوروبية»، فهو إنما يفعل ذلك لإخوته، لأن هدفه هو أن يعلمهم كيف يحبطون مؤامراتنا.

وخلاصة القول إن «العالم الثالث» يكتشف نفسه ويخاطب نفسه بهذا الصوت. ويعلم الناس أن هذا العالم ليس متجانسًا، فما نزال نجد فيه شعوبًا مستعبدة، وأخرى نالت استقلالاً كاذبًا، وأخرى تقاتل من أجل أن تحصل على سيادتها، وأخرى فازت بحياة كاملة ولكنها تحيا مهددة بعدوان استعماري تهديدًا دائمًا. إن هذه الفروق قد نشأت من التاريخ الاستعماري، أى نشأت من الاضطهاد. ففى بلد من البلدان اكتفت العاصمة الأوروبية بأن تشترى عددًا من الإقطاعيين، وفى بلد آخر خلقت من هنا وهناك طبقة بورجوازية من المستعمَرين، عاملة على أن تفرق لتسود، وفى بلد ثالث ضربت ضربة مزدوجة، فجعلت المستعمرة استثمارًا وإسكانًا فى آن معًا. وهكذا أكثرت أوروبا الانقسامات والتعارضات، وصنعت طبقات، وخلقت فى بعض الأحيان نزعات عرقية، وحاولت بجميع الحيل أن تولد وأن تزيد انقسام المجتمعات المستعمرة إلى طبقات. وإن فانون لا يخفى شيئًا: إن على المستعمرة أن تناضل ضد نفسها من أجل أن تناضل ضدنا، أو قل إن هذين النضالين ليسا إلا نضالاً واحدًا. ينبغى لجميع الحواجز الداخلية أن تنصهر فى نار المعركة، وعلى البورجوازية العاجزة التى تتألف من أصحاب أعمال ومن مستخدمين لدى الأوروبيين، وعلى عمال المدن الذين ينعمون دائمًا ببعض الامتيازات، وعلى الشغيلة المتكدسين فى المعسكرات، على هؤلاء جميعًا أن يصطفوا فى مواقع الجماهير الفردية التى هى الينبوع الحقيقى للجيش الوطنى الثورى. فإن الفلاحين فى هذه المناطق التى تعمَّد الاستعمار أن يعطل فيها التقدم، سرعان ما يكونون هم الطبقة الراديكالية إذا هم ثاروا، ذلك أنهم يعرفون الاضطهاد عاريًا، ويقاسون منه أكثر كثيرًا مما يقاسي عمال المدن، ومن أجل أن تحول بينهم وبين الموت جوعًا لا يكفيك إلا أن تهدم جميع الأنظمة. ومتى انتصرت هذه الطبقة كانت الثورة القوية اشتراكية. ومتى أمكن وقف اندفاعتها فتسلمت البورجوازية المستعمرة زمام السلطة، بقيت الدولة الجديدة فى أيدى الاستعماريين رغم السيادة الصورية.

وذلك ما يدل عليه مثال كاتانجا دلالة واضحة. وهكذا فإن وحدة العالم الثالث لم تتحقق، وإنما هى مشروع يمضى فى سبيله إلى التحقيق، مارًا باتحاد جميع المستعمَرين تحت

قيادة طبقة الفلاحين فى كل بلد من البلدان بعد الاستقلال أو قبله على السواء. ذلك ما يشرحه فانون لإخوته بإفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية: إما أن نحقق الاشتراكية الثورية معًا فى كل مكان. وإما أن يصرعنا، واحدًا بعد واحد، الطغاة الذين كانوا يحكموننا. إن فانون لا يخفى شيئًا: لا يخفى ضروب الضعف، ولا أنواع الشقاق، ولا ألوان التزييف: هنا انطلقت الحركة انطلاقة سيئة، وهناك أخذت تفقد سرعتها بعد انتصارات مدوية، وهنالك توقفت فإذا أريد لها أن تُستأنف كان لابد للفلاحين من أن يلقوا بورجوازيتهم فى البحر. ويحذر المؤلف قارئه من أخطر أنواع الضياع: الزعيم، عبادة الشخص، الثقافة الغربية، وكذلك عودة الماضى البعيد من الثقافة الأفريقية: إن الثقافة الحقة هى «الثورة». ومعنى هذا أن هذه الثقافة تنشأ والنار حامية. إن فانون يتحدث بصوت عال. وفى وسعنا نحن الأوروبيين أن نسمعه: والدليل على ذلك أنكم تمسكون الآن بأيديكم هذا الكتاب. تُرى ألا يخشى أن تستفيد الدول الاستعمارية من صراحته؟

لا، إنه لا يخشى شيئًا. لقد أصبحت أساليبنا رثة بالية: قد تستطيع أن تؤخر التحرر فى بعض الأحيان، ولكنها لن توقفه. ولا نتخيلن أن فى وسعنا أن نعدل طرائقنا: إن الاستعمار الجديدة، هذا الحلم الكسول الذى تحلمه عواصم أوروبا، ليس إلا هواء. إن «القوى الثالثة» لا وجود لها، أو هى البورجوازيات العميلة التى جعلها الاستعمار فى الحكم. إن أساليبنا المكيافلية ليس لها سلطان كبير على هذا العالم الذى تيقظ تيقظًا قويًا وفضح أكاذيبنا واحدة بعد أخرى. وليس للمستوطن المستعمِر إلا ملجأ واحد هو القوة، حين يبقى له من شيء. وليس للساكن الأصلى إلا اختيار واحد، هو الاختيار بين العبودية والسيادة. هل ينفع فانون أو يضره أن تقرأوا كتابه أو لا تقرأوه؟ إنه لإخوته إنما يفضح أساليبنا الماكرة العتيقة، موقنًا بأننا لا نملك لها بديلاً. لإخوته هؤلاء إنما هو يقول: لقد وضعت أوروبا أرجلها على أراضينا، فينبغى لنا أن نظل نجرحها إلى أن تسحبها. واللحظة مؤاتية، فما من شيء يحدث فى بنزرت أو فى أليزابث فيل أو فى مجاهل الجزائر، إلا وتعلم به الأرض قاطبة. والكتل متعارضة، ويتهيب بعضها، فلنستفد من هذا الشلل، ولندخل فى التاريخ، وليكن دخولنا المفاجيء هذا عاملاً يجعل التاريخ عاما لأول مرة. لنقاتل. وحسبنا الخنجر الصابر سلاحًا إذا أعوزتنا أسلحة أخرى.

أيها الأوروبيون، إقرأوا هذا الكتاب، ادخلوا فيه. فبعد أن تسيروا بضع خطوات في الظلام ستجدون أناسًا أجانب قد تحلقوا حول النار. اقتربوا منهم، وأصغوا إليهم: إنهم يبحثون في المصير الذي يهيئونه لوكالاتكم وعملائها الذين يحمونها. قد يرونكم، ولكنهم سيستمرون في التحدث حتى دون أن يخفضوا أصواتهم. إن عدم اكتراثهم هذا يجز في القلب: إن آباءهم الذين كانوا مخلوقات تعيش في كنفكم، مخلوقات أنتم خالقوها، إن آباءهم أولئك كانوا نفوسًا ميتة. كنتم تغدقون عليهم النور، وكانوا لا يتجهون بالحديث إلا إليكم، وكنتم لا تكلفون أنفسكم عناء الرد على هؤلاء البدائيين. ولكن الأبناء يجهلونكم: إنهم يستضيئون ويستدفئون بنار ليست ناركم. ولسوف تشعرون، وأنتم منهم على مسافة تهيُّبًا، أنكم متخفون متسللون في الظلام خائفون. لكل دوره، وفي هذه الظلمات التي سينبجس منها فجر جديد ستكونون أنتم البدائيين.

لعلكم قائلون: ما دام الأمر كذلك فلنرم هذا الكتاب من النافذة. لماذا نقرؤه إذا لم يكن مكتوبًا لنا؟ الحق أن هناك باعثَين يجب أن يدفعاكم إلى قراءة هذا الكتاب: أولهما أن فانون يشرح أمركم لإخوته، ويحلل لهم أنواع الضياع التي نعيشها: فاستفيدوا من ذلك لتكشفوا لأنفسكم عن أنفسكم من حيث إنكم في حقيقتكم أشياء. إن ضحايانا يعرفوننا بواسطة جراحهم وأغلالهم: وهذا ما يجعل شهادتهم صادقة لا ترد. يكفي أن يُظهرونا على ما صنعناه بهم حتى نعرف ما صنعناه بأنفسنا. أهذا مفيد؟ نعم، لأن أوروبا مهددة أن تموت تهديدًا كبيرًا. قد تقولون أيضًا: ولكننا نعيش في أوروبا ونستنكر الإفراط. صحيح: إنكم لستم مستوطنين في البلاد المستعمرة. ولكنكم لستم خيرًا من أولئك المستوطنين. إنهم روادكم، أنتم أرسلتموهم إلى ما وراء البحار، وقد أغنوكم. لقد أنذرتموهم؛ قلتم لهم إنكم ستنكرون أعمالهم من أطراف الشفاه إذا هم أسرفوا في سفك الدماء. مثلكم في ذلك مثل دولة -أية كانت هذه الدولة- تغذي في الخارج جمهرة من المثيرين والمحرضين والجواسيس، فإذا قبض عليهم أنكرتهم. إنكم ومن أنتم تحريةً وإنسانيةً وحبًا للثقافة إلى حد التصنع، تتظاهرون بأنكم تنسون أن لكم مستعمرات، وأن هناك أناسًا يقومون بأعمال القتل الجماعي باسمكم. إن فانون يكشف لرفاقه -لعدد من رفاقه خاصة، هم الذين ظلوا مغالين بعض المغالاة في غربيتهم- يكشف لهؤلاء الرفاق تضامن «سكان أوروبا» مع

عملائهم فى المستعمرات. تسلحوا بالجرأة وأقدموا على قراءة هذا الكتاب، لهذا السبب الأول وهو أنه سيشعركم بالخجل، والخجل كما قال ماركس عاطفة ثورية. ها أنتم أولاء ترون أننى أنا أيضًا لا أستطيع أن أتخلص من الوهم الذاتى. أنا أيضًا أقول لكم: «لقد ضاع كل شيء، اللهم إلا أن. . .» أيها الأوروبى، إننى أسرق كتاب عدو، فاتخذه وسيلة لشفاء أوروبا من دائها. انتفع بهذا الكتاب.

●●●

وإليكم السبب الثانى: إذا تركتم جَمجَمات سوريل الفاشية وجدتم أن فانون هو أول من يعيد مولِّدة التاريخ إلى النور بعد إنجلز. ولا يذهبن بكم الظن إلى أن دمًا مسرفًا فى الغليان أو إلى أن شقاء الطفولة هو الذى جعله يحب العنف حبًا خاصًا: إن فانون يشرح الموقف لا أكثر من ذلك. ولكن هذا يكفى لأن يصوِّر، مرحلة مرحلة، ذلك الديالكتيك الذى يخفيه عنكم النفاق الليبرالى، والذى أنتجنا كما أنتجه.

لقد كانت البورجوازية، فى القرن الماضى، تعد العمال أناسًا حسودين قد أفسدتهم شهوات فظة، ولكنها كانت تحرص على أن تحشر هؤلاء الجفاة المتوحشين فى عداد نوعنا الإنسانى: وإلا فكيف يمكنهم أن يبيعوا قدرتهم على العمل بيعًا حرًا إذا هم لم يكونوا بشرًا؟ كانت النزعة الإنسانية فى فرنسا وإنجلترا تدعى أنها تساوى بين جميع أفراد البشر.

ولا كذلك فى العمل الإكراهى. إن العمل الإكراهى لا يقوم على تعاقد. ولابد عدا ذلك من التخويف. وهكذا ظهر الاضطهاد. إن جنودنا فيما وراء البحار ينبذون فكرة المساواة بين البشر، ويطبقون على النوع الإنسانى مبدأ «العدد المغلق»: إذ لما كان لا يستطيع أحد أن يسلب رزق أخيه الإنسان أو أن يستعبده أو أن يقتله إلا ويكون قد اقترف جريمة، فقد أقروا هذا المبدأ وهو أن المستعمَر ليس شبيه الإنسان. وعُهد إلى قوتنا بمهمة إحالة هذا اليقين المجرد إلى واقع: صدر الأمر بخفض سكان البلاد الملحقة إلى مستوى القرود الراقية، من أجل تسويغ أن يعاملهم المستوطن معاملته للدواب. إن العنف الاستعمارى لا يريد المحافظة على إخضاع هؤلاء البشر المستعبدين، وإنما هو يحاول أن يجردهم من إنسانيتهم. إنه لن يدخر جهدًا من أجل أن يقضى على تقاليدهم، ومن أجل أن يحل لغتنا محل لغاتهم، ومن أجل أن يهدم ثقافتهم دون أن يعطيهم ثقافتنا. لسوف يصعقهم تعبًا. فإذا ظلوا يقاومون رغم الجوع

والمرض، فلسوف يتولى الخوف القيام بالمهمة: لسوف تصوب إلى الفلاح بنادق. ويأتى مدينون فيستقرون على أرضه، ويكرهونه بالسياط على أن يزرعها لهم «فإذا قاوم أطلق الجنود النار، فأصبح ميتًا، وإذا خضع انهار ولم يعد إنسانًا. لسوف يمزق العار والخوف خلقه، لسوف يحطمان شخصه. ويتم تحقيق هذه المهمة على أيدى خبراء اختصاصيين، والطبول تقرع: إن «الدوائر السيكولوجية» ليست حديثة العهد، لا ولا غسل الدماغ. ومع ذلك، رغم هذه الجهود كلها، لم يتحقق الهدف فى أى مكان: لم يتحقق فى الكونغو حيث كانوا يقطعون أيدى الزنوج، ولا تحقق فى أنجولا حيث كانوا، منذ زمن قصير جداً، يثقبون شفاه المتذمرين ليقفلوها بأقفال. لست أدعى أن من المستحيل أن تبدل إنسانًا فتجعله بهيمة، وإنما أقول إنك لا تصل إلى ذلك إلا بإضعافه إضعافًا كبيراً، واللطمات لا تكفى أبدًا، ولابد من المبالغة فى التجويع. وهذه هى المشكلة المزعجة: إنك حين تجعل قرداً من أفراد نوعنا الإنسانى أشبه بدابة، تقلل إنتاجه، والإنسان الذى يصبح حيوانًا أهليًا يكلف من النفقات أكثر مما يعطى من أرباح. ولهذا السبب يُضطر المستوطنون إلى وقف الترويض فى منتصف الطريق، وتكون النتيجة أن لا يكون هذا المستعمَر إنسانًا ولا بهيمة، وإنما يكون من نوع «السكان الأصليين»: إنه وقد أحيط بالضرب والتجويع والمرض والتخويف، ولكن إلى حد محدود، يتصف خلقه دائمًا بصفات واحدة، سواء أكان أصفر أم أسود أم أبيض، وهذه الصفات هى أنه كسول ما كر لص، يعيش بالقليل ولا يعرف إلا القوة.

مسكين هذا المستوطن: لقد عُرِّى تناقضه. إن عليه أن يقتل أولئك الذين ينهبهم، كما يفعل الجنى فيما يقال. ولكن ذلك غير ممكن: أليس عليه أيضًا أن يستغلهم؟ وهكذا، فلأنه لا يستطيع أن يمضى فى التقتيل إلى حد إبادة النوع، ولا يستطيع أن يمضى فى الاستعباد إلى حد جعل البشر بهائم، يفقد مواطىء قدميه، وينقلب الأمر، فإذا بمنطق محتوم يؤدى إلى زوال الاستعمار.

ليس فوراً. أن الأوروبى يسيطر. صحيح أنه خسر، ولكنه لا يدرك ذلك. إنه لا يعلم بعد أن «السكان الأصليين» ليسوا كما يتصور «السكان الأصليين». هو يقول إنه يلحق بهم شرًا من أجل أن يهدم أو يكبح الشر الذى فيهم، بعد ثلاثة أجيال لن تولد فيهم غرائزهم الفاسدة من جديد.. أية غرائز؟ أهى التى تدفع العبيد إلى قتل سيدهم؟ فكيف لا يرى فى

هذه الغرائز قسوته هو وقد انقلبت عليه؟ كيف لا يرى في وحشية هؤلاء الفلاحين المضطهدين وحشيته هو وقد امتصوها بجميع المسام، وأصبحوا لا يستطيعون أن يبرأوا منها؟ سبب ذلك بسيط: إن هذا الشخص المتجبر الذى أطاش صوابه ما يتمتع به من سلطة كاملة، وما يشعر به من خوف عليها، أصبح لا يتذكر جيداً أنه كان إنساناً، وإنما هو يحسب نفسه سوطاً أو بندقية، حتى بلغ من ذلك إلى الاعتقاد بأن ترويض «العروق المنحطة» إنما يكون بإخضاع منعكساتهم للربط الشرطى. إنه ينسى الذاكرة الإنسانية، ينسى الذكريات التى لا تُمحى. وهناك خاصة، هذا الشيء الذى لعله لم يعلمه يوماً: أننا لا نصبح ما نحن إلا بالإنكار الداخلي الجذرى لما صُنع بنا، ثلاثة أجيال؟ إن الأبناء، منذ الجيل الثاني، ما كادوا يفتحون أعينهم حتى رأوا آباءهم يُضربون. وبذلك تكونت فيهم صدمات، على حد تعبير علم الأمراض النفسية، مدى الحياة. وهذه العدوانات التى ما تنفك تتكرر لا تحملهم على الخضوع، وإنما تلقيهم فى تناقض لا يطاق سيدفع الأوروبى ثمنه عاجلاً أو آجلاً. لك بعد ذلك أن تروضهم هم أيضاً، وأن تعلمهم العار والألم والجوع، فلن تسير فى أجسامهم إلا حنقاً يغلى غليان البراكين وتساوى قوته قوة الضغط الذى يقع عليهم. قلتم: إنه لا يعرف إلا القوة؟ طبعاً. هى أولاً قوة المستوطن، وهى بعدئذ قوتهم، إنها قوة واحدة بعينها ترتد إلينا كإقبال خيالنا علينا من قرارة مرآة. لا يخدعنكم أمر هذه القوة. إنهم بهذا الحنق المسعور، وهذا الغيظ وهذه المرارة، وبرغبتهم الدائمة هذه فى أن يقتلونا، وبهذا التقبض المستمر فى العضلات القوية التى تخاف أن تسترخى، إنهم بهذا كله بشر. لقد أصبحوا كذلك بسبب المستوطن الذى أراد لهم أن يكونوا أناساً معذبين، كما أصبحوا كذلك من أجل أن يقاوموه. إن الكره الذى ما يزال أعمى وما يزال مجرداً هو كنزهم الوحيد: إن «السيد» هو الذى يثير فيهم هذا الكره، لأنه يريد أن يجعلهم كالبهائم، وهو لا يظفر بتحطيم هذا الكره، لأن مصالحه تجعله يتوقف فى منتصف الطريق، وهكذا يظل «السكان الأصليون» بشراً، بما للمضطهد من قوة وعجز يستحيلان عندهم إلى رفض عنيد للمصير الحيوانى. أما ما عدا ذلك فواضح. إنهم كسالى، طبعاً. ذلك منهم تخريب مقصود. وهم ماكرون لصوص: مرحى! إن سرقاتهم الصغيرة تدل على بداية المقاومة التى لم تنتظم بعد. لا هذا فحسب: إن منهم من يؤكد ذاته بأن يلقى بنفسه عارى اليدين على البنادق. هؤلاء هم أبطالهم. ومنهم من يجعلون

أنفسهم رجالاً بقتل أوروبيين. وتقتلونهم: لصوصًا وشهداء، فإذا بعذابهم يورى النيران في نفوس الجماهير المذعورة.

المذعورة، نعم: ففى هذه اللحظة الجديدة يصير العدوان الاستعمارى فى نفوس المستعمَرين إلى ذعر. ولست أعنى بالذعر ما يشعرون به من خوف إزاء أساليبنا فى القمع، هذه الأساليب التى لا ينضب معينها، لست أعنى هذا فحسب، وإنما أعنى أيضًا ذلك الخوف الذى يثيره فى نفوسهم حنقهم هم. إنهم محاصرون بين أسلحتنا المصوبة إليهم، وبين تلك الاندفاعات الرهيبة وتلك الرغبة فى القتل التى تصعد من أعماق قلوبهم، والتى لا يتعرفون عليها دائمًا، لأنها ليست فى أول الأمر عنفهم هم، وإنما هى عنفنا نحن وقد انقلب واشتد وأصبح يمزقهم. والحركة الأولى التى تقوم فى نفوسهم هى أن يدفنوا دفنًا عميقًا ذلك الغضب المكتوم الذى تستنكره أخلاقهم وأخلاقنا معًا، والذى ليس مع ذلك إلا آخر ملجأ تفزع إليه إنسانيتهم. اقرأوا فانون تعلموا أن جنون القتل إنما هو اللا شعور الجمعى للمستعمَرين فى زمن عجزهم.

إن هذا الحنق المكتوم يظل يلوب فى صدور المضطهدين فيفسدهم هم أنفسهم حين لا يستطيع أن ينطلق. وهم ينتهون من أجل التحرر منه إلى أن يقتل بعضهم بعضًا، فالقبائل تقتتل فيما بينها لأنها لا تستطيع أن تجابه العدو الحقيقى -فى وسعكم أن تعتمدوا على السياسة الاستعمارية لتغذية خصوماتهم-. إن الأخ الذى يشهر السكين على أخيه يحسب أنه يهدِّم تهديمًا نهائيًا تلك الصورة الكريهة لفسادهما المشترك. غير أن هذه الضحايا التكفيرية لا تروى ظمأهم إلى الدم. ولن يمتنعوا عن أن يسيروا إلى الرشاشات إلا إذا تواطأوا معنا: وهذا التخلى عن الإنسانية، هذا التخلى الذين ينفرون منه، تراهم يعجِّلون تقدمه بإرادتهم نفسها. وهم يحمون أنفسهم من أنفسهم بأسيجة غيبية يراها المستوطن فيتسلى بها: فتارة يحبون خرافات عتيقة فظيعة، وتارة يكبلون أنفسهم بطقوس دقيقة. هكذا يهرب المصاب بمرض الحصار من اللجاجة العميقة التى تلح عليه، بأن يفرض على نفسه لوثات تطارده فى كل لحظة. إنهم يرقصون: ذلك يشغلهم، وذلك يرخى عضلاتهم المتقبضة تقبضًا مؤلمًا، ثم إن الرقص يحاكى، سرًا، على غير علم منهم فى كثير من الأحيان، كلمة «لا» التى لا يستطيعون أن يقولوها، ويحاكى أعمال القتل التى لا

يستطيعون أن يقترفوها. وفي بعض المناطق يعمدون إلى هذا الملجأ الأخير: المس. فالأمر الذى كان فى الماضى هو الظاهرة الدينية فى بساطتها، الأمر الذى كان فى الماضى نوعًا من الاتصال بين المؤمن وبين المقدس، يتخذونه سلاحًا يحاربون به اليأس والمذلة: فأشخاص وما شابهها تحل فيهم، وتسيطر على عنقهم وتبعثره تشنجات تمضى إلى حد استنفاد القوى. وهذه الشخوص السامية تحميهم فى الوقت نفسه: إن المستعمَرين يحمون أنفسهم من الضياع الاستعمارى بالمغالاة فى الضياع الدينى، مع هذه النتيجة الوحيدة آخر الأمر، وهى أنهم يجمعون الضياعين، وإن كلاً من هذين الضياعين يعزز الضياع الآخر. هكذا فى بعض أمراض الذهان، نرى المصابين بالهلوسة يقررون ذات صباح، وقد تعبوا من الإهانات التى تُصب عليهم كل يوم، أن يسمعوا صوت ملاك يمدحهم. ولا تنقطع الشتائم بسبب ذلك، وإنما هى تتناسب بعد الآن مع الغبطة والهناءة. ذلك دفاع، وهو نهاية مغامرتهم: لقد انقسم الشخص، وهو يسير الآن نحو الجنون. أضيفوا إلى ذلك، بالنسبة إلى بعض التعساء المصطفَين اصطفاء صارمًا، أضيفوا ذلك المس الآخر الذى تحدثت عنه منذ قليل: أعنى الثقافة الغربية. رب قائل يقول: لو كنت فى مكانهم لظللت أوثر حفلات الزار على معبد الأكروبول. إذن لقد فهمتم. ولكنكم مع ذلك لم تفهموا فهمًا كاملاً، لأنكم لستم فى مكانهم. وإلا لأدركتم أنهم لا يستطيعون أن يختاروا: إنهم يجمعون. أن لهم عالمين، وهذا ما يجعلهم ممسوسين مسَّين: إنهم يرقصون طوال الليل، حتى إذا طلع الفجر هرعوا إلى الكنائس يسمعون الصلاة. ويتفاقم الصدع يومًا بعد يوم. إن عدونا يخون إخوته ويتواطأ معنا. ويفعل إخوته مثل الذى فعل. إن صفة «السكان الأصليين» عصاب أدخله المستوطن على المستعمَرين وغذّاه، بموافقتهم.

وأن تطالب بالمصير الإنسانى وأن تنكره فى آن واحد، فذلك تناقض انفجارى. وهو لذلك ينفجر، تعلمون هذا مثلما أعلمه. إننا نعيش فى زمن الانفجار: زيادة الولادات تزيد العوز، وعلى المواليد الجدد أن يخشوا الحياة أكثر قليلاً مما يخشون الموت، لذلك يجرف العنف جميع الحواجز. ففى الجزائر، وفى آنجولا لا يُقتل الأوروبيون علنًا. هذه لحظة الانفجار، هذه هى المرحلة الثالثة من مراحل العنف: أن العنف يرتد إلينا، ويضربنا، ثم نحن لا نفهم أن هذا العنف هو عنفنا نحن أكثر مما فهمنا ذلك فى المرات الأخرى. إن الليبراليين يظلون مشدوهين: إنهم يعترفون أننا لم نكن على قدر كافٍ من الكياسة فى

معاملة «السكان الأصليين»، وإنه كان أدنى إلى العدل والتعقل أن نمنحهم بعض الحقوق في حدود الإمكان، فلقد كانوا لا يطمعون في أكثر من أن نسمح لهم بدخول هذا النادى المحكم الإغلاق، نوعنا الإنسانى، أن نقبلهم فى هذا النادى أفواجًا بلا مزكّين: وها هم أولاء يجتاحهم ذلك الانفجار الوحشى المسعور كما يجتاح أشرار المستوطنين. واليسار فى العواصم الأوروبية منزعج: إنه يعرف القدر الحقيقى المفروض على «السكان الأصلين»، ويعرف ما يقع عليهم من اضطهاد لا يرحم، وهو لا يستنكر تمردهم، عالمًا بأننا فعلنا كل شىء من أجل تحريضهم على هذا التمرد، ولكنه يقول: إن هنالك حدودًا مع ذلك: لقد كان ينبغى لهؤلاء المقاتلين أن يحرصوا على أن يتحلوا بروح الفروسية، فتلك خير وسيلة يبرهنون بها على أنهم بشر. وهو يؤنبهم فى بعض الأحيان قائلاً: «لقد أسرفتم. ولن ندعمكم بعد الآن». ولكنهم لا يكترثون بهذا التهديد، ذلك لأنهم يعرفون قيمة هذا الدعم الذى يمن به عليهم، ويستخفون به. لقد أدركوا هذه الحقيقة الصارمة منذ بدأوا حربهم، وهى: أننا جميعًا سواء، لقد استفدنا جميعًا منهم، وليس عليهم أن يبرهنوا لنا على شىء، ولن يشكروا لأحد منه. إن هناك واجبًا واحدًا يقع على عاتقهم، إن هناك هدفًا واحدًا يجب أن يحققوه، هو أن يطردوا الاستعمار بجميع الوسائل. والمتبصرون منا مستعدون، عند الضرورة، لأن يقبلوا هذا، ولكنهم لا يستطيعون الامتناع عن أن يعدوا هذا العنف وسيلة غير إنسانية البتة يعمد إليها جماعة هم دون البشر من أجل أن يُمنحوا حقوق الإنسانية، فامنحوهم هذه الحقوق بأقصى سرعة، وليحاولوا عندئذ بأعمال سلمية أن يستحقوها. ألا إن فضلاءنا لعرقيون.

وسيستفيدون من قراءة فانون: لسوف يوضح لهم فانون توضيحًا كاملاً أن هذا العنف الجامح ليس زوبعة سخيفة، ولا هو تيقظ غرائز وحشية، بل ولا هو ثمرة حقد: إن الإنسان نفسه يشكل نفسه تشكيلاً جديدًا. هذه الحقيقة، أعتقد أننا علمناها ونسيناها: إن علائم العنف لا يستطيع لين أن يمحوها: إن العنف وحده يستطيع أن يهدمها. والمستعمَر يشفى من عصاب الاستعمار بطرد المستعمِر بالسلاح. إنه حين ينفجر حنقه يسترد شفافيته المفقودة، ويعرف نفسه بمقدار ما يصنع نفسه. نحن من بعيد نعد حربه انتصارًا للتوحش، ولكن هذه الحرب تؤدى بذاتها إلى تحرير المقاتل بالتدريج، فهى تزيل من نفسه ومن خارج

نفسه ظلمات الاستعمار شيئًا بعد شيء. إنها منذ تبدأ لا ترحم. فإما أن يظل المرء مذعورًا، وإما أن يجعل غيره مذعورًا. معنى ذلك: إما الاستسلام لانقسامات حياة مزيفة، وإما الظفر بالوحدة الولادية. حين يقبض الفلاحون على البنادق، فإن جميع الخرافات تبهت ألوانها، وإن جميع الممنوعات تنهار واحدًا بعد آخر: إن سلاح المقاتل هو إنسانيته. إذ فى أول مرحلة من مراحل الثورة، يجب عليه أن يقتل. إنه حين يقتل أوروبيًا يضرب بحجر واحد ضربتين: يزيل مضطهدًا ومضطهَدًا فى آن واحد: إذ يبقى بعد القتل رجل ميت ورجل حر. والذى يبقى حيًا يشعر، لأول مرة، بأرض قومية. ففى هذه اللحظة لا تكون الأمة بعيدة عنه: إنه يراها حيث يمضى، حيث يكون، لا أبعد من ذلك أبدًا، إنها تتحد بحريته. ولكن، بعد المفاجأة الأولى، يتحرك جيش الاستعمار: وعندئذ فإما أن يتحد المستعمرون وأما أن يُقتلوا. هكذا تضعف الخلافات القبلية وتجنح إلى الزوال: أولاً لأنها تهدد «الثورة» بالخطر، وثانيًا (وهذا أعمق) لأنها لم يكن لها من وظيفة إلا أن تحرف العنف نحو أعداء ليسوا بأعداء. وحين تبقى هذه الخلافات -كما فى الكونغو- فإنما يكون مرد ذلك إلى أن عملاء الاستعمار يغذونها ويعززونها. وتسير الأمة. ويشعر كل أخ أنها موجودة فى كل مكان يقاتل فيه إخوة آخرون. إن حبهم الأخوى هو الوجه الآخر للكره الذى يحملونه لكم: هم أخوة بهذا المعنى: أن كلاً منهم قد قتل، وأنه يمكن بين لحظة وأخرى أن يكون قد قتل. إن فانون يبين لقرائه حدود «العفوية»، ويبين ضرورة «التنظيم» وأخطاره. ولكن مهما يكن مدى المهمة فإن الوعى الثوري يعمق عند كل نمو فى العمل. وتزول العقد الأخيرة. دعك من حديثهم عن «عقدة الارتباط» لدى جندى جيش التحرير الوطنى. إن الفلاح، وقد تحرر من العمارة، أصبح يعرف حاجاته: لقد كانت تقتله، ولكنه كان يحاول أن يجهلها. وهو الآن يكتشفها مقتضيات لا نهاية لها. ففى هذا العنف الشعبى -الذى يصمد خمس سنين، وثمانى سنين كما فعل الجزائريون- لا يمكن أن تتميز الضرورات الحربية والاجتماعية والسياسية بعضها عن بعض. إن الحرب- ولو لم تطرح إلا مشكلة القيادة والمسئوليات- تنشىء بنيانات جديدة ستكون أولى مؤسسات السلم. هذا هو الإنسان إذن ينشأ حتى فى تقاليد جديدة هى بنات مقبلة لحاضر رهيب، ها هوذا ينال شرعيته، بحق سيولد، بحق يولد كل يوم فى نار المعركة: فمتى قُتل

أو حل أو ذاب آخر مستوطن مستعمر، زال نوع الأقلية، وأخلى المكان للأخوة الاشتراكية. وليس هذا بكاف أيضًا: إن هذا المناضل يحرق المراحل. إنكم لتقدرون جيداً أنه لا يجازف بجلده من أجل أن يجد نفسه فى مستوى الإنسان القديم، إنسان «البلاد المستعمرة». انظروا إلى صبره الطويل: لقد يحلم أحيانًا بـ" ديان -بيان- فو» جديدة. ولكن ثقوا أنه لا يعتمد على ذلك حق الاعتماد: إنه صعلوك يناضل، وهو فى الفقر والبؤس، ضد أناس أغنياء مسلحين تسليحًا قويًا. وهو إذ ينتظر الانتصارات النهائية، أو لا ينتظر شيئًا فى كثير من الأحيان، يثير فى أعدائه الحقد، ولا يتحقق هذا من غير خسارات فظيعة. إن جيش الاستعمار يصبح كاسرًا: فهو يقوم بعمليات تطهير، ويشن حملات انتقامية، ويقتل النساء والأطفال. والمناضل يعرف ذلك: إن هذا الإنسان الجديد يبدأ حياته من نهايتها. إنه يعد نفسه ميتًا بالقوة. لسوف يُقتل. إنه لا يرتضى أن يعرض نفسه للقتل فحسب، بل هو موقن بأنه مقتول لا محالة. إن هذا الميت بالقوة قد فقد زوجته وأبناءه. لقد بلغ من فرط رؤيته لاحتضار الآخرين أنه لا يريد أن يعيش بقدر ما يريد أن ينتصر. غيره سيستفيد من النصر، لا هو. لقد سئم هو. لكن هذه السأمة هى مصدر شجاعة لا تصدق. نحن نجد إنسانيتنا سابقة على الموت والبأس، أما هو فيجدها بعد العذاب وبعد الموت. نحن كنا ننثر هواءً، أما العاصفة فهو. إنه ابن العنف يستمد منه فى كل لحظة إنسانيته: لقد كنا بشرًا على حسابه، وهو يصبح بشرًا على حسابنا يصبح إنسانًا أفضل.

●●●

هنا يتوقف فانون. لقد دل على الطريق: إنه وهو الناطق بلسان المناضلين، قد طالب باتحاد القارة الإفريقية ضد جميع الخلافات وجميع الانقسامات، قد طالب بوحدة القارة الأفريقية ضد هذه الخلافات والانقسامات. ولو شاء أن يصف وصفًا كاملاً هذه الحادثة التاريخية، أعنى حادثة الخلاص من الاستعمار، لكان عليه أن يتحدث عنا، وذلك ليس موضع كلامه. ولكننا بعد أن نقرأ كتابه يظل هذا الكتاب يتتابع فينا رغم مؤلفه. ذلك أننا نشعر بقوة الشعوب الثائرة، ونرد على هذه القوة بالقوة. فهناك إذن لحظة جديدة من العنف، وإلينا إنما ينبغى الرجوع فى هذه المرة، لأن العنف أخذ يبدلنا بمقدار ما يتبدل المستعمَر بواسطته. إن لكل إنسان أن يقود أفكاره كما يشاء، ولكن شريطة أن يفكر: ففى

أوروبا اليوم، أوروبا التى أطاشت صوابها الضربات التى تكال لها، فى فرنسا وفى بلجيكا وفى إنجلترا، يجب أن يعد أقل تغافل فكرى تواطؤاً إجرامياً مع الاستعمار. إن هذا الكتاب لم يكن فى حاجة إلى مقدمة، خاصة وأنه غير موجه إلينا. ومع ذلك كتبت له هذه المقدمة، من أجل أن أمضى بالديالكتيك إلى أقصاه: إنهم يخلصوننا من الاستعمار، نحن أيضًا، من أجل أوروبا: أنهم يجتثون بعملية دامية، المستعمر الموجود فى كل منا. لننظر فى أنفسنا، ولنر، إذا كانت لنا شجاعة، ما الذى يحدث لنا.

يجب أولاً أن نواجه هذا المنظر غير المتوقع: تعرِّى دعوانا الإنسانية. هذه هى دعوانا الإنسانية مكشوفة العورات غير جميلة. إنها لم تكن إلا أيديولوجيا كاذبة. لقد كانت تسويغًا مزوَّقًا للنهب والسلب. لقد كانت رقتها وغدرتها كفالة وضمانة لعداواتنا. إن لهم وجهًا لطيفًا هؤلاء الذين لا يحبون العنف: ليسوا ضحايا ولا هم جلادون! ولكن دعك من هذا الكلام! إن لم تكونوا ضحايا، حين تقوم الحكومة التى رفعتموها بالاستفتاء، ويقوم الجيش الذى خدم فيه إخوتكم الصغار، بأعمال إبادة للنوع الإنسانى، بلا تردد، وبلا عذاب ضمير، فإنكم جلادون ولا شك. وإذا اخترتم أن تكونوا ضحايا بتعريض أنفسكم لسجن يوم أو يومين، فأنتم لا تزيدون على أن تنسحبوا. ويجب أن لا تنسحبوا، يجب أن تبقوا إلى النهاية. افهموا أخيراً هذه الحقيقة: لو أن العنف قد بدأ فى هذا المساء، ولو أن الاستغلال والاضطهاد لم يوجدا فى الأرض، فإن اللاعنف الذى تنادون به قد ينفع فى تهدئة الشجار. أما وإن النظام كله، وحتى أفكار اللاعنف التى تنادون بها، هى ثمرة اضطهاد عمره ألوف السنين، فإن سلبيتكم لا تزيد على أن تضعكم فى صف المضطهدين.

إنكم تعلمون حق العلم أننا مستغلون. إنكم تعلمون حق العلم أننا سلبنا «القارات الجديدة» ذهبها ومعادنها ثم بترولها، وجئنا بذلك كله إلى بلادنا القديمة. وقد حصلنا من ذلك نتائج رائعة: قصوراً وكاتدرائيات وعواصم صناعية. ثم حين كانت الأزمة تهددنا كانت وظيفة أسواق البلاد المستعمرة أن تزيل الأزمة و أن تحول مجراها. وأتخمت أوروبا بالثروات، ومنحت صفة الإنسانية لجميع سكانها على السواء، فالإنسان فى بلادنا شريك فى الجريمة، لأننا أفدنا جميعًا من استغلال المستعمرات. إن هذه القارة الدسمة الصفراء تنتهى إلى ما يطلق عليه فانون اسم «النرجسية» بحق. إن كوكتو ينزعج من باريز «هذه المدينة التى تتحدث فى كل لحظة عن نفسها». وأوروبا، هل تفعل غير هذا؟ وذلك المسخ

الذى فاق أوروبا، أمريكا الشمالية؟ يا لها من ثرثرة: حرية، مساواة، أخوة، محبة، شرف، وطن، وما لا أدرى أيضًا! وكأن هذا الكلام لا يمنعنا من أن نقول فى الوقت نفسه كلامًا يعبِّر عن العصبية العرقية: زنجى قذرًا! وكان بعض الطيبين، الليبراليين الليِّنين -أى بعض الاستعماريين الجدد- يدعون أنهم يستغربون هذا التناقض. وذلك خطأ أو كذب مقصود: فلا شىء أقرب إلى الانسجام المنطقى عندنا من نزعة إنسانية عرقية، لأن الأوروبى لم يستطع أن يجعل نفسه إنسانًا إلا بخلق عبيد ومسوخ. ولم تنكشف هذه الخدعة ما ظل هناك أناس يقال لهم: «سكان أصليون».

لقد كانوا يغطون بهذه الموضوعة المجردة، موضوعة النوع الإنسانى العام، أعمالاً لا تتفق مع هذه الموضوعة: كانوا يرون هناك على الجهة الأخرى من البحر كائنات هى دون الإنسان، قد تستطيع بعد ألف عام أن تصل بفضلنا إلى الحالة التى نحن عليها. كانوا إذن يخلطون بين النوع الإنسانى والصفوة. واليوم يكشف السكان الأصليون عن حقيقتهم، فيكشف نادينا عن ضعفه.

لقد كان نادينا أقلية لا أكثر من ذلك ولا أقل. بل هناك ما هو أسوأ من ذلك: ما دام الآخرون يصبحون بشرًا بمقاتلتنا، فنحن إذن أعداء النوع الإنسانى. إن الصفوة تكشف عن طبيعتها الحقة: إنها عصابة. إن قيمنا الغالية تفقد أجنحتها. فلو نظرت إليها من كثب لم تجد منها واحدة غير ملطخة بالدم. إذا أردتم أمثلة فتذكروا هذه الكلمات الكبيرة: ما أكرم فرنسا! من؟ أنحن كرماء؟ فما قولكم إذن فى حوادث صطيف؟ ما قولكم فى هذه السنين الثمانى من حرب كاسرة أزهقت أرواح أكثر من مليون جزائرى؟ ولكن ثقوا أنهم لا يأخذون علينا أننا خنَّا رسالة ما، لسبب بسيط من أنه لم تكن لنا أية رسالة.

إن الكرم هو بعينه موضوع الجدل. فهذه الكلمة الرنانة ليس لها إلا معنى واحد هو منح حقوق، وهؤلاء البشر الذين نواجههم، هؤلاء البشر الجدد المتحررون، ليس لأحد فى نظرهم قدرة على أن يمنح شيئًا لأحد، ولا له هذا الامتياز. إن لكل امرىء جميع الحقوق. وحين سيتاح لنوعنا الإنسانى يومًا أن يتكوَّن، فلن يعرف بأنه مجموع سكان الكرة الأرضية، وإنما سيُعرف بأنه الوحدة اللانهائية لما بينهم من تبادل وتشارك. وهنا أقف عن الكلام، ففى وسعكم أن تتموا العمل بغير عناء. إنه ليكفيكم أن تنظروا إلى فضائلنا

الأرستقراطية نظرة سديدة، لأول مرة وآخر مرة، حتى تدكوا أنها تموت. وكيف لها أن تبقى حية بعد فناء أرستقراطية الذين أنشأوها من أناس هم دون الإنسان! إن معلقًا بورجوازيًا - واستعماريًا- أراد ن يدافع منذ بضع سنين عن الغرب فلم يجد إلا هذا الكلام: «نحن لسنا ملائكة، ولكننا، نحن، نشعر بعذاب الضمير». يا له من اعتراف! لقد كانت قارتنا تملك فى القديم عوامات أخرى: البارثنون، شارتر، حقوق الإنسان، الصليب المعقوف. ونحن نعرف الآن قيمة هذه العوامات. لقد أصبحوا لا يطمعون فى إنقاذنا من الغرق إلا بذلك الشعور المسيحى جدًا، الشعور بإثمنا- ها أنتم ترون إذن أنها النهاية: إن المياه تحف بأوروبا من كل جهة. فما الذى حدث؟ إن الجواب على هذا السؤال بسيط: لقد حدث أننا كنا نصنع التاريخ، فأصبح التاريخ الآن يصنعنا. لقد انقلبت نسبة القوى، والتخلص من الاستعمار ماضٍ فى طريقه. وكل ما يستطيع الجشعون أن يحاولوا فعله هو أن يؤخروا إتمامه.

ولا تزال «العواصم الأوروبية» العتيقة تدلى فى هذا بدلوها، وتورط فى معركة خاسرة منذ الآن جميع قواها. إن هذه الوحشية الاستعمارية الهرمة التى صنعت لبيجو وأضرابه ذلك المجد المشكوك فيه، نحن نجدها الآن فى نهاية المغامرة مضاعفة وغير كافية. لقد أرسلوا إلى الجزائر كل ما يمكن إرساله من قوى ما تزال ترابط هنالك بغير نتيجة. لقد غيَّر العنف اتجاهه؛ كنا ونحن منتصرون، نمارسه دون أن يبدو أنه يفسدنا: كان هذا العنف يحلل الآخرين، بينما تظل إنسانيتنا، نحن البشر، سليمة لم يمسسها أذى. كان سكان البلاد المستعمرة، وقد وحَّدت بينهم الفائدة، يطلقون على اشتراكهم فى الجرائم اسم الحب والأخوة. ولَكن هذا العنف يُدحر اليوم فى كل مكان، فيرتد هو نفسه إلينا عن طريق جنودنا، فينفذ إلى داخلنا، ويخالطنا مخالطة المس. لقد بدأ التراجع: إن المستعمَر يعيد تشكيل نفسه، أما نحن، المتقدمون والليبراليون، سواء أكنا مستوطنين فى المستعمرات أم مقيمين فى أوروبا، فإننا نتحلل. إن الحنق المسعور والخوف الشديد يتعريان منذ الآن: إنهما مكشوفان فى «مجازر» مدينة الجزائر. أين هم المتوحشون الآن؟ أين هى البربرية؟ لا شيء ينقص هذه المجازر حتى ولا قرع الطبول: فبينما يحرق الأوروبيون المسلمين أحياء، تصبح أبواق السيارات معلنة أن «الجزائر فرنسية». يذكر فانون، أن جماعة من أطباء الأمراض العقلية أفصحوا فى مؤتمر لهم، منذ زمن غير بعيد، عن حزنهم لشيوع الجريمة بين «السكان الأصليين»، وقالوا: «إن هؤلاء الناس يقتل بعضهم بعضًا، وهو شيء غير سويّ، فلابد أن القشرة الدماغية لدى الجزائر متخلفة النمو». وقال آخرون فى أفريقيا

الوسطى أن «الأفريقى لا يستعمل الفصين الجبهيين من الدماغ إلا قليلاً جداً». لقد يهم هؤلاء العلماء اليوم أن يتابعوا بحثهم هذا فى أوروبا، وخاصة لدى الفرنسيين. إذ لا شك أننا، نحن أيضًا، قد أصبحنا منذ زمن مصابين بكسل فى الفص الجبهى من الدماغ: فأهل الوطن الواحد يقتل بعضهم بعضًا، ويستغل بعضهم غياب بعض عن منزله حتى ينسفوا البواب والبيت. وما هذا إلا بداية: فالحرب الأهلية يتوقع أن تنشب فى الخريف أو فى الربيع القادم. ومع ذلك تظل تبدو الفصوص الجبهية من أدمغتنا سليمة كل السلامة: أليس الأجدر أن نقول إننا، وقد عجزنا عن سحق «السكان الأصليين»، ارتد العنف إلينا، وتجمع فى أعماقنا، وأخذ يبحث عن مخرج؟ إن اتحاد الشعب الجزائرى يولد تفكك الشعب الفرنسى: فى جميع المستعمرات ترقص القبائل وتتهيأ للمعركة. وترك الإرهاب أفريقيا ليستقر هنا: ذلك أن هنالك أشخاصًا مسعورين يريدون أن ندفع منا ثمنًا للعار الذى لحق بهم حين غلبهم «السكان الأصليون»، وهناك أيضًا الآخرون، جميع الآخرين الذين لا يقلون إجرامًا عن غيرهم (من ذا الذى نزل إلى الشارع، غداة حوادث بيزرت، وغداة مذابح أيلول، ليقول: كفى!، ولكنهم أكثر هدوءاً منهم: هناك الليبراليون، والقساة من اليسار الرخو. إن الحمى تصعد فى هؤلاء أيضًا. والسخط، يا له من خوف رهيب! إن هؤلاء يحجّبون حنقهم المسعور بخرافات وطقوس معقدة. فلكى يؤخروا تصفية الحساب ويوم الحقيقة، حكَّموا فينا «ساحراً كبيراً» مهمته أن يبقينا فى الظلام بأى ثمن من الأثمان. ولا شىء يجدى. إن العنف الذى يطالب به الناس ويكبحه آخرون يدور الآن فى دائرة، ففى يوم تراه ينفجر فى متز، وفى الغداة تراه ينفجر فى بوردو -لقد مر من هنا، وسيمر من هناك إنها لعبة الحلقة. إننا نسير بدورنا فى الطريق الذى يؤدى إلى حالة سكان أصليين، نسير فى هذا الطريق خطوة بعد خطوة. ولكن لكى نصبح «سكانًا أصليين» تمامًا، يجب أن يحتل أرضنا أولئك الذين كانوا مستعمَرين وأن نتضور جوعًا. وهذا لن يكون: لا. ولكن الاستعمار المنهار هو الذى يصبح فى نفوسنا مسًا. وسرعان ما سوف يمتطينا فارسًا مريضًا مختالاً. هذا «زارنا» ولسوف تقتنعون، حين تقرأون الفصل الأخير من كتاب فانون، بأنه خير للمرء أن يكون من «السكان الأصليين» فى أسوأ لحظة من لحظات البؤس، من أن يكون مستوطنًا مستعمراً. ليس من الخير أن يكون موظف من موظفى الشرطة مضطراً إلى التعذيب عشر ساعات فى اليوم: إنه بهذا معرض لانهيار الأعصاب، اللهم إلا أن نمنع الجلادين من العمل ساعات إضافية فى سبيل مصلحتهم ذاتها. وحين نريد أن نحمى

بقوة القوانين روح الأمة والجيش، ليس من الخير أن يجرد الجيش الأمة من روحها على نحو منظم مطرد، لا ولا أن تعهد بلاد ذات تقاليد جمهورية، بمئات الألوف من شبانها إلى ضباط عصاة. ليس من الخير، يا أهل وطني، وأنتم تعرفون جميع الجرائم التي ترتكب باسمنا، أن لا تهموا بكلمة لأحد، حتى ولا لروحكم، مخافة أن يكون عليكم أن تحكموا على أنفسكم. لقد كنتم في أول الأمر تجهلون -أحب أن أصدق ذلك- ثم أصبحتم ترتابون، والآن أنتم تعلمون، ولكنكم تظلون صامتين. ثماني سنين من الصمت، ذلك أمر يدنس. وعبثًا تصمتون: إن شمس التعذيب التي تبهر الأعين هي اليوم في رابعة النهار تضيء البلاد كلها. وتحت هذا الضياء، لم تبق ضحكة ترن رنينًا صادقًا، ولم يبق أحد لا يطلي وجهه إخفاء للغضب أو الخوف، ولم يبق فعل لا يفضح اشمئزازنا وتواطؤنا. إنه ليكفي الآن أن يجتمع فرنسيان حتى توجد بينهما جثة.. بل جثث.. لقد كانت كلمة فرنسا، في الماضي، اسمًا لبلد، فحذار أن تصبح كلمة فرنسا عام ١٩٦١ اسمًا لمرض من أمراض العُصاب.

أترانا نشفى؟ نعم. إن العنف، كحربة آخيل، يمكن أن يلأم الجروح التي يحدثها. نحن الآن مكبَّلون، مُذَلّون، مرضى بالخوف، في الحضيض. ومن حسن الحظ أن الأرستقراطية الاستعمارية لا يكفيها هذا: إنها لا تستطيع أن تتم رسالتها التأخيرية في الجزائر إلا بعد أن تستعمر الفرنسيين. ونحن نتراجع كل يوم عن خوض المعركة، ولكن ثقوا أننا لن نستطيع تحاشيها. إنهم في حاجة إليها، هؤلاء القتلة. لسوف يسرقوننا من سُررنا الوثيرة ويضربوننا فيمن يضربون. وبذلك ينتهي عهد السحرة والتمائم. فإما أن تقاتلوا وإما أن تعفنوا في المعسكرات. هذه آخر لحظات الديالكتيك. إنكم تستنكرون هذه الحرب، ولكنكم لا تجرأون بعد على إعلان تضامنكم مع المناضلين الجزائريين. لا تخافوا، اعتمدوا على المستوطنين المستعمرين وعلى أصحاب المصالح الجشعين: لسوف يجعلونكم تثبون الخطوة وثبًا. ولعلكم عندئذ، وقد جُعل ظهركم إلى الجدار، تطلقون أخيرًا عقال هذا العنف الجديد الذي تبعثه فيكم جرائم يُعاد ارتكابها. ولكن هذه قصة أخرى، كما يقال. هي قصة الإنسان. وإني لعلى يقين بأن الزمن الذي نلتحق فيه بأولئك الذين يصنعون الإنسان، قريب لا ريب فيه.

أيلول (سبتمبر) ١٩٦١

جان بول سارتر

●●●

فى العنف

سواء أقلنا تحريرًا وطنيًا، أم نهضة قومية، أم انبعاثًا شعبيًا، أم اتحادًا بين الشعوب، وكيف كانت العناوين المستعملة والمصطلحات الجديدة، فإن محو الاستعمار إنما هو حدث عنيف دائمًا. إن محو الاستعمار، على أى مستوى درسناه: سواء أكان مستوى لقاء الأفراد بعضهم ببعض، أم مستوى تسمية النوادى الرياضية بأسماء جديدة، أم مستوى التشكيل الإنسانى لحفلات الكوكتيل وأجهزة الشرطة ومجالس إدارة المصارف القومية أو الخاصة، إنما هو إحلال «نوع» إنسانى محل «نوع» إنسانى آخر، إحلالاً كليًا، كاملاً، مطلقًا، بلا مراحل انتقال. وفى وسعنا طبعًا أن نبين أيضًا انبثاق أمة جديدة، وقيام دولة جديدة مع علاقاتها الدبلوماسية واتجاهها السياسى والاقتصادى. ولكننى إنما اخترت أن أتحدث عن هذا النوع من المحو الذى يحدد فى البداية كل إزالة للاستعمار. والحق أن دليل النجاح إنما هو تبديل صورة المجتمع تبديلاً تامًا. وهذا التبديل يستمد خطورته الخارقة من أنه قد أريد إرادة ملحة شديدة. فإن ضرورة هذا التبديل قائمة فى وجدان وحياة الرجال والنساء المستعمَرين على حالة فجة جارفة قاهرة. ولكن احتمال هذا التبديل يعيشه أيضًا وجدان «نوع» آخر من الرجال والنساء، هو نوع «المستعمِرين»، على صورة مستقبل مروِّع رهيب.

إن محو الاستعمار، وهو يستهدف تغيير نظام العالم، إنما هو، كما ترون، برنامج لقلب النظم قلبًا مطلقًا. ولكنه لا يمكن أن يكون ثمرة عملية سحرية أو زلزالاً طبيعيًا أو تفاهمًا وديًا، أى أنه لا يمكن أن يعقل، ولا يمكن أن يصبح واضحًا لنفسه، إلا بمقدار إدراك الصانعة للتاريخ التى تهب له شكله ومضمونه. إن محو الاستعمار إنما هو نزال بين قوتين متعارضتين أساسًا، قوتين تستمد كل منهما صفتها الخاصة من ذلك التكوين الذى يفرزه الظرف الاستعمارى ويغذيه، إن التجابه الأول الذى تم بين هاتين القوتين إنما تم تحت شعار العنف، كما أن تساكنهما -أو قل استغلال المستعمر للمستعمَر- إنما تلاحق بدعم قوي من الحراب والمدافع. إن المستعمِر والمستعمَر يعرف أَحدهما الآخر من زمان طويل. والمستعمِر حين يقول إنه «يعرفهم»، هو على حق فيما يقول. فالمستعمِر هو الذى صنع

المستعمَر وما يزال يصنعه. إن المستعمِر يستمد حقيقته، أى خيراته، من النظام الاستعمارى.

ومحو الاستعمار لا يمكن أن يعبر عبوراً دون أن يلاحظه أحد، لأنه يتناول الوجود، لأنه يغير الوجود تغييراً أساسيًا، لأن أناسًا مشاهدين يسحقهم أنهم ليس لهم ماهية، يأتى محو الاستعمار هذا فيحيلهم أناسًا فعالين ممتازين يدخلون تيار التاريخ دخولاً رائعًا. إن محو الاستعمار يبث فى الوجود إيقاعًا خاصًا يجىء به الرجال الجدد، ويحمل إلى الوجود لغة خاصة وإنسانية جديدة. إن محو الاستعمار لهو خالق رجال جدد حقًا. ولكن هذا الخلق لا يستمد مشروعيته من أية قوة فوق الطبيعة. إن المستعمَر «الشىء» يصبح إنسانًا بمقدار ما يحقق من عمل لتحرير ذاته.

ففى محو الاستعمار يجب إذن تغيير الوضع الاستعمارى تغييراً كاملاً. ويمكن أن يقوم تعريفه، إذا أردنا أن نصفه وصفًا دقيقًا، فى هذه العبارة المعروفة: «الأواخر سيصبحون الأوائل». إن محو الاستعمار تحقيق لهذه الجملة. ولذلك فإن كل محو للاستعمار هو من ناحية الوصف نجاح.

إن محو الاستعمار حين يُعرض عاريًا، يكشف من خلال مساماته كلها، عن رصاصات حمر وخناجر دامية. ذلك أنه إذا كان على الأواخر أن يصبحوا هم الأوائل، فإن هذا لا يمكن أن يتم إلا بعد قتال حاسم مميت يخوضه الطرفان المتنازعان. إن هذه الإرادة الثابتة التى تريد أن تنقل الأواخر إلى طليعة الصف، وأن تجعلهم يتسلقون (بسرعة مفرطة كما يقول بعضهم) الدرجات المعروفة التى يتألف منها مجتمع منظم، هذه الإرادة لا يمكن أن تنتصر إلا إذا ألقيت فى الميزان جميع الوسائل، ومنها وسيلة العنف طبعًا.

إنك لا تستطيع أن تفكك نظام مجتمع من المجتمعات، مهما يكن بدائيًا، ببرنامج كهذا البرنامج، ما لم تعزم أمرك منذ البداية، أى منذ وضع هذا البرنامج نفسه، على أن تحطم جميع الحواجز التى ستلقاها فى طريقك. والمستعمَر الذى يقرر أن يحقق هذا البرنامج، أن يكون له المحرك، مهيأ للعنف منذ زمن طويل. لقد أدرك منذ ولادته إدراكًا واضحًا أن هذا العالم المضيق، المزروع بأنواع المنع، لا يمكن تبديله إلا بالعنف المطلق.

إن العالم الذى يسوده النظام الاستعمارى هو عالم مقسم. ومن نافل القول طبعًا، على صعيد الوصف، أن نذكر أن هناك مدنًا للسكان الأصليين ومدنًا للأوروبيين، إن هناك مدارس للسكان الأصليين ومدارس للأوروبيين؛ كما أن من نافل القول أن نذكر التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا. ومع ذلك فإننا حين ندخل إلى صميم هذا التقسيم، نجنى فائدة واحدة على الأقل، هى أننا نستطيع عندئذ أن نبرز بعض خطوط القوى التى يضمها. إن دراستنا للعالم الاستعمارى وتنظيمه وترتيبه الجغرافى ستنتج لنا أن نُعين خطوط التداخل التى ستبدأ بها إعادة تنظيم المجتمع الذى تخلص من الاستعمار.

إن العالم المستعمَر منقسم إلى عالمين. والخط القاسم، أو الحدود الفاصلة، إنما هى لثكنات ومراكز الشرطة. فالدركى والشرطى فى المستعمرات هما المرجع القيم الشرعى الذى يستطيع المستعمَر أن يرجع إليه وأن يخاطبه، وهما الجهة التى تنطق بلسان المستعمر ونظام الاضطهاد. إننا نرى فى المجتمعات التى تنتمى إلى الطراز الرأسمالى، أن التعليمَ، سواء أكان دينيًا أم علمانيًا. وتكوين المنعكسات الأخلاقية التى يأخذها الأبناء عن الآباء، والشرف المثالى الذى يُسند إلى عمال يُمسحون الأوسمة بعد خمسين عامًا أنفقوها فى القيام بخدمات طيبة مستقيمة، وتشجيع حب الاتزان والتعقل، هذه الأشكال الجمالية لاحترام النظام القائم تخلق حول المستغل جواً من الخضوع والامتناع يخففان عبء قوى الأمن تخفيفًا كبيراً. إننا نرى فى البلاد الرأسمالية طائفة كبيرة من أساتذة الأخلاق، والموجهين، «والمصلحين» تقف حائلاً بين المستغل والسلطة الحاكمة. أما فى المناطق المستعمَرة فإن الدركى والشرطى، بحضورهما المباشر وتدخلاتهما السريعة الكثيرة، يظلان على اتصال بالمستعمَر وينصحانه بالعصا أو بالمواد المحرقة، أن لا يتحرك. وهكذا ترون أن وسيط السلطة الحاكمة يستعمل هنا لغة هى عنف صرف. إن الوسيط لا يخفف هنا الاضطهاد، ولا يسدل على السيطرة حجابًا. . إنه يعرضهما، وإنه يظهرهما. إن الوسيط يحمل العنف هنا إلى بيوت المستعمَر وإلى أدمغته.

والمنطقة التى يسكنها المستعمَرون لا تكمل المنطقة التى يسكنها المستعمرون. إن هاتين المنطقتين تتعارضان، ولكن لا فى سبيل وحدة أعلى. إنهما تخضعانَ لمنطق أرسطى صرف، إنهما تخضعان لمبدأ التنافى المتبادل، فلا سبيل إلى مصالحة: إن أحد الطرفين زائد يجب أن يزول. إن مدينة المستعمِر (المستوطن) مدينة صلبة مبنية بالحجر والحديد، مدينة

أنوارها ساطعة، وشوارعها معبدة بالأسفلت، وصناديق القمامة فيها ما تنفك تبلع نفايات ما عرفها الآخرون، ولا رأوها يومًا، ولا حلموا بها يومًا. والمستعمر لا تُرى قدماه عاريتين قط، اللهم إلا على شواطىء البحر، ولكن الآخرين لا يمكن أن يقتربوا منهما اقترابًا كافيًا. قدمان تحميهما أحذية متينة، مع أن شوارع مدينتهما نظيفة، ملساء، لا ثقوب فيها ولا حصى.

أما مدينة المستعمَر، أو مدينة السكان الأصليين، أما القرية الزنجية، أما بلدة الأهالى، أما الحى الذى يحظر على الأوروبيين أن يتجولوا فيه، فهو مكان سيىء السمعة يسكنه أناس سيئو السمعة. فيه يولد المرء أين كان، وكيف كان. وفيه يموت المرء أين كان، وبأى شىء كان. هو عالم بلا فواصل، الناس يتكدسون فيه بعضهم فوق بعض، والأكواخ تتكدس فيه بعضها فوق بعض. إن مدينة المستعمَر مدينة جائعة، جائعة إلى الخبز، وإلى اللحم، وإلى الأحذية، وإلى الفحم، وإلى النور. مدينة المستعمَر مدينة جاثية، مدينة راكعة، مدينة متدحرجة فى الوحل. إنها مدينة زنوج، مدينة عرب. والنظرة التى يلقيها المستعمَر على مدينة المستعمر هى نظرة شهوة، هى نظرة حسد. إن المستعمَر يحلم بالتملك، بجميع أنواع التملك: أن يأكل على المائدة التى يأكل عليها المستعمر، أن ينام فى الفراش الذى ينام فيه المستعمر، وربما مع امرأة المستعمر أيضًا. إن المستعمَر حسود. والمستعمر لا يجهل هذا، فهو حين يلحظ نظرة المستعمَر خلسة، يقول فى مرارة: «إنهم يريدون أن يحتلوا مكاننا». هذا صحيح: ما من مستعمَر إلا ويحلم مرة فى اليوم على الأقل، أن يأخذ مكان المستعمِر.

هذا العالم المقسم، هذا العالم المقسم قسمين، يسكنه نوعان مختلفان، والطابع الخاص الذى يطبع النظام الاستعمارى، هو أن الوقائع الاقتصادية، هو أن الفروق الاقتصادية والتفاوت الكبير فى طرز المعيشة، لا تستطيع أبدًا أن تحجب الوقائع الإنسانية. حين ندرك النظام الاستعمارى فى واقعة المباشر، نلاحظ أن ما يقسم العالم إنما هو أولاً انتساب المرء أو عدم انتسابه إلى نوع معين، إلى عرق معين. إن البنيان التحتى الاقتصادى هو فى المستعمرات بنيان فوقى أيضًا. السبب هنا نتيجة: المرء غنى لأنه أبيض، وأبيض لأنه غنى. لذلك كان على التحليلات الماركسية أن تخفف من حدتها قليلاً حين تعالج مشكلة

المستعمرات. وحتى مفهوم المجتمع السابق على الرأسمالية، الذى أجاد ماركس دراسته، يتطلب هنا إعادة التفكير فيه. إن ماهية العبد غير ماهية الفارس، ولكن لابد من الاستناد إلى الحق الإلهى لإضفاء صفة الشرعية على هذا الفرق القائم. إن الأجنى فى المستعمرات، قد جاء من مكان آخر، وفرض نفسه بمدافعة وآلاته. فالمستعمر يظل أجنبيًا رغم نجاحه فى التطويع ورغم التملك الذى حققه لنفسه. إن ما يميز «الطبقة الحاكمة» أولاً وقبل كل شيء ليس هو المصانع ولا الأملاك ولا الرصيد فى البنك، فإنما النوع الحاكم هو أولاً وقبل كل شيء، النوع الذى جاء من مكان آخر، النوع الذى لا يشبه السكان الأصليين، هو نوع «الآخرين».

والعنف الذى سيطر على ترتيب العالم الاستعمارى، والذى عمل بلا كلال على تحطيم صور الحياة الاجتماعية لدى السكان الأصلين، وخرب بلا قيود طرز الاقتصاد، وأشكال المظهر، والملبس، سيطالب به المستعمَر وسيتولاه، فى اللحظة التى يقرر فيها أن يكون هو التاريخَ أعمالاً، فإذا الجمهور المستعمَر يهوي على هذه المدن الممنوعة عنه. إن تحطيم العالم الاستعمارى هو بعد الآن صورة واضحة المعالم بينة السمات للعمل الذى يجب على المستعمَر أن يقوم به، صورة يفهمها كل الفهم كل فرد من الأفراد الذين يتألف منهم الشعب المستعمَر، ويستطيع أن يستعيدها ثم يستعيدها مرة بعد مرة. وتحطيم العالم الاستعمارى لا يعنى أنه سيحافظ على ممرات بين المنطقتين، بعد إزالة الحدود التى تفصل إحداهما عن الأخرى. إن تحطيم العالم الاستعمارى لا يعنى إلا شيئًا واحدًا هو إزالة إحدى هاتين المنطقتين، فإما دفنها فى أعمق أعماق الأرض، وإما طردها من البلاد.

وتغيير المستعمَر للعالم الاستعمارى ليس معركة عقلية بين وجهتى نظر، ليس خطابًا فى المساواة بين البشر، وإنما هو تأكيد عنيف لأصالة تُفرض مطلقة. إن العالم الاستعمارى عالم ثنائى. والمستعمر لا يكتفى بأن يحد مجال المستعمَر، باستعمال القوة المادية، أى بواسطة شرطته ودركه، وإنما هو يجعل من المستعمَر روح الشر وخلاصته، كأنه يدل بذلك على أن الاستغلال الاستعمارى كلى شامل(١). إنهم لا يكتفون بأن يصفوا المجتمع المستعمَر بأنه خال من القيم. إن المستعمر لا يكتفى بالقول إن القيم قد نزحت عن المجتمع المستعمَر، أو إنها لم توجد فيه يومًا. وإنما هو يعلن أن السكان الأصليين لا سبيل لنفاذ

(١) قد أوضحنا فى بحثنا «جلد أسود وأقنعة بيضاء» آلية هذا العالم الثنائى.

الأخلاق إلى أنفسهم، وإن القيم لا وجود لها عندهم، بل إنهم إنكار للقيم، أو قل إنهم أعداء للقيم. فالمستعمَر بهذا المعنى هو الشر المطلق. إنه عنصر متلف يحطم كل ما يقابله، عنصر مخرب يشوه كل ما له صله بالجمال أو الأخلاق، إنه مستودع قوى شيطانية، إنه أداة لقوى عمياء، أداة لا وعى لها ولا سبيل إلى إصلاحها.

وهذا مسيو ماير يقول جاداً فى «الجمعية الوطنية الفرنسية»: إن علينا أن لا نلوث الجمهورية بإدخال الشعب الجزائرى إليها. ذلك أن القيم تتسمم وتفسد على نحو لا يمكن إصلاحه متى جعلناها تحتك بالشعب المستعمَر. إن عادات المستعمَر وتقاليده، وخرافاته، خاصة خرافاته، هى بعينها علامة هذا الانحطاط وهذا الفساد القائم فى تكوينه ذاته. ولذلك يجب أن نضع على مستوى واحد مبيدات الحشرات التى تنقل الأمراض، والديانة المسيحية التى تحارب الهرطقات والغرائز والشر فى مهدها. إن التقدم فى القضاء على الحمى الصفراء والتقدم فى نشر دين الإنجيل أمران متشابهان. ولكن البلاغات المظفرة التى تنشرها الإرساليات التبشيرية تدلنا على أن خمائر الضياع المنبثقة فى جسم الشعب المستعمر هى على جانب كبير من القوة. وحديثى هنا عن الديانة المسيحية، ولا حق لأحد أن يدهش من ذلك. إن الكنيسة هى فى المستعمرات كنيسة بيض، كنيسة أجانب. إنها لا تدعو الإنسان المستعمَر إلى طريق الله، وإنما تدعوه إلى طريق الإنسان الأبيض، إلى طريق السيد المتسلط، إلى طريق المضطهد الغاشم. وأنتم تعلمون أن فى تاريخ البعثات التبشيرية هذا كثيراً من المكلفين وقليلاً من المختارين.

وتمضى هذه الثنائية أحيانًا إلى أقصى منطقها، فتجرد المستعمَر من إنسانيته، حتى لتعده حيوانًا. انظر إلى اللغة التى يتكلمها المستعمر حين يتكلم عن المستعمَر، تجد أنها اللغة المستعملة فى وصف الحيوانات: إنهم يستعملون هذه التعابير: زحف العرق الأصفر، أرواث المدينة الأصلية، قطعان الأهالى، تفريخ السكان، تنمُّل الجماهير، الخ. إن المستعمر حين يريد أن يحسن الوصف وأن يجد الكلمة المناسبة، يرجع دائمًا إلى الألفاظ المستعملة فى وصف الحيوان. والأوروبى قلما يلبث على هذه الألفاظ المشتملة على استعارات. ولكن المستعمَر الذى يدرك غرض المستعمِر، يعرف فوراً ما انصرف إليه ذهن صاحبه. وهذا بعض ما يجرى على لسان المستعمِر من مصطلحات: هؤلاء السكان الذين

يدبون على الأرض، هذه الجماهير المهسترة، هذه الوجوه التى فر منها كل معنى إنسانى، هذه الأجسام المترهلة التى لا تشبه شيئًا من الأشياء، هذا القطيع الذى لا رأس له ولا ذنب، هؤلاء الأطفال الذين لا يبدو أن لهم أهلاً، هذا الكسل المستلقى تحت الشمس، هذه الحياة التى تشبه حياة النباتات الخ . . ولقد تكلم دوجول عن «الجموع الصفراء»، وتكلم مسيو موررياك عن الكتل السوداء والسمراء والصفراء التى تهم أن تندفع أمواجها. إن المستعمَر يعرف هذا كله، ويضحك كلما اكتشف نفسه حيوانًا فى أقوال الآخر. ذلك أنه يعرف أنه ليس بحيوان. وهو فى الوقت الذى يدرك فيه أنه إنسان، يأخذ يشحذ أسلحته ليحقق انتصار إنسانيته.

ومتى أخذ المستعمَر يرسخ أقدامه على قواعدها، ويقلق المستعمر، أوفدوا إليه رجالاً أخياراً يحدثونه فى «مؤتمرات الثقافة» عن خصائص القيم الغربية وعَن غناها. ولكن كلما دار الحديث على القيم الغربية حدث لدى المستعمَر نوع من التصلب والتشنج العضلى. إنهم فى فترة التحرر من الاستعمار يناشدون عقل المستعمَرين، ويعرضون عليهم قيمًا أكيدة، ويشرحون لهم فى كثير من الإفاضة أن التحرر من الاستعمار يجب أن لا يعنى التقهقر إلى وراء، وأن عليهم أن يعتمدوا على قيم مجربة وطيدة راسخة. غير أن ما يحدث هو أن المستعمَر حين يسمع خطابًا عن الثقافة الغربية، يخرج خنجره أو يتلمسه فى مكانه ليتأكد من وجوده. ذلك أن العنف الذى كفل تفوق قيم البيض، وأن العدوان الذى لابس المعركة الظافرة التى خاضتها هذه القيم من أنماط الحياة والفكر الخاصة بالمستعمرين، يجعلان المستعمَر يسخر حين يتحدث أحد أمامه عن هذه القيم. إن المستعمر لا يتوقف أثناء فترة الاستعمار عن عمله فى إنهاك المستعمَر وتحطيمه، إلا إذا اعترف لَه هذا بتفوق قيم البيض اعترافًا صريحًا واضحًا. وفى فترة التخلص من الاستعمار تسخر الجماهير المستعمَرة من هذه القيم ذاتها، بل تهينها وتبصقها بصقًا.

وهذه الظاهرة تكون فى العادة مقنعة، ذلك أن بعض المثقفين قد قاموا، أثناء فترة الاستعمار، بحوار مع بورجوازية البلاد الاستعمارية. لقد كان الاستعماريون لا يرون أهل البلاد المستعمرة إلا كتلة غير متميزة. والشخصيات القليلة التى أتيح للبورجوازين الاستعماريين أن يعرفوها من أهل البلاد لم تؤثر تأثيرًا كافيًا فى تلك النظرة المباشرة

لتحملهم على تعديلها. أما فى فترة التحرر من الاستعمار فإن البورجوازية الاستعمارية تسعى فى كثير من الحماسة المحمومة إلى عقد صلات بالنخبة المثقفة. ومع تلك النخبة المثقفة إنما شرعوا فى ذلك الحوار حول القيم. إن البورجوازية الاستعمارية، حين تدرك عجزها عن الاستمرار فى السيطرة على البلاد المستعمَرة، تقرر أن تخوض معركة خلفية، فى ميدان الثقافة، والقيم، والتكنيك، وما إلى ذلك. ولكن الأمر الذى يجب أن لا يغيب عن البال هو أن السواد الأعظم من الشعوب المستعمَرة لا يمكن أن تنفذ إليه هذه المشكلات. فالقيمة الأساسية عند الشعب المستعمَر، إنما هى الأرض، لأنها هى القيمة المحسوسة الملموسة، الأرض التى تكفل الخبز، والتى تكفل الكرامة طبعًا، ولكن الكرامة التى تكفلها لا شأن لها بكرامة «الشخصية الإنسانية» التى يتحدث عنها الاستعماريون. إن الشعب المستعمَر لم يسمع يومًا بهذه الشخصية الإنسانية الخيالية. وما رآه على أرضه بأم عينه هو أنه يُعتقل لغير ذنب جناه، وأنه يضرب وأنه يجوَّع. وأنه لم ير فى يوم من الأيام أستاذًا من أساتذة الأخلاق، ولا رجلاً من رجال الدين المسيحى، يأتى ليتلقى عنه اللطمات، أو ليعطيه قسمًا من خبزه. الأخلاقية عند المستعمَر هى أن يتخلص من غطرسة المستعمِر، هى أن يحطم عنقه الشامخ، أى أن يطرده من الميدان طردًا كاملاً. إن المبدأ القائل بأَن البشر جميعًا متساوون سيتحقق فى المستعمرات متى اعتبر المستعمَر أنه ند المستعمِر، ومتى خطا خطوة أخرى فقرر أن يقاتل فى سبيل أن يكون أكثر من المستعمِر. وها هو ذا قرر أن يحل محل المستعمِر، أن يأخذ مكانه. وبذلك ترون عالمًا برمته ينهار، عالمًا ماديًا ومعنويًا. إن المثقف الذى تبَع الاستعمارى على مستوى العموميات المجردة يريد أن يعيش المستعمِر والمستعمَر فى سلام فى عالم جديد، ولكن الأمر الذى يعمى عنه، لأن الروح الاستعمارية قد تغلغلت فيه مع طرائقها فى التفكير، هو أن المستعمِر لن يهمه البقاء ولا التعايش السلمى متى زال الوضع الاستعمارى. ليس صدفة أن الأقليَة الأوروبية التى تسمى «ليبرالية»، قد أعلنت رأيها حتى قبل أن تبدأ المفاوضات بين الحكومة الجزائرية والحكومة الفرنسية، فقالت إنها تطالب بأن تكون لها جنسيتان. إنك حين تنظر إلى الأمور على المستوى المجرد تفرض على المستعمِر المستوطن أن يثب فى المجهول وثبة محسوسة، ويجب أن نعترف بأن المستعمِر المستوطن يعلم حق العلم بأنه ما من أقوال طنانة رنانة يمكن أن تقوم مقام الواقع.

يكتشف المستعمَر إذن أن حياته وتنفسه وخفقات قلبه لا تختلف عن حياة المستعمر وعن تنفسه وعن ضربات قلبه. ويكتشف أن جلد المستعمر ليس خيراً من جلد رجل من السكان الأصليين. ويحدث هذا الاكتشاف هزة أساسية فى العالم. إن كل ما يحس به المستعمَر من ثقة جديدة ثورية إنما ينبع من هذا: إذا كان لحياتى من القيمة مثل ما لحياة المستعمر، فلن تخيفنى بعد الآن نظرته، لن تسمرنى فى مكانى. لن يجمدنى صوته. لن أضطربَ أمامه. لن أعبأ به. لن يربكنى وجوده، بل إننى منذ الآن أعد له من الكمائن ما يجعله فى القريب لا يجد لنفسه مخرجًا غير الهرب.

قلنا إن الوضع الاستعمارى يتميز بأنه يفرض على العالم انقسامًا ثنائيًا. والتحرر من الاستعمار يوحِّد هذا العالم، إذ يخلصه من فقدان التجانس بقرار جذرى، يوحِّده على أساس الأمة، وعلى أساس العرق أحيانًا. إنكم تعرفون تلك الكلمة القوية التى قالها الوطنيون السنغاليون مشيرين إلى مناورات رئيسهم سنغور: «لقد طلبنا أن تصبح الوظائف للأفريقيين، وها هوذا سنغور يجعل الأوروبيين أفريقيين». معنى هذا أن المستعمَر قادر على أن يدرك إدراكًا مباشراً مطلقًا هل تحقق التخلص من الاستعمار أم لا: فالحد الأدنى المطلوب هو أن يصبح الأواخر هم الأوائل.

ولكن المثقف المستعمَر يُدخل على هذا المطلب بعض التعديلات ولا يعوزه أن يخترع لهذه التعديلات ما يسوغها ويبررها، فتكلم عن الاستعانة بموظفين إداريين، وبموظفين فنيين، وبأخصائيين. غير أن المستعمَر يدرك أن هذه التذرعات إن هى إلا مناورات تخريبية، وليس نادراً أن تسمع من يقول هنا وهناك: «ما فائدة الاستقلال إذن؟».

فى المناطق المستعمرة التى شب فيها نضال حقيقى من أجل التحرر من الاستعمار، فى المناطق التى سال فيها دم الشعب، فى المناطق التى أتاح فيها طول المرحلة المسلحة للمثقفين أن يعودوا إلى القواعد الشعبية، نشاهد استئصالاً حقيقيًا للأفكار التى استمدها هؤلاء المثقفون من الأوساط البورجوازية الاستعمارية. إن البورجوازية الاستعمارية قد استطاعت فى حوارها النرجسى مع نفسها، وبواسطة رجالها الجامعيين، أن تغرس فى أعماق فكر المستعمَر أن الماهيات تبقى خالدة رغم جميع الأخطاء التى تنسب إلى البشر، وهم يعنون الماهيات الغربية طبعًا. وكان المستعمَر يسلم بهذه الأفكار فكأن حارسًا يقظًا

مكلفًا بالدفاع عن الثقافة الإغريقية اللاتينية أصبح يقف فى ثنية من ثنايا عقله . أما أثناء الكفاح من أجل التحرر ، فى اللحظة التى يسترد فيها المستعمَر اتصاله بشعبه ، فإن هذا الحارس المصطنع يتهشم . فإذا جميع القيم التى تسمى قيم البحر الأبيض المتوسط التى تنادى بانتصار الشخصية الإنسانية ، وتدعو إلى الوضوح والجمال ، تصبح دُمى لا حياة فيها ولا لون لها ، وإذا جميع تلك الخطب تبدو تركيبات ألفاظ ميتة . إن هذه القيم التى كان يلوح أنها تسمو بالنفس يتضح الآن أنها لا فائدة منها ولا جدوى فيها لأنها لا تتصل اتصالاً مباشرًا بالمعركة المحسوسة التى يخوضها الشعب .

والفردية تأتى فى طليعة هذه القيم . لقد أخذ المثقف المستعمَر عن أساتذته أن على الفرد أن يؤكد ذاته . لقد غرست البورجوازية الاستعمارية فى ذهن المستعمَر أن المجتمع مؤلف من أفراد لكل منهم ذاتيته الخاصة ، وأن الغنى إنما هو غنى الفكر . غير أن المستعمَر الذى يتاح له أن يغوص فى شعبه أثناء فترة الكفاح من أجل التحرير يدرك فساد هذه النظرية ، بل إن أشكال تنظيم الكفاح ستزوِّده بلغة جديدة . إن كلمات الأخ والأخت والرفيق كلمات نبذتها البورجوازية الاستعمارية ، فالأخ عندها هو محفظة النقود ، والرفيق عندها هو الصفقة الرابحة . وهكذا يشهد المثقف المستعمَر فناء جميع أصنامه احتراقًا بالنار : الأنانية والانتقاد المتكبر ، والغباء الغر الذى يحمل صاحبه على أن يريد أن يكون له القول الفصل . وسيكتشف هذا المثقف المستعمَر الذى خرَّبته الثقافة الاستعمارية ، سيكتشف أيضًا أن للمجالس التى تشكل فى القرى قوة كبيرة ، وأن للجان التى تتألف من أفراد الشعب متانة هائلة ، وأن للاجتماعات التى تعقد للحىّ أو للخلية خصوبة ما بعدها خصوبة . فقضية كل فرد من الأفراد لن تكون عندئذ إلا قضية جميع الأفراد ، لأنهم إما أن يكتشفهم جنود الاستعمار جميعًا ، فيقتلوهم جميعًا ، وإما أن ينجوا جميعًا . إن «نجاة الفرد بنفسه» ، وهى شكل كافر من أشكال السلامة ، هى فى هذا الميدان أمر مرفوض .

ويكثر الناس منذ زمن من الحديث عن النقد الذاتى ، فهل عرفوا أولاً أن هذا نظام أفريقى؟ إن التقاليد ، سواء فى اجتماعات «الجماعة» بأفريقيا الشمالية أو فى الاجتماعات التى تعقد بأفريقيا الغربية ، توجب أن تفض النزاعات التى تقوم فى قرية من القرى ، على رؤوس الأشهاد . وهذا نقد ذاتى جماعى طبعًا ، ولكن على شىء من المرح ، لأن جميع

الناس يكونون بعيدين عن التوتر، ولأنهم يريدون فى آخر الأمر أشياء واحدة. إن المثقف ليهجر الحساب والسكوت الصلف، والأفكار المخبأة، والآراء المتخفية، والسر، إن المثقف ليهجر هذا كله كلما غاص فى الشعب. ومن الحق أن نقول إن الجماعة تنفر من ذلك نفسه، فتخلق ضوءها الخاص وتفكيرها الخاص.

ولكن يحدث أن تتم تصفية الاستعمار فى مناطق لم يهزها الكفاح التحريرى هزًا كافيًا، فإذا نحن نصادف هؤلاء المثقفين أنفسهم الذين يتصفون بالبراعة والمكر والحذق فى تحقيق أغراضهم الشخصية، وإذا نحن نجد فيهم عين أنماط السلوك وأشكال التفكير التى التقطوها من معاشرتهم للبورجوازية الاستعمارية؛ لقد كانوا للاستعمار أبناءه المدللين، وهم الآن للسلطة أبناؤها المدللون أيضًا، ينهبون الموارد الوطنية نهبًا، ويندفعون إلى الإثراء بالصفقات والسرقات المشروعة اندفاعًا لا يعرف الرحمة، عن طريق الاستيراد والتصدير، والشركات المغفلة، ومضاربات البورصة، والرشوة، على أكتاف البؤس الذى أصبح الآن وطنيًا. إنهم يطالبون فى إلحاح أن تكون الأعمال التجارية فى أيدى أبناء الأمة وحدهم، أى أن تُحصر الأسواق والفرص المؤاتية فى أبناء الأمة وحدهم. ومعنى ذلك عندهم أن تُحصر سرقة الأمة فى أبناء الأمة. ولا شك أن نجاح أساليبهم الماكرة سرعان ما يثير غضب الشعب وعنفه، أثناء فترة القحط الوطنى هذه، أثناء ما يسمى بفترة التقشف. ذلك أن هذا الشعب البائس الذى نال استقلاله فى الظروف الأفريقية والدولية الراهنة، يسير نحو الوعى الاجتماعى بخطى حثيثة. ولن تلبث النفوس الصغيرة أن تدرك هذه الحقيقة فى وقت قريب.

لقد كان على المستعمَر، من أجل أن يستطيع هضم ثقافة مضطهديه، وأن يغامر فى رحابها، كان عليه أن يقدم ضمانات. ومن بين هذه الضمانات تبنى أشكال التفكير الخاصة بالبورجوازية الاستعمارية. نلاحظ هذا فى عجز المثقف المستعمَر عن المحاورة، لأنه لا يستطيع أن يتجرد عن ماهيته إزاء الموضوع أو الفكرة. أما حين يناضل فى صفوف الشعب فإنه لا ينفك ينتقل من دهشة إلى دهشة. إن ما يراه من صدق الشعب وشرفه يسقط فى يده. والخطر الذى يتربص به عندئذ إنما هو الانسياق الكامل، فإذا هو لا يزيد على أن يثنى على كل جملة يقولها الشعب، وإذا كل جملة يقولها الشعب تصير فى نفسه إلى حكمة لا يأتيها الباطل. على أن الفلاح المتعطل والجائع لا يدَّعون الحقيقة. إنهم لا يزعمون أنهم الحقيقة، لأنهم الحقيقة فى وجودهم ذاته.

إن المثقف يتصرف فى هذه الفترة تصرف رجل انتهازى رخيص. والحق أن مناوراته لم تنقطع لحظة. والشعب لا يريد أن يبعده أو أن يحرجه. فما يريده الشعب هو أن يكون كل شيء مشتركًا. ووجود ذلك الميل الغريب إلى التفاصيل لدى المثقف هو الذى سيؤجل انغماس المثقف فى الموجة الشعبية العارمة. لا لأن الشعب عاجز عن التحليل. فهو يحب أن تشرح له الأمور، هو يحب أن يفهم مفاصل استدلال من الاستدلالات، يجب أن يرى إلى أين هو ذاهب. ولكن المثقف المستعمر، فى أول اتصاله بالشعب، يركز اهتمامه على التفاصيل الدقيقة، ويصل من ذلك إلى نسيان هدف الكفاح نفسه، ألا وهو إلحاق الهزيمة بالاستعمار. إنه وقد جرفته حركة الكفاح المتعددة الأشكال، يميل إلى التركيز على مهمات محلية يتابعها فى حماسة، ولكنه يسرف فى تقدير عظمتها. إنه لا يرى الكل فى كل وقت. إنه يجيء بفكرة الفروع والاختصاصات والميادين، فيريد أن يطبقها على هذه الآلة الجبارة التى تخلط وتدمج، أعنى الثورة الشعبية. إنه وقد انخرط فى القيام بأعمال معينة فى الجبهة، يتفق له أن ينسى وحدة الحركة، حتى إذا وقع إخفاق محلى ما، رأيته يستسلم للشك، بل ولليأس أيضًا. ولا كذلك الشعب، فإنه يتخذ منذ البداية مواقف إجمالية. الأرض والخبز: ماذا يجب علينا أن نعمل حتى نحصل على الأرض والخبز؟ وهذه النظرة العنيدة التى ينظرها الشعب، هذه النظرة التى تبدو فى الظاهر محدودة ضيقة، هى فى حقيقة الأمر، مثال النظرة التى تغنى العمل وترفده بالقوة وتكفل له النجع.

وهناك مسألة أخرى يجب أن نقف عندها أيضًا، هى مسألة الحقيقة. إن الشعب يرى، فى جميع الأزمان، أن عليه أن لا يقول الحقيقة إلا لأهل وطنه. وما من حقيقة مطلقة ولا من خطاب عن النفس الصادقة الشفافة يمكن أن يضعضع موقفه هذا. إن المستعمَر يرد على كذب الاستعمار بكذب مماثل. إن سلوكه صريح مع أهل وطنه، منكمش غامض مع المستعمرين. الحق عنده هو ما يعجل انهيار النظام الاستعماري، هو ما يسهل بزوغ الأمة. فى الوضع الاستعمارى ليس هناك سلوك يلتزم قول الحقيقة. وليس الخير أيضًا إلا ما يلحق ضررًا بالمستعمرين.

وهكذا نرى الانقسام الثنائى الأول الذى كان يسود مجتمع المستعمرات يظل قائمًا فى فترة التحرر من الاستعمار. ذلك أن المستعمِر لا يكف أبدًا عن أن يكون هو العدو، هو

الخصم، هو الإنسان الذى يجب القضاء عليه. إن المضطهد يخلق فى منطقته حركة، هى حركة السيطرة والاستغلال والنهب.

وفى المنطقة الأخرى، يغذى المستعمَر المنهوب هذه الحركة على قدر ما يستطيع، يغذى هذه الحركة التى تمضى بغير توقف من شواطىء البلاد إلى قصور «الوطن» ومستودعاته. إن الأرض فى هذه المنطقة المجمدة ساكنة لا تتحرك، وأشجار النخيل تتمايل أمام السحب، وأمواج البحر تتواثب على حصى الشاطىء، والمواد الأولية تذهب وتجىء مسوغة وجود المستعمر، بينما يجثو المستعمَر وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، مسترسلاً فى حلم واحدٍ خالد لا يتغير. إن حياة المستوطن ملحمة أشبه بأويسة. إنه البداية المطلقة: «هذه الأرض، نحن صنعناها». هو السبب الفعال المستمر: «إذا نحن ذهبنا، زال كل شىء، وارتدت هذه الأرض إلى القرون الوسطى». وليس أمامه إلا أشخاص خاملون تهدهم الأمراض و«العادات الموروثة عن الأجداد»، إنهم إطار جامد يشبه أن يكون من معدن، يحف بهذا النشاط المتحرك المتجدد الخلاق الذى يقوم به الاستثمار الاستعمارى.

نعم إن المستوطن يصنع التاريخ ويعرف أنه يصنعه. وهو يستشهد دائمًا بتاريخ وطنه الأم، فيشير إشارة واضحة إلى أنه هنا امتداد لذلك الوطن الأم. ومعنى هذا أن التاريخ الذى يكتبه ليس تاريخ البلد الذى ينهب خيراته بل تاريخ أمته فيما تقوم به من طغيان واغتصاب وتجويع. ولا يمكن أن يبدل المستعمَر هذا الجمود الذى حُكم عليه به إلا إذا قرر أن ينهى تاريخ الاستعمار، تاريخ النهب والسلب، وأن يوجد تاريخ الأمة، تاريخ تصفية الاستعمار.

عالم حواجز، عالم انقسام، عالم جمود، تماثيل: تمثال الجنرال الذى احتل البلاد، تمثال المهندس الذى بنى الجسر، عالم واثق من نفسه، عالم يسحق بصخوره الظهور التى قشّرت جلودها السياط، هذا هو عالم المستعمرات. إن السكان الأصلين فى هذا العالم أناس محجوزون. وليس التمييز العنصرى إلا شكلاً من أشكال هذا الحجز فى العالم الاستعمارى. إن أول شىء يتعلمه السكان الأصليون هو أن يلزموا أماكنهم، وأن لا يتجاوزوا الحدود. لذلك كانت الأحلام التى يحلمها السكان الأصليون أحلامًا عضلية، أحلام فعل، أحلام هجوم وعدوان. أنا أحلم بأننى أثب، بأننى أركض، بأننى أتسلق.

أحلم بأننى أضحك، بأننى أجتاز نهراً بقفزة، بأن طائفة من السيارات تطاردنى ولا تدركنى. إن المستعمَر، أثناء الاستعمار، لا يفتأ يحرر نفسه من الساعة التاسعة مساءً إلى الساعة السادسة صباحًا.

والمستعمَر الذى ترسبت فى عضلاته روح الهجوم والعدوان هذه، إنما يصبها أولاً على ذويه. فهذه هى الفترة التى نرى فيها الزنوج يقضى بعضهم على بعض، ونرى فيها رجال الشرطة والقضاء يذهلون من فرط انتشار الجرائم فى شمال أفريقيا. وسنرى فيما بعد تعليل هذه الظاهرة[1]. ويكفينا الآن أن نقول إن المستعمر يكون إزاء الوضع الاستعمارى فى حالة توتر دائم. إن عالم المستوطن عالم عدو ينبذه نبذًا، ولكنه فى الوقت نفسه عالم يستهوى المستعمَر ويثير فيه الحسد. لقد كان المستعمَر يحلم دائمًا أن يأخذ مكان المستعمر. إنه لا يحلم أن يصبح مستعمرًا، ولكنه يحلم أن يحل محل المستوطن المستعمر. إن هذا العالم المعادى، الثقيل الوطأة، الذى لا يكف عن العدوان، لا يمثل فى نظر المستعمر جحيمًا ينبغى الابتعاد عنه بأقصى سرعة ممكنة، وإنما يمثل جنة قريبة التناول تحميها زبانية رهيبة، فتدفع عنها الجمهور المستعمَر بكل ما أوتيت من قوة غاشمة.

إن المستعمَر يعيش فى خشية دائمة، لأنه لعجزه عن فهم تلك العلامات الكثيرة التى تفصل العالم الاستعمارى عن عالمه، لا يعرف فى لحظة من اللحظات أهو تجاوز الحد المرسوم أم لا. إن المستعمَر فى هذا العالم الذى رتبه الاستعماى، مذنب دائمًا. وهذا الذنب ليس ذنبًا مقترفًا، وإنما هو نوع من اللعنة. ولكن المستعمَر لا يعترف فى قرارة نفسه بأى حكم يصدرونه فى حقه. لقد سيطروا عليه، ولكنهم لم يطوعوه. لقد عدوه متخلفًا عنهم، ولكنه غير مقتنع بأنه دونهم. إنه ينتظر بفارغ صبر أن يغفل المستعمر قليلاً حتى ينقض عليه. لا يمكن أن نقول عن المستعمَر إنه قلق أو خائف. فهو فى عضلاته مترقب دائمًا. إنه يتوقع فى كل لحظة أن يترك دور الطريدة ليمثل دور الصياد. إن المستعمَر شخص مضطهد يحلم دائمًا أن يصبح مضطهدًا. وهذه الرموز الاجتماعية: رجال الدرك والأبواق التى تلعلع أصواتها فى الثكنات، والاستعراضات العسكرية والعلم المرفرف فى الفضاء، هذه الرموز الاجتماعية التى تكبت وتحرض فى آن واحد، لا تعنى عنده: «لا تتحرك»، بل

(١) الفصل الخامس من هذا الكتاب (الحروب الاستعمارية والاضطرابات العقلية).

تعني: «هيىء ضربتك تهيئة جيدة». فإذا مال المستعمَر إلى أن ينام وأن ينسى، فإن غطرسة المستعمر وحرصه على تجريب قوة النظام الاستعماري يذكرانه دائمًا بأن المعركة الكبرى لا يمكن تأجيلها إلى غير نهاية. وهذا الاندفاع إلى احتلال مكان المستعمر يغذى فيه توترًا عضليًا في كل لحظة. ونحن نعلم أن وجود الحاجز في ظروف انفعالية نفسية يقوى الميل إلى الحركة.

إن العلاقات بين المستعمر والمستعمَر هي علاقات جماعة بجماعة. والمستعمر يقاوم كثرة العدد بكثرة القوة. إن المستعمر إنسان مصاب بداء الميل إلى العرض. واهتمامه بسلامته يحمله على أن يذكّر المستعمَر جهارًا بأنه هو السيد: «أنا هنا السيد». فيثير في المستعمَر غضبًا يكبحه هذا حين يهم أن يخرج. إن المستعمَر موثق بالأغلال القوية التي أحكم الاستعمار إطباق حلقاتها عليه. ولكننا رأينا أن المستعمر لا يحصل إلا على تجميد ظاهري، أما في الداخل فيظل الرجل في حالة غليان. وهذا التوتر العضلي ينطلق من حين إلى حين انفجارات دامية: معارك قبلية ونزاعات بين أفراد.

فعلى مستوى الأفراد نشهد أمورًا تخالف المنطق حقًا: فبينما نرى المستعمر أو الشرطي يستطيعان من أول النهار إلى آخره أن يضربا المستعمَر وأن يهيناه وأن يركعاه، نجد المستعمَر يشهر سكينة عند أيسر نظرة عدائية أو هجومية يلقيها عليه مستعمَر آخر، لأن آخر ما بقي للمستعمَر هو أن يدافع عن شخصيته تجاه مواطنه. ولما كانت الصراعات القبلية استمرارًا لأحقاد قديمة مغروسة في «الذاكرة، فإن المستعمَر حين يخوض معارك الثأر بكل ما أوتي من قوة، إنما يحاول أن يقنع نفسه بأن الاستعمار لا وجود له، وأن جميع الأمور تجرى كما كانت تجرى في الماضي، وأن التاريخ يستمر. ومن الواضح كل الوضوح أن هذا السلوك هو على مستوى الجماعات، نوع من ذلك «السلوك الهروبي» المعروف؛ كأن هذا الانغماس في دم الإخوة يمكن أن يعمى عن رؤية العدو الحقيقي، وأن يؤجل خوض المعركة التي لابد من خوضها، ألا وهي المعركة المسلحة ضد الاستعمار. إن المعارك التي تقوم بين القبائل إنما هي تدمير للذات، وهذا التدمير هو إحدى الطرق التي بها يتحرر المستعمَر من توتر عضلاته. وهذا السلوك كله إنما هو انتحار تجاه الخطر، انتحار يسمح للمستعمر الذي تقوى بذلك حياته وتشتد سيطرته، أن يقول بهذه المناسبة نفسها إن هؤلاء

الناس ليسوا عقلاء. وهناك وسيلة أخرى يعمد إليها المستعمَر من أجل أن لا يعبأ بالمستعمِر، وهى الدين. فبواسطة الإيمان بالقدر يُجرد المضطهد من المسئولية، باعتبار أن الله علة كل شىء، فهو الذى أراد هذه الآلام وهذا البؤس، وهو الذى رسم هذا المصير، فعلى الفرد أن يقبل هذا الفناء الذى أراده الله، وهكذا يخضع للمستعمِر مذعنًا للقضاء والقدر، ويصل من ذلك بنوع من تحقيق التوازن الداخلى، إلى هدوء كهدوء الصخر.

وتجرى الحياة فى أثناء ذلك. ومن الخرافات المرعبة، الكثيرة فى المجتمعات المتخلفة، إنما يمضى المستعمَر يستمد أسبابًا تمنع روح الهجوم عنده من الانطلاق، فهو يتصور وجود جن شريرة تتربص به كلما حاول أن يتحرك، ويتصور وجود بشر أسُود، وبشر أفاعٍ، وكلاب لها ست أرجل، وغيلان، وعدد لا نهاية له من الكائنات الصغيرة أو العملاقة، تبنى من حوله محرمات وسدودًا وموانع أرهب من العالم الاستعمارى نفسه. إن هذه الاعتقادات السحرية التى يعج بها مجتمع السكان الأصليين تحقق فى الحياة الجنسية وظائف معينة. فمن خصائص المجتمعات المتخلفة أن الغريزة الجنسية فيها أمر جماعى، عائلى. لقد وصف علماء الأجناس أوضح وصف تلك الظاهرة التى أصبحت الآن معروفة، وهى أن الرجل، فى بعض المجتمعات، حين يرى فى المنام أنه ضاجع امرأة غير امرأته، يجب أن يعلن ذلك للناس، وأن يدفع للزوج المجنى عليه أو للأسرة المجنى عليها غرامة من هذا النوع أو أن يعمل لهما عدة أيام (وهذا دليل على أن المجتمعات التى توصف بأنها سابقة على التاريخ تقيم للاشعور وزنًا كبيرًا).

إن هذا الجو الخرافى السحرى الذى يخيف الفرد يتصرف تصرف واقع لا سبيل إلى الشك فيه، وهو إذ يبث الرعب فى الفرد، يدخل هذا الفرد فى تقاليد بلده أو قبيلته، يدخله فى تاريخهما، وهو فى الوقت نفسه يطمئنه، يعطيه حقوقًا ويمنحه هوية. إن عالم الأسرار فى البلدان المتخلفة هو عالم جماعى لا شأن له بغير السحر. إنه إذ يقيدنى بتلك الأغلال الوثيقة، ويجعلنى أكرر أعمالاً بعينها على ثبات جامد، إنما يؤكد لى استمرار عالم هو عالمى، هو عالمنا. صدقونى إذا قلت لكم إن أشباح الغيلان مرغبة أكثر من المستعمرين. ولا تكون مشكلة المستعمَر عندئذ أن يصفى أمره مع العالم الاستعمارى المصفح بالحَديد، وإنما تكون مشكلته أن يفكر ثلاث مرات قبل أن يبول أو يبصق أو يخرج فى الليل.

إن القوى الغيبية السحرية تبدو له قوى جبارة، وبذلك تصغر قوى المستعمر فى نظره كثيراً، وتخرج من نطاق اهتمامه، ولا يكون عليه بعد ذلك أن يكافحها، لأن أعداءه الخرافيين هم الذين يرهبونه قبل كل شىء. وهكذا تنحل الأمور كلها فى معارك دائمة على مستوى الوهم والخيال.

ولكن حين يجىء كفاح التحرير، فإن هذا الشعب الذى كان قبل ذلك مقسمًا إلى طوائف وهمية، هذا الشعب الذى كان فريسة رعب هائل لا يغلب، وكان مع ذلك سعيداً بضياعه فى زوبعة الأوهام، يتبدل أثناء كفاح التحرير، وينظم نفسه تنظيمًا جديدًا، ويخلق فى وسط الدم والدموع مهمات واقعية جدًا، مباشرة جدًا. فتقديم الطعام للمجاهدين، والقيام بأعمال الحراسة والمراقبة، ومساعدة الأسر المحرومة مما يقيم الأود، والنهوض بأعباء زوج قُتل أو سجن، تلك مهمات محسوسة ملموسة يُدعى إليها الشعب أثناء كفاح التحرير.

والحياة الانفعالية لدى المستعمَر فى العالم الاستعمارى تجرى على السطح كجرح نازف، والنفس تنقبض وتتفصد، وتُفرغ شحناتها مظاهر عضلية جعلت بعض «كبار العلماء» يقولون عن المستعمَر إنه إنسان مصاب بالهستريا. إن هذه الانفعالية المتوفرة التى يراقبها حرس لا يُرون، ولكنها تتصل بنواة الشخصية رأسًا، لابد أن تجد لذتها فى تلك الانحلالات الحركية التى تلاحظ أثناء حدوث النوبة.

وعلى جانب آخر نرى انفعالية المستعمَر تنطلق فى أنواع من الرقص يخرج بصاحبه عن طوره، ويجعله فى حالة من النشوة. ولذلك كان على كل دراسة تتناول العالم المستعمَر أن تُعنى حتمًا بفهم ظاهرة الرقص والمس. إن المستعمَر يفرج عن نفسه فى هذه الحفلات الصاخبة التى تجد فيها العدوانية مهما تكن حادة، ويجد فيها العنف مهما يكن مباشراً، مجارى وسبلاً إلى التحول والتلاشى. إن حلقة الرقص حلقة إباحة، حلقة تحمى وتجيز. ففى ساعات محددة، من أيام معينة، يجتمع رجال ونساء فى مكان بذاته، ويأخذون يقومون على مرأى من القبيلة بحركات تمثيلية يوهم ظاهرها بأنها فوضى، ولكنها فى حقيقة الأمر منظمة جدًا، فبأساليب مختلفة، كهز الرأس وإحناء الظهر واندفاع الجسم كله إلى وراء، تبذل الجماعة جهدًا كبيرًا فى سبيل أن تُخرج ذاتها، أن تعبر عن نفسها. وكل

شىء مباح فى الحلقة. والأمكنة التى يتم فيها ذلك كله أمكنة مقدسة: الجبل الصغير الذى يصعدون إليه كأنما ليقتربوا من القمر، والضفة التى ينحدرون إليها كأنما ليظهروا الوحدة بين الرقص والتطهر. وإذا كان كل شىء مباحًا، فلأنهم لم يجتمعوا إلا من أجل أن يدعوا للغزيرة الجنسية المتجمعة، وللعدوانية المكبوحة أن تنفجر انفجار البركان. يجب أن تتخفف النفس من أثقالها: فها هم يقومون بأعمال ترمز إلى القتل، وبحركات تمثل الفروسية، وبأفعال تصور الإبادة. إن عليهم أن يتخففوا من هذا كله بالوهم والخيال. فبذلك تنطلق حمم الغضب من أعماق النفس انطلاق قذائف البركان من باطن الأرض.

وما هى إلا خطوة أخرى حتى نجد أنفسنا أمام ظاهرة المس، ظاهرة شعور الفرد بأنه ممسوس، بأن كائنًا غيبيًا قد تسلل إليه واستحوذ عليه. إن تلك الجلسات التى نشهدها لدى هؤلاء الناس إنما هى ظاهرة مس وتحرر من المس: مس من الجن والشياطين والأشباح والأرباب، الخ. فهذه الأنواع من التفتت فى الشخصية، والازدواج فى الشخصية، من التحلل فى الشخصية، إنما تقوم بوظيفة أساسية فى تأمين السكون فى العالم المستعمر. إن الرجال والنساء يذهبون إلى تلك الجلسات وقد نفد صبرهم وتوفزت أعصابهم، حتى إذا عادوا كان الهدوء والسلام والسكون يهيمن على القرية.

ولكننا نشهد فى أثناء كفاح التحرير برء المجتمع من أمراض هذه الطقوس. إن المستعمَر حين يُجعل ظهره إلى الجدار، وتوضع السكين على عنقه، أو يقرب السلك الكهربائى من أعضائه الجنسية، يضطر إلى هجر تلك الخزعبلات. إنه بعد أن أنفق من عمره سنوات فى الأوهام والأخيلة، بعد أن غرق فى تلك التهاويل الغريبة، يمسك الآن رشاشه بيده، ويقاتل القوى التى كانت وحدها تنكر وجوده وكيانه، أعنى قوى الاستعمار. والمستعمَر الشاب الذى ينمو ويترعرع فى هذا الجو من الحديد والنار يستطيع أن يسخر -وهو يسخر حقًا- من الأجداد الأشباح، والخيول ذات الرأسين، والموتى الذين يستيقظون، والجن الذين يترقبون أن يتثاءب المرء حتى يتسللوا إلى جسمه؛ إن المستعمَر يكتشف الواقع ويبدله حين يقوم بحركة نضالية، ويمارس العنف، ويعمل فى سبيل التحرير.

لقد رأينا هذا العنف أثناء فترة الاستعمار يدور على فراغ، ورأينا شحناته تفرَّغ فى الرقص أو فى الحفلات التى تعقد لطرد العفاريت من الممسوسين، ورأيناه يُستنفد فى خصومات يقتل

فيها الإخوة إخوتهم. والمسألة الآن هى أن نقبض على هذا العنف الذى ينحرف عن سبيله ويضل عن غايته. لقد كان قبل الآن ينصرف فى ترهات خرافية، وكان يحاول أن يكتشف مناسبات انتحار جماعى، غير أن ظروفًا جديدة ستتيح له الآن أن يغير اتجاهه.

هناك على مستوى التكتيك السياسى وعلى مستوى التاريخ مسألة نظرية هي على جانب عظيم من خطورة الشأن، يطرحها فى العصر الراهن تحرير المستعمرات، هذه المسألة هى: متى يمكن القول إن الوضع قد نضج إلى الحد الذى يجب فيه القيام بحركة تحرير وطنى؟ ومن هى الطليعة التى يجب أن تقوم بهذه الحركة، فلأن القضاء على الاستعمار قد اتخذ أشكالاً مختلفة وصوراً متعددة فإن العقل يتردد إزاء هذه المسألة، ويمتنع عن القطع برأى فيما هو قضاء حقيقى على الاستعمار، وفيما هو تصفية كاذبة للاستعمار. وسنرى أن على الإنسان الذى قرر الانخراط فى المعركة أن يحدد الوسائل والتكتيك، أى أن يعين السلوك والتنظيم، وإلا لم يكن الأمر إلا اندفاع أعمى، مع ما يستتبعه هذا الاندفاع الأعمى من مخاطر الرجعة والانتكاس.

ما هى القوى التى تقترح على المستعمَر فى فترة الاستعمار أن يصب عنفه فى طرق جديدة وأن ينفق طاقاته فى أعمال جديدة؟ هذه القوى هى أولاً الأحزاب السياسية والنخبة المثقفة أو النخبة التجارية. ونحن نعلم أن ما يميز بعض التشكيلات السياسية هى أنها تنادى بمبادئ، ولكنها تمتنع عن إطلاق شعارات. وكل النشاط الذى تقوم به هذه الأحزاب السياسية الوطنية إنما هو فى فترة الاستعمار نشاط من النوع الانتخابى، هو سلسلة من المقالات الفلسفية السياسية حول فكرة حق الشعوب فى تقرير مصيرها، وحق البشر فى الكرامة والخبز، هو ترديد لا ينقطع للمبدأ القائل «إن لكل فرد صوتًا» إن الأحزاب السياسية الوطنية لا تلح أبدًا على ضرورة استعمال القوة، لأن هدفها ليس هو قلب النظام القائم واستئصاله من جذوره. إن هذه الأحزاب السياسية أحزاب مسالمة، تنادى بالمشروعية، وتناصر فى حقيقة الأمر النظام. . . الجديد، ولا تزيد على أن توجه إلى البرجوازية الاستعمارية هذا الطلب: «أعطونا مزيدًا من السلطة». أما النخبة المثقفة، فهى فى مسألة العنف ليس لها وجه تعرف به، هى عنيفة فى الأقوال، إصلاحية فى المواقف والأعمال. إن المنظمات السياسية الوطنية البورجوازية تقول شيئًا وتعنى غيره.

ويجب أن نفسر هذه الخاصة التى تميز الأحزاب السياسية الوطنية، بأمرين فى آن واحد هما نوع قادتها ونوع قاعدتها. إن قاعدة الأحزاب السياسية الوطنية تتألف من أفراد من سكان المدن. وهؤلاء العمال والفلاحون وأصحاب الحرف والتجار، الذين بدأوا يستفيدون من الوضع الاستعمارى ولو استفادة ضئيلة، هؤلاء لهم مصالح خاصة. وما تطالب به هذه القاعدة الشعبية فى الأحزاب السياسية إنما هو تحسين أحوالها وزيادة أجورها. والحوار بين هذه الأحزاب السياسية وبين الاستعمار لم ينقطع يومًا. فهى تبحث فى تحسين الأحوال وفى التمثيل الانتخابى، وفى حرية الصحافة وحرية الاجتماع. إنها تبحث فى الإصلاحات. ولذلك يجب أن لا يدهشنا أن نرى عددًا كبيرًا من السكان الأصليين ينتمون إلى فروع المنظمات السياسية الموجودة فى البلد المستعمر. إن هؤلاء ينادون بشعار مجرد: «السلطة لطبقة البروليتاريا» ناسين أن شعارات وطنية هى التى يجب أن تكون أساس المعركة فى منطقتهم. إن المثقف المستعمَر ينفق طاقته الهجومية فى صبوة مكشوفة إلى التشبه بالعالم الاستعمارى. لقد وضع طاقته الهجومية فى خدمة مصالحه الخاصة، وهى مصالح أفراد. وبذلك تنشأ، بسهولة، طبقة من العبيد المحررين فرديًا، ؛ إن ما يطالب به المثقف هو تكثير عدد هؤلاء المحررين، هو إقامة طبقة من المحررين. ولا كذلك الجماهير، فإنها لا تهدف إلى زيادة فرص نجاح الأفراد. إن ما تريده ليس هو الحصول على الحقوق التى يتمتع بها المستعمِر، بل هو أخذ مكان هذا المستعمِر. إن الأكثرية الساحقة من المستعمَرين تريد أن تستولى على مزرعة المستعمِر. ليس هدفهم أن يكونوا والمستعمِر أندادًا متنافسين، وإنما هدفهم أن يحلوا محله.

إن الدعاية التى تتقدم بها معظم الأحزاب السياسية، تغفل طبقة الفلاحين دائمًا، مع أن من الواضح أن طبقة الفلاحين فى البلاد المستعمَرة هى الطبقة الثورية الوحيدة. إن هذه الطبقة لا تخشى أن تخسر بالثورة شيئًا، بل تطمع أن تكسب بالثورة كل شىء. والفلاح، المنبوذ، الجائع، هو الإنسان المستغل الذى يكتشف قبل غيره أن العنف وحده هو الوسيلة المجدية. إنه امرؤ ليس عنده حل وسط، ولا مجال عنده لتسوية؛ والقوة وحدها هى التى تحدد فى رأيه بقاء الاستعمار أو زواله. إن هذا المستغل يدرك أن تحرره يقتضى استعمال جميع الوسائل، وأولها القوة. حين أعلنت جبهة التحرير الوطنى عام ١٩٥٦، بعد

استسلام جى موليه للمستعمرين الفرنسيين، حين أعلنت فى منشور شهير لها، أن الاستعمار لا يرفع يده إلا إذا جعلَت السكين فى عنقه، لم يجد أى جزائرى صادق أن هذه الألفاظ عنيفة. لقد كان ذلك المنشور ينطق بلسان جميع الجزائريين، ويفصح عما رسخ فى أعمق أعماق ضمائرهم من أن الاستعمار ليس آلة مفكرة، ليس جسمًا مزودًا بعقل، وإنما هو عنف هائج لا يمكن أن يخضع إلا لعنف أقوى.

وحين أزفت ساعة الحساب الحاسم، رأينا البورجوازية الاستعمارية التى ظلت إلى ذلك الحين مبتعدة، رأيناها تتدخل، منادية بهذه الفكرة الجديدة التى هى فى حقيقة الأمر من مبتكرات الدفاع الاستعمارى، ألا وهى فكرة «اللاعنف». وفهمت النخبة المثقفة والاقتصادية المستعمرة من مناداة البورجوازية الاستعمارية «باللاعنف» على هذه الصورة الخاصة أن لهذه البورجوازية الاستعمارية نفس المصالح التى لها، وإن من الضرورى المستعجل والحالة هذه أن تبادر إلى عقد اتفاق معها يضمن السلامة للطرفين. إن اللاعنف هو محاولة لتسوية المسألة الاستعمارية على مائدة خضراء قبل التورط فى أية حركة لا سبيل إلى تراجعها، قبل إهراق الدم، قبل القيام بأى عمل مؤسف، حتى إذا رأوا الجماهير، قبل أن يصفوا الكراسى حول المائدة الخضراء، تأبى أن تسمع غير صوت ضميرها، فتبادر إلى استعمال الحرائق وللقيام بهجماتها، هرعوا -أى أفراد «النخبة» وقادة الأحزاب البورجوازية الوطنية- هرعوا إلى الاستعماريين يقولون لهم: «الأمر خطير جدًا. وليس يدرى المرء كيف يمكن أن ينتهى هذا كله. فلابد من إيجاد حل، لابد من إيجاد تسوية».

وفكرة التسوية هذه هامة جدًا فى ظاهرة التحرر من الاستعمار، لأنها ليست بسيطة. فالتسوية تتناول فى الواقع النظام الاستعمارى والبورجوازية الوطنية الناشئة. إن قادة النظام الاستعمارى يكتشفون أن الجماهير تهم أن تحطم كل شىء، فنسف الجسور، وتخريب المزارع، وأنواع القمع، والحرب، ذلك كله يطعن الاقتصاد طعنًا قاسيًا. والتسوية تهم البورجوازية الوطنية أيضًا، فهذه البورجوازية الوطنية تخشى النتائج التى يمكن أن تنجم عن هذا الإعصار الجبار، وتخاف أن تكنسها هذه الريح العاصفة، فلا تفتأ تقول للمستعمِرين: «إننا ما زلنا قادرين على أن نوقف المذبحة، فالجماهير ما تزال تثق بنا،

فأسرعوا إذا كنتم لا تريدون أن تعرضوا للمخاطر كل شيء». وما هى إلا خطوة واحدة، حتى نرى موجِّه الحزب الوطنى يعلن معارضته لهذا العنف، ويقول بصوت عالٍ أن لا شأن له بهؤلاء الماو ماو، لا شأن له بهؤلاء الإرهابيين، لا شأن له بهؤلاء الذباحينَ. وهو فى أحسن الحالات يقف فى «منطقة محرمة» تفصل بين الإرهابيين والمستعمرين، ويعرض نفسه «وسيطًا» بين الطرفين، ومعنى هذا أنه لما كان المستعمرون لا يستطيعون أن يبحثوا الأمر مع هؤلاء الماوماو، فهو يتطوع للقيام بالمفاوضات. وهكذا نرى الناس الذين كانوا فى مؤخرة الكفاح الوطنى، الناس الذين لم يشتركوا يومًا فى النضال، يصبحون بنوع من البهلوانية طليعة المفاوضين فى سبيل إيجاد تسوية لا لشىء إلا لأنهم حرصوا دائمًا على أن تبقى الصلة قائمة بينهم وبين الاستعمار.

قبل المفاوضات، تكتفى أكثر الأحزاب الوطنية، فى أحسن الأحوال، بأن تلتمس المعاذير لهذه «الوحشية». إنها لا تطالب بالكفاح الشعبى، وليس نادرًا أن نراها تنتقد، فى حلقات مغلقة، تلك الأعمال التى تصفها صحافة البلد المستعمِر ويصفها رأيه العام بأنها منكرة كريهة. وهذه السياسة التجميدية تتعلل بالحرصَ على رواية الأمور رواية موضوعية. ولكن هذا الموقف الذى يقفه المثقف المستعمَر ويقفه قادة الأحزاب الوطنية ليس فى حقيقة الأمر موقفًا موضوعيًا. وإنما الواقع أن هؤلاء الناس ليسوا على ثقة بأن هذا العنف الجامح الذى تعمد إليه الجماهير هو السبيل الأجدى إلى الدفاع عن مصالحهم الخاصة. ثم إنهم غير مقتنعين بجدوى الأساليب العنيفة. وعندهم أنه لا يجوز الشك فى أن كل محاولة لتحطيم الاضطهاد الاستعمارى بالقوة إنما هى سلوك يأس، سلوك انتحار. ذلك أن دبابات المستعمرين والطائرات المقاتلة تحتل فى أدمغتهم مكانًا كبيرًا فمتى قلت لهم: يجب علينا أن نعمَل، رأوا القنابل تتسابق فوق رؤوسهم، ورأوا الدبابات تزحف على طول الطريق، ورأوا الرشاشات، والشرطة... فظلوا قاعدين لا يتحركون. إن عجزهم عن الانتصار بالعنف أمر لا حاجة إلى البرهان عليه، إنهم يبرهنون على هذا العجز فى حياتهم اليومية وفى مناوراتهم. إنهم يظلون عند ذلك الموقف الصبيانى الذى تبناه إنجلز فى مجادلته الشهيرة مع «هرنج» ذلك الجبل من الصبيانية: «كما استطاع روبنسون أن يحصل على سيف، ففى وسعنا أيضًا أن نتصور أن يظهر فاندرودى ذات صباح وفى يده مسدس مشحون» وعندئذ تنقلب نسبة العنف رأسًا على عقب، فإذا فاندرودى هو الذى

يأمر وإذا روبنسون هو الذى يكد ويشقى . . . فالمسدس يتغلب إذن على السيف، بل إن أكثر عشاق البديهيات صبيانية فى وسعه أن يتصور أن العنف ليس فعل إرادة فحسب، وإنما هو يقتضى شروطًا تحضيرية واقعية جدًا، ويقتضى على وجه الخصوص أدوات يتغلب أكملها على الأقل كمالاً؛ وأن هذه الأدوات، عدا ذلك، يجب إنتاجها، ومعنى هذا أن الذى ينتج أدوات للعنف أكمل . . . يتغلب على من ينتج أدوات للعنف أقل كمالاً، وزبدة القول إن انتصار العنف يقوم على إنتاج الأسلحة، وإنتاج الأسلحة يستند إلى الإنتاج بوجه عام . . . أى يقوم إذن على «القوة الاقتصادية»، على الدولة الاقتصادية، على الوسائل المادية التى توضع تحت تصرف العنف[1]» . الواقع أن القادة الإصلاحيين لا يقولون شيئًا آخر : «بأى شيء تريدون أن تحاربوا المستعمرين؟ بسكاكينكم؟ ببنادق الصيد التى عندكم؟» .

صحيح أن الأدوات هامة فى ميدان العنف، لأن كل شيء يتوقف آخر الأمر على توزع هذه الأدوات . ولكن تحرير الأراضى المستعمرة يأتينا بأضواء جديدة فى هذا المجال . لقد رأينا مثلاً أن نابوليون، فى حملة إسبانيا التى كانت حربًا استعمارية تمامًا، أُجبر على التقهقر رغم جيوشه التى بلغت أثناء هجمات الربيع من عام ١٨١٠ رقمًا هائلاً هو ٤٠٠ ألف مقاتل . وكان الجيش الفرنسى أثناء ذلك يرعب أوروبا كلها بمعداته الحربية، وبسالة جنوده، وعبقرية ضباطه العسكرية . لقد اكتشف الإسبان الذين كان يحركهم إيمان لا يتزعزع، اكتشفوا تلك الطريقة فى حرب العصابات التى كان المقاتلون الأمريكان قد جربوها قبل خمسة وعشرين عامًا فى محاربة الجيوش الإنجليزية . ولكن حرب العصابات هذه التى يقوم بها المستعمَر لا تكون أداة عنف فى وجه أدوات أخرى من أدوات العنف، ما لم تكن عنصرًا جديدًا فى تلك العملية الشاملة، عملية التنافس بين التروستات والاحتكارات .

فى أول الاستعمار كان يكفى فيلق واحد لاحتلال أراض واسعة : الكونجو، نيجيريا، ساحل العاج الخ . أما اليوم فإن الكفاح الوطنى الذى يقوم به المستعمَر يدخل فى ظرف جديد جدة مطلقة . لقد كانت الرأسمالية، فى فترة انطلاقتها، ترى فى المستعمرات ينبوعًا

(١) إنجلز «أنتى دوهرنج» . الجزء الثانى، الفصل الثالث، «نظرية العنف»، ص١٩٩ من الطبعة الفرنسية (إديسيون سوسيال) .

لمواد أولية يمكنها أن تصبها فى السوق الأوروبية بعد تصنيعها . ولكنها بعد مرحلة تجمع رأس المال وصلت اليوم إلى تبديل مفهومها عن الربح الذى يحققه مشروع المشاريع . لقد أصبحت المستعمرات سوقًا . إن سكان المستعمرات زبائن يشترون . فإذا كان لابد للثكنات من أن تعزز إلى غير نهاية ، وإذا بطؤت حركة التجارة ، أى إذا لم يعد فى الإمكان تصدي المنتجات المصنعة ، كان هذا دليلاً على أن الحل العسكرى يجب الابتعاد عنه . إن السيطرة العمياء التى هى من نوع الاستعباد لا تدر على البلد المستعمر أرباحًا . والفئة الاحتكارية من بورجوازية البلد المستعمر لا تدعم حكومة سياستها هى سياسة السيف وحده . إن الصناعيين ورجال المال فى البلد المستعمر لا يرجون من حكومتكم أن تهلك السكان ، وإنما يرجون منها أن تحمى «مصالحهم المشروعة» باتفاقات اقتصادية .

فهناك إذن تواطؤ موضوعى بين الرأسمالية وبين قوى العنف التى تنطلق فى الأراضى المستعمرة . ثم إن المستعمَر لا يجابه المضطهد وحيدًا . هناك ، طبعًا ، المعونة السياسية والدبلوماسية التى تقدمها البلاد التقدمية والشعوب التقدمية . ولكن هناك التنافس خاصة ، هناك تلك الحرب الضاربة التى تقوم بين الطوائف الاقتصادية . إن مؤتمرًا كمؤتمر برلين قد استطاع أن يقسم أفريقيا الممزقة إلى ثلاثة أجنحة أو أربعة . أما الآن فليس المهم أن تكون هذه المنطقة أو تلك خاضعة للسيادة الفرنسية أو البلجيكية ، وإنما المهم حماية المناطق الاقتصادية . إن القصف بالمدافع وسياسة الأرض المحروقة ، قد حلت محلهما الآن سياسة الإخضاع الاقتصادى . إن الاستعماريين لا يخوضون الآن حربًا تأديبية ضد السلطان المتمرد . إنهم الآن أكثر لباقة ، وأقل دموية ، فهم يقررون أن يُصفوا النظام القيصرى تصفية سلمية . إنهم يحاولون خنق غينيا ، ويزيلون مصدق . ويخطىء إذن الزعيم الوطنى الذى يخاف العنف ، إذ يتصور أن الاستعمار «سيقتلنا جميعًا» . صحيح أن العسكريين يستمرون على اللعب باللعب التى يرجع عهدها إلى أيام الفتح ، ولكن الأوساط المالية ما تلبث أن تردهم إلى الواقع .

ولذلك يطلبون إلى الأحزاب السياسية الوطنية العاقلة أن تعرض مطالبها واضحة ، وأن تبحث مع الشريك الاستعمارى فى جو هادىء لا تعكره العواطف عن حل يكفل مصالح الطرفين . وواضح أن هذه النزعة الإصلاحية الوطنية ، التى تبدو فى كثير من الأحيان نوعًا

من الكاريكاتور للعمل النقابي، تعمد دائمًا إلى وسائل سلمية جدًا إذا هى قررت أن تعمل: إضرابات عن العمل فى الصناعات القليلة الموجودة فى المدن، مظاهرات جماهيرية لتأييد الزعيم، حجز سيارات النقل أو الحاصلات المستوردة. إن هذه الأعمال كلها تحقق غرضين فى آن واحد، هى الضغط على الاستعمار واستنفاد قوى الشعب. وهذه الطريقة فى تنويم الشعب تنجح فى بعض الأحيان. وعندئذ، من المناقشة حول المائدة الخضراء، ينبثق هذا التنصيب السياسى الذى يسمح للسيد «مبا»، رئيس جمهورية الجابون، أن يقول فى كثير من الأبهة والعظمة حين وصوله إلى باريس فى زيارة رسمية: «لقد استقلت الجابون، ولكن بين الجابون وفرنسا لم يتبدل شىء، بل كل شىء يستمر كما كان». والواقع أن التبدل الوحيد الذى تحقق هو أن السيد «مبا» قد أصبح رئيس الجمهورية الجابونية، وأن رئيس الجمهورية الفرنسية يستقبله.

والدين الذى لا مناص منه يساعد البورجوازية الاستعمارية فى محاولة التهدئة التى تقوم بها. إن جميع القديسين الذين مدوا الخد الأيسر لمن ضربهم على الخد الأيمن، الذين غفروا لمن أساء إليهم، الذين تلقوا البصاق والإهانة دون أن يختلجوا، إن هؤلاء جميعًا يُستشهد بهم. وأفراد النخبة فى البلاد المستعمرة، هؤلاء العبيد الذين أعتقوا، لابد أن ينتجوا بديلاً للقتال حين يكونون على رأس الحركة. إنهم يستعملون عبودية إخوتهم من أجل أن يخجل منهم المستعبدون، أو من أجل أن يزودوا الجماعات المالية، المتنافسة مع المضطهدين، بمضمون أيديولوجى إنسانى النزعة هو لهم بمثابة المصباح المرشد. إنهم لا يتجهون بندائهم أبدًا إلى العبيد، إنهم لا يفعلون ذلك حقًا فى يوم من الأيام، ولا يحاولون أن يعبئوا قوى هؤلاء العبيد تعبئة حقيقية، إنهم يلوحون تلويحًا بأن تعبئة الجماهير هى السلاح الحاسم الذى سيؤدى إلى «نهاية النظام الاستعمارى»، كأنما بنوع من السحر، متظاهرين أن هذا هو ما يعتقدونه حقًا وصدقًا، مع أنه فى قرارة أنفسهم كذب. وبطبيعة الحال لابد أن يوجد فى هذه الأحزاب السياسية، وبين أعضاء قيادتها، أناس ثوريون يديرون ظهورهم لمهزلة الاستقلال الوطنى عن وعى وفهم. ولكن هؤلاء سرعان ما تنزعج آلة الحزب من تدخلاتهم ومبادهاتهم واستياءاتهم، فإذا بهؤلاء الثوريين يُعزلون شيئًا بعد شىء، ثم يُبعدون عن الحزب صراحة. وفى الوقت نفسه، يتعرف عليهم البوليس

الاستعمارى. كأن هنالك نوعًا من التواقت والتلازم. فإذا صاروا فى المدينة غير آمنين على أنفسهم، وصار أعضاء الحزب يتحاشونهم، ونبذتهم سلطات الحزب، رأينا هؤلاء المنبوذين الذين تقذف أعينهم شرراً محرقًا، يذهبون إلى الأرياف، وهنالك يدركون وفى رؤوسهم دوار أن جماهير الفلاحين تفهم عنهم بنصف كلمة، وتطرح عليهم فوراً هذا السؤال الذى لم يهيئوا جوابه: «متى نبدأ»؟ . .

ستتحدث فيما بعد عن هذا اللقاء بين الثوريين الآتين من المدن وبين القرويين. وإنما يحسن الآن أن نعود إلى الأحزاب السياسية، لنبين أن لعملها مع ذلك طابعًا تقدميًا. إن الموجهين السياسيين يتحدثون فى خطبهم عن الأمة. إنهم «يسمون» الأمة. وبذلك تأخذ مطالب المستعمَر شكلاً. صحيح أنه ليس هناك مضمون، صحيح أنه ليس هنالك برنامج سياسى واجتماعى، صحيح أنه ليس هنالك إلا شكل غامض مبهم، ولكن هذا الشكل قومى، إنه إطار، وهو ما نسميه بالحد الأدنى من المطالب. إن رجال السياسة الذين يخطبون، ويكتبون فى الصحف الوطنية، يجعلون الشعب يحلم. صحيح أنهم يتحاشون فكرة نسف النظام القائم، ولكنهم فى الواقع يبثون فى ضمائر المستمعين والقراء خمائر رهيبة تهيىء للنسف. وهم كثيراً ما يستعملون اللغة الوطنية أو لغة القبائل ومن شأن هذا أيضًا أن يغذى الحلم، وأن يسمح للخيال بالطواف خارج النظام الاستعمارى. هذا إلى أن هؤلاء السياسيين يقولون أحيانًا: «نحن العرب، نحن الزنوج» وهذه التسمية المثقلة بالاحتقار فى عهد الاستعمار تتلقى بذلك نوعًا من الاحترام والتقديس. إن السياسيين يلعبون بالنار. ومن أجل ذلك رأينا أحد السياسيين الأفريقيين يسرّ إلى جماعة من المثقفين الشباب منذ مدة يسيرة قوله: «فكروا قبل أن تخاطبوا الجماهير، لأن الجماهير تلتهب مشاعرها بسرعة». هنالك إذن مكر من التاريخ يتم فى المستعمرات على نحو رهيب.

حين يدعو أحد السياسيين الشعب إلى اجتماع، فيمكن أن نقول إن فى الهواء دمًا. ومع ذلك فإن هذا السياسى لا يُعنى فى أكثر الأحيان إلا «بإظهار» قواه. . . دون استعمالها. غير أن هذا التحرك المتصل -من ذهاب وإياب، واستماع إلى خطب، ورؤية الشعب مجتمعًا، ورؤية الشرطة حوله، وقيام الجنود باستعراضات، واعتقال أفراد من الناس، وترحيل الزعماء، إلخ- هذا التحرك المتصل يُشعر الشعب بأنه قد آن له هو أن يفعل شيئًا. والأحزاب السياسية، فى مثل هذه اللحظات القلقة، تكثر نداءاتها إلى ناحية اليسار طالبة

إلى الشعب أن يلتزم الهدوء، بينما هى تتطلع بأنظارها إلى ناحية اليمين، تكتشف الأفق، وتحاول أن تحزر ما يخبئه الاستعمار من نيات.

والشعب يستعمل أيضًا بعض الأحداث من حياة الجماعة، فى سبيل أن يحافظ على شكله، وأن يصون طاقته الثورية. من ذلك أن قاطع الطريق الذى يصمد لمطاردات رجال الدرك أيامًا بكاملها، أو الذى يُقتل فى معركة فذة بعد أن يقتل أربعة من رجال الشرطة أو خمسة، أو الذى ينتحر حتى لا «يسلم» رفاقه، هؤلاء جميعًا بالنسبة إلى الشعب منارات، وقدوات، و«أبطال». وليس يجدى طبعًا أن نقول عن فلان من هؤلاء الأبطال إنه لص، أو رجل فاسد، أو منحط. فإنه يكفى أن يكون هذا الرجل الذى تطارده السلطات الاستعمارية قد أساء إلى أحد المستعمِرين أو إلى أملاك أحد المستعمِرين، حتى يُفرق بينه وبين المذنب العادى تفريقًا واضحًا.

ويجب أن نشير أيضًا إلى الدور الذى يلعبه، فى ظاهرة النضج هذه، تاريخ المقاومة الوطنية عند الغزو الاستعمارى. إن الوجوه الكبرى الذى تظل ماثلة فى خيال الشعب المستعمَر إنما هى وجوه أولئك الذين قادوا المقاومة الوطنية أثناء الاحتلال. إن وجوه بيهانزين، وساونديانا، وسامورى، وعبد القادر تعود إلى الحياة بقوة كبيرة فى الفترة التى تسبق بدء الكفاح، وعودتها هذه بشير بأن الشعب يتهيأ لأن يستأنف السير، لأن يوقف الزمن الميت الذى حمله إليه الاستعمار، لأن يصنع التاريخ.

إن انبثاق الأمة الجديدة، وتدمير النظم الاستعمارية هما إما ثمرة عنف يقوم به الشعب المستعمَر، وإما ثمرة العنف الذى تقوم به شعوب أخرى مستعمَرة فيضغط على النظام الاستعمارى.

إن الشعب المستعمَر ليس وحيدًا فى المعركة. وحدوده تظل تتسرب منها الأنباء والأصداء رغم الجهود التى يبذلها الاستعمار. إنه يكتشف أن العنف يملأ الجو، وأنه ينطلق هنا وهناك، وأنه هنا وهناك ينتصر على النظام الاستعمارى.

فهذا العنف الذى ينتصر لا يقوم لدى المستعمر بدور النبأ الذى يطلعه على الأحداث، وإنما هو يحضه على العمل. إن الانتصار الكبير الذى حققه الشعب الفتنامى فى ديان بيان

فو لم يعد انتصاراً فتنامياً فحسب، فمنذ شهر تموز من عام ١٩٥٤ أصبحت المسألة التى تطرحها الشعوب المستعمَرة على نفسها هى المسألة التالية: «ماذا يجب أن نعمل حتى نحقق ديان فو ثانية؟ كيف يجب أن نفعل حتى نحقق ديان بيان فو ثانية؟». وما من مستعمَر كان يستطيع أن يشك فى إمكان تحقيق انتصار كذلك الانتصار الذى تحقق فى ديان بيان فو. وأصبحت عناصر المسألة هى هذه: إعداد القوى، تنظيمها، تحديد موعد البدء فى المعركة. وهذا العنف الذى يملأ الجو لا يبدل المستعمَرين فحسب، بل يبدل أيضاً الاستعماريين الذين يدركون أن معارك كثيرة سيكون مصيرها كمصير معركة ديان بيان فو. ولذلك فإن ذعراً كبيراً منظماً يجتاح الحكومات الاستعمارية ويستولى عليها. فإذا حديثهم يدور حول ضرورة استباق الأمور، ضرورة تحويل حركة التحرير إلى جهة اليمين، ضرورة تجريد الشعب من الحجج التى يتذرع بها، وإذا هم يقولون: «يجب أن نبادر بسرعة إلى تحرير المستعمرات». يجب أن نحرر الكونغو قبل أن تتحول إلى «جزائر» يجب أن نقترع على قانون الدستور لأفريقيا، يجب أن نبادر إلى خلق «رابطة الشعوب الفرنسية» يجب على كل حال أن نحرر المستعمرات، يميناً إن علينا أن نحرر المستعمرات... وهم يبادرون إلى هذا التحرير بسرعة تبلغ من الشدة أنهم يفرضون الاستقلال على هوفويت بواينى فرضاً. وهكذا يرد الاستعمار على استراتيجية ديان بيان فو التى يرسمها المستعمَر باستراتيجية أخرى، هى استراتيجية منح الاستقلال واحترام سيادة الدول.

ولنعد الآن إلى ذلك العنف الذى يملأ الهواء والذى رأيناه، قبل اكتمال نضجه، يفرغ شحناته فى غير الطرق السليمة. إن هذا العنف، رغم التحولات التى فرضها عليها الاستعمار، إذ جعله ينصرف فى نزاعات قبلية أو محلية، يسير الآن فى طريقه. إذن فالمستعمَر يعرف عدوه، ويسمى أنواع الشقاء التى يقاسيها، ويضع فى هذا الدرب الجديد كل ما فى حقده وغضبه من قوة هائلة. ولكن كيف ننتقل من العنف الذى يملأ الهواء إلى العنف الذى يتدفق فى كفاح؟ ما هو الشىء الذى يفجر المرجل؟ هنالك أولاً هذه الواقعة، وهى أن هذا التطور يفسد على المستعمر طمأنينته. إن المستعمر الذى يعرف «هؤلاء الأهالى»، يدرك من بادرات كثيرة أن هناك شيئاً هو بطريق التبدل والتغير. لقد أصبح يندر أن يقع على أناس «طيبين»، مسالمين، من هؤلاء الأهالى. وأصبح الأهالى يصمتون حين يقترب منهم أحد المستعمِرين. والنظرات فى بعض الأحيان قاسية، والأوضاع والأحاديث

تدل على روح الهجوم دلالة واضحة. والأحزاب السياسية تتحرك وتكثر اجتماعاتها، وفى الوقت نفسه يزداد عدد رجال الشرطة، وتصل إمدادات عسكرية. إن المستعمَرين، ولا سيما الزارعين المنعزلين فى مزارعهم، هم أول من يحس بالخطر، فيطالبون باتخاذ إجراءات قوية.

وتعمد السلطات فعلاً إلى اتخاذ إجراءات لإظهار قوتها، فتقتل زعيمًا أو زعيمين، وتنظم استعراضات عسكرية، وتقوم بمناورات وتطلق طائراتها فى السماء. ولكن هذه المظاهر وهذه التدريبات الحربية ورائحة البارود هذه التى تملأ الجو فى هذه الأيام تحمل الشعب على التراجع والتقهقر، بل إن المدافع والحراب تذكى نار الهجوم فيه. ويسود جو بطولى يريد فى كل فرد أن يبرهن على أنه مستعد لكل شيء. وفى هذه الظروف تنطلق الطلقة من تلقاء نفسها، لأن الأعصاب متوفزة، يملأ النفوس، والناس قد تركز إحساسها على الزناد. فما هو إلا حادث تافه حتى يبدأ إطلاق الرصاص. ذلك ما حدث فى صطيف بالجزائر، وفى الكاريير سنترال بمراكش، وفى مورامانجا بمدغشقر. ولكن أعمال القمع التى تقوم بها السلطات الاستعمارية لا تحطم انتفاضة الشعب، بل تعجل نمو الوعى القومى. إن النوازل فى المستعمرات إنما تعزز الوعى الذى أخذ ينمو، لأنها تدل على أن القوة وحدها هى التى تفض المشاكل بين المضطهدين والمضطهَدين. ويجب أن نذكر هنا أن الأحزاب السياسية لم تطلق شعار الثورة المسلحة، ولا هى أعدت هذه الثورة. إن جميع هذه الأعمال العنيفة، إن جميع هذه الأفعال التى ولدها الخوف، لم يشأ السياسيون أن تقع. وإنما باغتتهم الحوادث مباغتة. وفى هذه اللحظة يستطيع الاستعمار أن يقرر اعتقال القادة الوطنيين، ولكن حكومات البلاد الاستعمارية تعرف اليوم حق المعرفة أن حرمان الجماهير من زعيمها أمر خطر كل الخطر. لأن الشعب عندئذ، وقد فقد لجامه، يندفع إلى العنف والإرهاب و«الأعمال الوحشية» اندفاعًا قويًا، ويطلق العنان «لغرائزه الدموية»، فيفرض على الاستعمار إطلاق سراح الزعماء الذين تقع على عاتقهم هذه المهمة الصعبة، وهى أن يعيدوا الهدوء والسكينة. وهكذا فإن الشعب المستعمَر الذى انطلق من تلقاء ذاته يستعمل العنف فى سبيل تحقق تلك المهمة العظيمة، مهمة تحطيم النظام الاستعمارى، يجد نفسه بعد برهة قصيرة مقتصراً على المناداة بهذا الشعار الميت القديم: «إطلاق سراح زيد أو

عمر من الناس[1]». وعندئذ يطلق الاستعمار سراح هؤلاء الناس، ويبحث الأمور معهم، وتبدأ ساعة احتفالات الابتهاج الشعبية.

وفى حالة أخرى لا يمس جهاز الأحزاب السياسية بأذى، ولكن القمع الاستعمارى والحركة التى يقوم بها الشعب من تلقاء ذاته ردًا على ذلك القمع، ما يلبثان أن يجعلا القاعدة الشعبية فى تلك الأحزاب تطغى على قياداتها، فالجماهير تقابل القوى العسكرية بعنف قوى، فيتردى الوضع بالنسبة إلى الاستعمار، والسياسيون الذين لم يعتقلوا يصبحون على الهامش أناسًا متعطلين لا خير فيهم ولا فى بيروقراطيتهم وبرامجهم الحكمية، فهم بعيدون عن الحوادث، ولكنهم لا يتورعون عن التبجح الكاذب فتراهم «يتحدثون باسم الشعب المضطهد». والاستعمار فى العادة يتهافت بشراهة على هذه النفاية، ويحيل هؤلاء العاطلين إلى مفاوضين، فما هى إلا ثوانٍ أربع حتى يمنحهم الاستقلال، ويكون عليهم بعد ذلك أن يعيدوا النظام إلى نصابه.

جميع الناس شاعرون إذن بهذا العنف، وليست المسألة دائمًا كيف يُرد عليه بعنف أشد، وإنما هى: كيف توقف الأزمة؟

فما هو هذا العنف فى واقع الأمر؟ لقد رأينا أنه إدراك الجماهير المستعمَرة، بحدسها، أن تحرّرها يجب أن يتم بالقوة، ولا يمكن أن يتم إلا بالقوة. فكيف يصل هؤلاء الناس الذين ليس لهم خبرة، هؤلاء الناس الجياع الضعاف، الذين لا علم لهم بطرائق التنظيم كيف يصلون إزاء القوة الاقتصادية والعسكرية التى يملكها المحتل، إلى الاعتقاد بأن العنف وحده يستطيع أن يحررهم؟ كيف يستطيعون أن يؤملوا فى النصر؟

ذلك أن العنف، يمكن أن يكون، من حيث هو وسيلة، ستارًا لحزب سياسى؛ وفى وسع قيادات حزبية أن تدعو الشعب إلى كفاح مسلح. ولابد من التفكير فى هذا العنف الذى تُضمن نتائجه. لئن تقرر العسكرية الألمانية حل مشاكل الحدود بالقوة، فذلك أمر لا يدعو إلى الدهشة، أما أن يقرر الشعب الأنجولى مثلاً أن يحمل السلاح، أو أن ينبذ الشعب الجزائرى كل وسيلة أخرى غير العنف، فذلك يدل على أن شيئًا ما قد حدث أو هو بسبيل الحدوث. إن

(١) قد يحدث أن يكون الزعيم المعتقل تعبيرًا صادقًا عن الجماهير المستعمَرة. وفى هذه الحالة ينتهز الاستعمار فرصة اعتقاله من أجل محاولة إيجاد زعماء جدد.

هؤلاء الناس المستعمَرين، إن هؤلاء العبيد، عبيد العصور الحديثة، قد نفد صبرهم. إنهم يعلمون أن هذا الجنون وحده يستطيع أن يخلصهم من براثن الاضطهاد الاستعمارى. إن نوعًا جديدًا من العلاقات قد قام فى العالم. إن الشعوب المتخلفة تحطم أصفادها؛ والأمر الخارق أنها تنتصر. من الممكن أن يقال إن من السخف أن يموت الإنسان جوعًا فى عصر الأقمار الصناعية، ولكن الجماهير المستعمَرة لا تفسر الأمور تفسيرات قمرية من هذا النوع. والحقيقة هى أنه ما من بلد استعمارى يستطيع اليوم أن يتبنى ذلك الشكل الواحد من الصراع الذى قد ينجح، أعنى الاستمرار فى إرسال قوات احتلال كبيرة إلى غير نهاية.

والبلاد الاستعمارية تعانى فى داخلها تناقضات، وتجابه مطامع عمالية تقتضيها استعمال قواتها البوليسية. ثم إن هذه البلاد الاستعمارية هى على الصعيد الدولى محتاجة إلى جيوشها لحماية نظامها السياسى. وهناك أخيرًا تلك الخرافة المعروفة القائلة بأن حركات التحرير تقودها موسكو، وهذه الخرافة تعنى فى التعليلات المذعورة التى يعمد إليها النظام الاستعمارى ما يلى: «إذا استمر الأمر، فالشيوعيون يمكن أن ينتهزوا فرصة هذه الاضطرابات ليتغلغلوا فى هذه المناطق».

إن نفاد صبر المستعمَر وتلويحه الصريح باستعمال العنف يدلان على أنه يدرك أن الظرف الحالى ظرف استثنائى، ويدلان على أنه ينوى الاستفادة من هذا الظرف. ولكن المستعمَر الذى يُتاح له اليوم أن يرى العالم الحديث ينفذ حتى إلى أقصى أركان البوادى، يشعر شعورًا حادًا، على مستوى التجربة المباشرة أيضًا، بحرمان، فتقتنع الجماهير، بواسطة نوع من الاستدلال... الصبيانى، إن هذه الأشياء كلها قد سرقت منها؛ لذلك نراها فى بعض البلاد المتخلفة، تسير بسرعة وتفهم بعد سنتين أو ثلاث سنين من الاستقلال، أنها كانت مغبونة، وأن «الأمر لم يكن ليستحق ذلك العناء كله» إذا لم تتبدل الحال تبدلاً حقيقيًا. فى عام ١٧٨٩، بعد الثورة البورجوازية، استفاد الفلاحون الصغار من تلك الثورة فوائد أساسية. ولكن من نافل القول أن نذكر أن أكثرية سكان البلاد المتخلفة، أن ٩٥٪ من سكان البلاد المتخلفة، لا يحمل إليهم الاستقلال فى معظم الحالات تغييرًا مباشرًا. لذلك يلاحظ المراقب الخبير أن هناك نوعًا من الاستياء الكامن يشبه تلك الجمرات التى تبقى بعد انطفاء الحريق، وتهدد باندلاع النيران من جديد.

ويقولون عندئذ إن المستعمَرين يريدون أن يغالوا فى السرعة . بينما كانوا يؤكدون قبل ذلك بقليل أن المستعمَرين أناس بطيئون كسالى اتكاليّون . إننا نلاحظ منذ الآن أن العنف الذى سار فى طرق محددة واضحة إبان كفاح التحرير لا ينطفىء انطفاءً سحريًا بعد احتفالات رفع الرايات الوطنية ، بل يظل متقدًا ، خاصة وأن عهد البناء الوطنى يظل يتم فى إطار التنافس النهائى بين الرأسمالية والاشتراكية .

إن هذا التنافس يجعل حتى للمطالب المحلية بعدًا عامًا يكاد يشمل الأرض بأسرها . فكل اجتماع ، وكل عمل من أعمال القمع ، تترجع أصداؤه فى العالم كله . إن حوادث القتل التى وقعت فى شاريفيل قد هزت الرأى العام العالمى أشهرًا طويلة . وأصبحت شاريفيل ، فى الصحف وفى محطات الإذاعة وفى الأحاديث الخاصة ، رمزًا ؛ فمن خلال حوادث شاريفيل عالج الرجال والنساء مشكلة التمييز العنصرى فى جنوبى إفريقيا . ولا نستطيع أن نزعم أن الديماغوجية وحدها هى السبب فى هذا الاهتمام المفاجىء الذى يبديه «الكبار» بالشئون الصغيرة المتصلة بالمناطق المتخلفة . إن كل ثورة وكل تمرد يقعان فى العالم الثالث يدخلان الآن فى إطار الحرب الباردة . يكفى أن يُضرب رجلان فى سالزبوى ، حتى تهتز كتلة بكاملها من الكتلتين ، وتأخذ تتحدث عن هذين الرجلين ، وتنتهز هذه الفرصة لتثير المشكلة الخاصة بروديسيا ، رابطة هذه المشكلة بمشكلة أفريقيا كلها ، وبمشكلة البشر المستعمَرين جميعًا . ولكن الكتلة الثانية ، تقيس أيضًا بمقياس سعة الحملة التى شُنت عليها ما فى نظامها من نقاط الضعف . وتدرك الشعوب المستعمَرة أنه ما من فئة من الفئتين إلا وتهتم بالحوادث المحلية ، فتكف هذه الشعوب المستعمَرة عن الاقتصار على آفاقها المحلية ، إذ يدركها هذا الجو العام المشحون بالاهتزاز .

حين يُعلن ، كل ثلاثة أشهر ، أن الأسطول السادس أو الأسطول السابع تحرك نحو هذا الشاطىء أو ذاك ؛ وحين يهدد خروتشوف بإنقاذ كاسترو بالصواريخ ، وحين يقرر كندى ، بمناسبة لاوس ، أن يعمد إلى الحلول القصوى ، فإن المستعمَر الذى ما يزال مستعمَرًا ، والمستعمَر الذى نال الاستقلال يشعران ، شاءا أم أبيا ، أن نوعًا من السير المسعور يجرفهما جرفًا . والواقع أنهما يسيران من قبل أن يجرفا . انظروا مثلاً إلى حكومات البلاد التى تحررت منذ عهد قريب . إن رجال الحكم فى هذه البلاد ينفقون ثلثى وقتهم فى مراقبة

الأحداث التى تدور حولهم، وفى اتقاء الخطر الذى يهددهم، وينفقون الثلث الأخير من وقتهم فى العمل لبلادهم. وهم فى الوقت نفسه يبحثون لأنفسهم عن دعائم. وتخضع المعارضة الوطنية لهذا المنطق نفسه، فتدير ظهرها للطرق البرلمانية فى كثير من الاحتقار، وتمضى تبحث عن حلفاء يقبلون أن يدعموا رغبتها فى القيام بثورة عنيفة. إن جو العنف الذى كان يسود المرحلة الاستعمارية، يظل يسيطر على الحياة الوطنية. ذلك أن العالم الثالث، كما سبق أن قلنا ذلك، ليس مستبعداً من هذا الإعصار، بل إنه هو فى مركز الإعصار. لذلك نرى رجال الدولة فى البلدان المتخلفة يظلون يستعملون فى خطبهم لهجة الهجوم والغضب التى كان ينبغى فى الأحوال العادية أن تزول. وما أكثر ما يكون هؤلاء القادة الجدد شرسين فى أقوالهم! ذلك أمر يُفهم أيضًا. غير أن الشىء الذى يُفهم أقل من ذلك أن هؤلاء القادة أنفسهم يظهرون كثيراً من الكياسة واللباقة فى معاملة الإخوة أو الرفاق. إن الشراسة هى أولاً سلوك مع «الآخرين»، مع الذين كانوا مستعمَرين ثم جاءوا اليوم ينظرون ويتقصَّون. إن الشخص الذى كان مستعمَرًا فى كثير من الأحيان بأن النتيجة التى يريد أن ينتهى إليها هؤلاء الناس فى تحقيقاتهم الصحفية عن هذه البلاد قد كتبوها قبل أن يجيئوا. وليس مجىء الصحفى إلى البلاد إلا ستاراً وتبريراً. إن الصور الفوتوغرافية التى ينشرها مع المقال تبرهن على الغرض الذى جاء من أجله. إن هدفه من كتابة التحقيق هو أن يتحقق من صدق قناعته السابقة، وهى أن كل شىء أصبح سيئًا هنالك منذ خروجنا. إن الصحفيين يشكون دائمًا من أنهم يستقبلون استقبالاً سيئًا، وأنهم يعملون فى ظروف صعبة، وأنهم يصطدمون بجدار من عدم الاكتراث أو من العداوة. هذا كله طبيعى. إن القادة الوطنيين يعرفون أن الرأى العام العالمى إنما تصنعه الصحافة الغربية وحدها. وحين يجيئنا صحفى غربى ويطرح علينا أسئلة، فقلما يكون هدفه من ذلك أن يخدمنا. انظروا إلى حرب الجزائر مثلاً: إن أكثر الصحفيين الفرنسيين تحرراً لم يكفّوا لحظة عن استعمال نعوت ملتبسة المعانى حين يريدون أن يصفوا ثورتنا. فإذا عوتبوا فى ذلك قالوا إنهم أناس موضوعيون. والمستعمَر يرى أن الموضوعية موجهة دائمًا ضده. وطبيعية أيضًا تلك اللهجة الجديدة التى أغرقت الدبلوماسية الدولية فى اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة فى أيلول (سبتمبر) عام ١٩٦٠. لقد كان ممثلو البلاد المستعمَرة يتحدثون بلغة هجوية عنيفة مهينة، ولكن الشعوب المستعمرة لم تجد أنهم كانوا مبالغين أم مغالين. إن

راديكالية هؤلاء الممثلين الإفريقيين الذين كانوا ينطقون بلسان الشعوب الأفريقية قد أنضجت الدمل، وجعلت الناس يدركون أن اعتراضات الفيتو هذه أمر غير مقبول، وكذلك هذا الحوار بين «الكبار»، وخاصة هذا الاستخفاف بالعالم الثالث، وجعل دوره محدودًا تافهًا.

إن هذه الدبلوماسية التى دشنتها الشعوب المستقلة حديثًا لا تعرف اللف والدوران حول الفروق الطفيفة، ولا تعرف المكر الذى يعلن غير ما يبطن. ذلك أن هؤلاء الناطقين باسم شعوبهم قد كلفتهم شعوبهم أن يدافعوا فى آن واحد عن وحدة الأمة، وعن تقدم الجماهير نحو الرخاء، وعن حق الشعوب فى الحرية وفى الخبز.

فهى إذن دبلوماسية متحركة، دبلوماسية حانقة، تتعارض تعارضًا قويًا مع ذلك العالم الساكن، الجامد، عالم الاستعمار. حين يُلوح السيد خروشوف بحذائه فى هيئة الأمم المتحدة، ويضرب به المنضدة فما من ممثل من ممثلى البلاد المتخلفة يضحك. ذلك أن ما يبينه السيد خروشوف للبلاد المستعمرة، هو أنه، وهو فلاح يملك من جهة أخرى صواريخ، يعامل هؤلاء الرأسماليين الأشقياء المعاملة التى يستحقونها. وكذلك فإن كاسترو الذى يتحدث فى منظمة الأمم المتحدة وهو بلباسة العسكرى، لا يثير استغراب البلاد المتخلفة. ذلك أن ما يبينه كاسترو هو أنه يدرك أن عهد العنف ما يزال قائمًا. وإنما المستغرب أنه لا يدخل هيئة الأمم المتحدة وفى يده رشاشه. ولكن ربما كانوا يعارضون فى ذلك. إن الثورات، والأفعال اليائسة، والجموع المسلحة بالخناجر أو الفئوس، تجد وطنيتها فى هذا الصراع الفائر الذى يقوم بين الرأسمالية والاشتراكية.

لقد أمكن، فى عام ١٩٤٥، أن لا يلاحظ الناس مقتل ٤٥٠٠٠ جزائرى فى صطيف؛ وفى عام ١٩٤٧ أمكن أن يقتل ٩٠٠٠٠ شخص فى مدغشقر دون أن يكون هذا الحادث إلا خبرًا صغيرًا فى زوايا مهملة من زوايا الصحف؛ وفى عام ١٩٥٢ أمكن أن يموت ٢٠٠٠٠٠ شخص فى كينيا دون أن يكترث أحد بالأمر كبير اكتراث. ذلك أن التناقضات الدولية لم تكن فى تلك الأيام حاسمة قاطعة إلى درجة كافية. صحيح أن حرب كوريا وحرب الهند الصينية كانتا قد دشنتا مرحلة جديدة. ولكن بودابست والسويس هما اللحظتان الحاسمتان فى هذه المرحلة الجديدة.

إن المستعمَرين، وقد قواهم الدعم غير المشروط الذى ينالونه من البلدان الاشتراكية، يهجمون بالأسلحة التى معهم على هذه القلعة التى لا تقهر، قلعة الاستعمار. ولئن كانت هذه القلعة لا تخدشها السكاكين والأيدى العارية، فإنها لا تظل كذلك حين يحزم المقاتلون أمرهم على أن يحسبوا حساب حالة الحرب الباردة.

إن الأمريكيين، فى هذا الظرف الجديد، يعدون أنفسهم فى كثير من الجد، أوصياء على الرأسمالية الدولية ورعاة لها. لذلك نراهم فى مرحلة أولى ينصحون البلاد الأوروبية بأن تحرر المستعمرات وديًا، ونراهم فى مرحلة ثانية لا يترددون فى أن ينادوا باحترام مبدأ أفريقيا للأفريقيين أولاً، وفى أن يدعموا هذا المبدأ بعد ذلك. إن الولايات المتحدة لا تخشى اليوم أن تعلن رسميًا أنها تدافع عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها. إن الرحلة الأخيرة التى قام بَها السيد منين وليامز ليس مثالاً على شعور الأمريكيين بأن العالم الثالث يجب أن لا يضحى به. وهنا نفهم لماذا لا يعد عنف المستعمَر عنفًا لا أمل فيه إلا إذا قورن مقارنة مجردة بالآلة العسكرية التى يملكها المضطهدون. أما إذا وضعنا هذا العنف فى موضعه من الحركية الدولية أدركنا أنه يهدد المضطهدين تهديداً رهيبًا. إن استمرار الثورات والاضطرابات يحدث خللاً فى الحياة الاقتصادية للمستعمَرة ولكنه لا يجعل البلاد المستعمرة فى خطر. والأمر الأهم فى نظر الاستعمار هو أن تتسرب الدعاية الاشتراكية إلى صفوف الجماهير، هى أن تسرى هذه الدعاية الاشتراكية إلى الجماهير. وهذا أمر له خطورته فى فترة الحرب الباردة من هذا الصراع فما بالك حين تصبح الحرب حارة: ما عسى أن تصير إليه هذه المستعمرة التى تعج بالمحاربين «السفاكين» حين تصبح الحرب حارة؟

فالرأسمالية تدرك عندئذ أن استراتيجيتها العسكرية ستخسر من نمو الحروب الوطنية كل شىء. لذلك تضطر الرأسمالية، فى إطار التعايش السلمى، إلى أن تسلم بتحرر جميع المستعمرات، وبحياد جميع المستعمرات عند الاقتضاء. فإنما المهم عندها قبل كل شىء هو أن تتحاشى ما يهدد سلامة استراتيجيتها، هو أن تتحاشى انفتاح الجماهير لعقيدة عدوه، هو أن تتحاشى أن يكرهها عشرات الملايين من الناس كرهًا جذريًا. والشعوب المستعمرة تدرك إدراكًا كاملاً هذه الضرورات التى تسيطر على الحياة السياسية الدولية. فحتى الذين تلعلع أصواتهم فى استنكار العنف يتخذون قراراتهم ويقومون بأعمالهم على أساس هذا

العنف الذى يسود الكرة الأرضية كلها. إن التعايش السلمى بين الكتلتين يغذى العنف فى المستعمرات، ويحرض عليه فى أيامنا هذه. ربما رأينا هذا العنف ينتقل غداً إلى ميدان آخر بعد تحرر المستعمرات تحرراً كاملاً. لعله يطرح غداً مشكلة الأقليات. ألسنا نرى بعض الأقليات منذ الآن لا تتردد عن المناداة باستعمال أساليب العنف لحل مشكلاتها؟ ليس من قبيل الصدفة أن نرى المتطرفين من الزنوج فى الولايات المتحدة يشكلون فرق ميليشيا ويتسلحون. وليس من قبيل الصدفة أن نرى فى العالم الذى يسمى نفسه حراً، قيام لجان للدفاع عن الأقليات اليهودية فى الاتحاد السوفياتى، وأن نرى الجنرال دى جول يذرف بعض الدموع فى إحدى خطبه، حزناً على المسلمين الذين تضطهدهم الدكتاتورية الشيوعية. إن الرأسمالية والاستعمار مقتنعان بأن النضال ضد التفرقة العنصرية، وحركات التحرر الوطنى ليست إلا اضطرابات يُوعَز بها من بعيد، ليست إلا اضطرابات يُحرَّض عليها «من الخارج»؛ لذلك يقرران أن يستعملا هذا التكتيك المجدى: «راديو أوروبا الحرة»، لجنة تأييد الأقليات المغلوبة، فيقومان بمحاربة الاستعمار، كما كان القادة الفرنسيون فى الجزائر يقومون بتلك الحرب التخريبية مع الـ SAS والدوائر السيكولوجية. إنهم «يستخدمون الشعب ضد الشعب».

ونحن نعلم ما الذى يؤدى إليه هذا.

إن هذا الجو من العنف والتهديد والتلويح بالصواريخ لا يخيف المستعمَرين ولا يحيرهم. لقد رأينا أن تاريخهم كله يهيئهم «لفهم» هذا الظرف.

إن بين العنف الاستعمارى والعنف السلمى الذى يعيش فى جَوِّه العالم المعاصر نوعًا من التقابل والتجانس. وقد تلاءم المستعمَرون مع هذا الجو. إنهم من هذه الناحية، أبناء عصرهم. قد يستغرب الناس فى بعض الأحيان أن المستعمَر بدلاً من أن يشترى فستانًا لزوجته، يشترى جهاز راديو ترانزستور. ولكن يجب أن لا يُستغرب هذا. إن المستعمَرين مقتنعون بأن مصيرهم يتقرر الآن. إنهم يعيشون فى جَوّ نهاية العالم، ويرون أنه ما ينبغى أن يفوتهم شىء. وهم لذلك يفهمون كل الفهم فوما وفومى، ولومومبا وتشومى، وآهيجو وموميبه، وكيناتا، وأولئك الذين يُقذفون من حين إلى حين ليحلوا محلهم. إنهم يفهمون هؤلاء الأشخاص كل الفهم، لأنهم يعرون القوى الكامنة وراءهم. إن المستعمَر،

إن الإنسان المتخلف، هو اليوم إنسان يستحق أن يوصف بأنه حيوان سياسى بأكمل معانى هذه الكلمة.

صحيح أن الاستقلال قد رد إلى المستعمَرين شعورهم بذاتهم وعزز كرامتهم ولكن الوقت لم يتسع لهم بعد من أجل إنشاء مجتمع، ومن أجل بناء وتأكيد قيم. إن البؤرة المشعة التى فيها ينمو المواطن والإنسان ويغتنيان فى ميادين ما تنفك تتسع غير موجودة بعد. وإذ إن هؤلاء الناس يعيشون فى نوع من عدم التحديد، تراهم يقتنعون فى سهولة بأن كل شيء سيتقرر فى مكان آخر، بالنسبة إليهم وبالنسبة إلى سائر العالم فى آن واحد. أما القادة فإنهم إزاء هذا الوضع يترددون وينتخبون الحياد.

هناك أمور كثيرة يجب أن نقولها عن الحياة. إن بعض الناس يشبهون هذا الحياد بنوع من النفعية الموبوءة التى تريد أن تأخذ من اليمين واليسار. ولكن الحقيقة هى أن هذا الحياد الذى هو من ثمرات الحرب الباردة، إذا كان يتيح للبلدان المتخلفة أن تتلقى معونة اقتصادية من الطرفين، فإنه لا يتيح لكل من هذين الطرفين أن يساعد المناطق المتخلفة المساعدة التى ينبغى أن تقدم لها. إن هذه المبالغ الطائلة (الفلكية) التى تخصص للبحوث الحربية، مع هؤلاء المهندسين الذين يُقلَبون إلى اختصاصيين فى الحرب النووية، فى وسعها، خلال خمسة عشر عامًا، أن ترفع مستوى المعيشة فى البلاد المتخلفة بنسبة ٦٠٪. وواضح إذن أن مصلحة البلاد المتخلفة ليست لها فى إطالة هذه الحرب الباردة ولا فى تفاقم حدتها، لذلك تتحلل من اتخاذ موقف إذا هى استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ولكن هل تستطيع حقًا؟ لنتذكر مثلاً أن فرنسا تجرب قنابلها الذرية فى أفريقيا. وباستثناء الاقتراحات والاجتماعات والقطيعات الدبلوماسية الصاخبة، لا نستطيع أن نقول إن الشعوب الأفريقية كان لها، فى هذا القطاع الخاص، تأثير كبير على موقف فرنسا.

إن الحياد يولد لدى المواطن فى العالم الثالث اتجاهًا نفسيًا يعبر عن نفسه فى الحياة الجارية بعناد وكبرياء يشبهان التحدى شبهًا كبيرًا. إن هذا الرفض القوى للتسوية، وهذا الإصرار الصلب على عدم الارتباط يشبهان سلوك أولئك المراهقين المزهوين المحرومين، المستعدين دائمًا لأن يضحوا بأنفسهم فى سبيل كلمة. وهذا كله يحيِّر المراقبين الغربيين ويرتج عليهم. ذلك أن هناك تناقضًا فاضحًا بين ما يدعيه هؤلاء الناس وما يوجد وراءهم. إن هذا البلد

الذى يعيش بلا تراموای، ولا جيوش، ولا مال، لا يملك ما يبرر هذه الفخفخة التى يظهر بها، فليس سلوكه هذا إلا ادعاء فارغًا. وتظاهرًا كاذبًا. إن هذا العالم الثالث يشعر المرء بأنه يبتهج فى المأساة، وأنه فى حاجة إلى نصيبه الأسبوعى من النوبات. إن زعماء هذه البلاد الخاوية الذين يتكلمون بصوت عال يثيرون الحنق فى النفس. إن المرء ليود أن يسكتهم. ولكنهم يُغازلون، وتُقدم لهم الازهار، ويُدعون، بل قل بصراحة إنهم يُتنازع عليهم. إن هذا كله لهو من الحياد. إنهم، وهم أميون فى أكثريتهم الساحقة، (٩٨٪)، وقد كتبت من أجلهم مجلدات ضخمة. وهم يسافرون كثيرًا. إن قادة البلاد المتخلفة، وطلاب البلاد المتخلفة، هم من أحسن زبائن شركات الطيران. إن المسئولين الأفريقيين والآسيويين يستطيعون فى شهر واحد أن يحضروا مؤتمرًا عن التخطيط الاشتراكى فى موسكو، وعن محاسن الاقتصاد الحر فى لندن أو فى جامعة كولومبيا. والنقابيون الأفريقيون، من جهتهم، يتقدمون بسرعة متزايدة. وما أن يُعهد إليهم بوظائف فى أجهزة التوجيه حتى يقرروا أن يكونوا اتحادات مستقلة. إنهم لا يملكون خمسين عامًا من العمل النقابى فى إطار بلد مصنع، ولكنهم يعرفون منذ الآن أن العمل النقابى الذى لا شأن له بالسياسة سخف لا معنى له. إنهم لم يجابهوا الألة البورجوازية، ولا نموا وعيهم فى صراع الطبقات، ولكن ربما كان هذا غير ضرورى. ربما.

ولكن فلنعد إلى المعركة الخاصة القائمة بين المستعمَر والمستعمر. ها هنا كفاح مسلح صريح كما ترون. وأمثلته التاريخية: الهند الصينية، إندونيسيا، وأفريقيا الشمالية طبعًا. ولكن الشيء الذى يجب أن لا يغيب عن البال، هو أن هذا الكفاح المسلح كان يمكن أن ينطلق فى أى مكان، كان يمكن أن ينطلق فى غينيا، كما كان يمكن أن ينطلق فى الصومال، وما يزال من الممكن أن ينطلق فى كل مكان، فى أنجولا مثلاً. ووجود الكفاح المسلح يشير إلى أن الشعب قد قرر أن لا يثق إلا بالوسائل العنيفة. إن الشعب الذى ظلوا يقولون له إنه لا يمكن أن يفهم غير لغة القوة، يعزم أمره الآن على أن يعبر عن نفسه بلغة القوة. والحق أن المستعمر قد دله منذ زمان طويل على الطريق التى يجب أن تكون طريقه إذا هو أراد أن يتحرر. والحجة التى يختارها المستعمَر إنما دله عليها المستعمر، فإذا بالمستعمر هو الذى يؤكد اليوم أن الاستعمار لا يفهم إلا لغة القوة. إن النظام الاستعمارى يستمد مشروعيته

من القـوة، وهو لم يحـاول فى أية لحظة من اللحظات أن يراوغ فى هذا الأمـر الذى يتـفق وطبيعة الأشياء. إن كـل تمثال من التماثيل، كتمثال فيدرب أو ليوتى أو بوجو أو بلاندان، إن كل تمثال من هذه التماثيل المغروسة فى الأرض المستعمَرة لا يفتأ يعبر عن شىء واحد بعينه: «نحن هنا بقوة الحراب...» وإتمام هذه العبارة أمر سهل. إن كل مستعمر يفكر، أثناء فترة التمرد والعصيان، على أساس حساب واضح دقيق. ومنطقه هذا لا يستغربه المستعمرون الآخرون، ولكن يجب أن نذكر أيضًا أن هذا المنطق لا يستغربه المستعمرون أيضًا. ونلاحظ أولاً أن المبدأ القائل «إما هم وإما نحن» ليس فى نظر المستعمرين أمرًا مفارقًا مستغربًا، لأن الاستعمار، كما رأينا، إنما هو تنظيم عالم ينقسم انقسامًا ثنائيًا. وحين يشرع المستعمر فى استعمال أساليب معفَّنة، فيطلب إلى كل ممثل من ممثلى الأقلية المضطهدة أن يهلك ثلاثين واحدًا من السكان الأصليين أو مائة أو مائتين، فإنه يلاحظ أنه ما من واحد يستنكر ذلك، حتى أن المشكلة كلها يلخصها عندئذ هذا السؤال: هل يمكن إتمام ذلك دفعة واحدة، أم يجب إتمامه على مراحل[1]؟

فهذا التفكير الذى يتصور، على أساس حسابى جدًا، زوال الشعب المستعمَر لا يجعل المستعمَر يستاء استياءً أخلاقيًا. فلقد عرف دائمًا أن منازلاته مع المستعمر ستدور فى ساحة مغلقة، وهو لذلك لا يضيع وقته فى الشكوى والانتحاب، ولا يكاد يحاول أبدًا أن يُنصف فى الإطار الاستعمارى. والحق أنه إذا كانت حجج المستعمر لا تهز المستعمَر، فلأن هذا المستعمَر قد طرح مشكلة تحرره طرحًا مماثلاً: «لننظم أنفسنا فى فئات تتألف كل منها من مائتى شخص أو من خمسمائة، ولتتولَّ كل فئة من هذه الفئات أمر مستعمر واحد». إن كلاً من الخصمين المتصارعين إنما يبدأ القتال وهو على تلك الحالة النفسية المشتركة بينهما.

---

(١) واضح أن هذا التنظيف يهدم الشىء الذى أرادوا إنقاذه. وذلك بعينه هو ما يشير إليه جان بول سارتر حين يقول: «من مجرد ترديد الأفكار العرقية نكتشف أن اتحاد الجميع فى آن واحد ضد السكان الأصليين أمر لا يمكن تحقيقه، وأنه ليس إلا تراجعًا دائرًا، وأن هذا الاتحاد، من جهة أخرى، لا يمكن أن يتم كتجمع فعال إلا من أجل إبادة المستعمرين، وهى محاولة مستحيلة ما يفتأ المعمر يحاولها، وليست، إذا أمكن تحقيقها، إلا إزالة للاستعمار دفعة واحدة». راجع كتاب سارتر «نقد العقل الديالكتيكى»، ص٣٤٦.

وهذا العنف يمثل، فى نظر المستعمَر، العمل المطلق. ولذلك فالمناضل هو الذى يعمل. إن الأسئلة التى تطرحها المنظمة على المناضل تحمل طابع هذه النظرة إلى الأمور: «أين عملت؟ مع من عملت؟ ماذا عملت؟». إن الجماعة تطلب من كل فرد أن يحقق عملاً لا يتراجع إلى وراء. ففى الجزائر مثلاً، حيث نرى أن الرجال الذين دعوا الشعب إلى الكفاح الوطنى كانوا جميعًا على وجه التقريب محكومين بالإعدام أو ملاحقين من قبل الشرطة، نلاحظ أن الثقة تتناسب مع مقدار ما فى كل حالة من يأس. إن المناضل الجديد يكون مضمونًا إذا كان لا يستطيع أن يرتد إلى النظام الاستعمارى. ويظهر أن هذه الطريقة قد وجدت فى كينيا لدى الماوماو الذين كانوا يطلبون من كل عضو من أعضاء الجماعة أن يضرب الضحية، فكان كل عضو من هؤلاء الأعضاء مسئولاً مسئولية شخصية عن موت الضحية. إن العمل على إماتة المستعمر. وهذا العنف يتيح للضالين والمطرودين من أفراد الجماعة أن يعودوا وأن يرجعوا إلىَ أمكنتهم وأن يرتدوا إلى الجماعة. إن العنف هو الطريقة المثلى. إن الإنسان المستعمَر يتحرر فى العنف وبالعنف. إن هذا العمل يضىء طريق العامل، لأنه يدله على الوسائل ويدله على الهدف. إن شعر سيزار ليكتسب من هذه الطريقة فى فهم العنف، دلالة تجعله كالنبوءة. ويحسن هنا أن ننقل صفحة حاسمة من صفحات مأساته، صفحة يتحدث فيها «الثائر» عن نفسه:

الثائر

اسمى: مُذَلّ، اسم عائلتى: مُهان، حالتى: ثائر والسن: عصر الحجر.

الأم

جنسى: الجنس الإنسانى؛ ديانتى: الأخوة.

الثائر

جنسى الجنس المعذَّب. وديانتى... ولكن ما أنت من يهيئها بخلو يده من السلاح... وإنما أهيئها أنا، بثورتى بقبضتيّ المشدودتين ورأسى الأشعث.

(بهدوء كبير).

ما زلت أذكر يومًا من أيام تشرين الثانى. كان عمره أقل من ستة أشهر، ودخل المولى

الغرفة المسودة بالشجار دخول قمر أحمر وحبس أعضاءه المعروفة الصغيرة، إنه مولى طيب جداً. وطاف بيديه الضخمتين على وجهه المحفر يداعبه. كانت عيناه الزرقاوان تضحكان، وكان فمه يتحداه بأشياء مسكرة. قال وهو ينظر إلي: ستكون حجرة جيدة، وقال أيضًا أشياء أخرى لطيفة، هذا السيد، قال إن عليه أن يتدبر الأمر، وإن عشرين عامًا ليست كثيرة من أجل خلق مسيحى طيب، عبد طيب، تابع مخلص، خادم طيِّع، حاد النظرة قوي الذراع. وتصور هذا الرجل مهَد ابنى مهدَ خادم.

وزحفنا والخناجر فى قبضة اليد.

الأم

ستموت، واحسرتاه!

الثائر

قتلته. . . قتلته بيديَّ.

نعم: قتلاً خصبًا متدفق الخيرات.

كان الوقت ليلاً. زحفنا بين شجرات قصب السكر.

وكانت الخناجر تضحك للنجوم، ولكننا كنا لا نبالى بالنجوم.

وكانت شجرات قصب السكر تخدِّد وجوهنا بجداول من دموع خضر.

الأم

لقد حلمت بابن يغمض عيني أمه.

الثائر

آثرت أن أفتح عيني على شمس أخرى.

الأم

واحسرتا عليك يا بني، ستموت شر ميتة.

الثائر

أماه، بل خير ميتة.

الأم

لأنك كرهت فأسرفت

الثائر

بل لأنني أحببت فأسرفت.

الأم

ارحمني، أغلالك تخنقني، جروحك تدميني.

الثائر

العالم لا يرحمني... ليس فى العالم إنسان بائس يُعدم، ولا إنسان شقى يُعذب، إلا وأقتل فيه وأذل.

الأم

خلِّصه يارب.

الثائر

لن تخلصنى يا قلب من ذكرياتى.

كان ذلك فى ذات مساء من شهر تشرين الثانى.

وفجأة ومضت فى الصمت صيحات.

كنا قد وثبنا، نحن العبيد، نحن الأوغاد، نحن البهائم الصابرة.

وأخذنا نركض كالمجانين... ودوت طلقات الرصاص... وأخذنا نضرب. العرق والدم يرطباننا. ضربنا بين الصرخات، وازدادت أصوات الصرخات، وعلت صيحة فى جهة الشرق، إنها المنازل الفخمة تحترق، وتدفق اللهب هنيًا عذبًا على خدودنا.

وجاء دور الهجوم على منزل المولى.

شددنا النوافذ.

حطمنا الأبواب.

انفتحت غرفة المولى كبيرة واسعة. الضوء فى غرفة المولى يسطع متلألئًا.. والمولى فى الغرفة... إنه هادىء جدًا. وتوقف رجالنا... إنه المولى... ودخلت أنا قال لى بهدوء كبير: أهذا أنت؟ فأجبته: نعم أنا، أنا نفسى. العبد الطيِّع، العبد الأمين، العبد العبد، وفجأة أصبحت عيناه خنفسيتين مروعتين فى أيام المطر... وضربت، فانبجس الدم: هذا هو التعميد الوحيد الذى أتذكره اليوم»[1].

إن عنف النظام الاستعمارى، وعنف المستعمَر، يتوازنان ويتجاوبان فى تجانس مشترك، وسيطرة العنف هذه لابد أن تصبح أشد هولاً كلما زاد عدد المستوطنين. إن اشتداد العنف لدى الشعب المستعمَر سيكون متناسبًا مع العنف الذى يمارسه النظام الاستعمارى المرفوض. إن حكومات البلاد المستعمرة هى فى المرحلة الأولى من فترة الثورة، مستعبدة للمعمرين. فهؤلاء المستعمرون يهددون المستعمَرين ويهددون فى الوقت نفسه حكوماتهم. وسوف يستعملون فى محاربة هذه وأولئك طرائق واحدة بعينها. إن اغتيال عمدة إيفيان لا يختلف فى دوافعه عن اغتيال على بومنجل. إن المشكلة فى نظر المستعمرين ليست الاختيار بين جزائر جزائرية وجزائر فرنسية، بل بين جزائر مستقلة وجزائر مستعمرة. وكل ما عدا ذلك كلام أو خيانة. إن منطق المستعمر منطق حانق، ولست تستغرب المنطق المعاكس الذى يعبر عنه سلوك المستعمر إلا إذا كنت تدرك بوضوح آليات التفكير لدى المستعمَر. متى اختار المستعمَر أن يواجه العنف بالعنف، رأيت أعمال الانتقام البوليسية تستدعى على نحو آلى أعمال انتقام تقوم بها القوى الوطنية. ومع ذلك ليس هنالك تعادل فى النتائج. ذلك أن القصف بالرشاشات من الطائرات أو القصف بالمدافع من الأسطول، يفوقان ردود المستعمَر هولاً ورهبة. ومن شأن تكرر الإرهاب هذا أن يبدد الأوهام من رؤوس أكثر المستعمَرين ضلالاً وضياعًا. فإنهم يلاحظون ملاحظة مباشرة أن جميع الخطب التى تلقى عن المساواة بين أفراد البشر، ويتكدس بعضها فوق بعض، لا تخفى هذه الحقيقة المبذولة وهى أن الرجال السبعة الذين قتلوا أو جُرحوا فى مضيق ساكامودى قد أثاروا استياء الضمائر المتحضرة، على حين أن أحدًا لم يعبأ بتدمير قرى جرجور وجرة، ولا يذبح السكان الذين كانوا سبب الكمين. إرهاب، وإرهاب

(١) إيميه سيزار «الأسلحة المعجزة» «وسكت الطلاب»، ص١٣٣-١٣٧، جاليمار.

مقابل، عنف وعنف مقابل . . . ذلك ما يسجله المراقبون في مرارة، حين يصفون دائرة الحقد، الواضحة العنيدة في الجزائر.

إن في الكفاح المسلح شيئًا يصح أن نسميه «النقطة التي لا عودة بعدها». ونستطيع أن نقول إن الأمر الذي يحقق الوصول إلى هذه النقطة إنما هو أعمال القمع الضخمة التي تشمل جميع قطاعات الشعب المستعمَر. وهذه النقطة قد تم الوصول إليها في الجزائر عام ١٩٥٥ حين وقعت الأحداث التي أودت باثني عشر ألف ضحية في فيليبفيل، وكذلك عام ١٩٥٦ حين أنشأ لاكوست ميليشا المدن والأرياف. فعندئذ أدرك جميع الناس، وأدرك المستعمرون أنفسهم «أن الأمر لن يرجع بعد الآن إلى ما كان عليه». على أن الشعب المستعمَر لا «يفتح» حسابًا بضحاياه. إنه يسجل الفراغ الضخم الذي حدث في صفوفه من حيث إنه شر لابد منه، لكنه، وقد قرر أن يرد على العنف بالعنف، يقبل جميع النتائج التي تترتب على ذلك. وكل ما يطلبه عندئذ هو أن لا يطالب «بفتح حساب» بضحايا الآخرين. إن المستعمَر يرد على العبارة القائلة بأن «جميع السكان الأصليين سواء»، بعبارة تقول: «إن جميع المستعمرين سواء». إن المستعمَر لا يشكو أمره إلى أحد حين يُعذبونه، أو حين يقتلون امرأته أو يغتصبونها. إن للحكومة التي تمارس الاضطهاد أن تعين في كل يوم لجان تحقيق. ولكن لجان التحقيق هذه لا وجود لها في نظر المستعمر. وهذه سبع سنين تقريبًا تنقضي في جرائم ترتكب بالجزائر، دون أن يمثل فرنسي واحد أمام القضاء لأنه قتل جزائريًا. إن المستعمَر، سواء في الهند الصينية أو في مدغشقر، أو سائر المستعمرات، قد أدرك دائمًا أن عليه أن لا ينتظر شيئًا من الضفة الأخرى.

إن العمل الذي يقوم به المستعمِر هو أن يجعل حتى أحلام المستعمَر في الحرية مستحيلة. والعمل الذي يقوم به المستعمَر هو أن يتصور جميع الوسائل الممكنة لإبادة المستعمِر. إن الانقسام الثنائي الذي أوجده المستعمر قد ولّد على مستوى التفكير انقسامًا ثنائيًا في ذهن المستعمَر.

إن ظهور المستعمر كان معناه لدى المستعمَر موت المجتمع الأصلي، وفناء الثقافة القديمة، وتجمد الحياة في الأفراد، في آن معًا. فالمستعمر يرى الآن أن الحياة لا يمكن أن تعود إلى الانبثاق إلا من جثة المستعمِر حين يصبح المستعمِر جثة متفسخة. ذلكم هو هو التقابل الكامل بين تفكير المستعمَر وتفكير المستعمِر.

غير أن هذا العنف، لأنه العمل الوحيد الذى يقوم به الشعب المستعمَر، يكتسى طابعًا إيجابيًا. فإن هذا الكفاح العنيف يجمع الأفراد، إذ إن كل واحد منهم يصبح حلقة عنيفة فى السلسلة الكبرى، فى الجسم الكبير العنيف الذى انبجس ردًا على عنف الاستعمار، فإذا الفئات المتخلفة يعرف بعضها بعضًا، ويلتقى بعضها ببعض، وإذا الأمة المقبلة تكون منذ الآن كتلة غير منقسمة. إن الكفاح المسلح يعبىء الشعب، أى يقذفه فى اتجاه وحيد ليس له ثانٍ.

إن تعبئة الجماهير، حين تتحقق بمناسبة حرب التحرير، تبث فى ضمير كل فرد فكرة القضية المشتركة، والمصير الوطنى والتاريخ القومى. لذلك نرى المرحلة الثانية، أى مرحلة بناء الأمة، يسهِّلها وجود هذا الاندماج الذى عُجن بالدم والحقد. وهنا نفهم أصالة الألفاظ المستعملة فى البلاد المتخلفة. لقد كان الشعب يُدعى فى عهد الاستعمار إلى الكفاح ضد المستعمر الغاشم. حتى إذا تحقق التحرر الوطنى، أصبح يُدعى إلى الكفاح ضد الفقر، ضد الأمية، ضد التخلف الاقتصادى. فالكفاح يظل مستمرًا، ويتحقق الشعب من أن الحياة معركة دائمة لا تنتهى.

قلنا إن العنف الذى تعمد إليه المستعمر يوحِّد الشعب. والواقع أن الاستعمار هو بحكم تركيبه يفرق صفوف الشعب ويغذى النزعة الإقليمية. إن الاستعمار لا يكتفى بأن يعلم أن هناك قبائل، وإنما هو يعزز وجود هذه القبائل، ويفصل بعضها عن بعض، ويميز بعضها عن بعض. إن النظام الاستعمارى يغذى الزعامات المحلية وينشط الانقسامات الدينية. ولكن العنف يوحد بين الأفراد على الصعيد القومى. وهو لذلك يحمل فى أرحامه بذور القضاء على الإقليمية والقبلية. ومن أجل هذا نرى الأحزاب الوطنية تقسو قسوة خاصة على الزعماء التقليديين، إن تصفية هؤلاء الزعماء تمهيد لتوحيد الشعب.

والعنف يطهر الأفراد من السموم. إنه يخلص المستعمَر من مركب النقص الذى يعيث فى نفسه فسادًا، ويحرره من موقف المشاهد أو اليائس. إنه يرد إليه شجاعته، ويرد إليه اعتباره فى نظر نفسه. وحتى حين يكون الكفاح المسلح رمزيًا، وحتى حين ينتهى بتصفية الاستعمار تصفية سريعة، فإن الشعب يتسع وقته لأن يدرك أن هذا التحرير قد قام به جميع الأفراد وقام به كل فرد، وأن القائد لا يمتاز بفضل خاص. إن العنف يرفع الشعب إلى مستوى القائد.

ومن هنا كان ذلك النوع من الهجوم على الأداة البروتوكولية التى تبادر بعض الحكومات الفتية إلى استعمالها. إن الجماهير التى شاركت بالعنف فى التحرير الوطنى لا تسمح لأحد أن يعد نفسه «محرراً». إنها حريصة أشد الحرص على ثمرة نضالها، وهى تحاذر أن تعهد بمستقبلها وقدرها ومصير شعبها إلى إله معبود.

لقد كانت بالأمس غير مسئولة، ولكنها تريد اليوم أن تفهم كل شىء وأن تقرر كل شىء. إن الضمير الذى أضاءه العنف بنوره، يستعصى على كل محاولة لتهدئة الخواطر. ولذلك فإن مهمة الدجالين والانتهازيين والسحرة ستكون مهمة شاقة. إن النضال الذى قذف بالجماهير إلى معركة حامية يكسبها ميلاً قويًا إلى الأمور المحسوسة الملموسة. ويصبح من المستحيل على أحد أن يضللها ويفتنها عن أمرها.

●●●

فى العنف

أشرنا مراراً فى الصفحات السابقة إلى أن المسئول السياسى فى المناطق المتخلفة لا يفتأ يدعو شعبه إلى القتال، قتال ضد الاستعمار، قتال ضد الفقر والتخلف الاقتصادى، قتال ضد التقاليد التى تفرض العقم والشلل. إن الألفاظ التى يستعملها فى نداءاته إنما هى ألفاظ قائد حربى: «تعبئة الجماهير»، «جبهة الزراعة»، «جبهة الانتصار على الأمية»، «الانكسارات التى منينا بها»، «الانتصارات التى حققناها» إن الأمة الفتية المستقلة تعيش وتتطور أثناء السنوات الأولى فى جو من المعارك. ذلك أن القائد السياسى فى البلد المتخلف يروعه طول الطريق التى يجب أن تقطعها بلاده، فإذا هو ينادى شعبه قائلاً: «لنشد على بطوننا ولنعمل». ويستبد بالبلاد نوع من الحمى الخلاقة، فإذا هى تندفع فى جهد جبار غير مألوف. ولا يكون هدف البرنامج الخروج من المأزق فحسب بل اللحاق بركب الأمم الأخرى بالوسائل المحدودة المتوافرة. فالناس يقولون: لئن وصلت الشعوب الأوروبية إلى هذه المرحلة من النمو والتطور، فإنها قد حققت ذلك بجهودها، فلنبرهن إذن العالم ولأنفسنا على أننا نستطيع أن نحقق ما حققت تلك الشعوب. وعندى أن هذه الطريقة فى طرح مشكلة تطور البلاد المتخلفة ليست منصفة ولا معقولة.

لقد حققت البلاد الأوروبية وحدتها القوية فى لحظة كانت فيها بورجوازياتها الوطنية قد ركزت فى أيديها أكثر الثروات. كان التجار وأصحاب الحرف، والكهنوت ورجال المصارف، يحتكرون فى النطاق الوطنى الأموال والتجارة والعلوم. كانت البورجوازية تمثل الطبقة التى تمتاز بأكبر نشاط وتنعم بأكبر رخاء. وكانت صعودها إلى السلطة يتيح لها أن تندفع فى عمليات حاسمة: كالتصنيع وتطوير وسائل المواصلات، ثم ما لبثت أن أخذت تبحث عن أسواق «فيما وراء البحار».

وكانت شتى الدول تعيش وضعاً اقتصادياً واحداً إبان تحقيق وحدتها الوطنية، باستثناء بعض الحالات التى تختلف اختلافاً طفيفاً (فبريطانيا كانت متفوقة بعض التفوق). فلم تكن أية أمة من الأمم تهين الأمم الأخرى بصفات نموها ومزايا تطورها.

أما الآن، فإن الاستقلال الوطنى والنشوء القومى فى المناطق المتخلفة يكتسبان وجوهًا جديدة كل الجدة. فهذه البلاد المتخلفة لا تتمتع بتطور اقتصادى كبير، باستثناء بعض المشاريع الباهرة. والجماهير فى هذه البلاد تكافح فقرًا واحدًا، وتناضل بحركات واحدة، وترسم ببطونها الضامرة ما أسماه بعضهم جغرافية الجوع. هو عالم متخلف، عالم بائس، عالم ظالم للإنسان. ولكنه أيضًا عالم لا أطباء فيه ولا مهندسين ولا إداريين. وإزاء هذا العالم ترتع الأمم الأوروبية فى النعيم والرخاء والترف. والحق أن هذه البحبوحة التى تتمتع بها أوروبا فضيحة، لأنها إنما قامت على أكتاف العبيد «واغتذت من دماء العبيد، وجاءت رأسًا من أرض هذا العالم المتخلف، سطحها وجوفها. إن رخاء أوروبا وتقدمها قد جُلبا من عرق وجثث الزنوج والعرب والهنود والصفر. هذا أمر قررنا ألا ننساه. حين يزعج بلدًا استعماريًا طموح مستعمرة من المستعمرات إلى الاستقلال، يقول للقادة الوطنيين: «إذا شئتم الاستقلال، خذوه وعودوا إلى القرون الوسطى» فإن الشعب الذى نال استقلالاً حديثًا يوافق على هذا، ويقابل التحدى بتحد مثله. ويعمد الاستعمار فعلاً إلى سحب رؤوس أمواله وفنِّيِّيه، ويضع حول الدولة النَّاشئة سياجًا من الضغط الاقتصادى[1].

(١) فى الظرف الدولى الراهن نرى الرأسمالية لا تعمد إلى الحصار الاقتصادى ضد المستعمرات الآسيوية أو الأفريقية وحدها. فالولايات المتحدة قد دشنت بأعمالها العدائية ضد كاسترو، فى نصف الكرة الغربى فصلاً جديدًا من تاريخ تحرر الإنسان. يجب أن تأخذ أفريقيا درسًا من أمريكا اللاتينية المؤلفة من بلاد مستقلة ممثلة فى هيئة الأمم المتحدة. إن هذه البلاد التى كانت مستعمرة ما تزال منذ تحررها إلى يومنا هذا تقاسى الإرهاب والعوز من وحشية الرأسمالية الغربية. إن تحرر أفريقيا ونمو الوعى لدى البشر قد أتاحا لشعوب أمريكا اللاتينية أن تتخلص من تلك النغمة العتيقة، أعنى تعاقب الديكتاتوريات متشابهة لا يختلف بعضها عن بعض. لقد استلم كاسترو زمام السلطة وأعطاه للشعب. وشعر الأمريكان بأن هذا الخروج عن طاعتهم كارثة قوية، وأخذت الولايات المتحدة تنظم عصابات من المرتزقة لمحاربة الثورة، وتختلق حكومة مؤقتة، وتحرق محاصيل قصب السكر، وتقرر أخيرًا أن تخنق الشعب الكوبى خنقًا بلا رحمة. ولكن هيهات أن تستطيع ذلك. إن الشعب الكوبى سيقاسى كثيرًا من الآلام، ولكنه سينتصر. وهذا جانيو كوادروس، رئيس البرازيل، يعلن فى خطاب ذى قيمة تاريخية أن بلاده ستدافع عن الثورة الكوبية بجميع ما تملك من وسائل. لعل الولايات المتحدة ستتراجع هى أيضًا أمام إرادة الشعوب. وسنبتهج يومئذ أكبر الابتهاج لأن ذلك اليوم سيكون حاسمًا بالنسبة إلى رجال العالم ونسائه قاطبة. إن الدولار الذى لا يكفله، على وجه الإجمال، إلا العبيد المنتشرون فى الأرض، فى آبار البترول بالشرق الأوسط، ومناجم البيرو أو الكونغو، ومزارع شركة الفواكه المتحدة أو فايرستون، لن يسيطر بعد ذلك سيطرة جبارة على هؤلاء العبيد الذين أوجدوه وما يزالون يغذونه من لحوم أجسامهم وقد خوت رؤوسهم وخوت بطونهم.

وبذلك تنقلب نعمة الاستقلال إلى لعنة الاستقلال. إن القوة الاستعمارية تحكم على الشعب الناشيء بالتقهقر، بما تملك من وسائل ضخمة لإنزال العقوبة فيه. إن القوة الاستعمارية تعلن جهاراً نهاراً: «ما دمتم تريدون الاستقلال، فخذوه وموتوا». والقادة الوطنيون ليس لهم عندئذ إلا أن يلتفتوا نحو شعبهم، طالبين منه أن يبذل جهداً ضخماً. فمن هؤلاء الرجال الجائعين يُطلب أن يتقشفوا، ومن هذه العضلات الناحلة الضامرة يطلب عمل جبار. ويقوم نظام أساسه الاكتفاء الذاتى، وتحاول كل دولة بالوسائل الضئيلة التى تملكها، أن تتدارك الجوع القومى الكبير، أن تتدارك البؤس القومى الكبير. ونشهد تعبئة شعب ينهك ويرهق منذئذ، أمام أوروبا المتخمة المزدرية.

إن بلاداً أخرى من العالم الثالث ترفض مقاساة هذا الامتحان، وتقبل شروط الدولة التى كانت وصية عليها، فتستفيد من وضعها الاستراتيجى الذى يجعلها موقعاً ممتازاً فى الصراع بين الكتلتين، فتعقد اتفاقات وتنحاز. وبذلك يتحول البلد الذى كان محتلاً إلى بلد تابع من الناحية الاقتصادية. فالدولة التى كانت تستعمر هذا البلد، تبقى على بعض العلاقات التجارية ذات الطابع الاستعمارى، بل تعزز هذه العلاقات فى بعض الأحيان، وتقبل أن تغذى ميزانية الأمة المستقلة بحقن صغيرة. وهكذا نرى أن وصول البلاد المستعمرة إلى الاستقلال يضع العالم أمام مشكلة رئيسية: إن تحرر البلاد المستعمرة يكشف القناع عن حالتها الواقعية ويجعل احتمال هذه الحالة أمراً لا يطاق. إن الصراع الأساسى الذى كان يبدو صراعاً بين الاستعمار ومعاداة الاستعمار، وحتى بين الرأسمالية والاشتراكية، يفقد منذ الآن كثيراً من أهميته، والمشكلة التى تملأ الأفق، إنما هى ضرورة إعادة توزيع الثروات، وعلى الإنسانية أن تلبى هذه المشكلة وإلا تزعزعت وتزلزلت.

وقد اعتقد الناس عامة أنه آن للعالم، والعالم الثالث خاصة، أن يختار بين النظام الرأسمالى والنظام الاشتراكى. إن البلدان المتخلفة التى استفادت من التنافس الضارى القائم بين النظامين من أجل أن تكفل انتصار كفاحها فى سبيل التحرر الوطنى، يجب عليها مع ذلك أن ترفض الإقامة فى نطاق هذا التنافس. إن على العالم الثالث أن لا يكتفى بتحديد ذاته على أساس قيم مسبقة.

إن على البلدان المتخلفة أن تلتمس قيمًا خاصة بها، وأن تضع المناهج التى تناسبها، وأن تتبع الأسلوب الذى يلائمها. إن المشكلة المحسوسة التى نجد أنفسنا أمامها ليست أن نختار، مهما كلف الأمر، بين الاشتراكية والرأسمالية كما حددهما أناس يختلفون عنا مكانًا وزمانًا. إننا نعرف طبعًا أن النظام الرأسمالى، من حيث هو طراز حياة، لا يمكن أن يتيح لنا تحقيق مهمتنا القومية والعالمية، فالاستغلال الرأسمالى والاحتكارات أعداء البلدان المتخلفة، كما أننا نعلم أن اختيار نظام اشتراكى يلتفت برمته إلى مجموع الشعب، ويقوم على مبدأ اعتبار الإنسان أثمن قيمة، سيتيح لنا أن نسير سيرًا أعظم سرعة وأكثر انسجامًا، وسيحول بذلك دون قيام مجتمع مشوه تملك فيه حفنة من الناس جملة القوى الاقتصادية والسياسية على حطام سائر الأمة.

ولكن لكى يستطيع هذا النظام أن يعمل عملاً سليمًا، ولكى نستطيع فى كل لحظة أن نحترم المبادئ التى نستوحيها، فإننا نحتاج إلى شىء آخر غير تشغيل الأفراد. إن بعض البلدان المتخلفة تقوم فى هذا الاتجاه بجهد جبار، فالرجال والنساء، والشباب والشيوخ، تدفعهم الحماسة إلى القيام بأعمال شاقة حقًا، ويعلنون أنهم خدم الأمة. فبذل النفس وازدراء كل شاغل غير جماعى، يوجدان أخلاقًا قوية تشد أزر الإنسان وترد إلى نفسه الثقة بمصير العالم، وتحير المراقبين المتشككين. ولكننا نعتقد مع ذلك أن جهدًا كهذا الجهد لا يمكن أن يتواصل مدة طويلة على هذه السرعة المحمومة. لقد ردت هذه البلاد على التحدى بتحد مثله بعد انسحاب الدولة المستعمرة انسحابًا غير مشروط، وآل حكم البلاد إلى جماعة جديدة، ولكن لابد فى الواقع من تغيير كل شىء، ومن إعادة النظر فى جميع الأمور. لقد كان النظام الاستعمارى يهتم بثروات معينة، بموارد معينة، هى تلك التى تغذى صناعاته. وما من دراسة جدية حتى الآن تناولت الأرض، سطحها وجوفها. لذلك ترى الأمة الناشئة المستقلة نفسها مضطرة إلى الاستمرار فى الطرق الاقتصادية التى أنشأها النظام الاستعمارى. صحيح أنها تستطيع الآن أن تصدر إلى بلاد أخرى، إلى مناطق نقدية أخرى، ولكن الأساس الذى يقوم عليه التصدير لم يتبدل تبدلاً أساسيًا.

لقد أنشأ النظام الاستعمارى دورات اقتصادية جامدة، والأمة الناشئة مضطرة إلى الإبقاء على هذه الدورات الاقتصادية، وإلا كانت تعرض نفسها لكارثة. فربما كان من

الضرورى إذن أن يستأنف كل شيء استئنافًا جديدًا، وأن تُبدل طبيعة عمليات التصدير لا الجهات التى يتم التصدير إليها فحسب، ويجب أن تُسأل الأرض منت جديد عن مواردها، ويجب أن يُسأل عن ذلك باطن الأرض، وأن تُسأل عنه الأنهار، وربما الشمس أيضًا! ومن أجل هذا لا يكفى تجنيد الإنسان فى العمل، بل لابد من رؤوس أموال، ومن خبراء، ومهندسين، وميكانيكيين، وهلم جرًا. . وفى اعتقادى -أقول هذا بصراحة- إن الجهد الجبار الذى يُهيب قادةُ الشعوب المتخلفة بشعوبهم أن يقوموا به لن يعطى الثمرات المرجوة، فإذا لم تُبدل شروط العمل فستنقضى قرون طويلة قبل أن نستطيع رد الإنسانية إلى هذا العالم الذى أنزلته القوى الاستعمارية إلى الحيوانية.

والحقيقة هى أن علينا أن نقبل هذه الشروط؛ علينا أن نرفض رفضًا قاطعًا الوضع الذى تريد البلاد الغربية أن تفرضه علينا. إن الاستعمار لم يشف غليله حين سحب من أراضينا أعلامه وشرطته. لقد ظل الرأسماليون قرونًا يسلكون فى العالم المتخلف سلوك مجرمى الحروب. لقد كان الترحيل والقتل والأعمال الشاقة والاستعباد، كان ذلك فى الوسائل التى تستعملها الرأسمالية لزيادة مخزوناتها من الذهب والألماس، ومضاعفة ثرواتها، وتحقيق قوتها وسلطتها. منذ زمن ليس ببعيد أحالت النازية أوروبا كلها إلى مستعمرة، فلما انتهت الحرب رأينا مختلف الشعوب الأوروبية تطالب بتعويضات، وتطلب أن ترد إليها ثرواتها التى سُرقت منها مالاً وبضاعة؛ ورأينا الآثار الثقافية، كاللوحات والتماثيل والزخارف، تُعاد إلى أصحابها. لقد كانت أفواه الأوروبيين غداة عام ١٩٤٥ تردد عبارة واحدة: «يجب أن تدفع ألمانيا». وهذا اديناور يعتذر من اليهود بلسان الشعب الألمانى، عند افتتاح محاكمة إيخمان، ويجدد لهم العهد لأن تستمر بلاده فى أن تدفع لدولة إسرائيل المبالغ الضخمة التى هى تعويض عن جرائم النازيين!

وعلى هذا المنوال نقول إن الدول الاستعمارية ترتكب خطأ فادحًا، وتقترف ظلمًا لا يوصف إذا هى اكتفت بأن تسحب من أرضنا قواها العسكرية وأجهزتها الإدارية والاقتصادية التى كانت وظيفتها اكتشاف ثرواتنا واستخراجها وتصديرها إلى عواصم البلاد المستعمرة. إن التعويض المعنوى الذى يحققه لنا الاستقلال لا يعمينا عن الحقيقة، إنه لا يطعمنا من جوع. إن ثروات البلاد الاستعمارية هى ثروتنا أيضًا. لقد أتخمت أوروبا

ذهبًا ومواد أولية من البلاد المستعمرة: من أمريكا اللاتينية والصين وأفريقيا. فمن جميع هذه القارات التى تتيه عليها أوروبا اليوم بثرائها الضخم، كانت تمضى منذ قرون إلى أوروبا هذه، الأحجار الكريمة والبترول، والحرير والقطن، والأخشاب والمنتجات المحلية. إن أوروبا إنما خلقها العالم الثالث. والثروات التى تتخم أوروبا اليوم إنما سرقتها أوروبا من الشعوب المتخلفة؛ إن موانىء هولانده وليفربول، ومخازن بوردو وليفربول، المتخصصة فى تجاة الرقيق إنما اشتهرت بفضل ملايين العبيد المنقولين. فإذا سمعنا رئيس دولة أوروبية يقول، وقد وضع يده على قلبه، إن من الواجب تقديم المعونة للشعوب المتخلفة المسكينة فإن هذا لا يجعلنا نرتعش اعترافًا بالجميل، بل نقول: «هذا تعويض عادل سيقدم إلينا». لذلك لا نقبل أن تكون المساعدات التى تقدم للبلاد المتخلفة برنامج «صدقات». فإنما ينبغى أن تكون هذه المساعدات منبثقة عن وعيين، وعى يعيه المستعمَرون فيفهمون أن هذا حقهم، ووعى تعيه الدول الرأسمالية فتفهم أن عليها حقًا أن تدفع. فإذا أبت البلاد الرأسمالية -عن غباء ولا أقول عن نكران الجميل- إذا أبت أن تدفع، فإن منطق نظامها نفسه سيتولى خنقها. إن من الأمور الواقعة أن الأمم الفتية لا تجتذب رؤوس الأموال الخاصة كثيرًا. هناك أسباب كثيرة تبرر وتعلل هذا التحفظ من قبل الاحتكارات. ومتى عرف الرأسماليون، وهم يعرفون ذلك أول من يعرف، أن حكومتهم تتهيأ للجلاء عن المستعمرة، فإنهم يسارعون إلى سحب جميع رساميلهم من هذه المستعمرة. إن هروب الرساميل على هذه الصورة السريعة ظاهرة من أثبت ظاهرات زوال الاستعمار.

إن الشركات الخاصة لا ترضى أن توظف رساميلها فى البلاد المستقلة إلا إذا كُفلت لها شروط معينة، وقد اتضح بالتجربة أن الشروط التى تطلبها هذه الشركات الخاصة لا يمكن قبولها إذ لا يمكن تحقيقها. إن الرأسماليين وهم يلتزمون مبدأ الربح المباشر متى خرجوا إلى «ما وراء البحار»، يترددون كثيرًا إزاء كل توظيف لرساميلهم طويل الأمد. إنهم يرفضون بل يعادون فى كثير من الأحيان برامج التخطيط التى تضعها الحكومات الفتية. وكل ما يمكن أن يقبلوه، عند الاقتضاء، هو أن يقدموا للدول الفتية قروضًا مالية، على شرط أن يحتفظ بهذا المال لشراء المنتجات المصنوعة والآلات، أى لتشغيل مصانع البلاد المستعمرة.

والواقع أن هذا الحذر الذى تبديه الأوساط المالية الغربية إنما مرده إلى حرصها على ألا تقوم بأية مجازفة، لذلك نراها تشترط استقرارًا سياسيًا وجوًا اجتماعيًا هادئًا، وهما أمران لا يمكن توافرها، لما يعانيه الأهلون غداة الاستقلال من وضع محزن. وترى تلك الأوساط المالية التى تبحث عن ضمانة لا يمكن أن توفرها لها هذه البلاد التى كانت مستعمرة، نراها تطالب بإبقاء بعض القوات العسكرية، أو تطالب بدخول الدولة الناشئة فى معاهدات اقتصادية أو أحلاف حربية. وتضغط الشركات الخاصة على حكوماتها مطالبة على الأقل بإقامة قواعد عسكرية مهمتها حماية مصالح هذه الشركات؛ ثم تطلب الشركات من حكوماتها آخر الأمر أن تضمن الرساميل التى تقرر هذه الشركات استثمارها فى هذه المنطقة أو تلك من المناطق المتخلفة.

ولما كان لا يقبل هذه الشروط التى تطلبها الشركات الكبرى والاحتكارات إلا عدد قليل من البلدان، فإن الرساميل تحرم عندئذ من وجود أسواق ثابتة لها، وتبقى محصورة فى أوروبا، وتتجمد، وتتجمد خاصة لأن الرأسماليين يرفضون استثمارها فى بلادهم نفسها، لأن الأرباح هنالك ضئيلة، ولأن رقابة الضرائب تبعث اليأس فى نفوس أجرأ الرأسماليين.

وهذا الوضع إذا طال أدى إلى الكارثة. إن الرساميل لا تتحرك، أو أن حركتها تقل كثيرًا. إن البنوك السويسرية ترفض إيداع الرساميل، وأوروبا تختنق. إن الرأسمالية العالمية تُحتضر، رغم المبالغ الضخمة التى تبتلعها النفقات الحربية.

على أن هناك خطرًا آخر يهدد الرأسمالية العالمية. إن شعوب العالم الثالث الذى تتركه الدول الغربية وتحكم عليه بالتقهقر إلى وراء، أو بالجمود فى مكانه على الأقل، بسبب أنانيتها وخلوها من الأخلاق، إن شعوب العالم الثالث هذه ستقرر أن تتطور على أساس الاكتفاء الذاتى الجماعى. فسرعان ما ستحرم الصناعات الغربية إذن من أسواقها فيما وراء البحار، فترقد الآلات فى مستودعاتها، ويقوم عندئذ فى السوق الأوروبية صراع عنيف بين الأوساط المالية والشركات الكبرى؛ ومن شأن إغلاق المصانع وتسريح العمال وانتشار البطالة أن يدفع الطبقة العاملة الأوروبية إلى خوض كفاح صريح ضد النظام الرأسمالى. وستدرك الاحتكارات عندئذ أن مصالحها نفسها تملى عليها أن تساعد البلاد المتخلفة، أن تساعدها مساعدات ضخمة دون أن تفرض عليها شروطًا كثيرة. وهكذا نرى أن شعوب

العالم الثالث الناشئة تخطىء إذا هى استجدت البلاد الرأسمالية. إننا أقوياء بحقنا وبعدالة مواقفنا. وعلينا أن نشرح للبلاد الرأسمالية أن المشكلة الأساسية فى العصر الراهن ليست هى الحرب بين النظام الاشتراكى وبينها، فيجب إنهاء هذه الحرب الباردة التى لا تؤدى إلى شىء، ويجب وقف هذه الاستعدادات لنسف العالم بالقنابل النووية، ويجب توظيف الأموال فى المناطق المتخلفة بسخاء، ويجب تقديم المساعدات الفنية لهذه المناطق المتخلفة. إن مستقبل العالم رهن بحل هذه المشكلة.

ولتكفّ البلاد الرأسمالية عن محاولة جذب البلاد الاشتراكية إلى الاهتمام بـ«مصير أوروبا» فى وجه الجموع الملونة الساغبة. إن الانتصار الذى حققه الكومندان غاغارين ليس نجاحًا «تفخر به أوروبا»، على حد زعم الجنرال دوجول. إن رؤساء دول البلاد الرأسمالية ورجال الثقافة فى هذه البلاد الرأسمالية، قد أخذوا منذ حين يقفون من الاتحاد السوفياتى موقفًا ملتبسًا، فبعد أن كتّلوا جميع قواهم للقضاء على النظام الاشتراكى أصبحوا يفهمون الآن أن عليهم أن يتعاونوا معه، لذلك أخذوا يتوددون إليه، ويكثرون من مناورات الإغراء، ويذكرون الشعب السوفياتى دائمًا بأنه «جزء من أوروبا».

إنهم إذ يصورون العالم الثالث فى صورة موجة تهدد بابتلاع أوروبا كلها، لن يستطيعوا أن يفرقوا شمل القوى التقدمية التى تريد أن تقود الإنسانية إلى السعادة. إن العالم الثالث لا يريد أن ينظم حملة صليبية واسعة على أوروبا. وكل ما يطلبه من هؤلاء الذين أبقوه عبدًا خلال قرون، هو أن يساعدوه على رد الاعتبار للإنسان، وعلى تحقيق النصر للإنسان فى كل مكان إلى الأبد.

ولكن من الواضح أننا لا نبلغ من السذاجة حد الاعتقاد بأن هذا الأمر سيتحقق بمعاونة الحكومات الأوروبية وحسن نيتها. إن هذا العمل العظيم الذى يبتغى إعادة إدخال الإنسان إلى العالم، الإنسان كله، إنما يتم بمعونة الجماهير الأوروبية التى يؤسفنا أنها كثيرًا ما تحالفت فى مشكلات المستعمرات مع مستعبدينا الذين هم مستعبدوها أيضًا. ومن أجل تحقيق ذلك لابد أن تقرر الجماهير الأوروبية أولاً أن تستيقظ من سباتها، وأن تنفض أدمغتها، وأن تكف عن تمثيل ذلك الدور الذى كانت تمثله إلى الآن بغير شعور بالمسئولية، دور الحسناء النائمة فى الغابة.

الانطلاق العفوى
عظمته، ومواطن ضعفه

قادتنا تأملاتنا فى العنف إلى إدراك أن هناك فى أكثر الأحوال مسافة وفرقًا فى السرعة بين أجهزة الحزب الوطنى وبين الجماهير . إن فى كل منظمة سياسية أو نقابية هوة تقليدية بين الجماهير التى تطالب بإصلاح أحوالها إصلاحًا مباشرًا شاملاً، وبين القيادات التى لمعرفتها بما يمكن أن يخلقه الرأسماليون من عقبات، تجعل مطالبها محدودة مقصورة . لذلك نلاحظ فى كثير من الأحيان أن الجماهير تظل فى حالة استياء عنيد من القيادات . إن الجماهير تشعر، بعد كل حركة نضالية قامت بها للمطالبة بحقوقها، أن القيادات قد خانتها، فى حين نرى القيادات تحتفل بالنصر . إن تكاثر الحركات التى تنطلق مطالبة بالحقوق، وتكاثر الصراعات النقابية، هما اللذان سيحققان الوعى السياسى لدى هذه الجماهير، والمقصود بالوعى السياسى لدى النقابى هو إدراك النقابى لهذه الحقيقة، وهى أن النزاع المحلى ليس تصفية نهائية للحساب بينه وبين أرباب العمل . إن المثقفين المستعمَرين الذين درسوا فى العواصم الاستعمارية نظام الأحزاب السياسية وكيفية عملها يُنشئون فى بلادهم منظمات شبيهة بغية تعبئة الجماهير والضغط على الإدارة الاستعمارية . إن قيام الأحزاب السياسية فى البلاد المستعمرة معاصر لنشوء نخبة من المثقفين والتجار . وهذه النخبة تخلع على التنظيم قيمة كبيرة من حيث هو تنظيم، وكثيرًا ما تتغلب عبادة التنظيم هذه على الدراسة العقلية للمجتمع المستعمَر . إن فكرة الحزب مستوردة من البلاد المستعمرة فترى النخبة تحاول أن تطبق هذه الأداة النضالية الحديثة تطبيقًا آليًا على مجتمع بدائى، غير متوازن، مجتمع تعيش فيه أنظمة مختلفة معًا، تعيش فيه أنظمة العبودية، والقنانة، والمقابضة، والحرف، وعمليات البورصة .

إن ضعف الأحزاب السياسية ليس ناشئًا فقط عن أنها تستعمل استعمالاً آليًا هذا التنظيم الذى يقود الطبقة العاملة فى مجتمع رأسمالى بلغ درجة عالية من التصنيع . إن هناك على صعيد هذا النموذج من التنظيم تجديدات وتكييفات كان ينبغى أن تنشأ . إن الخطيئة الكبرى، أن الآفة الكبرى التى تعيب الأحزاب السياسية فى المناطق المتخلفة هى أنها تتجه

باهتمامها الأول إلى العناصر الواعية من الشعب: الطبقة العاملة فى المدن، أصحاب الحرف، الموظفين، أى إلى جزء صغير من السكان لا يتجاوز واحدًا فى المائة.

ولئن كانت هذه البروليتاريا تفهم دعاية الحزب وتقرأ كتاباته، فإنها أقل استعدادًا لتلبية نداء الشعارات التى قد تدعو إلى الكفاح القوى فى سبيل التحرير الوطنى. إن البروليتاريا، كما لوحظ ذلك مرات كثيرة، هى من الشعب المستعمَر نواة يُفيض عليها النظام الاستعمارى أكثر ما يفيض من خير. إن البروليتاريا الناشئة التى تعيش فى المدن هى طبقة تتمتع نسبيًا ببعض الامتيازات. إذا كانت البروليتاريا فى البلاد الرأسمالية لا تخشى أن تخسر شيئًا، لأنها الطبقة التى يمكن أن تربح كل شىء، فإن البروليتاريا فى البلاد المستعمرة يمكن أن تخسر، فهى من الشعب المستعمَر ذلك الجزء الضرورى الذى لا يُستغنى عنه لحسن سير الآلة الاستعمارية: سائقو حافلات الترام وسيارات الأجرة، عمال المناجم، عمال الموانىء، التراجمة، الممرضون، الخ.

وهذه العناصر هى التى تضمها الأحزاب الوطنية أكثر ما تضم؛ وهى، بما لها من امتيازات فى ظل النظام الاستعمارى، يمكن أن تُعد الجزء البورجوازى من الشعب المستعمَر.

إن المنتسبين إلى الأحزاب السياسية الوطنية هم أفراد من سكان المدن قبل كل شىء: أصحاب حرف، عمال، مثقفون، تجار. حتى أن طراز تفكيرهم يحمل فى كثير من النواحى علامة البيئة الراقية بعض الرقى، الميسورة بعض اليسر، التى تجرى حياتهم فيها. وفى هذه البيئة تسود «الروح العصرية». إن هذه الأوساط نفسها هى التى تحارب التقاليد البالية، وتريد أن تصلح العادات، وبذلك تدخل فى صراع صريح مع قوام الأمة.

إن الأكثرية الساحقة فى الأحزاب الوطنية تشعر تجاه الجماهير الريفية بحذر كبير، وارتياب شديد. إنها تحس أن هذه الجماهير عاطلة عقيمة. وما يلبث أعضاء الأحزاب الوطنية (من عمال المدن والمثقفين) أن يصبح رأيهم فى سكان الأرياف كرأى المستوطنين. ولكن إذا حاولنا أن نفهم أسباب هذا الحذر الذى تشعر به الأحزاب الوطنية إزاء الجماهير الريفية، كان علينا أن نتذكر هذه الحقيقة، وهى أن الاستعمار قد عزز دائمًا سيطرته أو رسخها بواسطة العمل على تجميد الأرياف وتحجيرها. إن الجماهير الريفية التى يحيط بها

الدراويش والسحرة والزعماء التقليديون، ما تزال تعيش فى المرحلة الإقطاعية، وهذه البنية الاجتماعية التى تذكر بالقرون الوسطى إنما يغذيها الموظفون الإداريون والعسكريون الاستعماريون.

وتدخل البورجوازية الوطنية الناشئة، وهى بورجوازية تجارية بوجه خاص، تدخل فى تنافس مع هؤلاء السادة الإقطاعيين من نواح شتى: الدراويش الدجالون والسحرة المشعوذون يسدون الطريق أمام المرضى الذين يستطيعون أن يستشيروا الطبيب، ومجالس القبائل تفصل بين الناس فتصرفهم عن اللجوء إلى المحامين، والزعماء التقليديون يستعملون سلطتهم السياسية والإدارية للقيام بتجارة، أو لإقامة خط من خطوط النقليات، والقادة المحليون يعارضون باسم الدين والتقاليد دخول تجارات جديدة ومنتجات جديدة.

إن هذه الطبقة الناشئة من التجار المستعمَرين فى حاجة إلى زوال هذه الأنواع من الخطر وهذه الأنواع من الحواجز، حتى تنمو وتزدهر. وهكذا فإن هؤلاء الزبائن من السكان الأصليين الذين يمثلون فى نظر الإقطاعيين صيداً يجب عليهم أن يحتفظوا به، الذين يمنعون بعض المنع من شراء منتجات جديدة، يصبحون سوقًا متنازعًا عليها.

والقيادات الإقطاعية تقيم حاجزاً بين الوطنيين الشبان المطبوعين بالطابع الغربى وبين الجماهير، فكلما حاولت النخبة أن تبذل من الجهود فى صفوف الجماهير الريفية تصدى لها زعماء القبائل، وزعماء الحلقات الدينية، وتصدت لها السلطات التقليدية، فأخذت تصب عليها مزيداً من الوعيد والتهديد وتكيل لها اتهامات الكفر والزندقة. إن هذه السلطات التقليدية التى تدعمها قوة الاحتلال، يسوؤها أن ترى ازدياد المحاولات التى تقوم بها النخبة من أجل التغلغل فى الأرياف. إنها تعلم أن الأفكار التى يمكن أن يحملها إلى الريف هؤلاء الناس القادمون من المدن تنكر حتى مبدأ دوام الإقطاعيات. لذلك تشعر أن عدوها الأول ليس هو السلطة المحتلة التى يقوم بينها وبينها نوع من التفاهم، وإنما عدوها هؤلاء العصريون الذين يريدون أن يبدلوا نظام المجتمع يخطفوا خبزهم من أفواههم.

والعناصر المطبوعة بالطابع الغربى تشعر نحو جماهير الفلاحين بعواطف تذكرنا بالعواطف التى نراها فى صفوف طبقة العمال فى البلاد المصنعة . لقد أوضح تاريخ الثورات البورجوازية وتاريخ الثورات البروليتارية أن جماهير الفلاحين كثيراً ما تكون حاجزاً يعطل اندفاع الثورة . إن الجماهير الريفية فى البلاد المصنعة هى على وجه العموم أقل عناصر المجتمع وعيًا ، وأقلها تنظيمًا وأكثرها فوضى . إنها تتصف بمجموعة من الصفات هى الصفات التى يمتاز بها السلوك الرجعى ، من ميل إلى الفردية ، وبعد عن الانضباط ، وحب للربح ، واستعداد للغضب الشديد تارة ولليأس العميق تارة أخرى .

وقد رأينا أن الأحزاب الوطنية تنقل أساليبها وعقائدها عن الأحزاب الغربية ؛ لذلك نراها فى أكثر الأحوال لا تتجه بدعايتها نحو هذه الجماهير الريفية . ولكن هذه الأحزاب لو حللت المجتمع المستعمَر تحليلاً عقليًا سليمًا ، لأدركت أن الفلاحين المستعمَرين يعيشون فى بيئة تقليدية ظلت بنياناتها سليمة ، على حين أن هذه البيئة التقليدية فى البلاد المصنعة هى التى صدعها تقدم التصنيع . إن البروليتاريا الناشئة فى المستعمرات هى الطبقة التى نرى لدى أفرادها سلوكًا فرديًا . إن الفلاحين الذين لا يملكون أرضًا ، والذين يطرح عليهم تزايد السكان مشكلة لا سبيل إلى حلها يهجرون الريف ويفدون إلى المدن فيتكدسون فى أكواخ الصفيح ، ويحاولون أن يتسربوا إلى الموانئ والمدن التى أوجدتها السيطرة الاستعمارية ، فيكوِّنون هنالك البروليتاريا الدنيا . إن الجماهير الريفية التى تبقى فى القرى تواصل حياتها فى إطار ساكن ، حتى إذا زاد عدد الأفواه التى تحتاج إلى طعام لم تجد لها سبيلاً إلا أن تهاجر إلى المدن . ولكن الفلاح الذى يبقى فى مكانه يحمى تقاليده فى عناد وإصرار ، وهو فى المجتمع المستعمَر يمثل العنصر الانضباطى الذى يظل بنيانه الاجتماعى قائمًا على التواصل بين أفراد الجماعة ، وعلى ارتباط بعضها ببعض ارتباطًا قويًا . صحيح أن هذا الركود وهذا الانكماش قد يولِّدان من حين إلى حين حركات قائمة على العصبية الدينية ، وقد يولد حروبًا قبلية . ولكن الجماهير الريفية تظل فى عفويتها انضباطية تتصف بالغيرية . إن الفرد ذائب هنا فى الجماعة .

والفلاحون يسيئون الظن بابن المدينة ويحذرون منه . إنه يرتدى ملابس كملابس الأوروبيين ، ويقطن أحيانًا فى الحى الأوروبى . لذلك ينظر إليه الفلاحون نظرتهم إلى

إنسان خرج على قومه، وهجر كل ما هو تراث قومى. إن الفلاحين ينظرون إلى سكان المدن نظراتهم إلى «خونة»، نظرتهم إلى أناس «باعوا أنفسهم» فهم متفاهمون مع المحتل، يحاولون فى إطار النظام الاستعمارى أن يحققوا النجاح. لذلك نسمع الفلاحين فى كثير من الأحيان يصفون أبناء المدن بأنهم أناس لا أخلاق لهم. ولسنا هنا بصدد ذلك التعارض المعروف بين الريف والمدينة. وإنما نحن هنا بصدد تعارض بين المستعمَر المحروم من منافع الاستعمار، وبين المستعمَر الذى يرتِّب أموره بحيث ينال من الاستغلال الاستعمارى نصيبًا.

والاستعماريون، من جهة أخرى، يستغلون هذا التعارض فى صراعهم ضد الأحزاب الوطنية. فهم يجندون سكان الجبال والقرى ضد سكان المدن، ويثيرون مؤخرة البلاد ضد مقدمتها، ويحرضون القبائل، فما ينبغى أن يدهشنا أن يتوج كالونجى نفسه ملكًا على كاساى، ولا أن نرى «مجلس زعماء غانا» يقف منذ سنوات فى وجه نكروما ويخلق له المصاعب.

إن الأحزاب السياسية لا تتوصل إلى ترسيخ قواعد منظماتها فى الأرياف فهى بدلاً من أن تستعمل البنيانات الموجودة من أجل إعطائها مضمونًا قوميًا أو تقدميًا، تحاول فى نطاق النظام الاستعمارى، أن تقلب الواقع التقليدى رأسًا على عقب. إنها تتخيل أن فى وسعها أن تطلق الأمة من عقالها وأن تبعثها على المسير، فى حين أن حلقات النظام الاستعمارى ما تزال مطبقة عليها جاثمة فوقها. إن هذه الأحزاب لا تمضى إلى لقاء الجماهير. إنها لا تضع معارفها النظرية فى خدمة الشعب، وإنما تحاول أن تنظم الجماهير وفقًا لمخطط لم ينبثق من التجربة. وهكذا تراها ترسل من العاصمة إلى القرى، على حين غرة، مسئولين مجهولين أو شبانًا صغارًا تندبهم السلطة الحزبية المركزية للذهاب إلى القرية أو الدوار، كأنما هى تريد أن تقود القرية أو الدوار كما تقاد خلية من خلايا الحزب فى مصنع من المصانع؛ وهى بذلك تتجاهل الزعماء التقليديين، وربما أهانتهم فى بعض الأحيان. إن تاريخ الأمة المقبلة يطغى طغيانًا كبيرًا على التواريخ المحلية الصغيرة التى هى الواقع الوطنى الوحيد الراهن، فى حين أن من الواجب على هذه الأحزاب أن توفق توفيقًا منسجمًا بين تاريخ القرية وتاريخ المنازعات التقليدية، بين القبائل والعشائر وبين النضال الحاسم الذى

تدعو الشعب إلى خوض غماره. إن هذه الأحزاب كثيرًا ما تسخر على رؤوس الأشهاد من الشيوخ الذين تحيط بهم فى المجتمعات التقليدية هالة من الاحترام، والذين يملكون على وجه العموم سلطة معنوية لا سبيل إلى المماراة فيها. ولا تنسى دوائر السلطة المحتلة أن تستغل هذه الأحقاد، فهى تتسقط أخبار أيسر القرارات التى تتخذها هذه السلطة الغرة، فإذا هى تنزل ضربتها البوليسية فى إحكام مستمد من دقة المعلومات التى وصلت إليها ويُعتقل المسئولون الذين وفدوا إلى المدينة على حين غرة، ويعتقل كبار أعضاء المجلس الجديد.

ويأتى هذا الإخفاق مصداقًا «للتحليل النظرى» الذى قامت به الأحزاب الوطنية، فالنازلة التى نزلت بالحزب حين حاول تنظيم الجماهير الريفية تعزز حذره من الجماهير وتقوى تهجمه على هذا الجزء من الشعب، وبعد انتصار كفاح التحرير الوطنى تتجدد هذه الأخطاء وتغذى الميول إلى اللامركزية وإلى الانفصالية. وتحل محل العصبية القبلية التى كانت سائدة فى عهد الاستعمار عصبية إقليمية تسود فى عهد التحرر الوطنى، منادية بشعاها الدستورى: الفدرالية.

ولكن يتفق أحيانًا أن نرى الجماهير الريفية، رغم قلة تأثير الأحزاب الوطنية فيها، تتدخل فى الكفاح تدخلاً حاسمًا، فإما أن تزيد الوعى القومى نضجًا، وإما أن تتناوب العمل مع الأحزاب الوطنية، وإما -وهذا أندر- أن تُحل نفسها محل هذه الأحزاب العقيمة.

إن دعاية الأحزاب الوطنية يتردد صداها دائمًا بين صفوف الجماهير القروية. إن ذكرى مرحلة مقاومة الاستعمار تظل حية قوية فى القرى. إن النساء ما تزال تدندن فى آذان أطفالها الأغانى التى رافقت المقاتلين الذين قاوموا الغزو. إن أطفال القرى الذين هم فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من أعمارهم، يعرفون أسماء الشيوخ الذين شهدوا آخر ثورة. والأحلام التى تداعب أخيلة الصغار فى القرى ليست تلك الأحلام المترفة التى تملأ أخيلة أطفال المدن، أعنى أحلام النجاح فى الامتحانات، وإنما هى أحلام تشبّه بهذا المقاتل أو ذاك من المقاتلين الذين ما تزال ميتتهم البطولية تستدر من المآقى دموعًا غزارًا.

وفى اللحظة التى تحاول فيها الأحزاب السياسية أن تنظم الطبقة العاملة الناشئة فى المدن، تشهد الأرياف فى بعض الأحيان انفجارات تبدو فى الظاهر غريبة غير مفهومة. فكذلك شبت الثورة المشهورة فى مدغشقر عام ١٩٤٧ . إن المصالح الاستعمارية قد فسرت هذه الثورة تفسيراً بسيطاً فقالت: عصيان. ولكننا نعلم اليوم أن الأمور كانت أعقد من ذلك كثيراً، كما هى الحال دائماً. ففى أثناء الحرب العالمية الثانية وسعت الشركات الاستعمارية الكبرى سلطانها واستولت على جميع الأراضى التى كانت لا تزال حرة. وفى تلك الفترة نفسها شاع أن فى النية إسكان لاجئين من اليهود، وأناس من القبائل ومن سكان جزر الأنتيل فى مدغشقر. وشاع أيضاً أن السكان البيض فى جنوبى أفريقيا سيغزون الجزيرة بالتواطؤ مع المستوطنين الأوروبيين. لذلك رأينا مرشحى القائمة الوطنية فى الانتخابات التى جرت بعد الحرب يفوزون فوزاً ساحقاً. فإذا بأعمال القمع التى تقوم بها السلطات الاستعمارية تنصب فوراً على خلايا «الحزب الديمقراطى لبعث مدغشقر». واستعمل الاستعمار، فى حملة القمع هذه، الأساليب التقليدية المعروفة لتحقيق أهدافه: اعتقالات كثيرة، دعاية عنصرية للتفريق بين القبائل، خلق حزب جديد من عناصر غير منظمة أخذتها من بين صفوف البروليتاريا الدنيا. وكان الغرض من خلق هذا الحزب الذى أسمى «حزب المحرومين» أن تكون استفزازاته حجة مشروعة تتذرع بها السلطة الاستعمارية للمحافظة على النظام. ولكن هذه العملية التافهة، أعنى تصفية حزب أُعدَّ لهذا الغرض سلفاً، اتسعت اتساعاً هائلاً. فأدركت الجماهير الريفية التى كانت على أهبة الدفاع منذ ثلاث سنين أو أربع، أدركت فجأة أنها مهددة بالموت، فقررت أن تعارض القوى الاستعمارية معارضة وحشية، فتسلحت بالرماح، وبالحجارة فى أكثر الأحيان، وخاضت غمار تلك الثورة الجارفة التى عمت البلاد فى سبيل التحرير الوطنى... والقارىء يعرف تتمة القصة.

وليست فى هذه الثورات المسلحة إلا إحدى الوسائل التى تستعملها الجماهير الريفية للتدخل فى الكفاح القومى. وفى بعض الأحيان يحمل الفلاحون العبء عن المدينة، حين تتناول حملة القمع البوليسى الحزب الوطنى. إن الأنباء تصل إلى الأرياف مضخمة، مضخمة تضخيماً كبيراً: الزعماء اعتقلوا، الرشاشات تقذف الناس برصاصها، دم الزنوج

يغرق المدينة، المستوطنون يستحمون بالدم العربى. وتتفجر مراجل الحقد المتجمع المكظوم. فيهجم الفلاحون على مخفر الشرطة المجاورة فيحتلونه، ويمزقون رجال الدرك إربًا إربًا، ويقتلون معلم المدرسة، ولا ينجو الطبيب إلا لأنه كان غائبًا، إلخ . . . وتهرع السلطة الاستعمارية فترسل إلى المنطقة فرقًا من جيوشها، وتأخذ الطائرات تقذف قنابلها. وهكذا ترفع راية الثورة، وتنبعث التقاليد الحربية القديمة، وتزغرد النساء، وينظم الرجال صفوفهم ويحتلون مواقعهم فى الجبال، وتبدأ الحرب. هكذا يخلق الفلاحون من تلقاء أنفسهم جوًا عامًا من اضطراب حبل الأمن، فيخاف الاستعمار، فإما أن يستمر فى الحرب وإما أن يفاوض.

فكيف تستجيب الأحزاب الوطنية لهذا الدخول المفاجىء الذى تدخله جماهير الفلاحين فى الكفاح الوطنى؟ لقد رأينا أن أكثر الأحزاب الوطنية لم تضع فى برامجها ضرورة العمل المسلح. وهى الآن لا تعارض استمرار الثورة، ولكنها تكتفى بالركون إلى عفوية القرويين. إنها بوجه الإجمال، تتصرف إزاء هذا العنصر الجديد تصرفها إزاء معجزة نزلت من السماء، مبتهلة إلى القدر أن تستمر هذه المعجزة إن الأحزاب الوطنية تستثمر هذه المعجزة، ولكنها لا تحاول أن تنظم الثورة. إنها لا ترسل إلى الأرياف رجالاً من مسئوليها لبث الوعى السياسى لدى الجماهير ولتنويرها ولرفع مستوى المعركة، وإنما هى تأمل أن يستمر كفاح هذه الجماهير من تلقاء ذاته، وترجّى أن لا يضعف أو يخور. فليس ثمة عدوى تسرى من حركة المدينة إلى حركة الريف، وإنما تتطور كل حركة من الحركتين وفقًا لمنطقها الخاص.

إن الأحزاب الوطنية لا تحاول أن تدخل إلى الجماهير الريفية، التى هى الآن مهيأة كل التهيؤ، شعارات معينة. إنها لا تعرض عليها أى هدف. كل ما فى الأمر أنها تأمل أن تستمر هذه الحركة إلى غير نهاية، وأن لا يحقق قصف القنابل غرضه فيقضى على الثورة. وهكذا نرى أن الأحزاب الوطنية لا تستثمر، حتى فى هذه المناسبة، الفرصة المتاحة لها، وهى أن تضم الجماهير الريفية إلى صفوفها، وأن تبث فيها الوعى السياسى، وأن ترفع مستوى كفاحها. إنها تظل على ذلك الموقف الإجرامى، موقف الحذر من الأرياف.

إن المسئولين السياسيين يقيمون فى المدن، ويُفهمون الاستعمار أن لا صلة لهم بالثائرين، أو يسافرون إلى الخارج. ومن النادر أن ينضموا إلى الشعب فى الجبال. ففى كينيا مثلاً لم يعلن أى وطنى معروف، أثناء ثورة الماو ماو، انتماءه إلى هذه الحركة، ولا حاول أن يدافع عن هؤلاء الرجال.

ما من مناقشة خصبة بين مختلف طبقات الأمة، ولا من لقاء. لذلك نرى عدم التفاهم هذا يبقى ويتفاقم حين يتحقق الاستقلال، بعد قمع قاست ويلاته الجماهير الريفية، وتفاهم تم بين الاستعمار والأحزاب الوطنية. ويقف القرويون موقف التردد والاحتراس من التجديدات الاجتماعية ولو كانت تقدمية فى نظر من يرى الأمور رؤية موضوعية، وما ذلك إلا لأن الذين أصبحوا الآن حكامًا لم يشرحوا لمجموع الشعب أثناء فترة الاستعمار، لا أهداف الحزب، ولا الاتجاه القومى، ولا المشكلات العالمية، الخ...

فالحذر الذى كان القرويون والإقطاعيون يشعرون به إزاء الأحزاب الوطنية فى عهد الاستعمار، يستمر فى عهد الاستقلال عدواة مماثلة: وتأخذ الدوائر الاستعمارية السرية التى لم تلق سلاحها فى عهد الاستقلال، تأخذ تغذى الشعور بالاستياء، وتتوصل إلى خلق مصاعب كثيرة فى وجه الحكومات الفتية. وتدفع الحكومة عندئذ ثمن كسلها وتقاعسها فى إبان عهد التحرير، وثمن احتقارها للقرويين. يمكن أن يصبح للأمة رأس عاقل حكيم، بل قد يصبح لها رأس تقدمى، ولكن الجسم الكبير يبقى ضعيفًا هزيلاً غير متعاون.

ويغرى الحكومة فى مثل هذه الحالة أن تحطم هذا الجسم بتركيز الحكم وإخضاع الشعب بالقوة. وهذا واحد من الأسباب التى تحمل كثيراً من الناس على أن يقولوا إنه لابد من شىء من الديكتاتورية فى البلاد المتخلفة. إن المسئولين يشكُّون فى الجماهير الريفية، حتى لقد يأخذ هذا الشك أشكالاً خطيرة. من ذلك مثلاً أن بعض الحكومات تظل زمنًا طويلاً بعد الاستقلال تعد مؤخرة البلاد منطقة لم يستتبَّ فيها السلم، فما يزورها رئيس الدولة ولا وزراء الحكومة إلا بمناسبة قيام الجيش الوطنى ببعض المناورات العسكرية، حتى لتكاد مؤخرة البلاد أن تكون شيئًا مجهولاً. والغريب فى الأمر أن تصرف الحكومة الوطنية إزاء الجماهير الريفية يشبه بعض صفات تصرف السلطة الاستعمارية. فترى المسئولين يقولون:

«لا يعرف المرء كيف يمكن أن يكون رد الفعل لدى هذه الجماهير»، بل إن الحكام الجدد لا يتورعون عن القول: «لابدّ من استعمال السوط إذا نحن أردنا إخراج هذه البلاد من القرون الوسطى» ولكن تهاون الأحزاب السياسية بشأن الجماهير الريفية فى عهد الاحتلال، هو الذى يؤدى، كما سبق أن ذكرنا ذلك، إلى تصديع الوحدة القومية، وتعطيل انطلاق الأمة.

ويعمد الاستعمار أحيانًا إلى تفريق الاندفاعة القومية وإلى تشتيتها. فلا يثير المشايخ وزعماء القبائل على «ثوريى» المدن، وإنما يشكل من الجماعات الدينية والقبائل أحزابًا. وهكذا تنشأ، فى وجه حزب المدينة الذى أخذ يجسد الإرادة القومية، ويهدد النظام الاستعمارى، تجمعات وتكتلات وأحزاب تقوم على أساس قبلى أو محلى. فإذا قبيلة برمتها تصبح حزبًا سياسيًا يمده الاستعماريون بالنصح والتوجيه. حتى إذا حان وقت المفاوضات حول الدائرة المستديرة، وجدتَ الحزب الموحد غارقًا فى حساب القوى والتجمعات، ورأيتَ الأحزاب القبلية تعارض وجود سلطة مركزية وتناهض الوحدة، وتندد بدكتاتورية الحزب الموحد.

وهذا الأسلوب نفسه تستعمله المعارضة الوطنية فيما بعد. إن سلطة الاحتلال قد اختارت واحدًا من الحزبين الوطنيين أو من الأحزاب الوطنية الثلاثة التى قامت بحركة التحرير. وأشكال هذا الاختيار كلاسيكية معروفة: إذا فاز أحد الأحزاب بالإجماع الوطنى وفرض نفسه على المحتل كمفاوض وحيد، قام المحتل بمناورات كثيرة لتأخير موعد المفاوضات إلى أقصى حد، مستعملاً هذا التأخير فى تفتيت مطالب هذا الحزب، أو فى الفوز من قيادته بإبعاد بعض العناصر «المتطرفة». أما إذا لم يستطع أى حزب من الأحزاب أن يفرض نفسه حقًا، اكتفى المحتل بتفضيل الحزب الذى يبدو له أكثر «تعقلاً واعتدالاً» من غيره. وعندئذ نرى الأحزاب الوطنية التى تشترك فى المفاوضات تأخذ باستنكار الاتفاق الذى تم بين المحتل والحزب الآخر. ويشعر الحزب الذى تسلم السلطة بخطر هذه المواقف الديماغوجية التى يقفها خصمه، فيحاول أن يشتت الحزب المعارض، ويتهمه بأنه غير شرعى. فلا يسع الحزب المعارض إلا أن يعتصم بأطراف المدن وبالأرياف، محاولاً أن يؤلب الجماهير الريفية على «أهل الساحل الذين باعوا أنفسهم» على «سكان العاصمة الفاسدين المتفسخين».

ولا يدع هذا الحزب ذريعة من الذرائع إلا ويستعملها، فهو يهاجم خصمه بحجج دينية، وهو يتهمه بالخروج على التقاليد فيما يجنح إليه من اتجاهات تجديدية، مستغلاً جهل الجماهير الريفية وما تتصف به الأرياف من انفعالية وعفوية. وتسرى الشائعات هامسة هنا وهناك: الجبل قد ثار، الأرياف مستاءة حانقة، أطلق رجال الدرك رصاص بنادقهم على الفلاحين، هبت الحكومة ترسل الإمدادات والنجدات، النظام كله أوشك أن ينهار. وهكذا فإن أحزاب المعارضة، التى ليس لها برنامج واضح، وليس لها هدف إلا أن تحل محل الفئة الحاكمة، تضع مصيرها بين أيدى الجماهير الريفية العفوية الجاهلة.

وقد يحدث عكس هذا، فما تعتمد المعارضة على الجماهير الريفية، وإنما تعتمد على العناصر التقدمية، على النقابات فى الأمة الفتية. وعندئذ تستعين الحكومة بالجماهير لمقاومة مطالب العمال، قائلة إنها مناورات أناس مغامرين خارجين على التقاليد.

إن الحقائق التى أتيح لنا أن نلاحظها على صعيد الأحزاب السياسية تُلاحَظ هى نفسها على صعيد النقابات. ففى أول الأمر تكون التشكيلات النقابية فى الأراضى المستعمرة فروعًا محلية لنقابات البلاد المستعمرة، وتكون شعارات هذه النقابات أصداء لشعارات نقابات البلد المستعمر.

حتى إذا اتضحت المرحلة الحاسمة من الكفاح الوطنى، قرر عدد من النقابيين الوطنيين إنشاء نقابات وطنية، وانسحب الوطنيون جماعات ووحدانًا من المنظمة القديمة المستوردة من الخارج، وأصبحت المنظمة النقابية الجديدة عنصرًا جديدًا من عناصر الضغط على الاستعمار لدى سكان المدن. لقد سبق إن قلنا أن البروليتاريا فى المستعمرات هى بروليتاريا ناشئة، وهى من الشعب فئة محظوظة أكثر من سائر فئاته. وتنظم النقابات التى تنشأ أثناء الكفاح صفوفها فى المدن، وترسم لنفسها برنامجًا سياسيًا، وطنيًا فى الدرجة الأولى. وما النقابة الوطنية التى تنشأ فى إبان المرحلة الحاسمة من الكفاح فى سبيل الاستقلال، ما هى فى واقع الأمر إلا تجنيد للعناصر الوطنية الواعية النشيطة.

ولكن الجماهير الريفية التى تزدريها الأحزاب السياسية، تظل مبعدة. ولئن أمكن أن تتكوّن نقابة العمال الزراعيين، فإن هذه المنظمة لا تزيد على أن تلبى تلك الحاجة الشكلية، أعنى «تكوين جبهة متحدة ضد الاستعمار». أما المسئولون النقابيون الذين تسلحوا

بخبرتهم فى إطار التشكيلات النقابية التابعة للبلاد المستعمرة، فإنهم لا يعرفون كيف ينظمون الجماهير الريفية. لقد فقدوا كل اتصال بطبقة الفلاحين، فهم لا يُعنَون فى الدرجة الأولى إلا بتنظيم عمال مصانع الفولاذ، وعمال الموانى، وموظفى شركات الغاز والكهرباء وما إلى ذلك.

ولهذه التشكيلات النقابية قوة ضاربة مدهشة فى عهد الاستعمار. إن هذه النقابات تستطيع فى المدن أن تجمد الاقتصاد الاستعمارى فى كل لحظة، أو أن تعرقله على أقل تقدير. ولما كان الأوروبيون يقطنون فى المدن غالبًا، فإن تأثير هذه المظاهرات فى نفوسهم تأثير كبير، فتراهم يصيحون: لا غاز، لا كهرباء، القمامة لم تُجمع، البضائع تفسد على أرصفة الميناء...

إن المدن، وهى أشبه بجزر أوروبية، تشعر فى عهد الاستعمار شعورًا قويًا بأثر العمل النقابى. والعاصمة التى هى قلعة الاستعمار لا تستطيع أن تتحمل هذه الضربات. أما «الداخل» (الجماهير الريفية) فإنها تظل غريبة عن هذا الكفاح.

هكذا نرى أنه ليس ثمة تناسب بين عمل النقابات وعمل سائر طوائف الأمة من الناحية القومية. حتى إذا تحقق الاستقلال رأينا العمال المنخرطين فى النقابات يشعرون بأنهم لا يقومون بعمل ذى بال، وأنهم يدورون على فراغ. فالهدف المحدود الذى رسموه لأنفسهم قد ظهر، منذ تحقق، أنه ليس له كبير شأن إذا قيس باتساع مهمة البناء القومى. ويكتشف القادة النقابيون، إزاء البورجوازية الوطنية التى تكون علاقاتها بالسلطة وثيقة جدًا فى كثير من الأحيان، أنهم أصبحوا لا يستطيعون أن يحصروا نشاطهم فى نطاق العمل العمالى. ولأنهم معزولون بطبيعة الحال عن الجماهير الريفية، ولا يستطيعون أن ينشروا شعاراتهم فيما وراء ضواحى المدن، تراهم يتبنون مواقف ما تنفك تصبح سياسية أكثر فأكثر. والواقع أن النقابات مرشحة السلطة، فها هى ذى تحاول بجميع الوسائل أن تحرج البورجوازية: تحتج على بقاء القواعد الأجنبية فى البلاد، تستنكر الاتفاقات التجارية، تهاجم السياسة الخارجية التى تتبعها الحكومة الوطنية. إن العمال يدورون على فراغ بعد أن فازوا «بالاستقلال». وتدرك النقابات غداة الاستقلال أنها لو أعلنت مطالبها لكان ذلك فضيحة فى نظر سائر الفئات. إنهم هم الفئة التى تعيش فى بحبوحة أكثر من سائر الفئات، فلو

قاموا بحركة تهدف إلى الحصول على تحسين ظروف المعيشة للشغّيلة وعمال الموانىء لأسخطوا الشعب، بل ولأثاروا عداوة الجماهير المحرومة فى الأرياف. وهكذا نرى النقابات، وقد حرمت من العمل فى سبيل الحصول على مزيد من الحقوق للعمال، وقد أصبحت تتحرك وهى فى مكانها لا تبرحه.

وليس هذا الوضع الحرج إلا دليلاً على أن ثمة حاجة موضوعية إلى برنامج اجتماعى يتناول أخيرًا جميع فئات الشعب. إن النقابات تكتشف فجأة أن مؤخرة البلاد يجب أن تُنوَّر وأن تُنظَّم هى أيضًا. ولكنها، لأنها لم تهتم يومًا بإقامة جسور بينها وبين جماهير الفلاحين، لأن هذه الجماهير هى بعينها القوى الوحيدة، الثورية من تلقاء ذاتها، ما تلبث أن تبرهن على عجزها، وما تلبث أن تكتشف أن برنامجها قد فات أوانه.

والقادة النقابيون، الغارقون فى بحر الاضطراب السياسى العمالى، لابد أن ينتهوا من ذلك أخيرًا إلى الإعداد لانقلاب. ولكن «الداخل» يكون مستبعدًا من هذا الإعداد للانقلاب أيضًا، فالقضية محصورة بين البورجوازية الوطنية والعمالية النقابية. وتعمد البورجوازية إلى الأساليب القديمة التى كان يستعملها الاستعمار، فتعرض قواتها العسكرية والبوليسية، بينما تمضى النقابات تعقد الاجتماعات وتعبىء عشرات الألوف من أعضائها. ولا يزيد الفلاحون، إزاء هذه البورجوازية الوطنية وهؤلاء العمال الذين يأكلون بينما الفلاحون جياع، لا يزيد الفلاحون إزاء هؤلاء وأولئك على أن ينظروا وهم يرفعون أكتافهم غير مكترثين. إنهم يرفعون أكتابهم لإدراكهم أن هؤلاء وأولئك جميعًا لا ينظرون إليهم إلا نظراتهم إلى تكأة يتكأ عليها، فالنقابات والعمال والحكومة إنما يستغلون جماهير الفلاحين استغلالاً ميكافيليًا لا أخلاقيًا، استغلالهم لقوة عاطلة عمياء يحسن الانتفاع بها فى المناورات.

ويحدث فى بعض الظروف عكس ذلك، فترى جماهير الفلاحين تتدخل تدخلاً حاسمًا فى نضال التحرير الوطنى، وفى تعيين المستقبل الذى تختاره الأمة فى آن واحد. ولهذه الظاهرة أهمية أساسية فى البلدان المتخلفة، لذلك نريد أن ندرسها الآن بشىء من التفصيل.

لقد سبق أن رأينا أن فى الأحزاب الوطنية إرادتين متجاورتين: أولاهما إرادة تحطيم

الاستعمار، والثانية إرادة التفاهم معه بالحسنى. ويحدث فى داخل هذه الأحزاب أحيانًا أمران. الأول هو عناصر مثقفة جهدت فى تحليل الواقع الاستعمارى والوضع الاستعمارى تحليلاً دائبًا، تشرع فى انتقاد الفراغ العقائدى التى تلاحظه فى الحزب، وتتسرع فى انتقاد ما تراه فى هذا الحزب من فقر فى أسلوب العمل وخطة النضال، وتأخذ تطرح على القادة فى غير كلال ولا ملال اسئلة أساسية كهذه الأسئلة: «ما هى القومية؟ ما الذى تعنونه من هذه الكلمة؟ ما مضمون هذه اللفظة؟ لماذا تريدون الاستقلال؟ بل أولاً ما هى الوسيلة التى تتصورون أنكم واصلون بها إلى الاستقلال؟»، ويأخذون يطالبونهم فى الوقت نفسه بأن يعالجوا قضية خطة العمل معالجة دقيقة صارمة، ويقترحون على هؤلاء القادة أن يضيفوا إلى الوسائل الانتخابية «جميع الوسائل الأخرى» ولا يزيد القادة فى أول هذه المجادلات على أن يتملصوا من هذا الغليان بقولهم: إنه حماسة شبان مراهقين، ولكن لما كانت هذه المطالب لا تعبر عن غليان ولا عن حماسة شبان مراهقين، فإن العناصر الثورية التى تدافع عن هذه المواقع ما تلبث أن تُعزل، فالقادة المتدثرون بتجربتهم ما يلبثون أن ينبذوا، فى غير رحمة «هؤلاء المغامرين، هؤلاء الفوضويين».

إن آلة الحزب تبدو مستعصية على كل تجديد. وتجد الأقلية الثورية نفسها وحيدة أمام تلك القيادة المذعورة التى يقلقها أن تتصو انجرافها فى إعصار لا تعرف وجهه ولا قوته ولا وجهته.

وأما الأمر الآخر الذى يحدث فيتصل بالقادة الموجِّهين أو القادة الثانويين الذين تعرضوا، بسبب نشاطهم، للتعذيب البوليسى الاستعمارى. ومن المهم أن نذكر هنا أن هؤلاء الرجال قد وصلوا إلى مراكز القيادة فى الحزب بفضل نشاطهم الصامد العنيد، وبفضل ما يتصفون به من روح التضحية، وما يمتازون به من روح وطنية صادقة مثلى. وهؤلاء الرجال الذين صعدوا من القاعدة إنما هم فى أكثر الأحيان عمال صغار أو شغِّيلة موسميون أو شبان عاطلون عن العمل. والانضمام إلى حزب وطنى لا يعنى عندهم أن يعملوا فى السياسة، وإنما يعنى أنهم يختارون الوسيلة الوحيدة التى تمكنهم من الارتقاء من الحالة الحيوانية إلى الحالة الإنسانية. إن هؤلاء الرجال الذين يزعجهم تمسك الحزب بالشرعية، يظهرون فى الأعمال التى يُعهد بها إليهم مبادهة وشجاعة وحسًا نضاليًا،

فسرعان ما تكتشفهم قوى القمع الاستعمارية، فتعتقلهم، وتحكم عليهم، وتعذبهم، ثم يخرجون من السجن، ولكنهم يكونون فى أثناء اعتقالهم قد محصوا أفكارهم وشحذوا عزائمهم. إنهم حين يضربون عن الطعام. وحين يتضامنون فى أعمال عنيفة تقوم بها زنزانة مشتركة فى السجن، يتصورون إطلاق سراحهم فرصة تتاح لهم من أجل الشروع فى الكفاح المسلح. وفى ذلك الوقت نفسه، خارج السجن، يكون الاستعمار الذى أصبح يهاجم فى كل مكان، أخذ يقدم عروضًا للمعتدلين من الوطنيين.

وهكذا يحدث تباعد يشبه القطيعة بين اتجاه التمسك بالشرعية واتجاه الاستخفاف بالشرعية، فى صفوف الحزب. ويشعر أصحاب الاتجاه الثانى أنهم أصبحوا أناسًا غير مرغوب فيهم. فأصحاب التمسك بالشرعية يتحاشونهم ويتهربون منهم. ولئن كانوا يقدمون لهم يد المعونة بعد احتياطات كثيرة، فهم يشعرون أنهم أصبحوا أجانب عن الحزب. وعندئذ يتصل هؤلاء الرجال بأولئك المثقفين الذين أتيح لهم منذ بضع سنوات أن يعجبوا بمواقفهم، فيخرج من هذا الاتصال حزب سرى يوازى الحزب الشرعى. ولكن أعمال القمع ضد هذه العناصر التى أصبح لا يمكن استردادها، تزداد بازدياد تقارب الحزب الشرعى من الاستعمار أملاً فى تبديله «من داخل»، فإذا بفريق اللا شرعية يجد عندئذ نفسه فى منعطف تاريخى.

فهؤلاء الرجال المنبوذون من المدن يتجمعون، أول الأمر، فى الضواحى المحيطة بالمدن. ولكن شبكة الشرطة تكتشف أمرهم. فيضطرون أخيرًا إلى ترك المدن نهائيًا، وإلى الابتعاد عن أمكنة الصراع السياسى، ماضين إلى الأرياف، إلى الجبال، إلى جماهير الفلاحين. والفلاحون، فى مرحلة أولى يحتضنونهم فيخفونهم عن أعين رجال الشرطة. والمناضل الوطنى الذى يقرر أن يهجر لعبة التخفى التى كان يلعبها مع الشرطة، وأن يربط مصيره بمصير جماهير الفلاحين، لا يخسر أبدًا. إن الفلاحين يغطّونه كمعطف، ويحنون عليه ويحمونه حماية لم تكن تخطر له ببال. وهكذا نرى هؤلاء الرجال الذين نُفوا من المدن نفيًا، وانقطعوا عن بيئة المدن التى أنضجوا فيها أفكارهم عن الأمة وعن النضال السياسى، قد أصبحوا الآن ثوارًا حقًا. إنهم، وهم مضطرون إلى التنقل بغير انقطاع تحاشيًا لرجال الشرطة، وإلى السير ليلاً حتى لا يلفتوا النظر، يطوفون الآن فى البلاد ويعرفونها. وداعًا

زمان المقاهى، وداعًا زمان المناقشات العقيمة عن الانتخابات القادمة! إن آذانهم تسمع الآن صوت الشعب، صوته الحق، وإن أبصارهم ترى الآن بؤس الشعب، بؤسه الكبير الذى لا نهاية له. ويدركون أنهم أضاعوا وقتًا ثمينًا فى تعليقات على النظام الاستعمارى لا طائل فيها ولا نفع منها. ويفهمون أن التبديل لن يكون إصلاحًا، ولن يكون تحسينًا. ويفهمون، وهم يشعرون بدوار لن يبرحهم، أن التحرك السياسى فى المدن سيظل عاجزًا عن تغيير النظام الاستعمارى، عن قلب النظام الاستعمارى.

ويألف هؤلاء الرجال مخاطبة الفلاحين. ويكتشفون أن الجماهير الريفية لم تنقطع يومًا عن الاعتقاد بأن تحررها لا يتم إلا بالعنف، وبأن القضية هى قضية استرداد الأراضى من الأجانب، هى قضية كفاح وطنى، هى قضية ثورة مسلحة. الأمر بسيط واضح. يكتشف هؤلاء الرجال شعبًا متجانسًا منسجمًا، إن كان يعيش حياة ساكنة جامدة، فإنه ما يزال محافظًا على قيمه الأخلاقية وعلى ارتباطه بالأمة؛ يكتشفون شعبًا كريمًا سخيًا، مستعدًا للتضحية، راغبًا فى العطاء، نافد الصبر، قوى الشمم والإباء. وواضح أن اللقاء بين أولئك المناضلين الذين تطاردهم الشرطة وبين هذه الجماهير المتوفزة، يمكن أن يؤدى إلى مزيج متفجر ذى قوة لا عهد بمثلها من قبل. فأولئك الرجال الوافدون من المدن يدخلون مدرسة الشعب، وفى الوقت نفسه يفتحون للشعب مدرسة يتعلم فيها الشعب السياسة والحرب. ويأخذ الشعب يشحذ أسلحته. فالدروس فى المدرسة لا تطول، وما تلبث الجماهير التى تسترد اتصالها، أن تحمل القادة على اقتحام الأمور. وينطلق الكفاح المسلح.

وتحار الأحزاب السياسية تجاه الثورة. ذلك أن عقيدتها قد أكدت دائمًا أنه لا جدوى من اللجوء إلى القوة، بل إن وجودها نفسه إنما هو نفى دائم لقيام أية ثورة مسلحة. حتى إن بعض الأحزاب السياسية تشارك المستعمرين تفاؤلهم سرًا، وتهنىء نفسها بأنها فى خارج هذا الجنون التى سيُقمع بإسالة الدماء. ولكن النار التى اشتعلت ما تلبث أن تسرى إلى مجموع البلاد سريان وباء سريع. وتعجز المصفحات والطائرات عن تحقيق النجاح الذى كان يُقدر لها. ويرى الاستعمار استفحال الداء، فيأخذ يفكر. حتى أن أصواتًا فى صفوف المضطهدين تأخذ تلفت النظر إلى خطورة الوضع.

أما الشعب فى أكواخه وفى أحلامه فإنه يتجاوب مع الحركة الوطنية الجديدة. ويأخذ يُنشد للمقاتلين المظفرين، بصوت خافت، فى قرارة قلبه، أناشيد لا تنتهى. لقد اجتاحت الثورة الأمة، والأحزاب هى التى أصبحت الآن معزولة.

غير أن قادة الثورة ما يلبثون أن يشعروا فى ذات يوم أن على الثورة أن تمتد إلى المدن أيضًا. إنهم ما يلبثون أن يعوا هذه الحقيقة. وليس وعيهم هذا أمرًا عرضيًا، بل هو ثمرة محتومة للمنطق الذى يخضع تطور الثورة المسلحة فى سبيل التحرير الوطنى. ذلك أن الاستعمار، رغم أن الأرياف هى الينابيع التى لا تنضب لتدفق الطاقات الشعبية، ورغم أن جماعات الثائرين قد أخذت تنشر الاضطراب فى الأرياف، يظل واثقًا بقوته، مطمئنًا إلى أنه غير معرض للخطر. لذلك تقرر قيادة الثورة أن تنقل الحرب إلى مواقع العدو، إلى المدن الهادئة الباذخة.

ونقل الثورة إلى المدن يطرح على القيادة مشكلات عسيرة. لقد رأينا أن أكثر القادة قد ولدوا أو شبُّوا وترعرعوا فى المدن، ثم فروا من بيئتهم تلك تحاشيًا لمطاردات الشرطة الاستعمارية، ولأن القيادات المتعقلة المعتدلة فى الأحزاب السياسية لم تفهمهم بوجه عام، فانسحابهم إلى الأرياف كان هربًا من أعمال القمع من جهة، وكان من جهة أخرى يأسًا من التشكيلات السياسية القديمة. والأشخاص الذين يمكنهم أن يتصلوا بهم فى المدن إنما هم الوطنيون المعروفون فى الأحزاب السياسية. ولكننا رأينا أن هؤلاء الثوار قد انشقوا عن أولئك القادة الخائفين الذين لا يزيدون على تضييع جهودهم فى الكلام على مساوئ الاستعمار. ثم إن المحاولات الأولى التى يقوم بها رجال الثورة مع أصدقائهم القدامى هؤلاء، وخاصة مع الذين يعدونهم أكثرهم تطرفًا، تأتى مصدقة لمخاوفهم، وتجعلهم، يكرهون حتى رؤية هؤلاء الأصدقاء القدامى. والواقع أن الثورة التى انطلقت فى الأرياف ستدخل المدن عن طريق ذلك الجزء الذى لم يستطع حتى الآن أن يجد فى عهد الاستعمار عظمة يقضمها. إن الرجال الذين أجبرهم تزايد السكان، وأجبرهم تجريدهم من أملاكهم من قبل الاستعمار على ترك أرض آبائهم وأجدادهم، يأخذون يدورون حول المدن فى غير كلال ولا ملال، آملين أن يُسمح لهم فى يوم الأيام بدخولها. فبين هذه الجماهير، بين هذا الشعب الذى يسكن أكواخ القصدير، بين هؤلاء الفعلة الكادحين، إنما تجد الثورة حربتها

فى المدن. إن هؤلاء الفعلة الكادحين، إن هذه الجموع الساغبة التى فصلت عن قبائلها وعشائرها، هى بين القوى الثورية فى الشعب المستعمَر من أكثرها عفوية وجذرية.

فى السنوات التى أعقبت ثورة الماو ماو فى كينيا، رأينا السلطات الاستعمارية البريطانية تضاعف إجراءات الإرهاب ضد هذه الفئات الدنيا من الكادحين. ورأينا قوى الشرطة وقوى البعثات التبشيرية تنسق جهودها فى عامى ١٩٥٠ و ١٩٥١ من أجل وقف تدفق الشباب الكينى من الأرياف والغابات، وانغماسه فى السرقة والفساد والإدمان وغير ذلك، بعد أن يعجز عن إيجاد عمل. إن جنوح الشباب فى البلاد المستعمرة إنما هو ثمرة مباشرة لوجود هذه الطبقة البائسة من صغار الكادحين. ومثل ذلك جرى فى الكونغو، إذ اتخذت إجراءات قوية، منذ عام ١٩٥٧، من أجل أن يُعاد إلى الأرياف أولئك «الشبان الأوغاد» الذين يعكرون صفو النظام والأمن، حتى لقد أنشئت معسكرات خاصة لإيوائهم، وعهد بهم إلى البعثات التبشيرية، تحت حماية الجيش البلجيكى طبعًا.

إن نشوء هذه الطبقة البائسة من الكادحين ظاهرة تخضع لمنطق خاص، فلا الجهود الطافحة التى تبذلها البعثات التبشيرية، ولا القرارات الكثيرة التى تصدرها الحكومة المركزية بقادرة على وقف نمو هذه الظاهرة. فهذه الطبقة من الناس أشبه بجموع الفئران التى تستمر على قضم جذور الشجرة، رغم ركلها بالأرجل ورميها بالحجارة.

إن أكواخ القصدير التى تتجمع حول المدن تعبر عن عزم المستعمَر على أن يغزو قلعة العدو، مهما يكن ثمن ذلك، ومهما تكن المسارب الخفية التى يجب أن يعمد إليها لتحقيق هذا الهدف. إن نشوء هذه الطبقة الشقية التى تجثم على صدر المدينة، وتعكر صفو «الأمن» فيها، إنما يعنى أن السيطرة الاستعمارية قد أخذ السوس ينخر فيها، وإن داء قاتلاً قد أخذ ينتشر فى جسمها. وها هم أولاء القوادون والأوباش والعاطلون والمجرمون الذى يطاردهم الحق العام، ينخرطون فى كفاح التحرير مقاتلين أقوياء الشكيمة، إن هؤلاء العاطلين المنبوذين يجدون بالعمل النضالى الحاسم طريقهم إلى الاندماج فى مجموع الأمة. إن هؤلاء الناس لا يُرد اعتبارهم إليهم فى نظر المجتمع الاستعمارى وفى نظر الأخلاق التى ينادى بها المستعمِر. ذلك أنهم، على خلاف ذلك، إنما يسلكون إلى دخول المجتمع طريق القنبلة والمسدس. ولكن بذلك يستردون اعتبارهم فى نظر أنفسهم وفى نظر

التاريخ. حتى المومسات، والخادمات بألفى فرنك، واليائسات، وجميع الرجال والنساء الذين يتأرجحون بين الجنون والانتحار، يستردون إذ ذاك توازنهم، ويأخذون يسيرون، ويشاركون مشاركة حاسمة فى موكب الأمة التى استيقظت.

إن الأحزاب السياسية لا تفهم هذه الظاهرة التى تعجل تفككها. إن ظهور الثورة فى المدن على حين غرة يبدل ملامح الكفاح. لقد كانت الجيوش الاستعمارية متجهة كلها إلى الأرياف، وها هى ذى الآن تقفل راجعة إلى المدن على جناح السرعة لتكفل الأمن للأرواح والأرزاق. وها هى ذى تبعثر قواها يمنة ويسرة فى القيام بأعمال القمع. إن الخطر ماثل فى كل مكان. أرض الوطن كلها ثائرة، الشعب فى المستعمرة قد انتقض بأسره. وتشهد جماعات الفلاحين المسلحين انفراج الحصار عنها. إن انطلاق الثورة فى المدن يتيح لها أن تتنفس.

وحين يرى قادة الثورة أن الشعب الذى عصفت به نار الحماسة قد أخذ يكيل للآلة الاستعمارية ضربات حاسمة، فإن شكهم فى جدوى السياسة التقليدية يزداد ويقوى. ويصبح كل انتصار جديد دليلاً لهم على أنهم كانوا على حق فى عداوتهم لتلك السياسة العقيمة التى يطلقون عليها الآن أسماء جديدة: سياسة الثرثرة الفارغة واللفظية السقيمة والتهويش العقيم. ويشعرون نحو «السياسة» والديماغوجية بكره شديد. لذلك نرى تقديس العفوية ينتصر فى أول الأمر.

وتأتى الانتفاضات الكثيرة التى تولد فى الأرياف، فتؤكد حيثما تنفجر أن الأمة حاضرة فى كل مكان، وأن حضورها حضور قومى كثيف. لقد أصبح كل مستعمَر مسلح جزءًا من هذه الأمة التى انبعثت فيها الحياة. إن هذه الانتفاضات تهدد النظام الاستعمارى، وتحمله على تعبئة قواه وبعثرتها، وتوشك فى كل لحظة أن تخنق هذه القوى وأن تقطع أنفاسها. وعقيدتها عقيدة بسيطة: اجعلوا الأمة موجودة. وليس ثمة برنامج ولا خطب ولا قرارات ولا اتجاهات. المشكلة واضحة: يجب أن يرحل الأجانب. علينا أن نؤلف جبهة واحدة مشتركة ضد المستعمِر المضطهد، ويجب أن تعزز هذه الجبهة بالكفاح المسلح.

وما ظل القلق يهز الاستعمار، فإن القضية الوطنية تتقدم إلى أمام، وتصبح قضية كل فرد من أفراد الأمة. إن حركة التحرير أصبحت واضحة المعالم، وهى تتناول مجموع البلاد منذ الآن. والعفوية هى المسيطرة فى هذه المرحلة. والمبادهة مبادهة محلية. ففى كل

منطقة من المناطق تنشأ حكومة مصغرة تستلم زمام الأمر. ونرى سلطة وطنية فى كل مكان، فى الوديان والغابات، فى الأدغال والقرى. إن كل فرد يثبت بنضاله وجود الأمة، ويعمل على أن يكفل لها النصر فى المنطقة التى هو فيها. وهكذا نشهد قيام استراتيجية أساسها العمل المباشر الشامل الجذرى. إن هدف كل جماعة من هذه الجماعات المسلحة التى تتشكل تشكلاً عفويًا إنما هو تحرير المنطقة التى هى فيها. ذلك هو هدفها، وذلك هو برنامجها. ما دامت الأمة موجودة فى كل مكان، فهى موجودة هنا أيضًا. وتتحد الأسلوب الخطة والاستراتيجية الحربية، بل يستحيل فن السياسة إلى فن حرب. فالمناضل السياسى إنما هو المقاتل الحربى. والحرب والسياسة شىء واحد.

إن هذا الشعب المحروم الذى اعتاد أن يعيش محصوراً فى نطاق الصراعات والخصومات، يعمل الآن فى جوّ رائع من تطهّر الأمة فى المنطقة التى هو فيها. إنه يشعر بنشوة جماعية، فإذا الأسر المتعادية تقرر أن تمحو كل شىء، أن تنسى كل شىء. والأحقاد الراسخة المدفونة تُخرَج الآن إلى النور لتستأصل بمزيد من الاطمئنان إلى أنها تُستأصل. إن تحمل مسئولية الأمة بأسرها يقوى الوعى. فوحدة الأمة إنما هى وحدة الجماعة قبل كل شىء، إنها إزالة الخصومات القديمة وتصفية التردد. وفى الوقت نفسه يشمل التطهّر ذلك العدد القليل من السكان الذين لطخوا شرف البلاد بأعمالهم وبتواطؤهم مع المحتل الغاصب. أما الخونة والأشخاص الذين باعوا أنفسهم فإنهم يحاكمون وينالون العقاب الذى يستحقونه. إن الشعب الذى يسير هذا السير المتواصل ويخوض غمار المعركة، يسن الآن القوانين، ويكتشف نفسه، ويريد أن يحكم نفسه بنفسه، أن يكون سيد مصيره. إن الشعب يستيقظ كله من السُبات الاستعمارى، ويعيش فى جو رائع من الحماسة. الجموع تتدفق فى القرى تدفقًا متصلاً، السخاء والكرم لا يقفان عند حد، الشهامة والأريحية تنطلقان انطلاقًا قويًا، الناس يريدون صادقين أن يموتوا فى سبيل «القضية» التى يكافحون من أجلها. وهذا كله يشبه أن يكون دينًا جديدًا. ما من أحد من أهل البلاد يستطيع الآن أن لا يكترث بهذا الإيقاع الجديد الذى يجرف الأمة جرفًا. وتوفد الوفود سريعة إلى القبائل المجاورة. هذه أول طريقة لربط الثورة بعضها ببعض. وتحمل هذه الوفود إلى المناطق التى لم تتحرك بعد، حركة وسرعة. وتتصالح القبائل التى كان يحمل بعضها

لبعض عداء مستحكمًا معروفًا، تتصالح وهى تشعر بالفرح وتذرف الدموع، متعهدًا بعضها لبعض بالمساعدة والدعم. إن الناس، فى الكفاح المسلح، يتساندون تساند الإخوة، كتفًا بكتف وذراعًا فى ذراع، ويكتشفون العدو الحقيقى. وتتسع دائرة الأمة، وتشرع قبائل جديدة فى إقامة كمائن، داخلة بذلك فى المعركة. وتعد كل قرية نفسها معسكرًا من معسكرات القتال. وينعكس التضامن بين القبائل وبين القرى، ضربات يكيلونها للعدو فى كثرة ما تنفك تزداد. ويشير قيام كل فرقة جديدة من فرق المقاتلين، وانطلاق كل معركة جديدة من المعارك التى تشب هنا وهناك، إلى أن كل واحد يضرب العدو، إلى أن كل واحد يجابه العدو.

ويظهر هذا التضامن بمزيد من الوضوح فى المرحلة الثانية، المرحلة التى يبدأ فيها العدو بشن هجومه. إن القوى الاستعمارية تجمع صفوفها بعد حدوث الانفجار، وتعيد تنظيم نفسها، وتبدأ باستعمال طرائق فى القتال تناسب طبيعة الثورة التى قامت. وهذا الهجوم الذى تشنه القوى الاستعمارية يبدل جوّ الانطلاق الفرح الذى ساد المرحلة الأولى. إن العدو يشن هجومه مركزًا على نقاط معينة تتجمع فيها قوى كبيرة. وسرعان ما تصبح قوى العدو أكبر من القوة الوطنية الضاربة فى نقطة معينة. ومما يفاقم الأمر أن القوة الوطنية المحلية تميل فى أول الأمر إلى خوض المعركة وجهًا لوجه، فالتفاؤل الذى سيطر على المشاعر فى المرحلة الأولى يجعل القوة الوطنية متهورة، ويفقدها شيئًا من الشعور بالواقع. إن الجماعة التى رسخ فى اعتقادها أن منطقتها هى الأمة بأسرها، ترفض أن ترخى الحبل، ولا تطيق أن تقاتل متراجعة. وبذلك تسقط ضحايا كثيرة، ويبدأ الشك بالتسرب إلى النفوس. إن الفرقة المحلية تجابه الهجوم المحلى مجابهتها لمعركة حاسمة يتوقف عليها مصير الكفاح كله. إنها تتصرف تصرف من يحسب أن مصير البلاد كله يتقرر هنا.

ولكن من الواضح أن هذا الاندفاع الشديد الذى تريد أن يصفى حسابه مع النظام الاستعمارى فورًا، لابد أن يتنكر لنفسه من حيث هو مذهب يعتنق مبدأ «الفورية». وتجىء الواقعية اليومية العملية فتحل محل اندفاعات الأمس. إن دروس الوقائع، وضحايا التهور، تحمل على إعادة النظر فى الأمر، وتفسير الأحداث تفسيرًا جديدًا شاملاً. إن غريزة البقاء وحدها تحمل على اتخاذ موقف أكثر مرونة وحركة. فهذا التبدل فى أسلوب

القتال قد تميزت به الأشهر الأولى من حرب تحرير الشعب الأنجولى. إنكم تتذكرون أن الفلاحين الأنجوليين قد هجموا فى اليوم الخامس عشر من شهر آذار (مارس) ١٩٦١ على المواقع البرتغالية جماعات مؤلفة من ألفى شخص أو ثلاثة آلاف شخص. فالرجال والنساء والأطفال، سواء أكانوا مسلحين أم كانوا غير مسلحين، أخذوا يزحفون كتلاً متراصة وموجات متعاقبة نحو المناطق التى يسيطر عليها المستوطن البرتغالى والجندى البرتغالى، ويرفرف عليها علم البرتغال، فحاصروا قرى ومطارات بل هاجموا قرى ومطارات؛ ولكنكم تعرفون أن رشاشات الاستعمار حصدت ألوفًا من الأنجوليين. وما هو إلا وقت قصير حتى أدرك قادة الثورة الأنجولية أن عليهم أن يعمدوا إلى طريقة أخرى إذا هم أرادوا أن يحرروا بلادهم حقًا لذلك رأينا الزعيم الأنجولى هلدان روبرتو يعيد تنظيم «الجيش الوطنى الأنجولى» منذ بضعة أشهر، مستفيدًا من تجارب مختلف حروب التحرير، مستعملاً أساليب حب العصابات.

ذلك أن القتال، فى حرب العصابات، لا يتم فى المكان الذى يكون فيه المقاتل، بل فى المكان الذى يذهب إليه. إن كل مقاتل فى حرب العصابات إنما ينقل الوطن إلى حيث تمضى قدماه العاريتان. إن جيش التحرير الوطنى ليس هو الجيش الذى يعرض نفسه لقوى العدو مرة واحدة، بل هو الجيش الذى يمضى من قرية إلى قرية، ويختبىء فى الغابات، وتمتلىء قلوب جنوده فرحًا حين يرون فى قرية إلى قرية، ويختبىء فى الغابات، وتمتلىء قلوب جنوده فرحًا حين يرون فى الوادى سحابة الغبار التى تثيرها أقدام العدو. القبائل فى حرب التحرير تتحرك، وجماعات المقاتلين تتنقل، وتغير مواقعها فى غير انقطاع. رجال الشمال يتحركون نحو الغرب، ورجال السهل يتجهون إلى الجبال. وما من موقع استراتيجى يُفضل على غيره. إن العدو يتخيل أنه يطاردنا ويلاحقنا، ولكننا نتدبر الأمور دائمًا بحيث نكون وراءه، نتعقبه ونهوى عليه فى اللحظة التى يظن فيها أننا قد فنينا. نحن الذين نطارده الآن ونلاحقه. ونشعر أنه، مع معداته وأسلحته، يغوص فى الوحل، ثم يغوص ويغوص. ونغنى نحن، ثم نغنى.

وفى أثناء ذلك يدرك قادة الثورة أن عليهم أن ينوِّروا جميع المقاتلين، أن يعلِّموهم، أن يثقِّفوهم، أن يبثُّوا فيهم عقيدة؛ يدرك قادة الثورة أن عليهم أن يخلقوا جيشًا، أن يمركزوا

السلطة. إن علينا أن نصحح التبعثر والتشتت، إن علينا أن نتجاوز تفتت القوى المقاتلة. وعندئذ نرى هؤلاء القادة الذين فروا من جو السياسة العقيمة الذى يسود المدن، يعودون إلى السياسة لا كأسلوب تخدير أو تضليل، بل كوسيلة وحيدة إلى تقوية الكفاح، وإلى إعداد الشعب لقياد البلاد قيادة واعية. إن قادة الثورة يشعرون بأن الانتفاضات، ولو كانت رائعة، فى حاجة إلى إنكار المعركة من حيث هى انتفاضة، ويحيلونها بذلك حربًا ثورية. إنهم يدركون أن انتصار الكفاح يقتضى أن تكون الأهداف بينة جلية، وأن تكون أساليب العمل واضحة، ويقتضى خاصة أن تعرف الجماهير ما فى جهودها من قوة دافعة مثمرة. إن الجماهير تصمد ثلاثة أيام وربما ثلاثة شهور باستعمال الحقد المتراكم فى صدورها، ولكنك لا تستطيع أن تفوز بالنصر فى حرب تحريرية، وأن تحطم أداة العدو الرهيبة، وأن تبدل الناس، إذا أنت أغفلت رفع مستوى الوعى لدى المقاتل. ليس يكفيك تأجُّج الحماسة، ولا عنف الشجاعة، ولا جمال الشعارات.

ثم إن تطور حرب التحرير يتولى بنفسه تعزيز هذه القناعة لدى قادة الثورة ذلك أن العدو يغير خطته. فهو يضيف إلى سياسة القمع الوحشية فى الظروف المؤاتية سياسة أخرى: يتظاهر بانفراج الأزمة، ويقوم بمناورات لتفريق الصفوف، ويعمد إلى «الأساليب السيكولوجية» لتضليل الناس. وهو يحاول هنا وهناك أن يبعث المنازعات القبلية من مرقدها، حتى لينجح فى ذلك أحيانًا بدفع بعض الأفراد إلى ارتكاب أعمال استفزازية، مستعملاً نوعين من الناس. فأما النوع الأول فعملاؤه التقليديون من زعماء ومشايخ وسحرة ومشعوذين. ونحن نعلم أن جماهير الفلاحين التى عاشت زمنًا طويلاً فى جمود رتيب، تظل تقدس الزعماء الدينيين ووجهاء الأسر العريقة، فالقبيلة كلها تسير، كرجل واحد، فى الطريق التى يعينها الزعيم التقليدى، وفى وسع الاستعمار أن يكفل لنفسه مساعدة هؤلاء الرجال الموثوقين بما يغدقه عليهم من ذهب. وأما النوع الثانى فيصطاده الاستعمار من بين صفوف الطبقة الدنيا من الفعلة الأشقياء. إن بين صفوف هذه الطبقة عددًا ضخمًا من العاطلين عن العمل. لذلك كان ينبغى لكل حركة تحرير وطنى أن تنتبه أشد الانتباه إلى هذه الطبقة. ورجال هذه الطبقة يلبون دائمًا نداء الثورة، ولكن إذا ظنت الثورة أن فى وسعها أن تستغنى عنهم، فإن جموعهم الجائعة المنبوذة ما تلبث أن تخوض

غمار القتال، وأن تشارك فى الصراع، ولكنها تقاتل عندئذ فى صفوف العدو. إن العدو الذى لا يدع فرصة من الفرص لجعل الزنوج يأكل بعضهم بعضًا، سيستعمل الآن جهل أفراد هذه الطبقة البائسة وفقدان الوعى بين صفوفهم، فإذا لم تبادر الثورة فورًا إلى تنظيم هذا الاحتياطى المهيأ للعمل، ضمهم الاستعمار إلى جنوده المأجورين. إن هذه الطبقة هى التى أمدت الاستعمار فى الجزائر باتباع مصالى الحاج. وهذه الطبقة هى التى أمدت الاستعمار فى انجولا بكشافى الطرق الذين يتقدمون اليوم القوات المسلحة البرتغالية. وفى الكونغو نجد أفراد هذه الطبقة فى المظاهرات الإقليمية بكاساى وكاتنجا، كما وجدنا أعداء الكونغو يستعملونهم بمدينة ليوبولدفيل فى تنظيم اجتماعات «عفوية» تعادى لومومبا.

إن العدو يحلل قوى الثورة، ويعمق دراسته للخصم الذى هو الشعب المستعمَر، فيدرك ما هنالك من فراغ أيديولوجى، ويدرك ما هنالك من فقدان الاستقرار المعنوى فى صفوف بعض طبقات السكان، ويكتشف أن هنالك، فى مقابل الطليعة الثورية المتراصة، كتلة من الرجال يمكن دائمًا أن يحملها بؤسها الدائم وذلها وفقدان شعورها بالمسئولية على النكوص. لذلك يستعمل العدو هذه الكتلة من الناس دافعًا لها من أجل ذلك ثمنًا كبيرًا. إن الدولارات الأمريكية والفرنكات الفرنسية تتقاطر غزيرة على الكونغو؛ وفى مدغشقر تُدفع للخونة أجور طائلة، وفى الجزائر يُضم إلى القوى الفرنسية جنود مرتزقة من الجزائريين. وخلاصة القول إن قادة الثورة يشعرون أن العدو يحاول أن يخرب الأمة. إن قبائل برمتها تنقلب على أعقابها، ويُحملها العدو أسلحة حديثة، ويوجهها إلى غزو القبائل المعادية التى يعينها لها. وهكذا فإن الإجماع الذى نلاحظه فى الساعات الأولى من الثورة خصبًا رائعًا عظيمًا، ما يلبث أن يتعطل. وتتفتت الوحدة القومية، وتصل الثورة إلى منعطف حاسم. عندئذ تصبح التوعية السياسية للجماهير ضرورة تاريخية.

إن ذلك الاندفاع الذى كان يريد أن ينقل الشعب المستعمَر إلى مستوى السيادة المطلقة دفعة واحدة، وذلك الاعتقاد الذى كان يخامر النفوس بأن فى إمكاننا أن نجر جميع أجزاء الأمة إلى حركة واحدة تحت ضوء واحد، وتلك القوة التى كان يقوم عليها هذا الأمل، إن ذلك كله ينكشف الآن بالتجربة ضعفًا كبيرًا. إن المستعمَر، ما ظل يتخيل أن فى إمكانه أن ينتقل رأسًا، بلا مراحل، من حالة المستعمَر إلى حالة المواطن الذى يملك السيادة، وما ظل يستسلم لخداع فورية عضلاته، لا يحقق تقدمًا حقيقيًا فى طريق المعرفة، بل يظل وعيه

بسيطًا ساذجًا. إن المستعمَر ينخرط فى الكفاح فى حرارة كما رأينا، وخاصة حين يكون هذا الكفاح مسلحًا. والفلاحون يندفعون فى الثورة بحماسة عظيمة، خاصة وأنهم لم يكفوا عن الثبات على طراز من الحياة يعادى الاستعمار بطبيعته. إن الفلاحين قد حافظوا دائمًا على ذاتيتهم تجاه الاستعمار بعد كثير من المخاتلة والمكر، حتى أنهم يبلغون من ذلك إلى الاعتقاد بأن الاستعمار لم ينتصر عليهم يومًا. إن أنفة الفلاح، وإحجامه عن النزول إلى المدن، واشمئزازه من مقاربة العالم الذى بناه الأجنبى، وتراجعه الدائم كلما دنا منه ممثلو الحكم الاستعمارى، إن ذلك كله كان يعنى دائمًا أنه يقابل الانقسام الذى أوجده المستعمِر بانقسام من عنده.

لا شك فى أن التعصب العرقى الذى يقابل به المستعمَر تعصب المستعمر، وأن عزم المستعمَر على الدفاع عن جلده جوابًا على اضطهاد المستعمر، لا شك فى أَن ذلك يهيب بالمستعمَر إهابة كافية إلى الانخراط فى الكفاح. ولكن المرء لاَ يصمد فى حرب طويلة، ولا يتحمل عذابًا كبيرًا، ولا يطيق أن يرى فناء أسرته كلها، لمجرد أنه يريد أن ينتصر حقده وأن ينتصر تعصبه العرقى. إن التعصب العرقى، والكره، والحقد، «والرغبة المشروعة فى الانتقام»، إن ذلك كله لا يمكن أن يغذى حربًا تحريرية. إن تلك البروق التى تومض فى نفسى فتدفع جسمى فى طرق هائجة، وتلقينى إلى تهاويل تشبه أن تكون هلوسات مرضى، فإذا تصورُ وجه العدو يجعلنى فى حالة دوار، وإذا دمى يحدونى أن أسفح دمه، وإذا موتى البطىء بالعطالة يحضُّنى على أن أحمل إليه الموت، إن تلك البروق وهذه الحماسة الكبيرة التى تشب فى النفس فى الساعات الأولى، ما تلبث أن تنحلّ إذا هى أرادت أن تتغذى من ذاتها. صحيح أن الجرائم المتصلة التى ترتكبها القوات الاستعمارية ما تنفك تُدخل العناصر الانفعالية فى الكفاح، وما تفتأ تمد المناضل بدواع جديدة إلى الحقد، وما تفتأ تزوده بأسباب جديدة تحفزه على أن يبحث عن «المستعمر الذى يجب عليه أن يذبحه». ولكن قادة الثورة يدركون يومًا بعد يوم أن الكره لا يمكن أَن يكون برنامجًا. إنك لا تستطيع أن تركن إلى الخصم الذى يعرف دائمًا كيف يتخلف من المآزق، وأن تطمئن إلى أنه سيضاعف جرائمه، فيعمق «الهوة» ويدفع مجموع الشعب دفعًا إلى أحضان الثورة؛ وقد رأينا أن الخصم يحاول على كل حال أن يكتسب عطف بعض فئات السكان، وبعض المناطق، وبعض الزعماء. حتى أنه يصدر إلى المستوطنين وإلى قوى الشرطة تعليمات بهذا

الصدد، فترى سلوك هؤلاء يتلطف ويصطنع شيئًا من «الروح الإنسانية»، حتى لقد يأخذون يخاطبون المستعمرين بقولهم: «سيدى وسيدتى» وما ينفكون يضاعفون التأدب والتهذب، إلى أن يشعر المستعمِر حقًا أن ثمة تبدلاً قد حدث.

والمستعمَر الذى لم يحمل السلاح لمجرد أنه كان يموت جوعًا، وأنه كان يرى مجتمعه بسبيل الانحلال وإنما حمل السلاح أيضًا لأن المستوطن كان ينظر إليه نظرته إلى دابة، ويعامله معاملة دابة، لابد أن يتأثر بهذه التدابير الجديدة. إن هذه الاكتشافات السيكولوجية تُضعف الكره. والأخصائيون فى علم النفس وعلم الاجتماع ينيرون الطريق للمناورات الاستعمارية، ويضاعفون دراساتهم «للعُقَد»: عقدة الحرمان، عقدة القتال، الخ... وها هم الاستعماريون يرفعون منزلة السكان الأصليين، محاولين أن يفلوا سلاحهم بعلم النفس، وببضع قطع من النقود أيضًا بطبيعة الحال. هذه التدابير التافهة، هذه الإصلاحات الظاهرية، التى لا تُبذل جزافًا مع ذلك، وإنما تبذل بمقادير معلومة، تتوصل إلى تحقيق بعض النجاح. ذلك أن جوع المستعمَر، جوعه إلى من يعامله معاملة إنسان، ولو بأرخص الأثمان، قد بلغ من القوة أن هذه الصدقات يمكن أن تؤثر فى نفسه. إن شعوره قد بلغ من الضعف والكثافة أنه يهتز لأيسر بارقة.

إن ظمأه الكبير إلى الضوء فى أول الأمر مهدد فى كل لحظة بأن يغرر به وأن يُضلل. فإذا المطالب العنيفة الشاملة التى كانت تشق السماء شقًا تنطوى الآن على نفسها وتتواضع. إن الذئب المفترس الذى كان يريد أن يلتهم كل شىء، والإعصار العاصف الذى كان يريد أن يحقق ثورة حقيقية، مهددان بأن تتغير ملامحهما فما يُعرفان، إذا استمر الكفاح، وأنه ليستمر. إن المستعمَر مهدد فى كل لحظة بأن يُسقطوا فى يده بأى تنازل.

ويكتشف قادة الثورة فقدان الثبات هذا لدى المستعمَر، يكتشفونه فى رعب. ويحارون فى أول الأمر، لكنهم ما يلبثون أن يفهموا من هذه الزاوية الجديدة أن عليهم أن يشرحوا الأمور، وأن يحملوا إلى النفوس وعيًا يحررها من الانزلاق. إن الحرب تستمر، والعدو ينظم صفوفه، ويقوى نفسه، ويدرك استراتيجية المستعمَر. وكفاح التحرير الوطنى ليس اجتياز مسافة بوثبة واحدة. إن الملحمة تتتابع فصولها كل يوم، والآلام التى يقاسيها المقاتلون أقوى من جميع الآلام التى قاساها الشعب فى عهد الاستعمار. «يظهر أن

المستوطنين قد أصبحوا فى المدن غير ما كانوا بالأمس. لقد تبدلوا. لقد أصبح جماعتنا أكثر سعادة». هذا هو الخطر. إن الأيام تتلو الأيام، وما ينبغى للمستعمَر المنخرط فى الكفاح، ولا للشعب الذى يجب أن يستمر فى مساندة الثورة، أن يتوقفا. يجب أن لا يتوهما أن الغاية قد تحققت، وأن الهدف قد تم الوصول إليه. يجب أن تُشرح لهم الأهداف الحقيقية التى يسعى الكفاح إلى تحقيقها، ويجب أن لا يتخيلوا أن بلوغ هذه الأهداف أمر مستحيل. نعم، يجب أن تُشرح لهم الأمور، يجب أن يعرف الشعب إلى أين هو ماض، وكيف ينبغى له أن يمضى إلى حيث هو ماض. ليست الحرب معركة كبيرة واحدة، وإنما هى سلسلة من معارك محلية ليست واحدة منها فاصلة فى حقيقة الأمر.

يجب إذن أن ندخر قوانا، أن لا نلقيها فى الميزان دفعة واحدة. إن احتياطات الاستعمار أغنى وأكبر من احتياطيات المستعمَر. والحرب مستمرة. والعدو يدافع عن نفسه. وموعد التصفية الكبرى ليس اليوم ولا غداً. لقد بدأت هذه التصفية منذ أول يوم فى الواقع، ولن تنتهى يوم لا يبقى ثمة خصم، بل يوم يدرك هذا الخصم لأسباب كثيرة أن مصلحته نفسها تقتضى أن ينهى هذا الصراع، ومن يعترف بسيادة الشعب المستعمَر. يجب أن لا تبقى أهداف الكفاح غامضة غموضها فى الأيام الأولى. فإن لم ننتبه إلى هذا تعرضنا فى كل لحظة لأن نرى الشعب يتساءل عند أى تنازل يتنازله العدو: فيم نطيل هذه الحرب؟ ذلك أن الناس قد بلغوا من تعودهم على احتقار المستعمر لهم، وعلى إصراره على الاستمرار فى اضطهادهم مهما كلف الأمر، إنهم ما إن يلاحظوا بادرة طيبة منه، وما إن يُظهر لهم شيئًا من حسن الاستعداد، حتى يحيوا ذلك مدهوشين وحتى يباركوه فرحين. إن المستعمر يميل عندئذ إلى أن يغنى طربًا. فيجب إذن أن نضاعف الشرح والتوضيح، أن نُفهم المناضل أن تنازلات الخصم ما ينبغى أن تُضله عن الحقيقة، أن تعميه، فهذه التنازلات ليست إلا تنازلات، وهى لا تمس جوهر الأمر، حتى ليمكن أن يقال، من وجهة نظر المستعمَر، إن كل تنازل لا يمس جوهر الأمر ما لم يتناول النظام الاستعمارى فى جوهره.

إن الأشكال الوحشية التى يكتسبها وجود المحتل قد تزول زوالاً تامًا. والواقع أن زوالها هذا لا يعدو أن يكون تخفيضًا للنفقات التى ينفقها المحتل، ولا يعدو أن يكون إجراء إيجابيًا من أجل الحيلولة دون بعثرة قواه. ولكن الشعب المستعمَر يدفع ثمن ذلك باهظًا،

يدفع ثمنه مزيدًا من تحكم المستعمر بمصير البلاد، يجب علينا أن نذكر للشعب أمثلة تاريخية تساعده على الاقتناع بأن مهزلة التنازل هذه وبأن تطبيق مبدأ التنازل هذا، قد أديًا إلى سيطرة المستعمر سيطرة إن كانت أخفى فهى أكمل وأشمل. يجب أن يعرف الشعب وأن يعرف مجموع المناضلين ذلك القانون التاريخى، وهو أن هناك تنازلات ليست فى حقيقتها إلا أغلالاً. فإذا أغفلنا هذا الشرح وهذا التوضيح رأينا قادة بعض الأحزاب السياسية تتورط بسهولة فى مساومات مع المستعمر. يجب أن يقتنع المستعمر بأن الاستعمار لا يهب له شيئًا، وأن ما يحصل عليه المستعمَر بكفاحه السياسى أو كفاحه المسلح ليس ثمرة حسن النية أو طيب القلب لدى المستعمر، وإنما هو إفصاح عن عجز المستعمر عن تأجيل التنازلات. ويجب أن يعلم المستعمَر أيضًا أن المستعمر ليس هو الذى يقدم هذه التنازلات، وإنما المستعمَر هو الذى يقدمها. فحين تقرر الحكومة البريطانية أن تمنح السكان الأفريقيين عددًا من المقاعد الإضافية فى «مجلس كينيا» فما من أحد يستطيع أن يدَّعى أن الحكومات البريطانية قد قامت بتنازلات، اللهم إلا أن يكون قليل الحياء أو عديم الوعى. إن الشعب الكينى هو الذى تنازل هنا عن حقوقه. يجب على الشعوب المستعمرة، يجب على الشعوب التى كانت محرومة مجردة من حقوقها، أن تتحرر من هذه الحالة النفسية التى لازمتها إلى الآن. لقد يمكن عند الاقتضاء أن يقبل المستعمَر حلاً وسطًا، ولكن ما ينبغى له أبدًا أن يقبل مساومة.

هذه الشروح كلها، وهذه التوضيحات المتصلة المتعاقبة التى تحمل إلى النفوس الوعى والنور، وهذا المسير فى طريق معرفة تاريخ المجتمعات، هذا كله لا يمكن أن يتم إلا فى إطار تنظيم يتناول الشعب. وهذا التنظيم إنما يكون باستعمال العناصر الثورية التى وفدت من المدن فى أول الثورة، العناصر التى التحقت بالأرياف أثناء تطور الكفاح. ولكن الفلاحين الذين ينضجون معارفهم من اتصالهم بالتجربة، يبرهنون أنهم قادرون هم أيضًا على قيادات الكفاح الشعبى، فالمؤسسات التقليدية تقوى وتعمق، حتى لقد تتبدل تبدلاً حقيقيًا: مجالس «الجماعة» التى تفض الخلافات وتفصل فى المنازعات، ومجالس القرى، تستحيل إلى مجالس ثورية ولجان سياسية حربية؛ ويظهر فى كل جماعة من جماعات المقاتلين، وفى كل قرية من القرى، رجال يتولون التوجيه السياسى، ويأخذ هؤلاء الرجال

بتنوير الشعب الذى بدأ يشعر من عزلته بحيرة؛ ولا يحجم هذه الرجال عن معالجة المشكلات التى يؤدى السكوت عنها إلى مزيد من الحيرة والبلبلة. من ذلك مثلاً أن المناضل الذى حمل السلاح يُحنقه أن يرى كثيراً من أبناء وطنه ما يزالون يتابعون حياتهم فى المدن كأنهم غرباء عما يحدث فى الجبال، كأنهم يجهلون هذه الحركة الجوهرية التى انطلقت. إن صمت المدن، واستمرار الحياة فيها على منوالها المألوف، يولد فى نفس الفلاح شعوراً مّا بأن قسمًا بكامله من الأمة يكتفى بمشاهدة المعركة ولا يزيد على عدّ الضربات. وهذا يثير الحنق والغيظ فى نفوس الفلاحين، ويعزز ميلهم إلى احتقار سكان المدن، وإلى الحكم عليهم بالسوء جميعًا. فعلى الموجِّه السياسى فى هذه الحالة أن يجعل الفلاحين قادرين على تمييز الأمور تمييزاً أدق، فيفهمهم أن هناك أجزاء من الشعب لها مصالح خاصة لا تتفق اتفاقًا كاملاً دائمًا مع المصلحة الوطنية؛ ويدرك الشعب عندئذ أن الاستقلال الوطنى يبرز وقائع كثيرة هى فى بعض الأحيان متباعدة بل ومتعارضة. والشرح فى هذه اللحظة بعينها من لحظات الكفاح، أمر حاسم، لأنه ينقل الشعب من أفق الوطنية العامة الغامضة إلى أفق الوعى الاجتماعى والاقتصادى. إن الشعب الذى تبنى فى بداية الكفاح تلك الثنائية الأولى التى أوجدها المستوطن الأجنبى: البيض والسود، العرب والأروام، يدرك الآن فى أثناء النضال أنه يتفق لسود أن يكونوا أكثر بياضًا من البيض، وإن هناك فئات من السكان لا يحملها إمكان ارتفاع رايةً وطنية وإمكان قيام أمة مستقلة على التنازل عن امتيازاتها وعن مصالحها. ويدرك الشعب أن هناك أناسًا من بنى وطنه لا يتمسكون بمصالحهم فحسب، بل ينتهزون كذلك فرصة الحرب لتعزيز وضعهم المالى وقوتهم الناشئة. إن هناك أناسًا من السكان الأصليين يتاجرون ويحققون أرباحًا طائلة من قيام هذه الحرب، على حساب الشعب الذى يضحى بنفسه دائمًا، ويروى بدمه تراب الوطن. إن المناضل الذى يجابه بوسائله البدائية آلة الحرب الاستعمارية يكتشف أنه بقضائه على الاضطهاد الاستعمارى يساهم فى خلق جهاز استغلالى آخر. وهو اكتشاف مؤلم شاق مثير. لقد كان الأمر بسيطًا فى البداية: كان هناك فى نظره أشرار من جهة، وطيبون من جهة أخرى. أما الآن فقد حل محل الوضوح الخيالى اللاواقعى الأول ظلام يجزئ الشعور. إن الشعب يكتشف أن الاستغلال الظالم يمكن أن يكون زنجيًا أو عربيًا. وهو يندد عندئذ بالخيانة، ولكن يجب أن نصحح هذا التنديد. فالخيانة ههنا ليست وطنية بل اجتماعية؛ ينبغى لنا أن نعلم الشعب أن

يندد باللصوص. والشعب في مسيره الشاق إلى المعرفة العقلية، يترك أيضًا تلك النظرة التبسيطية التي كان يتميز بها إدراكه للمتسلط. إن النوع يتجزأ الآن أمام بصره. إنه يلاحظ من حوله مستوطنين لا يشاركون في تلك الهستريا الإجرامية، ويختلفون عن سائر أبناء جلدتهم. إن بين هؤلاء المستوطنين الذين كان يعدهم كتلة واحدة تمثل التسلط الأجنبي بغير تمييز أناسًا يستنكرون الحرب الاستعمارية؛ بل أعجب من ذلك أن أفرادًا من هذا النوع ينتقلون إلى المعسكر الآخر، ويجعلون أنفسهم زنوجًا أو عربًا ويرتضون تحمل الآلام والتعذيب والموت.

هذه الأمثلة تضعف الحقد العام الذي كان المستعمَر يشعر به نحو جميع الأجانب. حتى لقد يحيط ذلك العدد القليل من الأشخاص بعاطفة حارة، ويميل بنوع من المزايدة العاطفية، إلى أن يمحضهم ثقة مطلقة. إن في عاصمة البلاد المستعمرة، التي ينظر إليها المستعمَر نظرته إلى جلاد لا يرحم، أصواتًا كثيرة، شهيرة في بعض الأحيان، تستنكر بغير تحفظ سياسة الحرب التي تتبعها الحكومة الاستعمارية، وينصحون هذه الحكومة بأن تثوب إلى رُشدها، وأن تحسب أخيرًا حساب الإرادة القومية للشعب المستعمَر. بل إن جنودًا من جنود الاستعمار يفرون من بين صفوفه، كما أن جنودًا آخرين يرفضون صراحة أن يقاتلوا ضد حرية الشعب، فيذهبون إلى السجون، ويتحملون العذاب باسم حق هذا الشعب في الاستقلال وفي إدارة شئونه بنفسه.

وعندئذ لا يكون المستوطن رجلاً يجب ذبحه، وكفى أن أفراد الكتلة الاستعمارية يظهرون أقرب إلى الكفاح الوطني، أقرب كثيرًا إلى الكفاح الوطني من بعض أبناء الأمة. وبذلك يصبح التفريق العنصري والتعصب العنصري متجاوزًا في الاتجاهين. فلا كل زنجي وكل مسلم يستحق شهادة صدق، ولا كل مستوطن يُستقبل بتناول البندقية أو السيف. هكذا الوعي يُطلّ بكثير من الجهد والمشقة على حقائق جزئية محدودة غير ثابتة. وذلك كله صعب كما تقدرون. وإنما يُسهل مهمة ترشيد الشعب أن يكون التنظيم قويًا صارمًا وأن يكون المستوى العقائدي لدى قادة هذا التنظيم عاليًا. وعلو المستوى العقائدي إنما يتحقق ويتعزز خلال اتساع النضال ومناورات الخصم وخلال الانتصارات والهزائم. والقيادة تكشف عن قوتها وسلطتها بفضح الأخطاء وبالاستفادة من كل تقهقر في الوعي

لاستخلاص الدرس ولتوفير شروط جديدة من أجل التقدم. فهى تستثمر كل نكوص محلى من أجل إعادة النظر فى القضية على مستوى جميع القرى وجميع الشبكات. إن الثورة تبرهن لنفسها على أنها عقلية، وتعبر عن نضجها كلما استفادت من حالة من الحالات فى تعميق وعى الشعب. وقيادة الثورة، ولو كان ما يحيط بها يوهم أحيانًا بأن الاهتمام بالفروق الطفيفة خطر، وبأنه يحدث صدوعًا فى كتلة الشعب، تظل ثابتة على مبادئ الكفاح الوطنى والكفاح العام الذى يخوضه الإنسان لتحقيق تحرره. صحيح أن هناك وحشية تحتقر الفروق الطفيفة والحالات الفردية، وحشية ثورية حقًا، غير أن هناك وحشية أخرى تشبهها شبهًا كبيرًا وليست من الروح الثورية فى شىء، بل هى منافية للثورية، مغامرة فوضوية. فإذا لم تُحارب هذه الوحشية الصرفة الكلية فورًا، أدت حتمًا إلى إخفاق الحركة فى غضون أسابيع.

إن المناضل الوطنى الذى هجر المدينة بعد أن آلمته المناورات الديماغوجية المتخاذلة التى يقوم بها المسئولون فى الحزب، بعد أن خيبت ظنه «السياسة»، يكتشف أثناء النضال العملى المحسوس سياسة جديدة لا تشبه السياسة القديمة بوجه من وجوهها؛ إنها سياسة أناس مسئولين وقادة داخلين فى التاريخ يتولون بعضلاتهم وأدمغتهم توحيد كفاح التحرير. إن هذا الواقع الجديد الذى سيعرفه المستعمَر الآن لا يوجد إلا بالعمل النضالى. فالنضال الذى ينسف الواقع القديم الاستعمارى، يكشف عن جوانب كانت مجهولة ويفجر معانى جديدة، ويضع الإصبع على التناقضات التى كان يخبئها ذلك الواقع. إن الشعب الذى يكافح، الشعب الذى يدرك بالنضال هذا الواقع الجديد ويعرفه، يسير حين يتحرر من الاستعمار متنبئًا بجميع محاولات التضليل، متهيئًا لجميع الأكاذيب التى تُلفق باسم الوطنية. والعنف وحده، العنف الذى يمارسه الشعب، العنف المنظم الواعى الذى ينيره قادة الثورة، هو الذى يتيح للجماهير أن تحلل الواقع الاجتماعى وأن تملك مفتاحه. وبدون هذا النضال، بدون هذه المعرفة النابعة من النضال، لا يكون ثمة إلا تهريج: قليل من التبديل، بضعة إصلاحات فى القمة، راية وطنية، أما تحت، فكتلة كبيرة من الناس ما تزال تعيش فى «القرون الوسطى»، وما تنفك تجرى حياتها على وتيرة ثابتة.

●●●

مزالق الشعور القومى

أما أن المعركة ضد الاستعمار لا تجرى منذ البداية على مستوى قومى، فذلك ما يدلنا عليه التاريخ. إن المستعمَر يظل زمنًا طويلاً يوجه جهوده نحو إزالة بعض المظالم: العمل الإكراهى، العقوبات الجسمية، تفاوت الأجور، تقييد الحقوق السياسية، الخ. وهذا النضال من أجل الديموقراطية ضد اضطهاد الإنسان ما يلبث أن يخرج شيئًا من هذا الإبهام الليبرالى الجديد، وما يلبث أن يُطل على المطامح القومية ولو بكثير من المشقة فى بعض الأحيان. ولكن عدم تأهب الصفوة، وفقدان الاتصال العضوى بين هذه الصفوة وبين الجماهير، وكسل هذه الصفوة، بل جبنها فى اللحظة الحاسمة من لحظات الكفاح، كل ذلك يؤدى إلى مزالق فاجعة.

إن الشعور القومى ما لم يكن تجسيدًا منسجمًا لأعمق مطامح الشعب بمجموعه، وما لم يكن ثمرة مباشرة حيَّة نابضة للتعبئة الشعبية، فلن يكون فى أحسن الأحوال إلا شكلاً لا مضمون له، سريع الزوال قليل الدقة والوضوح والصدوع التى نجدها فيه عندئذ هى السبب فى أن البلاد الناشئة المستقلة كثيرًا ما تنتقل بسهولة من حالة الأمة إلى حالة القبيلة، ومن مستوى الدولة إلى مستوى العشيرة. إن هذه الشقوق هى السبب فيما تعانيه الاندفاعة القومية والوحدة القومية من انتكاسات مؤلمة مؤذية. وسنرى الآن أن مواطن الضعف هذه، وما تشتمل عليه من أخطار فادحة، إنما هى نتيجة تاريخية لعجز البورجوازية الوطنية فى البلدان المتخلفة عن ترشيد النضال الشعبى، أى عن استخلاص معانيه ودوافعه.

إن الضعف الكلاسيكى المعروف الذى يعانيه الوعى القومى فى البلدان المتخلفة لا يرجع فقط إلى أن النظام الاستعمارى قد أفسد الإنسان المستعمَر، وإنما يرجع أيضًا إلى كسل البورجوازية الوطنية، وإلى فقرها، وإلى أن فكرها قد تكوَّن تكونًا كوزموبوليتيًا فى قرارته.

إن البروجوازية التى تستلم مقاليد السلطة فى نهاية العهد الاستعمارى هى بورجوازية متخلفة. قوتها الاقتصادية تكاد تكون صفرًا، أو هى على الأقل لا تقاس أبدًا بالقوة

الاقتصادية التى تملكها بورجوازية البلاد المستعمرة التى تريد هذه البورجوازية الوطنية أن تحل محلها. لقد ظنت البورجوازية الوطنية لنرجسيتها وغرورها أن فى وسعها أن تحل محل بورجوازية الاستعمار وأن تكون خيراً منها. ولكن الاستقلال ما يلبث أن يضعها فى مآزق جرجة، فإذا هى تلجأ إلى وسائل تجلب الكوارث، إذ تتجه بنداءات خائفة إلى الدولة التى كانت تستعمر بلادها. ذلك أن العناصر الجامعية والعناصر التجارية التى هى أكثر أبناء الدولة الجديدة وعيًا تتميز بأنها قليلة العدد، بأنها متمركزة فى العاصمة، وبأن أنواع نشاطها لا تتعدى التجارة والاستثمارات الزراعية والمهن الحرة، فليس بين أفراد هذه البورجوازية الوطنية أناس من رجال الصناعة أو رجال المال. إن البورجوازية الوطنية فى البلدان المتخلفة ليست متجهة نحو الإنتاج، والابتكار، والبناء، والعمل، وإنما هى تنفق نشاطها كله فى أعمال من نوع الوساطة. إن نفسية البورجوازية الوطنية هى نفسية رجال أعمال، لا رواد صناعة. ويجب أن نعترف أن جشع المستوطنين، ونظام الحجر الذى أوجده الاستعمار لم يَدَعا للبورجوازية حرية الاختيار كثيراً.

إنه ليستحيل على بورجوازية أن تجمع رأسمالاً فى ظل النظام الاستعمارى. والرسالة التاريخية التى يبدو أن البورجوازية الوطنية الصادقة فى البلد المتخلف قد خلقت للنهوض بها هى أن تنكر نفسها كبورجوازية، هى أن تنكر نفسها كأداة لرأس المال، وأن تضع نفسها وضعًا كاملاً فى خدمة رأس المال الثورى الذى هو الشعب.

إن على البورجوازية الوطنية الصادقة فى البلد المتخلف أن تفرض على نفسها خيانة المهمة التى كانت ميسَّرة لها، أن تدخل مدرسة الشعب، أى أن تضع تحت تصرف الشعب الرأسمال الثقافى والتكنيكى الذى استطاعت أن تنتزعه حين مرورها بجامعات الاستعمار. ولكننا نرى آسفين أن البورجوازية الوطنية كثيراً ما تتنكب هذا السبيل البطولى الإيجابى الخصب العادل، لتسير راضية النفس مطمئنة البال فى طريق فظيع، مناقض لمصلحة الأمة، هو الطريق الذى تسلكه بورجوازية تقليدية، بورجوازية بورجوازية، بوجوازية ارتضت فى غباء وحمق وحطَّة أن لا تكون إلا بورجوازية.

لقد رأينا أن هدف الأحزاب الوطنية يصبح منذ مرحلة من المراحل هدفًا قوميًا تمامًا. فهو يعبىء الشعب حول شعار الاستقلال، مرحِّبًا ما عدا ذلك للمستقبل. فإذا سألت رجال

هذه الأحزاب عن البرنامج الاقتصادى الذى ستلتزمه الدولة، وعن النظام الذى يريدون إقامته، رأيتهم عاجزين عن الإجابة، لأنهم يجهلون كل الجهل اقتصاد بلادهم.

إن اقتصاد بلادهم قد تطور دائمًا بعيدًا عنهم وبدون تدخلهم. إنهم لا يعرفون عن الموارد الحالية والموارد الممكنة التى تشتمل عليها الأرض ويضمها جوف الأرض إلا أمورًا قرأوها فى الكتب، أمورًا تقريبية، لذلك تراهم لا يستطيعون أن يتحدثوا عن هذه الموارد إلا حديثًا مجردًا عامًا. حتى إذا تحقق الاستقلال، رأيت هذه البورجوازية المتخلفة، القليلة العدد، التى لا تملك رؤوس أموال كبيرة، والتى ترفض أن تسلك الطريق الثورى، راكدة ركودًا يُرثى له. إنها لا تستطيع أن تطلق العنان «لعبقريتها» التى كانت تستطيع أن تقول عنها بشىء من الطيش إن سيطرة الاستعمار هى التى حالت دون انطلاقها. وهكذا نرى فقر وسائلها وقلة رجالها تحصرها خلال سنوات طويلة فى نطاق اقتصاد يقوم على الحرفة، فإذا الاقتصاد القومى اقتصاد محدود الآفاق يستند إلى ما يسمى بالمنتجات المحلية. ونسمع عندئذ خطبًا طويلة عن قيمة الحرف، فالبورجوازية الوطنية التى وجدت نفسها عاجزة عن إقامة مصانع تدر لها وللبلاد أرباحًا أوفر، تحيط الحرف عندئذ بعواطف العزة القومية والكرامة الوطنية، وتستمد منها فى الوقت نفسه فوائد جمة. وهذا التقديس للمنتجات المحلية، هذا العجز عن خلق طرق جديدة، يتجليان كذلك فى انغماس البورجوازية الوطنية فى الإنتاج الزراعى الذى كان يتميز به العهد الاستعمارى. إنهم لا يوجهون الاقتصاد القومى توجيهًا جديدًا. وتظل الأمور تسير على ما كانت تسير عليه من قبل: غلال الأراشيد، غلال الكاكاو، غلال الزيتون. حتى أن هذه المنتجات الأساسية لا يطرأ أى تغير على طريقة استثمارها. وتظل البلاد تصدر مواد أولية، ويظل الأهالى يعملون مزارعين صغارًا لدى أوروبا، وتظل البلاد اختصاصية فى تقديم المحاصيل الخام.

ومع ذلك ما تفتأ البورجوازية الوطنية تطالب بتأميم الاقتصاد والقطاعات التجارية. ذلك أن التأميم عندها لا يعنى وضع مجموع الاقتصاد فى خدمة الأمة، وتحقيق كافة حاجات الأمة، وهو لا يعنى تنظيم شئون الدولة على أساس علاقات اجتماعية جديدة يراد تسهيل وجودها، وإنما يعنى التأميم عندها نقل الامتيازات الموروثة من العهد الاستعمارى إلى أهل البلاد.

ولما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل المادية، ولا الوسائل العقلية الكافية (مهندسين، فنيين)، نراها تكتفي بوضع اليد على مكاتب الأعمال وبيوتات التجارة التى كان يشغلها المستوطنون الأجانب. إن البورجوازية الوطنية تحتل الأمكنة التى كان يشغلها الأوروبيون: أطباء ومحامين وتجاراً وممثلى شركات ووكلاء عامين ووسطاء. إنها تشع أن من واجبها، حفاظًا على كرامة البلاد وحفاظًا على نفسها، أن تحتل جميع هذه المراكز.

ومنذ ذلك الحين تراها تفرض على جميع الشركات الأجنبية الكبرى أن تمر بواسطتها، سواء أكانت تريد أن تبقى فى البلاد أم كانت تنوى أن تدخل إلى البلاد. إن البورجوازية الوطنية تكتشف لنفسها هذه المهمة التاريخية وهى أن تكون وسيطًا. وهكذا لا تكون رسالتها تغيير أحوال الأمة، بل جعل نفسها وسيطًا بين البلاد وبين رأسمالية مضطرة إلى التخفى، رأسمالية تضع على وجهها اليوم قناع الاستعمار الجديد. وترتاح البورجوازية الوطنية إلى هذا الدور الذى تقوم به، أعنى دور وكيل للبورجوازية الغربية، دون أن يكون ثمة عقد ولا غضاضة. وهذا الدور الذى يدر ربحًا ضئيلاً، هذه الوظيفة التى تغل رزقًا يسيراً، هذا الضيق فى النظرة، هذا النقص فى الهمة والطموح، هذا كله إنما يرمز إلى عجز البورجوازية الوطنية عن النهوض بالدور التاريخى الذى تنهض به البورجوازية. فما تُعرف به كل بورجوازية وطنية من أنها نشيطة رائدة مبتكرة مستكشفة لعوالم جديدة، لآفاق جديدة، لا نرى مثله لدى هذه البورجوازية الوطنية. إن روح التمتع والتلذذ هى المسيطرة لدى البورجوازية الوطنية فى البلدان المستعمرة. ذلك أنها على المستوى النفسى تتشبه بالبورجوازية الغربية وتستمد منها تعاليمها، وتقتفى آثارها فى الجانب السلبى وتنحط دون أن تكون قد قطعت مراحل الاستكشاف والابتكار الأولى التى قطعتها البورجوازية الغربية، وحققت بها أشياء إيجابية على كل حال. إن البورجوازية الوطنية فى أول عهدها تشبه بالبورجوازية الغربية فى آخر عهدها. وما ينبغى أن نظن أنها تغذ السير وتحرق المراحل. فإنما هى فى حقيقة الأمر تبدأ بالنهاية. لقد دلفت إلى الشيخوخة المتهدمة قبل أن تعرف ما يعرفه عهد الصبا والمراهقة من نزق، وتهور، واندفاع.

والانحطاط الذى تتردى فيه البورجوازية الوطنية تساعدها عليه البورجوازية الغربية مساعدة كبيرة، بتوافد رجالها على البلاد سائحين مولعين بالغرائب والصيد والملاهى. إن البورجوازية الوطنية تنشىء مراكز للراحة والاستجمام واللذة يتقاطر عليها رجال

البورجوازية الغربية. وهى تطلق على هذا النشاط اسم السياحة، تعده أشبه بصناعة وطنية. وإذا أردتم برهانًا على هذا النوع من تحول عناصر البورجوازية الوطنية التى كانت مستعمرة إلى طبقة تنظم «حفلات» للبورجوازية الغربية، فانظروا إلى ما حدث فى أمريكا اللاتينية. إن ملاهى هافانا ومكسيكو وشواطىء ريودى جانيرو، والبرازيليات الصغيرات، والمكسيكيات الصغيرات، وخلاسيات السنة الثالثة عشرة من العمر، وآكابولكو، وكوباكاباتا، كل تلك إنما هى أمارات الفساد الأخلاقى الذى تتردى فيه البورجوازية الوطنية. فلأن هذه البورجوازية الوطنية ليس لها أفكار، ولأنها مغلقة على ذاتها، منقطعة عن الشعب، عاجزة عن التفكير فى مجموع المسائل على أساس مجموع الأمة، نراها تقوم بدور الوكيل عن الغرب فى إدارة مشاريعه، ونراها تنظم بلادها ماخوراً لأوروبا.

أعود فأقول يجب أن يكون ماثلاً فى خيالنا ذلك المشهد المحزن، مشهد بعض جمهوريات أمريكا اللاتينية. إن رجال الأعمال فى الولايات المتحدة وكبار أصحاب المصارف ورجال الصناعة، يطيرون بصفقة جناح إلى «البلاد الحارة» ليغرقوا هنالك سبعة أيام أو ثمانية فى ذلك الجو اللذيذ من الفسق الذى يهيأ لهم.

ولا يختلف سلوك مُلاَّك الأراضى عمليًا عن سلوك بورجوازية المدن. لقد طالب كبار المزارعين، منذ إعلان الاستقلال، بتأميم الاستثمارات الزراعية، واستطاعوا بأساليب ماكرة كثيرة أن يضعوا أيديهم على المزارع التى يملكها المستوطنون الأجانب، فزادوا بذلك سيطرتهم على المنطقة. ولكنهم لا يحاولون أن يحددوا الزراعة، أو أن يقووها، أو أن يجعلوها جزءًا من اقتصاد قومى حقًا.

إن مُلاَّك الأراضى يطالبون السلطات العامة بأن تحيل إليهم تلك التسهيلات والامتيازات التى كان ينعم بها المستوطنون الأجانب قبل الاستقلال. ويصبح استغلال العمال الزراعيين أقوى مما كان، ويصبح كذلك مشروعًا. ويتزود هؤلاء الوطنيون الذين لا يختلفون عن المستوطنين الأجانب فى شىء، يتزود هؤلاء المستوطنون الجدد بشعارين أو ثلاثة شعارات، ليطالبوا العمال الزراعيين بالقيام بجهود ضخمة باسم الاشتراك فى المجهود القومى العام. فلا تجديد فى أساليب الزراعة، ولا خطة للتنمية الاقتصادية، ولا

مبادهات فردية، لأن المبادهات تقتضى حداً أدنى من المخاطرات، والمخاطرات تبث الذعر فى نفوس هؤلاء الناس، وتجعل هذه البورجوازية الزراعية المترددة «المتعقلة» يطيش صوابها، فتؤثر أن تبقى الأحوال على ما هى عليه، وتكتفى بالطرق المعبدة التى شقها الاستعمار؛ إن المبادهات فى هذه المناطق إنما هى من شأن الحكومة. الحكومة هى التى تقررها، وهى التى تشجعها، وهى التى تمولها. إن البورجوازية الزراعية تأبى أن تقوم بأية مجازفة. إنها تكره المغامرة. إنها لا تريد أن تعمل على رمال. إنها تريد أرباحًا مضمونة، وأرباحًا سريعة. وهذه الأرباح التى تجنيها، هذه الأرباح التى تعد ضخمة بالقياس إلى الدخل القومى، يضعونها فى جيوبهم، ولا يستثمرونها من جديد. إن كنز المال هو السياسة التى تسيطر على نفسية هؤلاء الملاكين الزراعيين. وفى بعض الأحيان، خاصة فى السنوات التى تعقب الاستقلال، نرى هذه البورجوازية لا تتورع عن إبداع الأرباح التى تجنيها من أرض الوطن فى البنوك الأجنبية. ونراها فى مقابل ذلك تنفق أموالاً طائلة فى اقتناء الأشياء التى يدفع إلى اقتنائها حب الظهور، فهم يشترون السيارات الفخمة والفيلات الباذخة، وسائر تلك الأشياء التى لاحظ علماء الاقتصاد أنها من مميزات البورجوازية المتخلفة.

قلنا إن البورجوازية المستعَمرة التى تتسلم مقاليد السلطة، تصب طموحها الطبقى على احتكار الوظائف التى كان يستأثر بها الأجانب. وها هى ذى، غداة الاستقلال، تصطدم بالأجانب الذين خلفهم الاستعمار من محامين، وتجار، ومُلاّك أراض، وأطباء، وموظفين كبار. وها هى ذى تقتتل اقتتالاً لا هوادة فيه مع هؤلاء الناس «الذين يهينون الكرامة الوطنية»، وتنادى فى كثير من القوة بفكرة تأميم الوظائف، فكرة إسناد الوظائف إلى الأفريقيين. حتى لنرى سلوكها يصطبغ شيئًا فشيئًا بتعصب عقيم. وما تلبث أن تطرح على الحكومة هذه المشكلة بكثير من العنف: نريد هذه الوظائف؛ ثم لا تخفف من شراستها إلا بعد أن تحتل هذه المراكز احتلالاً كاملاً.

ومن جهة أخرى نرى طبقة العمال فى المدن، وجمهرة العاطلين عن العمل، وصغار أصحاب الحرف، أولئك الذين ألفنا أن نسميهم أهل المهن الصغيرة، نرى هؤلاء جميعًا يقفون هذا الموقف الوطنى المتعصب. ولكن يجب أن ننصفهم فنذكر أنهم إنما يقلدون فى

موقفهم هذا موقف بورجوازيتهم. وإذا دخلت البورجوازية فى تنافس مع الأوروبيين، فإن أصحاب الحرف وأهل المهن الصغيرة إنما يبدأون الصراع ضد الأفريقيين الذين ليسوا من أبناء هذه الأمة. هكذا رأينا فى ساحل العاج فتنًا قائمة على تعصب عرقى ضد الداهوميين والفولتيين: إن الداهوميين والفولتيين الذين يحتكرون التجارة الصغيرة فى قطاعات كبيرة قد قامت ضدهم، فى ساحل العاج، غداة الاستقلال، مظاهرات عدائية قوية، وصارت القومية هنالك إلى تعصب قومى، إلى تعصب عرقى: طالب المتظاهرون بترحيل هؤلاء الأجانب، وحرقوا مخازنهم، وهدموا حوانيتهم الخشبية، واعتدوا عليهم اعتداءات وحشية؛ واضطرت الحكومة أن تستجيب لرغبة الوطنيين فأجبرتهم على مغادرة البلاد. وفى السنغال قامت مظاهرات ضد السودانيين، وهذه المظاهرات هى التى حملت مامادو ديا على أن يقول: «الحق أن الشعب السنغالى لم يتبن عقيدة مالى إلا تعلقًا منه بزعمائه، وليس لاتحاده بمالى من قيمة غير قيمة تسليمه مرة أخرى بسياسة هؤلاء الزعماء. وظل شعور الناس بالوطن السنغالى شعورًا قويًا، لا سيما أن وجود السودانيين فى دكار كان يعلن عن نفسه إعلانًا ليس فيه شىء من التخفى بحيث ينسى الناس إقليميتهم. وهذه الظاهرة هى السبب فى أن جماهير الشعب لم يؤسفها انفراط عقد «الاتحاد» الفدرالى، بل استقبلته بارتياح، ثم لم تظهر فى أى مكان أية محاولة للإبقاء عليه»[1].

وبينما كانت طبقات من الشعب السنغالى تنتهز الفرصة التى أتاحها لها القادة أنفسهم للتخلص من السودانيين الذين كانوا يضايقونهم سواء فى قطاع التجارة أو فى قطاع الإدارة، رأينا الكونغوليين الذين شهدوا رحيل البلجيكيين عن بلادهم رحيلاً جماعيًا وهم لا يكادون يصدقون أعينهم، رأينا هؤلاء الكونغوليين يضغطون على السنغاليين المقيمين فى ليوبولدفيل وإليزابتفيل من أجل ترحيلهم.

وهكذا نرى أن آلية هذين النوعين من الظاهرات واحدة. فلئن كان التنافس يقوم بين الأوروبيين وبين المثقفين والبورجوازية فى الأمة الفتية، فإن تنافسًا مثله يقوم بين جماهير الشعب المقيمة فى المدن وبين أفريقيين ينتمون إلى أمة أخرى. وهؤلاء الأفريقيون هم الداهوميون فى ساحل العاج، والنيجريون فى غانا، والسودانيون فى السنغال.

(١) ما مادوديا، «الأمم الإفريقية والتضامن العالمى»، المنشورات الجامعية الفرنسية، ص١٤٠.

فإذا كانت مطالبة البورجوازية بإسناد الوظائف إلى السود أو إلى العرب لا تهدف إلى تأميم حقيقى، وإنما هى تهدف فقط إلى جعل البورجوازية تملك السلطة التى كان يملكها الأجانب من قبل، فإن الجماهير تطالب بهذا الأمر نفسه على مستواها، ولكنها تقصر معنى الأسود أو العربى على الحدود الإقليمية. وثمة مواقف كثيرة تقع بين المناداة الحماسية بوحدة القارة الأفريقية وبين هذا السلوك الذى تسلكه الجماهير بوحى من المصلحة الإقليمية. وهكذا نرى تأرجحًا دائمًا بين الوحدة الأفريقية التى ما تنفك تضعف وتهزل، وبين عودة يائسة إلى عصبية إقليمية كريهة حانقة. قال مامادو ديا: «أما من جهة السنغال، فإن الزعماء الذين كانوا هم دعاة الوحدة الأفريقية، والذين ضحوا أكثر من مرة بمنظماتهم السياسية المحلية وبمراكزهم الشخصية فى سبيل هذه العقيدة، يتحملون مسئوليات لا سبيل إلى نكرانها، نتيجة خطأ ارتكبوه عن حسن نية طبعًا. إن خطأ هؤلاء الزعماء، إن خطأنا، هو أننا بحجة محاربة التجزئة نسينا واقع الإقليمية، فلم ننتبه فى تحليلاتنا انتباهًا كافيًا إلى هذه الظاهرة التى هى ثمرة الاستعمار طبعًا، ولكنها أيضًا واقع اجتماعى لا يمكن أن تقضى عليه أية نظرية فى الوحدة مهما تكن محمودة ومهما تكن محببة. لقد فتنتنا المثل الأعلى واقعًا واقعًا، وحسبنا أنه يكفى أن نستنكر الإقليمية وما ينشأ عنها من تعصب لقوميات صغيرة حتى ننتصر عليها وحتى نحقق الظفر لمشروعنا الخيالى»[١].

ولن تكون المسافة كبيرة بين التعصب السنغالى وبين القبيلة الأوولوفية. والواقع أنه حيثما تعجز البورجوازية الوطنية بسلوكها الرخيص، وبغموض مواقفها العقائدية عن تنوير مجموع الشعب، وعن طرح المشكلات على أساس الشعب أولاً وقبل كل شىء، حيثما تعجز هذه البورجوازية الوطنية عن توسيع نظراتها إلى العالم توسيعًا كافيًا، نشهد انتكاسًا نحو الأوضاع القبلية، وانتصارًا للانقسامات العنصرية يثير فى النفس أشد الحنق. فما دام الشعار الوحيد الذى تنادى به البورجوازية هو الحلول محل الأجانب، وما دامت تبادر فتنتصف لنفسها فى جميع القطاعات وتحتل المراكز، فإن صغار الوطنيين من سائقى سيارات الأجرة وباعة الحلوى وماسحى الأحذية، لابد أن يطالبوا أيضًا بأن يعود الداهوميون إلى بلادهم، وقد يذهبون إلى أبعد من هذا فيطالبون بأن يرجع الفولتيون والبوهليون إلى براريهم أو إلى جبالهم.

(١) مامادو ديا، المرجع المذكور.

على هذا الأساس إنما يجب أن نؤول هذه الظاهرة التى نلاحظها فى البلاد المستقلة الناشئة، وهى أن النظام الفدرالى هو الذى ينتصر هنا وهناك. إن السيطرة الاستعمارية، كما تعلمون، قد خصت بعض المناطق بامتيازات خاصة، فجعلت اقتصاد المستعمرة غير متكامل مع مجموع الأمة، وإنما نظمته على أساس التكامل مع اقتصاد البلاد المستعمِرة المختلفة. إن الاستعمار لا يستثمر مجموع البلاد، وإنما يكتفى باكتشاف موارد طبيعية معينة، فيستخرجها ويصدرها إلى صناعات البلاد المستعمِرة، وبذلك يتيح لبعض المناطق شيئًا من الثراء، بينما يبقى سائر المستعمَرة على حاله من التخلف والبؤس، وربما ازداد تخلفًا وبؤسًا.

حتى إذا تحقق الاستقلال كان الوطنيون الذين يقطنون فى المناطق المزدهرة يشعرون بما أوتوا من حظ، فإذا هم بمنعكس لا أثر للتفكير فيه، يرفضون أن يطعموا الوطنيين الآخرين الذين يعيشون فى المناطق البائسة. إن المناطق الغنية بالأراشيد والكاكاو والألماس تبرز بروزًا ظاهرًا على تلك الصفحة الخالية الخاوية التى يتألف منها سائر الأمة. ويشعر الوطنيون فى هذه المناطق بكره نحو الآخرين، ويصفونهم بأنهم أناس حاسدون حاقدون شرهون ميالون إلى الجريمة والقتل. وتنبعث الحزازات القديمة، وتنتعش الأحقاد القبلية. إن قبائل البالوبا ترفض أن تطعم قبائل اللولوا؛ وإقليم كاتانجا يُعلن أنه دولة مستقلة؛ ألبير كالونجى يتوج نفسه ملكًا على جنوبى كاساى.

إن الوحدة الأفريقية، هذا الشعار الغامض (ولكنه الشعار الذى تعلقت به قلوب الرجال والنساء بأفريقيا تعلقًا حماسيًا قويًا، وكان يضغط على الاستعمار ضغطًا هائلا) يكشف الآن عن وجه آخر، فإذا هو عصبيات إقليمية فى داخل واقع قومى واحد. فالبورجوازية الوطنية، لأنها منكمشة على مصالحها المباشرة ولأنها لا تنظر إلى أبعد من أطراف أظافرها، تنكشف عاجزة عن تحقيق الوحدة القومية، عاجزة عن بناء الأمة على أسس وطيدة خصبة مثمرة. إن الجبهة الوطنية التى طردت الاستعمار تتفتت الآن وتنهزم.

وهذا الصراع القومى الذى يقوم بين القبائل، هذا الحرص العنيف على احتلال المراكز التى أصبحت شاغرة برحيل الأجنبى، سيولدان أيضًا تنافسات دينية. ففى الأرياف والبرارى نجد الطوائف الدينية الصغيرة، والأديان المحلية، وجماعات الطرق الصوفية،

تستعيد نشاطها وحيويتها، وتستأنف لجوءها إلى تكفير غيرها. وفى المدن الكبرى، على مستوى الوظائف الإدارية، نجد صراعًا يقوم بين الديانتَين المنزلتين الكبريين: الإسلام والكاثوليكية.

إن الاستعمار الذى ترنحت قواعده أمام نشوء فكرة الوحدة الأفريقية يسترد الآن آماله، ويحاول أن يحطم هذه الإرادة، مستعملاً جميع مواطن الضعف فى هذه الحركة، فهو يعبىء الشعوب الأفريقية كاشفًا لها عن وجود خصومات «روحية»، ففى السنغال تصدر جريدة «أفريقيا الجديدة» كل أسبوع لتعبر عن كره أصفر نحو الإسلام والعرب، وتستعدى الشعور القومى على اللبنانيين الذين يملكون فى الساحل الغربى القسم الأكبر من التجارة الصغيرة، وتحض على الانتقام منهم. ورجال البعثات التبشيرية ما يفتأون يذكرون للجماهير أن الغزو العربى، قبل وصول الاستعمار العربى بكثير، قد حطم إمبراطورية زنجية كبرى. ولا يترددون عن القول إن الاحتلال العربى هو الذى مهد للاستعمار الغربى. وهم يتحدثون عن استعمار عربى، ويندون بالاستعمار الثقافى الذى يمارسه الإسلام. والمسلمون يُقصوَن عن المراكز التوجيهية. وفى مناطق أخرى نلاحظ عكس هذه الظاهرة، فالسكان الذين اعتنقوا المسيحية هم الذين يُعدون هنالك أعداء الاستقلال القومى عامدين واعين.

إن الاستعمار يحرك هذه الأسلاك كلها بدون خشية ولا حياء، سعيدًا كل السعادة بأنه يثير الأفريقيين بعضهم على بعض بعد أن اتحدوا بالأمس ضده. وتبرز فى بعض الأذهان فكرة مذبحة دينية من نوع مذبحة سان بارتلمى، ويضحك الاستعمار ساخرًا فى هدوء حين يسمع بعدئذ تلك التصريحات الفخمة التى تتحدث عن الوحدة الأفريقية. لقد أخذ الدين، فى نطاق أمة واحدة، يجزىء الشعب ويثير الطوائف الدينية بعضها على بعض، والاستعمار وأجهزته من وراء ذلك تغذّيه وتقويه. وتنفجر هنا وهناك أحداث لم تكن فى الحسبان. ففى بلاد تهيمن عليها الكاثوليكية أو البروتستانتية نرى الأقليات الإسلامية تظهر تمسكًا بأهداب الدين لم يكن مألوفًا من قبل، ونرى الأعياد الإسلامية تنشط وتقوى، فالمسلمون يدافعون عن أنفسهم ضد التعصب المتطرف المعهود فى الكاثوليك. ونسمع وزراء يخاطبون بعض الأفراد بقولهم: إذا كنتم غير راضين فما عليكم إلا أن تذهبوا إلى

القاهرة. وقد تحمل البروتستانتية الأمريكية إلى الأرض الأفريقية تعصبها ضد الكاثوليك، فتثير بواسطة الدين خصومات قبلية.

وعلى مستوى القارة الإفريقية يمكن أن يتخذ هذا التوتر الديني وجهًا بغيضًا رخيصًا. فتراهم يقسمون أفريقيا قسمين: قسمًا أبيض وقسمًا أسود؛ حتى إذا استبدلوا بهذه التسمية تسمية أخرى فقالوا: أفريقيا جنوب الصحارى وأفريقيا شمال الصحارى، لم تُخف هذه التسمية الجديدة ما وراءها من تعصب عرقي. فهنا يزعمون أن لأفريقيا البيضاء حضارة عريقة ترجع إلى ألوف السنين، وأنها تنتمي إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، وأنها امتداد لأوروبا، وأنها تشارك في الحضارة الإغريقية اللاتينية؛ في حين أن أفريقيا السوداء منطقة جامدة، بدائية غير متحضرة.. متوحشة. وهناك ما ينفكون يتحدثون حديثًا بغيضًا كريهًا عن تحجب النساء عند العرب، وعن تعدد الزوجات عند العرب، يزعمون أن العرب يحتقرون المرأة. إن هذه الأحاديث يذكّر تهجمها بالأحاديث التي طالما دارت بها ألسنة المستعمرين. إن البورجوازية الوطنية في كل منطقة من هاتين المنطقتين الكبيرتين، هذه البورجوازية التي تشربت أحقر مبادئ التفكير الاستعماري تحمل العبء عن الأوروبيين، وتنوب عنهم في ترسيخ فلسفة عرقية تستشري في القارة وتحمل إلى مستقبل القارة أشد الأذى. إن هذه البورجوازية، بكسلها وتقليدها الأعمى تشجع وتعزز غرس التعصب العرقي الذي كان يتميز به العهد الاستعماري. لذلك يجب أن لا يدهشنا أن نسمع في بلد يسمي نفسه أفريقيًا أفكارًا أقل ما توصف به هو أنها أفكار عرقية، وأن نرى تصرفات تفرق بين الناس في القيمة، حتى ليحس المرء في البلد الأفريقي بأنه في باريز أو بروكسل أو لندن شاعرًا بكثير من المرارة.

بل إننا لنرى تلك الفكرة الجارحة التي تفرق بين الناس في القيمة، تلك الفكرة المأخوذة عن الثقافة الغربية، القائلة بأن الأسود لا يمكن أن ينفذ المنطق إلى عقله ولا يمكن أن يفهم العلوم، تتجلى عارية كل العرى مسيطرة كل السيطرة في بعض مناطق أفريقيا. حتى لقد يتاح لنا أن نرى الأقليات السوداء تعامل هنالك معاملة أشباه للعبيد، وهو أمر يبرر ما تشعر به بلدان إفريقيا السوداء من تحفظ بل ومن حذر وسوء ظن. ليس نادرًا أن يقع لمواطن من أفريقيا السوداء حين يتنزه في مدينة من مدن أفريقيا البيضاء، أن يسمع أطفالاً ينادونه «زنجي»، أو أن يسمع موظفين يسمونه «عبدًا».

لا وليس مستبعدًا، وا أسفاه، أن يقع لطلاب من أفريقيا السوداء فى كليات بأفريقيا شمال الصحارى أن يسألهم رفاقهم فى المدرسة: هل فى بلادكم بيوت، هل تعرفون الكهرباء، هل يأكل أهلكم لحوم البشر؟ لا وليس مستبعدًا وا أسفاه أن نرى فى بعض مناطق الشمال أفريقيين آتين من الجنوب، يبتهلون إلى وطنيين أن يأخذوهم «إلى أى مكان، ولكن مع زنوج». وكذلك نرى، فى بعض الدول الناشئة بإفريقيا السوداء، رجالاً من أعضاء المجالس النيابية بل ومن الوزراء، يقولون غير ضاحكين: ليس الخطر أن يعود الاستعمار إلى احتلال بلادهم، بل الخطر أن يغزوهم «عرب الشمال».

وهكذا ترون أن إفلاس البورجوازية لا يتجلى فى الصعيد الاقتصادى فحسب. إن البورجوازية، وقد وصلت إلى السلطة باسم قومية ضيقة، باسم العرق، رغم تصريحات فارغة كل الفراغ من ناحية المضمون، تصريحات تستعمل على غير شعور بالمسئولية جملاً مستمدة رأسًا من كتب الأخلاق أو الفلسفة السياسية التى تصدرها مطابع أوروبا، إن هذه البورجوازية تبرهن على عجزها عن تحقيق النصر لحد أدنى من العقيدة الإنسانية. إن البورجوازية حين تكون قوية وحين تنظم العالم على أساس سلطتها لا تتردد عن تأكيد أفكار ديموقراطية تساوى بين البشر، ولابد لهذه البورجوازية، القوية اقتصاديًا، من ظروف استثنائية حتى «تضطر إلى الخروج على نظريتها الإنسانية هذه. والبورجوازية الغربية تتوصل فى أكثر الأحيان، رغم أنها فى حقيقة أمرها عرقية، إلى إخفاء هذه العرقية بأقنعة كثيرة تتيح لها الإبقاء على مناداتها المعروفة بالكرامة الإنسانية. لقد هيأت البورجوازية الغربية عددًا كافيًا من الحواجز والسدود حتى لا تخاف حقًا من منافسة هؤلاء الذين تستغلهم وتحتقرهم. إن التعصب العرقى البورجوازى الغربى تجاه الزنجى إنما هو تعصب احتقار، تعصب استهانة. ولكن النظرية البورجوازية التى تنادى بأن البشر متساوون فى جوهرهم، تحتال على الأمر من أجل أن تظل منطقية مع نفسها، فتدعو هؤلاء البشر المتخلفين إلى أن يصبحوا بشرًا أسوياء من خلال النموذج الإنسانى الغربى الذى تجسده.

أما التعصب العرقى لدى البورجوازية الوطنية فى البلاد المستعمرة فهو تعصب دفاعى، تعصب قائم على الخوف. إنه لا يختلف فى جوهره عن القبلية الرخيصة، بل لا يختلف عن الخصومات بين الفرق الصوفية أو الجماعات الدينية. لذلك رأينا المراقبين الدوليين الأذكياء لا يأخذون مأخذ الجد تلك النداءات الحماسية التى تدعو إلى الوحدة الأفريقية.

فالصدوع التى يرونها بأم أعينهم تجعلهم يشعرون شعورًا واضحًا بأنه لابد من أن تنحل جميع هذه التناقضات قبل أن يأتى أوان الوحدة.

إن الشعوب الأفريقية قد اكتشفت نفسها مؤخرًا، وقررت باسم القارة الأفريقية كلها أن تحطم النظام الاستعمارى. ولكن البورجوازيات الوطنية التى تسارع، إقليمًا بعد إقليم، إلى تشييد كيانها الخاص، وإلى إقامة نظام وطنى استغلالى، تنشىء الحواجز تلو الحواجز من أجل الحيلولة دون تحقيق هذا «الحلم». إن البورجوازيات الوطنية التى تعرف أغراضها حق المعرفة قد قررت أن تسد الطريق أمام هذا الجهد المتسق الذى يقوم به مائتان وخمسون مليونًا من البشر فى سبيل الانتصار على الحيوانية والجوع واللا إنسانية. لذلك يجب علينا أن نعلم أن الوحدة الأفريقية لا يمكن أن تتحقق إلا باندفاع الشعوب وبقيادة الشعوب، أى رغم أنف البورجوازية ومصالحها.

وعلى الصعيد الداخلى، فى الإطار الدستورى، نجد البورجوازية تبرهن على عجزها أيضًا، ففى عددٍ من البلدان المتخلفة نرى النظام البرلمانى فاسدًا فسادًا عميقًا. إن البورجوازية الوطنية، وهى ضعيفة اقتصاديًا، وعاجزة عن إقامة علاقات اجتماعية متسقة قائمة على مبدأ سيطرتها كطبقة، تختار الحل الذى يتراءى لها أنه أسهل الحلول، أعنى نظام الحزب الواحد. إنها لا تملك راحة البال والطمأنينة اللتين لا يمكن أن تؤمنهما لها إلا القوة الاقتصادية والهيمنة على نظام الدولة. إنها لا تخلق دولة تطمئن المواطن بل تقيم دولة تبث القلق فى نفس المواطن.

إن الدولة التى تؤهلها متانتها ويؤهلها تخفِّيها فى الوقت نفسه، لأن تهب للناس الثقة، وأن تفلَّ سلاحهم وأن تنمِّيهم، تصبح هنا دولة تفرض نفسها فرضًا صارخًا، وتعرض قواها، وتضرب وتقسو، وتفهم المواطن بذلك أنه فى خطر دائم. إن نظام الحزب الواحد هو الشكل الحديث للدكتاتورية البورجوازية التى لا تتقنعً ولا تتزين ولا يزعها وازع ولا يردعها حياء.

وهذه الدكتاتورية لا تعمر طويلاً. ذلك واقع. إن هذه الدكتاتورية ما تنفك تولد تناقضها ذاته. إذ لما كانت البورجوازية لا تملك الوسائل الاقتصادية لضمان سيطرتها وتوزيع شىء من الفئات على مجموع البلاد، ولما كانت من جهة أخرى مشغولة بملء جيوبها بأقصى سرعة

ممكنة، وبأتفه طريقة ممكنة أيضًا، فإن البلاد تزداد ركودًا وجمودًا. ومن أجل أن تخفى البورجوازية هذا الركود، من أجل أن تقنِّع هذا التراجع، من أجل أن تطمئن نفسها، من أجل أن تهيىء لنفسها أسباب الزهو والافتخار، تراها لا تجد سبيلاً إلى ذلك كله غير أن تبنى فى العاصمة أبنية ضخمة فخمة، وغير أن تعمد إلى ما يسمى بنفقات الهيبة.

وشيئًا فشيئًا تزداد البورجوازية إهمالاً لواقع البلاد البور، وتأخذ تنظر إلى البلد الأوروبى الذى كان يستعمرها، تأخذ تنظر إلى الرأسماليين الأجانب الذين يضمنون أن تقدم لهم خدماتها. ولما كانت لا تقتسم أرباحها مع الشعب، ولا تتيح له أبدًا أن يستفيد من المغانم التى تصبها عليها الشركات الأجنبية الكبرى، فإنها سرعان ما تكتشف ضرورة وجود زعيم شعبى تقع على عاتقه مهمة مزدوجة هى ضمان استقرار العهد القائم وضمان استمرار سيطرة البورجوازية فى آن واحد. فالدكتاتورية البورجوازية فى البلاد المتخلفة إنما تستمد متانتها من وجود زعيم. إن البورجوازية الدكتاتورية فى البلاد المتطورة هى كما تعلمون نتيجة القوة الاقتصادية التى تتمتع بها البورجوازية، الهزيلة الفقيرة، أن تغتنى فى ظلها وتحت حمايتها.

والشعب الذى ظل خلال سنين طويلة يرى الزعيم ويسمع خطبه، ويتابع من بعيد، وهو فيما يشبه الحلم، ما يقوم بين الزعيم وبين السلطة الاستعمارية من مشاجرات، يمحض هذا الزعيم ثقة من تلقاء نفسه. لقد كان الزعيم قبل الاستقلال يجسد آمال الشعب بوجه عام: الاستقلال، الحريات السياسية، العزة القومية. ولكنه بعد الاستقلال، بدلاً من أن يجسد حاجات الشعب تجسدًا محسوسًا، وبدلاً من أن يكون رائد العزة القومية الحقيقية، العزة القومية التى تمر بالخبز والأرض وإعادة البلاد إلى أيدى الشعب المقدسة، تراه يكشف عن وظيفته الصميمة ألا وهى أن يكون الرئيس العام لشركة المنتفعين المسرعين إلى التمتع، أعنى البورجوازية الوطنية.

إن الزعيم، رغم أنه كثيرًا ما يكون شريفًا، وكثيرًا ما يقول أقوالاً صادقة، إنما هو من الناحية الموضوعية المدافع المتحمس عن مصالح أصبحت اليوم مترابطة، هى مصالح البورجوازية الوطنية ومصالح الشركات الاستعمارية السابقة. أضف إلى ذلك أن شرفه وصدقه ما يلبثان أن يأخذا بالتفتت شيئًا بعد شىء. ذلك أن اتصاله بالشعب اتصال غير

واقعى، فسرعان ما يقتنع أن الشعب أصبح متنكرًا لسلطته، وأن الناس أخذوا يشكون فى الخدمات التى قدمها لوطنه. ويقسو الزعيم قسوة شديدة فى الحكم على هذه الجماهير التى لا تعترف بالجميل، وما ينفك ينحاز يومًا بعد يوم إلى معسكر المستغلين، ثم ينقلب انقلابًا واعيًا إلى شريك للبورجوازية الناشئة التى تتخبط فى أحضان الفساد واللذة.

وتنحدر الحياة الاقتصادية للدولة الفتية نحو بنيان الاستعمار الجديد. لقد كان الاقتصاد القومى محميًا، فأصبح اقتصادًا موجهًا. والميزانية تغذيها قروض وهبات. ورؤساء الدولة أو الوفود الوزارية تزور كل بضعة أشهر العواصم الأوروبية التى كانت مستعمرة أو غيرها من البلدان تطلب المال.

والدولة التى كانت مستعمرة تضاعف الآن مطاليبها وشروطها، وتطلب مزيدًا من التنازلات والضمانات، ولا تقوم بما كانت تقوم به قبل ذلك من احتياطات لإخفاء سيطرتها على السلطة الوطنية. ويركد الشعب ركودًا محزنًا على بؤس لا يطاق، ويدرك إدراكًا بطيئًا تلك الخيانة التى يرتكبها قادته، والتى لا يمكن أن تسمى باسم. وتقوى حدة هذا الشعور لدى الشعب على قدر عجز البورجوازية عن تكوين نفسها كطبقة. فإن تنظيمها لتوزيع الثروات لا يجعل هذا التوزيع متدرجًا على طبقات، وإنما يحصر الثروة فى أيدى فئة محتكرة. وهذه الفئة المحتكرة الجديدة تبعث على الشعور بالمهانة، وتثير الحنق والتمرد، خاصة وأن الأكثرية الساحقة من السكان، وهى تشكل تسعة أعشار السكان، ما تزال تموت جوعًا. إن هذا الإثراء الفاضح السريع الذى لا يرحم، هذا الإثراء الذى تحققه لنفسها الفئة المحتكرة، يوقظ الشعب إيقاظًا حاسمًا. ويتصور الشعب عندئذ أنه لابد من غد عنيف يحمل إليه الفرج ويعده بالخير. وهذه الفئة البورجوازية المحتكرة، هذا الجزء من الشعب الذى يستأثر بمجموع ثروات البلاد، ينتهى، بمنطق مفهوم وإن يكن غير متوقع، إلى أن يرى فى سائر الزنوج أو فى سائر العرب آراء تحط من قيمتهم، وتذكّر من عدة وجوه بالنظرية العرقية التى كان يدين بها ممثلو الدولة المستعمرة. فهذا البؤس الذى يعانيه الشعب، وهذا الإثراء الفوضوى الذى تحققه الفئة البورجوازية المحتكرة، وهذا الاحتقار العلنى الذى تشعر به هذه الفئة نحو سائر الأمة، هذا كله هو الذى سيعمق الآراء ويقوى الاتجاهات.

غـيــر أن هذه الأخطار التى تلوح فى الأفق، تؤدى إلى تشـديد السلطة وظهـور الدكتاتورية. فالزعيم الذى يجر وراءه حياة مناضل جرىء وطنى مخلص هو حاجز يقوم بين الشعب وبين البورجوازية الجشعة، لأنه يحمى أعمال هذه الفئة، ويغمض عينيه عن وقاحة هؤلاء البورجوازيين وحقارتهم ومجافاتهم للأخلاق. إن الزعيم يساهم فى لجم وعى الشعب. إنه يهبّ إلى نجدة الفئة المحتكرة، ويخفى عن الشعب مناوراتها، ويصبح بذلك من أشد العاملين حماسة فى تضليل الجماهير وتخديرها. إنه كلما خاطب الشعب ذكره بحياته وهى حياة بطولية فى كثير من الأحيان، وذكره بالمعارك التى خاضها باسم الشعب، وبالانتصارات التى حققها باسم الشعب، مشيراً بذلك إلى أن على الجماهير أن تستمر فى محضه ثقتها. ما أكثر الأمثلة على أولئك الوطنين الأفريقيين الذين أدخلوا على السياسة النضالية المتحفظة التى كان يتبعها سابقوهم أسلوبًا حاسمًا قوميًا! إن هؤلاء الرجال قد جاءوا من الأرياف وكانوا يتكلمون باسم الزنوج، وكان ذلك مثار دهشة المستعمِر المتسلط، ومثار خجل الوطنيين المقيمين بالعاصمة! إن هؤلاء الرجال يصبحون اليوم - وأسفاه!- على رأس فئة من الناس تدير ظهرها للأرياف، وتعلن أن رسالة الشعب هى أن يكون تابعًا، وأن يظل تابعًا.

إن الزعيم يهدىء الشعب. إنه، لعجزه عن دعوة الشعب إلى أعمال محسوسة ملموسة، لعجزه عن أن يفتح للشعب باب المستقبل حقًا، وأن يدفع الشعب فى طريق بناء الأمة، وبالتالى فى طريق بناء نفسه، يظل سنين طويلة لا يزيد على أن يجتر تاريخ الحصول على الاستقلال، وعلى أن يذكر بالوحدة المقدسة التى رافقت نضال التحرير. إن الزعيم، لرفضه تحطيم البورجوازية الوطنية، يطلب إلى الشعب أن ينكفىء إلى الماضى وأن يسكر بذكرى الملحمة التى أدت إلى الاستقلال. وفى وسعنا أن نقول إن الزعيم يوقف سير الشعب -موضوعيًا- ويعمل جاهدًا إما على طرده من التاريخ وإما على منعه من دخول التاريخ. لقد كان الزعيم أثناء كفاح التحرير يوقظ الشعب ويعده بزحف بطولى جذرى.

أما اليوم فهو يضاعف جهوده من أجل تخدير الشعب وتنويمه، ويذكره ثلاث مرات أو أربعًا كل عام بعهد الاستعمار طالبًا أن يقدر الطريق الطويل الذى قطعته البلاد.

ولكن يجب أن نعترف بأن الجماهير تعجز عجزًا كاملاً عن تقدير الطريق الطويل المقطوع. إن الفلاح الذى يزال يجهد فى الأرض، والعاطل الذى ما يزال عاطلاً، لا يستطيعان رغم الاحتفالات ورغم الأعلام الجديدة أن يقتنعا بأن شيئًا فى حياتهما قد تغير حقًا. ومهما تكثر البورجوازية الحاكمة من التظاهرات، فإن الجماهير تظل عاجزة عن أن تؤخذ بالأوهام. الجماهير ما تزال جائعة، ومفوضو الشرطة الذين أصبحوا الآن أفريقيين بعد أن كانوا أوروبيين لا يطمئنون هذه الجماهير كثيرًا. وتأخذ الجماهير بالحرون والإشاحة ببصرها وعدم الاكتراث بهذه الأمة التى لا تفسح لها أى مجال ولا تخلق لها أى مكان.

وأثناء ذلك يعبىء الزعيم قواه من حين إلى حين، فيتحدث فى الراديو، ويقوم بجولة لتهدئة الخواطر وتضليل العقول. والزعيم ضرورى خاصة حين لا يكون ثمة حزب. لقد كان هناك حزب يقوده هذا الزعيم نفسه أثناء مرحلة الكفاح فى سبيل التحرير. ولكن هذا الحزب قد تحلل بعد ذلك، ولم يبق منه إلا الشكل والاسم والرمز. إن الحزب المنظم الذى كان يتيح سريان فكرة تكونت على أساس الحاجات الحقيقية للجماهير، قد استحال الآن إلى نقابة لضمان مصالح أفراد. لقد أصبح الحزب منذ الاستقلال لا يساعد الشعب فى التعبير عن مطالبه، وفى وعى حاجاته مزيدًا من الوعى وفى توطيد قوته مزيدًا من التوطيد. لقد أصبحت وظيفة الحزب الآن هى أن يوصل إلى الشعب التعليمات الآتية من القمة. وزال ذلك الذهاب والإياب من القاعدة إلى القمة ومن القمة إلى القاعدة، زال ذلك التواصل الخصب الذى هو أساس الأحزاب وضمانة ديموقراطيتها. إن ما بنى من الحزب هو نقيض ذلك تمامًا: لقد أصبح الحزب حاجزًا بين الجماهير وبين القيادة. أصبح الحزب بغير حياة. إن الخلايا الحزبية التى نُظمت فى عهد الاستعمار قد سُرحت الآن من الخدمة تسريحًا كاملاً.

ويقضم الجاهل لجامه. ويدرك الناس صواب المواقف التى اتخذها بعض المناضلين أثناء كفاح التحرير. إن كثيرًا من المناضلين قد طلبوا من أجهزة القيادة إبان المعركة أن تنشىء عقيدة، وأن توضح أهدافًا معينة، وأن تضع برنامجًا. ولكن القادة رفضوا يومئذ رفضًا باتًا أن يواجهوا هذه المهمة، بحجة المحافظة على الوحدة الوطنية. كانوا يرددون قولهم: عقيدتنا هى الوحدة الوطنية ضد الاستعمار. وكانوا بتسلحهم بهذا الشعار القوى اتخذوه

عقيدة، ويقصرهم النشاط العقائدى على أقوال شتى عن حق الشعوب فى تقرير مصيرها بنفسها، يمضون مع تيار التاريخ الذى لابد أن يعصف بالاستعمار، وأن يطرح به. حتى إذا طالبهم المناضلون بأن يحللوا تيار التاريخ هذا مزيداً من التحليل جابهوهم بقولهم: إن الاستعمار صائر إلى زوال لا محالة. .

ويجيء الاستقلال، ويوشك الحزب أن يصبح جثة هامدة. إنهم الآن لا يبعثون أعضاء الحزب إلا لمظاهرات يسمونها شعبية، ولمؤتمرات دولية ولاحتفالات بأعياد الاستقلال. إن القيادات الحزبية المحلية قد عينّت لوظائف إدارية، والحزب استحال إلى دائرة حكومية، وعاد الحزبيون إلى أماكنهم يحملون هذا الاسم الأجوف. مواطن.

إنهم بعد أن قاموا بمهمتهم التاريخية، وهى إيصال البورجوازية إلى سدَّة الحكم، مدعوون بقوة إلى الانسحاب، حتى يتيحوا للبورجوازية أن تقوم برسالتها الخاصة فى جوٍّ هادىء. ولكن البورجوازية الوطنية فى البلدان المتخلفة عاجزة، كما رأينا ذلك، عن تحقيق أية رسالة. وما هى إلا بضع سنين حتى يصبح تحلل الحزب واضحًا لكل عين، ويدرك كل مراقب عندئذ، ولو كان سطحيًا، أن الحزب القديم الذى أصبح الآن هيكلاً عظميًا، لا يفيد إلا فى تجميد الشعب. إن الحزب الذى جذب إليه أثناء معركة الكفاح مجموع الأمة يتحلل الآن. والمثقفون الذين انضموا إلى الحزب غداة الاستقلال يؤكدون بسلوكهم أن انضمامهم ذاك لم يكن له من هدف إلا الاشتراك فى المائدة التى جاء بها الاستقلال. لقد أصبح الحزب وسيلة نجاح فردى.

على أن هنالك تفاوتًا فى الإثراء والاحتكار فى داخل العهد الجديد. فبعض الأفراد يأكلون على عدة موائد، ويُظهرون فى مجال الانتهازية مقدرة فائقة واختصاراً باهراً. وتتكاثر الامتيازات، وتنتصر الرشوة ويعم الفساد وتنهار الأخلاق. لقد أصبحت الغربان أكثر عدداً وأشد شراهة من أن تكفيها المغانم الوطنية الهزيلة. والحزب الذى أصبح أداة السلطة فى أيدى البورجوازية، يقوِّى جهاز الدولة ويجمِّد الشعب، وما ينفك يصبح أداة قمع وعدواً للديموقراطية. لقد أصبح الحزب شريكًا للبورجوازية المتاجرة، عن غير وعى وعن وعى. وكما تنسحب البوجوازية من مرحلة البناء وتغوص فى حمأة الملذات، كذلك هى على الصعيد الدستورى تقفز فوق المرحلة البرلمانية وتختار دكتاتورية من النوع

الفاشستى . وإننا نعلم اليوم أن تلك الفاشستية الصغيرة التى انتصرت فى أمريكا اللاتينية خلال نصف قرن إن هى إلا ثمرة منطقية لقيام دولة شبه استعمارية فى عهد الاستقلال .

ففى هذه البلاد الفقيرة المتخلفة، التى نرى فيها، وفقًا للقاعدة، أكبر ثراء يتاخم أبأس فقر، يكون الجيش والشرطة أعمدة النظام القائم، وهما جيش وشرطة يشرف على توجيهما خبراء أجانب، وهذه قاعدة أخرى يجب أن نتذكرها . وتكون قوة هذه الشرطة وسلطة هذا الجيش متناسبتين مع حالة الركود التى يعيش فيها سائر الأمة . إن البورجوازية الوطنية تبيع نفسها للشركات الأجنبية الكبرى بصراحة ما تنفك تزداد . وبالرشوة ينتزع الأجنبى الامتيازات تلو الامتيازات، وتتكاثر الفضائح، ويغتنى الوزراء وتستحيل نساؤهم إلى دمى؛ ويدبر النواب أمورهم أيضًا، ولا يبقى شرطى ولا موظف من موظفى الجمرك إلا ويشارك فى هذه القافلة من الرشوة والفساد .

ويزداد تهجم المعارضة، ويدرك الشعب دعايتها بنصف كلمة . وتبرز معاداة البورجوازية . إن البورجوازية الفتية التى دلفت إلى الشيخوخة وهى فى ريعان الشباب لا تقيم وزنًا للنصائح تبذل لها، وتبدو عاجزة عن أن تفهم أن من مصلحتها أن تحجب استغلالها ولو بغلالة رقيقة .

إن جريدة مسيحية جدًا، جريدة «الأسبوع الأفريقى»، هى التى كتبت تخاطب أمراء العهد القائم بقولها : «يا أيها الرجال الذين تحتلون المراكز، وأنتنَّ يا نساءهم، إنكم تتمتعون الآن بالثراء والرخاء، وربما كنتم تنعمون أيضًا بالتعليم والثقافة، كما تنعمون بمنزلكم الجميل، وبعلاقاتكم الاجتماعية، وبالمهمات التى تسند إليكم فتفتح لكم آفاقًا جديدة . ولكن ثراءكم يعصب أعينكم فيحول بينكم وبين رؤية البؤس الذى يحيط بكم . ألا فاحذروا العواقب» . ولعل القارئ يدرك أن هذا التحذير الذى توجهه جريدة «الأسبوع الأفريقى» إلى أعوان السيد «يولو» لا يشتمل على أى روح ثورية، فإنما الأمر الذى تريد جريدة «الأسبوع الأفريقى» أن توصله إلى أسماع مجوّعى الشعب الكونغولى هو أن الله سيعاقبهم على سلوكهم هذا : «إذا لم يكن فى قلوبكم مكان للعطف على هؤلاء الناس الذين هم دونكم، فلن يكون لكم فى بيت الله مكان» .

وواضح أن البورجوازية الوطنية لا تهتم كثيرًا بهذه الاتهامات . إنها، وهى معلقة

بأوروبا، تظل مصممة تصميمًا قويًا على انتهاز الفرصة. والأرباح التى تجنيها من استغلال الشعب ما تلبث أن تصدرها إلى الخارج. إن البورجوازية الوطنية الفنية كثيرًا ما يكون سوء ظنها بالنظام الذى أقامته أشد من سوء ظن الشركات الأجنبية به. فهى تأبى أن تستثمر أموالها فى الوطن، وتتصرف تجاه الدولة التى تحميها وتغذيها تصرفًا يتصف بنكران الجميل، وهو أمر واضح يجب أن نشير إليه. إنها تشترى سندات مالية من أوروبا، وتمضى إلى باريس أو هامبورج لقضاء عطلة الأسبوع. إن سلوك البورجوازية الوطنية فى بعض البلدان المتخلفة أشبه بسلوك أفراد عصابة من اللصوص، ما إن يفرغوا من القيام بعملية من العمليات حتى يخفوا مرابحهم عن شركائهم، ويستعدوا للانسحاب فى حكمة وتعقل. وهذا السلوك يدل على أن البورجوازية الوطنية تشعر قليلاً أو كثيرًا أن لعبتها خاسرة على المدى الطويل. إنها تدرك أن هذا الوضع لن يدوم إلى غير نهاية، ولكنها تريد أن تستفيد منه إلى أقصى حد ممكن من الاستفادة. غير أن هذا الاستغلال وهذا الظن السيىء بالدولة لابد أن يثير الاستياء فى صفوف الجماهير. وفى هذه الظروف وإنما يصلُب النظام القائم ويقسو، ويصبح الجيش سندًا لابد منه للقيام بأعمال قمع منظم. فالجيش يصبح هو الحكم وهو المرجع، لأنه ليس ثمة مجلس نيابى. ولكن الجيش يكتشف عاجلاً أو آجلاً أهميته، ويصبح خطرًا يهدد البورجوازية فى كل لحظة بانقضاضه على الحكم.

وهكذا نرى أن البورجوازية الوطنية فى بعض البلاد المتخلفة لم تتعلم من الكتب شيئًا. فلو أنها أنعمت النظر فى بلدان أميركا اللاتينية، لأدركت الأخطار التى تتربص بها. ونخلص إذن إلى هذه النتيجة: إن هذه البورجوازية الصغيرة التى تحدث كثيرًا من الضجيج مآلها إلى التحرك وهى فى مكانها. ذلك أن المرحلة البورجوازية مستحيلة فى البلاد المتخلفة. فقد تنشأ دكتاتورية بوليسية، وقد تنشأ فئة من المنتفعين، ولكن قيام مجتمع بورجوازى أمر مخفق لا محالة. إن فئة المنتفعين الذين ينتزعون لأنفسهم أموالاً طائلة من رزق البلاد، لابد أن يروا أنفسهم، عاجلاً أو آجلاً، كقشة بين يدى الجيش الذى يحركه خبراؤه الأجانب فى مهارة. وهكذا نرى العاصمة الأوروبية التى كانت مستعمرة تحكم البلاد حكمًا غير مباشر، بواسطة البورجوازيين الذين تغذيهم وبواسطة الجيش الوطنى الذى ينظمه خبراؤها والذى يجمد الشعب ويرهبه.

هذه الملاحظات التى سقناها بصدد البورجوازية الوطنية تقودنا إلى نتيجة يجب ألا تدهشنا: فى البلاد المتخلفة يجب أن لا تتوافر للبورجوازية شروط الوجود والازدهار. وبتعبير آخر: يجب أن ينصب الجهد المتعاون المنسق الذى تقوم به الجماهير المنظمة فى حزب، ويقوم به المثقفون الواعون وعيًا رفيعًا والمسلحون بمبادىء ثورية، يجب أن ينصب هذا الجهد على سد الطريق أمام قيام هذه البورجوازية العقيمة الضارة.

إن المسألة النظرية التى تطرح منذ خمسين عامًا حين يُعالج تاريخ البلاد المتخلفة، أعنى: هل يجب الوثب فوق المرحلة البورجوازية أم لا، هذه المسألة يجب حلها على صعيد النضال الثورى لا بواسطة الاستدلال النظرى. إن المرحلة البورجوازية فى البلاد المتخلفة لا تكون مبررة إلا إذا كانت البورجوازية الوطنية تملك من القوة الاقتصادية والتكنيكية ما يكفى لبناء مجتمع بورجوازى، لخلق شروط نمو طبقة عاملة كبيرة، لتصنيع الزراعة، وأخيرًا لقيام ثقافة وطنية أصيلة.

إن بورجوازية كالبورجوازية التى نشأت فى أوروبا قد استطاعت أن تضع أيديولوجيا، مع تعزيزها لقوتها الخاصة. إن تلك البورجوازية النشيطة الفعالة المتعلمة، العلمانية، قد نجحت نجاحًا كبيرًا فى مهمة جمع الرساميل، وأعطت الشعب حدًا أدنى من الرخاء. أما فى البلاد المتخلفة، فقد رأينا أنه ليس هناك بورجوازية حقيقية، بل فئة محتكرة طويلة الأنياب نهمة شرهة تسيطر عليها فكرة الربح التافه وتتمتع بحصص من المنافع تخصها بها الدولة المستعمرة القديمة. وهذه البورجوازية الرخيصة عاجزة عن تمثل أفكار كبرى، وعن القيام بأعمال تتجلى فيها روح الابتكار. إنها تتذكر ما قرأته فى الكتب المدرسية الغربية، فإذا هى تستحيل شيئًا فشيئًا لا إلى نسخة عن أوروبا، بل إلى كاريكاتور لأوروبا.

إن النضال ضد بورجوازية البلدان المتخلفة ليس موقفًا نظريًا. ليس الأمر ها هنا أمر إدانة لها مستمدة من حكم التاريخ. يجب علينا أن لا نكافح البورجوازية الوطنية فى البلدان المتخلفة على أساس أنها قد تعوق نمو الأمة نموًا شاملاً منسجمًا، وإنما يجب علينا أن نعارضها معارضة قاطعة لأنها فى حقيقة الأمر لا تقوم بأى دور فليس لها أية فائدة. إن هذه البورجوازية التافهة فى أرباحها وفى أعمالها وفى فكرها تحاول أن تحجب هذه التفاهة بأقنعة شتى: بأبنية فخمة على المستوى الفردى، بسيارات أمريكية غنية بالكروم، بإجازات

تقضيها على شواطىء الريفييرا، بعطل أسبوعية فى الكاباريهات المتوهجة بأضواء النيون. ذلك كل شأنها.

إن هذه البورجوازية التى تزداد تحولاً عن الشعب برمته يومًا بعد يوم لا تظفر حتى بحمل الغرب على تقديم بعض التنازلات: كتوظيف رؤوس أموال تهم اقتصاد البلاد، أو كإقامة بعض الصناعات. وفى مقابل ذلك نرى مصانع التجميع تزداد وتتكاثر، معززة نموذج «الاستعمار الجديد» الذى يتخبط فيه الاقتصاد القومى. يجب أن لا نقول إذن إن البورجوازية الوطنية تؤخر تطور البلاد، وإنها قد تسير بالأمة إلى طرق مسدودة غير نافذة. فالواقع هو أن المرحلة البورجوازية فى تاريخ البلاد المتخلفة مرحلة لزوم لها. وحين ستزول هذه الفئة إذ تلتهمها تناقضاتها فسندرك أنه لم يتحقق شىء منذ الاستقلال، وأن علينا أن نستأنف كل شىء من أوله، أن نعود فنبدأ من الصفر. ولن يتم قلب الأمور عندئذ على مستوى البنيانات التى أنشأتها البورجوازية خلال حكمها، لأن هذه الفئة لا تكون قد فعلت شيئًا غير استلام ميراث الاقتصاد الاستعمارى والتفكير الاستعمارى والمؤسسات الاستعمارية دون أى تغيير أو تبديل.

ومما يسهِّل تجميد هذه الطبقة البورجوازية أنها كما رأينا ضعيفة سواء من ناحية العدد ومن ناحية الثقافة ومن ناحية الاقتصاد. إن الطبقة البورجوازية فى البلاد المستعمرة تستمد قوتها الأساسية من الاتفاقات المعقودة مع السلطة الاستعمارية القديمة. وحظ البورجوازية الوطنية من الحلول محل المضطهد الاستعمارى يكون على قدر ما أتيح لها من خلوة مع السلطة الاستعمارية القديمة. ولكن تناقضات عميقة تُحدث الاضطراب والبلبلة فى صفوف هذه البورجوازية، وهذا وما يجعل المراقب اليقظ يشعر بأنه ليس ثمة استقرار. إنه لم يتحقق لهذه الفئة حتى الآن شىء من التجانس. فكثير من المثقفين يُدينون هذا النظام القائم على سيطرة عدد من الأفراد. إن فى البلدان المتخلفة مثقفين وموظفين ونخبة صادقة تشعر شعوراً قويًا بضرورة التخطيط الاقتصادى، وبضرورة إبعاد المتنفعين ومنع التضليل منعًا صارمًا. أضف إلى ذلك أن هؤلاء الرجال يناضلون إلى حد ما فى سبيل إشراك الشعب إشراكًا كبيراً فى إدارة الشئون العامة.

إنك تكاد تجد دائمًا فى البلاد المتخلفة التى نالت الاستقلال عدداً صغيراً من المثقفين

الشرفاء الذين ليس لهم أفكار سياسية معينة واضحة، ولكنهم بغريزتهم يكرهون هذا السعي الحثيث إلى المراكز وإلى المغانم، الذي تتميز به الأيام التالية للاستقلال في البلدان المتخلفة. إن الظروف الخاصة بهؤلاء الرجال (كإعالة أسرة كبيرة العدد) وتاريخهم الشخصي (تجارب صعبة، تربية أخلاقية صارمة) هما السبب فيما يشعرون به من احتقار نحو الانتهازيين والمنتفعين. فيجب استعمال هؤلاء الرجال في المعركة الحاسمة التي يُراد خوضها لتوجيه الأمة توجيهًا سليمًا. إذا كان سد الطريق أمام البورجوازية الوطنية يحقق إبعاد الإثراءات السريعة التي تعقب الاستقلال، وتحاشي مزالق الوحدة القومية، وتفسُّخ الأخلاق وهيمنة الرشوة والفساد والتقهقر الاقتصادي وقيام حكم دكتاتوري مستند إلى القوة والتخويف، فإنه أيضًا السبيل الوحيد إلى التقدم.

إن مما يضعف عزيمة العناصر التي تؤمن بالديموقراطية والتقدمية إيمانًا عميقًا بين أبناء الأمة الفتية، ومما يجعلها خائفة وجلة، هو أن البورجوازية تبدو في الظاهر قوية وطيدة الأركان. ذلك أن جميع القيادات في البلاد المتخلفة التي نالت استقلالها حديثًا إنما تتجمع في المدن التي بناها الاستعمار. فيظن المراقب الذي لا يحلل مجموع السكان أن هناك بورجوازية قوية منظمة تنظيمًا كاملاً. والحقيقة أن الأمر ليس كذلك. فنحن نعلم الآن أن البلدان المتخلفة ليس فيها بورجوازية. إن البورجوازية لا يخلقها فكر ولا ذوق ولا آداب، حتى ولا آمال، وإنما البورجوازية ثمرة مباشرة لوقائع اقتصادية معينة.

والواقع الاقتصادي في المستعمرات إنما هو واقع بورجوازي أجنبي. إن بورجوازية البلد المستعمر هي الموجودة في مدن المستعمرات بممثِّلها. إن البورجوازية في المستعمرات هي قبل الاستقلال بورجوازية غربية، هي فرع لبورجوازية البلد المستعمَر يستمد منها مشروعيته وقوته واستقراره. وفي أثناء فترة الاضطراب التي تسبق الاستقلال تحاول عناصر ثقافية وتجارية من السكان الأصليين الذين يعيشون في نطاق هذه البورجوازية المستوردة، أن تتشبه بها. إن المثقفين والتجار من السكان الأصليين يريدون دائمًا يتشبهوا بممثلي بورجوازية البلد المستعمَر.

فهذه البورجوازية التي تبنَّت متحمسة، وبلا تحفظ، الأساليب الفكرية التي تتميز بها عاصمة البلد المستعمِر؛ هذه البورجوازية التي ضيَّعت تفكيرها الخاص تضييعًا عجيبًا،

وأقامت وعيها على أسس أجنبية صرفة ، لابد أن تدرك وقد جف حلقها ، أنه يعوزها ذلك الشيء الذى يصنع البورجوازية ، أعنى المال . إن بورجوازية البلدان المتخلفة هى بورجوازية بالفكر . فلا قوتها الاقتصادية ولا نشاط أفرادها ولا سعة نظراتها هى التى تكفل لها صفة البورجوازية . لذلك نراها فى بدايتها وخلال مدة طويلة تظل بورجوازية موظفين . فالوظائف التى تحتلها فى الإدارة الوطنية الجديدة هى التى تهب لها الهدوء والمتانة . حتى إذا أتاح لها الحكم الوقت الكافى والإمكانيات اللازمة استطاعت أن تنسج لنفسها جوربًا صغيراً من الصفوف يعزز سيطرتها . ولكنها تظل عاجزة عن خلق مجتمع بورجوازى حقيقى مع كل النتائج الاقتصادية والصناعية التى يفترضها قيام هذا المجتمع .

إن البورجوازية الوطنية تتجه منذ البداية إلى فعاليات وساطة . فالأساس الذى تقوم عليه سلطتها إنما هو براعتها فى التجارة وقدرتها على خطف الوكالات . فليست أموالها هى التى تعمل ، بل مهارتها فى عقد الصفقات إنها لا تستثمر أموالاً ، ولا تستطيع تحقيق ذلك التجميع لرأس المال ، الضرورى لقيام بورجوازية وازدهارها . ولو سارت بهذه الخطى لاحتاجت إلى قرون من أجل أن تنشىء نواة تصنيع ، ولاصطدمت على أقل تقدير بمعارضة بمعارضة الدولة المستعمرة القديمة التى تكون فى إطار الاتفاقات التى تنتمى إلى نوع «الاستعمار الجديد» قد اتخذت جميع احتياطاتها .

فإذا أراد الحكم أن يُخرج البلاد من الركود وأن يسير بها فى طريق النمو والتقدم بخطى سريعة ، كان يجب عليه قبل كل شيء أن يؤمم قطاع الوساطة . ذلك أن البورجوازية التى تغلب روح الربح واللذة وتقف من الجمهور مواقف احتقار ، وتتهالك على الفائدة بل على السرقة ذلك التهالك الفاضح ، إنما تصب كل نشاطها على ذلك القطاع ؛ إن البورجوازية الوطنية الناشئة تغزو ميدان الوساطة الذى كان يحتله المستوطنون المستعمرون . إن ميدان الوساطة هو فى الاقتصاد الاستعمارى أهم الميادين . فإذا أردنا التقدم كان علينا أن نؤمم هذا القطاع منذ الساعات الأولى . ولكن من الواضح أن هذا التأميم يجب أن لا يأخذ طابع سيطرة الدولة على هذا القطاع سيطرة صلبة جامدة . يجب أن لا نعيِّن لهذه المصالح رؤساء لا يملكون وعيًا سياسيًا . فلقد لاحظنا فى جميع الحالات التى تم فيها التأميم بهذه الطريقة السيئة أن السلطة قد ساهمت فى انتصار دكتاتورية يمارسها موظفون تلقّوا ثقافتهم فى

عاصمة البلاد المستعمرة، فسرعان ما ظهروا عاجزين عن فهم الأمور على أساس مجموع الأمة. إن هؤلاء الموظفين سرعان ما يأخذون فى تخريب الاقتصاد القومى، وتفكيك الأجهزة، فإذا الفساد والرشوة والتحيز والمحاباة والتهريب والتحايل والسوق السوداء، إذا كل ذلك يظهر ويستقر. يجب أن يكون تأميم قطاع الوساطة تنظيمًا ديموقراطيًا لتعاونيات البيع والشراء، وأن تكون هذه التعاونيات لا مركزية لجعل الجماهير تهتم بإدارة الشئون العامة. وذلك كله لا يمكن تحقيقه، كما ترون، إلا بإدخال الجماهير فى الحياة السياسية. والواقع أن مبدأ إدخال الجماهير فى الحياة السياسية أصبح مبدأ معروفًا فى البلدان المتخلفة. ولكن ليس يبدو أن هذه المهمة الأساسية مفهومة فهمًا صحيحًا. فحين يؤكد ضرورية إدخال الشعب فى الحياة السياسية فإنما يعنون فى الوقت نفسه أنهم يريدون أن يدعمهم الشعب فى عملهم. إن الحكومة التى تصرح بأنها تريد إدخال الشعب فى الحياة السياسية إنما تعبر عن رغبتها فى أن تحكم مع الشعب ومن أجل الشعب. ولكن يجب أن لا يكون هذا لغةً غايتُها تقنيع اتجاه بورجوازى. إن الحكومات البورجوازية فى البلاد الرأسمالية قد تجاوزت منذ زمن طويل هذه المرحلة الصبيانية من الحكم. إنها الآن تحكم، بهدوء وبرود، بواسطة قوانينها وقوتها الاقتصادية وشرطتها. إنها، وقد أصبحت سلطتها متينة وطيدة، غير مضطرة إلى أن تضيع وقتها فى مواقف ديماغوجية. إنها تحكم بما يحقق مصالحها، جريئة غير هيابة. لقد أوجدت مشروعية، فهى قوية بحقها.

أما الفئة البورجوازية فى البلاد التى استقلت حديثًا فإنها لا تتصف بعد بما تتصف به البورجوازيات القديمة من استخفاف ورباطة جأش قائمين على القوة. ومن ثم نرى لديها ذلك الاهتمام بإخفاء قناعاتها العميقة، وبالتظاهر بالشعبية... ولكن إدخال الشعب فى الحياة السياسية لا يكون بحشد عشرات الألوف أو مئات الألوف من الرجال والنساء ثلاث مرات أو أربع مرات فى العام. إن هذه الاجتماعات التى تعقد من حين إلى حين تشبه الأسلوب القديم الذى كان يُتبع قبل الاستقلال حين كان هؤلاء الناس يعرضون قواهم بغية أن يبرهنوا لأنفسهم وللآخرين على أن الشعب معهم. إن إدخال الشعب فى الحياة السياسية لا يعنى أن تردَّه طفلاً، بل أن تجعله راشدًا.

وهذا يقودنا إلى الكلام على دور الحزب السياسى فى بلد متخلف. لقد رأينا فى الصفحات السابقة أن هناك أناسًا ممن ينظرون إلى الأمور نظرة تبسيطية، وهم ينتمون من جهة أخرى إلى البورجوازية الناشئة، ما يفتأون يرددون فى كثير من الأحيان أن من الضرورى أن تُقاد الأمور فى البلد المتخلف بسلطة قوية وحتى بحكم دكتاتورى. وعلى هذا الأساس يكلف الحزب بمهمة مراقبة الجماهير، ويكون سندًا لرجال الإدارة والشرطة، فيراقب الجماهير لا ليتأكد من أنها تشارك فى شئون الأمة حقًا، بل ليذكرها دائمًا بأن السلطة تنتظر منها الطاعة والنظام والخضوع. إن هذه الدكتاتورية التى تظن أنها ضرورية غداة الاستقلال، إنما تشير فى الواقع إلى أن الفئة البورجوازية قد قررت أن تحكم البلد المتخلف بمساندة الشعب أولاً، وضد الشعب بعد ذلك. وما تحوُّل الحزب شيئًا فشيئًا إلى مصلحة مخابرات إلا دليل على أن الحكومة أخذت تقف موقفًا دفاعيًا أكثر فأكثر. إن الحكومة التى تنظر إلى الشعب نظرتها إلى كتلة ليست بذات شكل، تعد الشعب قوة عمياء يجب ترويضها سواء بالتضليل أو بالخوف الذى توقظه فى نفسها قوى الشرطة. وليس الحزب إلا بارومترًا، إلا مصلحة مخابرات. إنهم يحيلون عضو الحزب إلى جاسوس. ويعهدون إليه بمهمات تأديبية فى القرى. فإذا كانت هناك نواة حزب معارض ضُرب أعضاؤه بالعصا والحجارة من أجل تصفيتهم. حتى أن مرشحى المعارضة يرون الحريق يشبّ فى بيوتهم.

وتُضاعف الشرطة استفزازاتها. وطبيعى أن الحزب فى هذه الظروف حزب واحد، والطبيعى والحالة هذه أن يفوز مرشح الحكومة بـ٩٩ . ٩٩٪ من الأصوات. يجب علينا أن نعترف أن سلوك عدد من حكومات أفريقيا هو هذا السلوك. إن جميع أحزاب المعارضة - وهى أحزاب تقدمية على وجه العموم- التى عملت على أن يكون للجماهير مزيد من التأثير فى إدارة الشئون العامة، والتى تمنت إزاحة البورجوازية الحقيرة التجارية، قد اضطرت إلى الصمت بقوة السياط والسجون، ثم إلى التنظيم السرى.

إن الحزب السياسى فى كثير من المناطق الأفريقية التى أصبحت الآن مستقلة يعانى إفلاسًا خطيرًا كل الخطورة. والشعب لا يزيد، إذا حضّ عضو من أعضاء الحزب، على أن يصمت وعلى أن يتظاهر بأنه حمل وديع، وعلى أن يكيل الأماديح جزافًا للحكومة وللزعيم. ولكن ليتكم تسمعون فى الشارع عند المساء، فى ظاهر القرية أو فى المقهى أو

على النهر، ليتكم تسمعون تعبير الشعب عن خيبة ظنه، عن المرارة التى تعتمل فى نفسه، عن اليأس الذى يملأ قلبه، ولكن أيضًا عن الحق المكظوم الذى يضطرم فى أعماقه. إن الحزب، بدلاً من أن يشجع على تعبير الشعب عن شكاواه وأوجاعه، بدلاً من أن يجعل مهمته تسهيل انتقال أفكار الشعب إلى القيادة انتقالاً حرًا، ينصّب نفسه حاجزًا ومانعًا. إن قادة الحزب يتصرفون تصرف جنود برتبة عريف، وما يفتأون يذكّرون الشعب بضرورة «الصمت فى الصف». إن هذا الحزب الذى كان يعلن أنه خادم الشعب، وأنه يعمل على تحقيق الازدهار للشعب، ما إن تعهد إليه السلطة الاستعمارية بالحكم حتى يسارع إلى إعادة الشعب إلى كهوفه. وعلى صعيد الوحدة القومية أيضًا يرتكب الحزب الأخطاء تلو الأخطاء. إن الحزب الذى يزعم أنه حزب قومى يتصرف تصرف حزب قبلى. إنه قبيلة صارت حزبا. إن هذا الحزب الذى ينادى بالقومية ويؤكد أنه يتكلم بلسان الشعب كله، يمارس فى السر دكتاتورية قبلية حقيقية، حتى لقد تكون هذه الدكتاتورية القبلية صريحة مكشوفة فى بعض الأحيان. ونحن لا نشهد عندئذ دكتاتورية بورجوازية، بل دكتاتورية قبلية. فالوزراء، ورؤساء المكاتب، والسفراء، والمحافظون، إنما يتم اختيارهم من بين أفراد قبيلة الزعيم، حتى لقد يتم اختيارهم من بين أفراد أسرته رأسًا فى بعض الأحيان. إن هذه الأنواع العائلية من الحكم تذكر بالقوانين القديمة التى كانت تفرض أن لا يتزوج الرجل إلا امرأة من أسرته. والمرء لا يشعر إزاء هذه الحماقة بالغضب بل بالعار؛ إنه يشعر بالعار تجاه هذا الانحطاط العقلى والروحى. إن رؤساء الحكومات هم الخونة الحقيقيون، هم الذين يخونون أفريقيا، لأنهم يبيعونها لعدو هو ألد أعدائها طرًا: الحماقة ولا شك فى أنكم تقدّرون أن سيطرة هذه القبلية على الحكم لابد أن تؤدى إلى الإقليمية وإلى الانفصالية. فإذا نحن نرى اتجاهات لا مركزية تظهر وتنتصر، وإذا الشعب يتفكك وتتقطع أوصاله. إن الزعيم الذى كان ينادى «وحدة أفريقيا» وهو لا يفكر إلا فى عائلته، يستيقظ ذات صباح فإذا هنالك خمس قبائل تطالب هى أيضًا بأن يكون لها سفراؤها ووزراؤها، فيأخذ يندد «بالخيانة» وهو لا يزال على ما كان عليه من فقدان الشعور بالمسئولية، ومن فقدان الوعى، ومن صَغار النفس.

لقد أشرنا مرارًا إلى أن الدور الذى يقوم به الزعيم كثيرًا ما يكون دورًا ضارًا مشئومًا. إن الحزب فى بعض المناطق يكون منظمًا كتنظيم عصابة يتولى قيادتها الشخص الذى يكون

أشد أعضائها قسوة. ويحلو لبعضهم أن يتحدث عن سيطرة هذا الزعيم وعن قوته، حتى قد لا يتورع أن يقول بلهجة فيها الرضا والإعجاب إن هذا الزعيم يرعب أقرب المقربين إليه من معاونيه. فلكي تتحاشى هذه المخاطر الكثيرة يجب أن نناضل في كثير من العناد والصمود في سبيل أن لا يستحيل الحزب أبدًا إلى أداة طيِّعة بين يدي زعيم. إن كلمة زعيم الانكليزية Leader مشتقة من فعل: ساق يسوق. فيجب أن نعلم أن الشعب لا يُساق الآن سوقًا. ليست الشعوب الآن قطعانًا تُساق، ولا هي في حاجة إلى أن تُساق: وإذا ساقني الزعيم فإنني أريد أن يعلم في الوقت نفسه أنني أسوقه. ما ينبغي أن تكون الأمة كتلة يصرف شئونها رجل. ومن هنا نفهم ذلك الذعر الذي يستولي على الأوساط الحاكمة حين يُصاب واحد من هؤلاء الزعماء بمرض. ذلك أن المسألة التي تشغل بال هذه الأوساط وتقضّ مضاجعها هي مسألة الخلف الذي سيخلف الزعيم إذا مات. ما عسى أن تسير إليه البلاد إذا مات الزعيم؟ إن الأوساط الحاكمة التي امَّحت أمام الزعيم غير شاعرة بالمسئولية غير واعية للوضع، مشغولة بالحياة المرهفة التي تعيشها، وبالحفلات التي تشهدها، وبالأسفار المأجورة التي تقوم بها والأرباح الكثيرة التي تجنيها، إن هذه الأوساط الحاكمة تشعر من حين بالفراغ الروحي الذي يرين في قلب الشعب.

إن البلاد التي تريد حقًا أن تحل القضايا التي يطرحها عليها التاريخ، التي تريد حقًا أن تحقق لمدنها الازدهار، وأن تنمي عقول سكانها، يجب أن يكون لها حزب حقيقي. وليس الحزب أداة بين يدي الحكومة، بل الحزب أداة بين يدي الشعب. الحزب هو الذي يقرر السياسة التي تطبقها الحكومة. ليس الحزب، وما ينبغي للحزب أن يكون -المكتب السياسي الذي يلتقي فيه أعضاء الحكومة وكبار المسئولين على راحتهم. إن المكتب السياسي كثيرًا ما يكون الحزبَ كله وأسفاه! وأعضاء المكتب السياسي يقيمون دائمًا في العاصمة. مع أن من الضروري في البلاد المتخلفة أن يفر المسئولون الحزبيون من المدن فرارهم من الطاعون. إن عليهم أن يقيموا في المناطق الريفية، إلا عددًا قليلاً منهم. يجب أن نتحاشى تركيز كل شيء في المدينة الكبيرة. وما من عذر من الأعذار الإدارية يمكن أن يسوغ هذا الغليان الشديد في العاصمة التي تشكو منذ الآن من فرط عدد السكان ومن فرط النمو بالقياس إلى تسعة أعشار مساحة البلاد. يجب تخليص الحزب من التمركز إلى أقصى حد ممكن. فتلك هي السبيل الوحيد إلى تنشيط المناطق الميتة التي لم تستيقظ على الحياة بعد.

يجب عمليًا أن يقيم عضو واحد على الأقل من أعضاء المكتب السياسى فى كل منطقة من المناطق، ويجب أن نتحاشى تعيينه رئيسًا للمنطقة. يجب أن لا يتسلم سلطات إدارية. ليس من الضرورى أن يحتل عضو المكتب السياسى أعلى مركز فى الجهاز الإدارى للمنطقة. يجب أن لا يتسلم سلطات إدارية. ليس من الضرورى أن يحتل عضو المكتب السياسى أعلى مركز فى الجهاز الإدارى للمنطقة. يجب أن لا يكون جزءًا من السلطة بالضرورة. يجب أن لا يكون الحزب فى نظر الشعب هو السلطة، بل الجهاز الذى بواسطته يستطيع الشعب من حيث هو شعب أن يمارس سلطته ويحقق إرادته. وكلما فرقنا بين الحزب والحكم، أزلنا ازدواج السلطة، وكنا نكفل للحزب أن يحقق رسالته كمرشد وموجِّه، كما كنا نكفل له أن يكون فى نظر الشعب ضمانة حاسمة. أما إذا كان هناك اندماج بين الحزب والسلطة، كان الانتساب إلى الحزب يعنى سلوك الطريق الأقصر إلى تحقيق غايات أنانية، إلى الحصول على منصب فى جهاز الحكم، إلى نيل ترفيع فى الوظيفة أو تغيير فى الوضع، أو ما إلى ذلك.

إن من شأن القيادات المحلية النشيطة فى البلاد المتخلفة أن توقف عملية تضخم المدن، وأن تحول دون تدفق الجماهير الريفية إلى هذه المدن تدفقًا مضطربًا غير متسق. إن خلق قيادات محلية منذ الأيام الأولى للاستقلال، قيادات تملك فى المنطقة كل الصلاحيات اللازمة لإيقاظ المنطقة وإحيائها وتعجيل وعى المواطنين فيها، إن خلق هذه القيادات المحلية ضرورة ليس فى وسع أى بلد يريد التقدم أن يفلت منها. وإلا رأينا المسئولين الحزبيين ورجال الحكم يتجمعون حول الزعيم، ورأينا الإدارات تتضخم، لا لأنها تنمو وتتنوع، بل لأن أقرباء جددًا وحزبيين جددًا ينتظرون منصبًا ويأملون أن يتسربوا إلى عجلة الوظائف، ورأينا كل مواطن يحلم أن يجيء إلى العاصمة لينال نصيبه من الحلوى، ورأينا المناطق البعيدة تخلو من سكانها، والجماهير الريفية التى ما نظمت ولا ربيت ولا دعمت، تتحول عن الأرض التى لم تحسن حرثها وتتجه إلى الضواحى المحيطة بالمدن، فتتضخم بها البروليتاريا الدنيا تضخمًا لا يقف عند حد.

وتوشك الأمة أن تعانى أزمة وطنية اقتصادية جديدة. إننا نعتقد أن المناطق الداخلية فى البلاد هى التى يجب أن تُخَص بالامتياز. بل قد لا يكون هناك أى ضرر من انتقال الحكومة

إلى مكان غير العاصمة. يجب أن لا تظل العاصمة عاصمة إلى الأبد. يجب أن نبرهن للجماهير المحرومة أننا من أجلها إنما نقرر أن نعمل. وهذا ما حاولته الحكومة البرازيلية، بمعنى من المعانى، حين شيدت برازيليا. إن امتيازات ريو دو جانيرو إهانة للشعب البرازيلى. ولكن من المؤسف أن العاصمة الجديدة برازيليا لا تقل عن العاصمة الأولى شموخًا أشوه. والفائدة الوحيدة التى تحققت من تشييد هذه العاصمة الجديدة أنه يوجد الآن طريق يشق الغابات ليدخل إليها. نعم ليس هناك أى باعث ذى بال يمكن أن يحول دون اختيار عاصمة أخرى، وأن يمنع انتقال مجموع الحكومة إلى منطقة من المناطق المحرومة. إن فكرة العاصمة فى البلاد المتخلفة هى فكرة تجارية من مخلفات عهد الاستعمار. يجب علينا فى البلاد المتخلفة أن نضاعف الاتصال بالجماهير الريفية. علينا أن نجعل سياستنا قومية تتناول الجماهير. يجب أن لا نفقد اتصالاً بالشعب الذى كافح فى سبيل استقلاله وفى سبيل تحسين حياته تحسينًا محسوسًا ملموسًا.

إن على الموظفين والفنيين من أهل البلاد أن يغوصوا لا فى الخطوط البيانية والإحصاءات، بل فى جسم الشعب. يجب عليهم أن لا يغضبوا أشد الغضب كلما أريد نقلهم إلى «المناطق الداخلية». يجب أن لا نرى بعد الآن أولئك النساء الشابات فى البلدان المتخلفة يهددن أزواجهن بالطلاق إذا هم لم يتوسلوا بجميع الذرائع الممكنة ليحولوا دون تعيينهم لوظيفة فى الريف. لذلك كان لزامًا على المكتب السياسى للحزب أن يجعل المناطق المحرومة هى المناطق التى يخصها بالامتياز. وينبغى لحياة العاصمة، الحياة المصطنعة السطحية اللازقة بالواقع القومى لزوق جسم غريب عنه، أن لا تحتل إلا أقل مكان ممكن فى حياة الأمة التى هى الحياة الأساسية المقدسة.

وعلى الحزب فى البلاد المتخلفة أن لا يكتفى بالاتصال بالجماهير، وإنما ينبغى له أن يكون تعبيرًا مباشرًا عن الجماهير. ليس الحزب جهازًا مهمته نقل أوامر الحكومة، بل الحزب هو الناطق القوى بلسان الجماهير، وهو المدافع الصامد عن الجماهير. وللوصول إلى فهم الحزب هذا الفهم يجب قبل كل شىء أن نتحرر من تلك الفكرة الغربية جدًا، للبورجوازية جدًا وبالتالى المسيئة جدًا، الفكرة القائلة بأن الجماهير عاجزة عن قيادة نفسها. إن التجربة تبرهن فى الواقع على أن الجماهير تفهم أعقد المشكلات

فهمًا كاملاً. إن من أهم الخدمات التى أدتها الثورة الجزائرية للمثقفين الجزائريين أنها وصلتهم بالشعب، وأتاحت لهم أن يروا ذلك البؤس الفظيع الرهيب الذى يعانيه الشعب، وأن يشهدوا فى الوقت نفسه يقظة الذكاء وتقدم الوعى لدى هذا الشعب. إن الشعب الجزائرى، هذه الكتلة من الجائعين والأميين، من الرجال والنساء الذين ظلوا غارقين فى أحلك ظلمات الجهل قرونًا طويلة، قد صمد للدبابات والطائرات، للقذائف المحرقة والدوائر السيكولوجية، وصمد خاصة لمحاولات الرشوة والإفساد وغسل الدماغ، وصمد للخونة والجيوش «الوطنية» التى يقودها الجنرال بيلونى. صمد هذا الشعب رغم الضعاف والمترددين والأجراء، صمد لأن كفاحه خلال سبع سنين قد فتح له ميادين كان لا يتصور حتى وجودها. واليوم تعمل مصانع الأسلحة فى الجبال على عمق عدة أمتار تحت الأرض، وتعمل محاكم للشعب بجميع درجاتها، وتتولى لجان محلية للتخطيط حصر الملكيات الكبيرة، استعداداً لبزوغ جزائر الغد. قد يعجز رجل منعزل عن فهم مشكلة من المشاكل، أما الجماعة، أما القرية بكاملها فإنها تفهم الأمور بسَرعة تُحير العقل.

صحيح أنك إذا حرصت كل الحرص على أن تستعمل لغة لا يفهمها إلا الحاصلون على شهادة الليسانس فى الحقوق أو العلوم السياسية، تستطيع أن تبرهن على أن الجماهير يجب أن تساق سوقًا. أما إذا استعملت اللغة المحسوسة الواضحة، ولم تكن ممن يستبد بهم حرص شاذ على تلبيس الأمور، على التخلص من الشعب، فإنك ما تلبث أن تدرك أن الجماهير تدرك أدق المشكلات. وأرهف المسائل. إن لجوءك إلى لغة تكنيكية معناه أنك قررت أن تعد الجماهير جاهلة. إن هذه اللغة تدل على رغبة أصحابها من المحاضرين فى أن يخدعوا الشعب وفى أن يدعوه خارج القضية. ليس استعمال لغة غامضة إلا قناعًا يخفى وراءه حرصًا على النهب. إن من يستعمل هذه اللغة الغامضة إنما ينتزع من الشعب رزقه وسيادته معًا. إن المرء يستطيع أن يشرح للشعب كل شىء متى أراد حقًا أن يفهمه الشعب. فإذا ظن أنه ليس فى حاجة إلى الشعب، إذا حسب أن الشعب يعرقل سير الشركات الخاصة ذات المسئولية المحدودة، التى تهدف إلى جعل الشعب يعانى مزيدًا من البؤس والفقر، فقد حُسمت المشكلة. . .

من ظن أن فى الإمكان أن يُقاد بلد من البلدان دون أن يُقحم الشعب أنفه فى ذلك، من ظن أن الشعب يبلبل مجرد حضوره الأمور، فيؤخر التقدم أو يخرب الوضع بجهله الطبيعى، من ظن ذلك فلا تردد عنده: يجب إبعاد الشعب. ولكن الواقع هو أن الشعب إذا دعى إلى قيادة البلاد لا يؤخر الحركة بل يعجلها. وقد أتيح لنا نحن معشر الجزائريين خلال هذه الحرب التى نخوضها أن نلمس بأيدينا عدة أشياء. إن المسئولين السياسيين والعسكريين من رجال الثورة قد واجهوا فى بعض المناطق الريفية ظروفًا اقتضت حلولاً جذرية. وسنعرض الآن لبعض هذه الظروف.

فى أثناء عامى ١٩٥٦ و ١٩٥٧، حرم الاستعمار الفرنسى بعض المناطق، فأصبح تنقل الأشخاص فى هذه المناطق خاضعًا لقيود صارمة. وأصبح الفلاحون لا يستطيعون أن يذهبوا إلى المدينة بحرية لتجديد مؤنهم. فأخذ البقالون يكدسون أرباحًا ضخمة، حتى بلغت أسعار الشاى والقهوة والسكر والتبغ أرقامًا خارقة، وانتصرت السوق السوداء انتصارًا هائلاً. وأصبح الفلاحون الذين لا يستطيعون المقايضة يرهنون محاصيلهم بل وأراضيهم، أو يأخذون يبيعون إرث الأسرة قطعة قطعة، ثم ينتهون فى مرحلة ثانية إلى العمل فى الأرض لحساب البقال. فما أن أدرك المفوضون السياسيون هذا الخطر حتى بادروا إلى اتخاذ الإجراءات اللازمة فورًا، فوضعوا نظامًا عقليًا للتموين: فالبقال الذى يذهب إلى المدينة عليه أن يشترى بضائعه من تجار وطنيين يعطونه فواتير تذكر فيها أسعار البضائع؛ حتى إذا عاد إلى القرية كان عليه أن يذهب فورًا إلى المفوض السياسى الذى يدقق فى الفواتير، ويحدد الربح ويعين تسعيرة البيع. وعلى البقال بعد ذلك أن يسجل على البضائع فى حانوته أسعارها المفروضة، ويكون هنالك رجل من رجال القرية يبصِّر الفلاح بأسعار البضائع ويكون أشبه برقيب على البقال. غير أن البقالين ما لبثوا أن اكتشفوا حيلة يلجأون إليها، فما هى إلا أيام ثلاثة أو أربعة حتى يدَّعوا أن البضاعة قد نفدت، ثم يأخذون يبيعون خفية بأسعار فاحشة.

وكان رد السلطة السياسية جذريًا: فُرضت غرامات ضخمة على المخالفين، وجُمعت الغرامات وأودعت صندوق القرية لإنفاقها فى البر، أو لاستعمالها فى أعمال ذات مصالح مشتركة. حتى لقد تقرر فى بعض الأحوال إغلاق الحانوت إلى أجل مسمى. فإذا تكررت

المخالفة صودر المحل فوراً وعهد إلى لجنة منتخبة بإدارته، وأعطى صاحب المحل مرتبًا شهريًا.

وعلى أساس هذه التجارب شرحنا للشعب القوانين الاقتصادية الكبرى بالاستناد إلى حالات محسوسة. فلم يعد قانون تجميع رأس المال نظرية من النظريات، بل سلوكًا واقعيًا جدًا راهنًا جدًا: أدرك الشعب كيف أن فى وسع فرد من الأفراد يعمل فى تجارة أن يصيب ثراءً كبيرًا، وأن يوسع تجارته وعندئذ فقط أخذ الفلاحون يقصون كيف أن هذا البقال كان يقرضهم أموالاً بربا فاحش، وذكر آخرون كيف أنه طردهم من أراضيهم وكيف أصبحوا عمالاً بعد أن كانوا مالكين. وكلما ازداد الشعب فهمًا للأمور، ازدادت يقظته وأصبح يدرك أن كل شيء متوقف عليه، وأن سلامته رهن باتحاده، وبمعرفة مصالحه وبتعيين أعدائه. وفهم الشعب أن الغنى الذى حصله الأغنياء لم يكن ثمرة العمل بل كان ثمرة سرقة منظمة محمية. وأصبح لا ينظر إلى الأغنياء نظرته إلى أناس محترمين بل إلى حيوانات مفترسة، إلى ذئاب، إلى غربان تتمرغ فى دماء الشعب. وفى مضمار آخر قرر المفوضون السياسيون أن لا يعمل أحد أجيرًا لأحد، فالأرض لمن يزرعون الأرض. وهذا مبدأ أصبح بالشرح قانونًا أساسيًا فى الثورة الجزائرية، وحُمل المزارعون الذين كانوا يستعملون عمالاً زراعيين على أن يدفعوا لهؤلاء الذين عملوا لهم أنصبة من الأرباح.

ولاحظنا عندئذ أن غلة الهكتار قد تضاعفت ثلاثة أضعاف، وذلك رغم هجمات الفرنسيين وقصف الطائرات وصعوبة الحصول على الأسمدة. وأراد الفلاحون الذين استطاعوا عند الحصاد أن يقدروا محاصيلهم وأن يزنوها، أرادوا أن يفهموا هذه الظاهرة، فسرعان ما اكتشفوا أن العمل ليس أمرًا بسيطًا، وأن العبودية لا تتيح العمل، وأن العمل يفترض الحرية والمسئولية والوعى.

فى هذه المناطق التى استطعنا أن نطبق فيها هذه التجارب البناءة، فى هذه المناطق التى شهدنا فيها تحقق الإنسان بالتشريع الثورى، أدرك الفلاحون إدراكًا واضحًا جدًا ذلك المبدأ الذى يقول إن الإنسان يستمتع بالعمل على قدر إقدامه على بذل الجهد عن وعى واضح. لقد استطعنا أن نُفهم الجماهير أن العمل ليس إنفاق طاقة أو تشغيل عضلات فحسب، فإنما يعمل المرء بعقله وقلبه أكثر مما يعمل بعضلاته وعرقه. وكذلك اضطررنا فى هذه المناطق

التى تحررت ولكنها أُبعدت فى الوقت نفسه عن الدورة التجارية القديمة، اضطررنا أن نبدل الإنتاج الذى كان قبل ذلك متجهًا نحو المدن ونحو التصدير فحسب. فنظمنا الإنتاج على أساس حاجة الشعب وحاجة وحدات جيش التحرير الوطنى إلى الاستهلاك. ضاعفنا إنتاج العدس أربعة أضعاف ونظمنا صنع فحم الخشب وأصبحت الخضار والفحم الحجرى تأتى من مناطق الشمال إلى الجنوب عن طريق الجبال، وأخذت مناطق الجنوب ترسل اللحوم إلى الشمال. وكانت جبهة التحرير الوطنى هى التى قررت إحداث هذا التنسيق ووضعت خطة نقل المحاصيل. ولم يكن لدينا أخصائيون فى التخطيط متخرجون من مدارس الغرب الكبرى، ولكن هذه المناطق المحررة قد بلغ الراتب الغذائى اليومى فيها حدًا لم تعرفه من قبل وهو ٣٢٠٠ حريرة. ولم يكتف الشعب بتحقيق النصر فى هذه التجربة، بل أخذ يطرح مسائل نظرية. مثال ذلك: لماذا كان بعض المناطق لا يرى البرتقال قبل حرب التحرير مع أن البلاد كانت تصدر منه إلى الخارج ملايين الأطنان سنويًا، ولماذا كان عدد كبير من الجزائريين لا يعرف العنب مع أن ملايين العناقيد من عنب الجزائر كانت تتلذذ بها الشعوب الأوروبية؟ لقد أصبح الشعب يعرف اليوم ما يملكه معرفة واضحة. أصبح الشعب الجزائرى يعلم اليوم أنه المالك الوحيد لأرض بلاده ولما يضمُّه جوف هذه الأرض من ثروات. وإذا كان هناك أناس لا يفهمون لماذا تحرص جبهة التحرير الوطنى هذا الحرص كله على أن لا تتهاون أى تهاون فى حق التملك هذا، ولا يفهمون عزمها العنيد الوحشى على رفض أية تسوية حول هذه المبادئ، فليتذكروا أن الشعب الجزائرى أصبح اليوم شعبًا راشدًا، مسئولاً، واعيًا. إن الشعب الجزائرى قد أصبح اليوم شعبًا مالكًا.

لقد استشهدنا بمثال الشعب الجزائرى فى توضيح كلامنا، لا من أجل أن نمجد شعبنا، بل لأننا أردنا أن نبين الدور الكبير الذى حققته معركته فى تنمية وعيه. وواضح أن هناك شعوبًا أخرى وصلت إلى هذه النتيجة نفسها بطرق شتى. إن لجوء الشعب الجزائرى إلى استعمال القوة أمر لم يكن منه بد، والناس يدركون اليوم ذلك أكثر مما كانوا يدركونه من قبل، غير أن هناك مناطق أخرى استطاعت بالنضال السياسى والشرح والتنوير الذى تولاه الحزب، أن تصل إلى هذه النتائج نفسها. لقد أدركنا فى الجزائر أن الجماهير فى مستوى المشكلات التى تجابهها. والتجربة تدل على أن المهم فى بلد متخلف ليس هو أن يفهم أن يقرر ثلاثمائة شخص، وإنما المهم أن يفهم الشعب كله وأن يقرر الشعب كله، ولو اقتضى

ذلك وقتًا مضاعفًا ضعفين أو ثلاثة أضعاف. فالوقت الذى تنفقه فى الشرح، الوقت الذى «تضيعه» فى توعية العاملين، لا يذهب هدراً، بل يُتدارك ويسترد فى التنفيذ. يجب أن يعرف الناس إلى أين هم ماضون، ولماذا يمضون إلى حيث هم ماضون؟ ينبغى لرجل السياسة أن لا يجهل أن المستقبل سيظل مسدوداً ما ظل وعى الشعب قاصراً ضعيفًا كثيفًا. إن علينا، نحن رجال السياسة الأفريقيين، أن تكون أفكارنا عن حالة شعبنا واضحة جداً. ولكن هذا الإدراك الواضح يجب أن يظل ديالكتيكيًا إلى الأعماق. إن يقظة الشعب كله لن تتم دفعة واحدة؛ وانخراط الشعب فى عمل البناء القومى انخراطًا منظمًا أمر طويل، أولاً لأن طرق المواصلات ووسائل النقل غير متطورة تطوراً كافيًا، وثانيًا لأن الزمانية لن تكون زمانية اللحظة الراهنة أو المحصول القادم بل زمانية العالم، وأخيراً لأن اليأس الراسخ فى قرارة العقول بنتيجة السيطرة الاستعمارية ما يزال متأهبًا. ولكن يجب علينا أن لا نجهل أن الانتصار على عُقَد الانزلاق فى الطريق الأسهل، وهى من مواريث السيطرة على البلاد ماديًا وروحيًا، ضرورة ليس فى وسع أية حكومة أن تتملص منها. انظروا مثلاً إلى العمل فى عهد الاستعمار. إن المستوطنين المستعمرين لم ينقطعوا لحظة عن القول إن السكان الأصليين كسالى بطيئون. اليوم نرى فى بعضَ البلاد المستقلة أناسًا مسئولين يعودون إلى هذه النغمة ويرددون هذه الإدانة. وواقع الأمر أن المستوطن المستعمر كان يريد أن يكون العبد متحمسًا. كان يريد، بنوع من التضليل، أن يقنع العبد أن الأرَض التى يزرعها هى له، وأن المناجم التى يفقد فيها عافيته هى ملكه. وكان المستوطن المستعمر ينسى نسيانًا عجيبًا أنه إنما يغتنى بفضل احتضار العبد. لقد كان المستوطن المستعمر يقولَ للمستعمَر عمليًا: «لتفطس أنت، ولأغتن أنا». وعلينا الآن أن لا نفعل مثل هذا. علينا أن لا نقول للشعب: «لتفطس أنت ولتغتن البَلاد» إذا نحن أردنا أن تزيد الدخل القومى، وإذا نحن أردنا أن نمنع استيراد بعض المنتجاَت غير المفيدة بل والضارة، وإذا نحن أردنا أن نزيد الإنتاج الزراعى، وأن نحارب الأمية، فعلينا أن نشرح للشعب الأسباب التى تدفع إلى ذلك كله. يجب أن يفهم الشعب أهمية ما نقدم عليه من عمل. يجب أن يعرف الشعب الشئون التى تتصل بالشعب. ومن هنا تفهمون ضرورة إكثار خلايا القاعدة. إن ما يحدث فى كثير من الأحيان هو أننا نكتفى بإنشاء منظمات وطنية فى القمة وفى العاصمة دائمًا: «اتحاد النساء»، «اتحاد الشباب»، «النقابات»، الخ... حتى إذا بدا لك أن ترى ماذا وراء المكتب الذى مقره

العاصمة، إذا بدا لك أن تنتقل إلى القاعة الخلفية التى يجب أن توجد فيها الإضبارات والملفات، هالك ما ستراه من فراغ، من عدم، من خديعة. لابد من قاعدة، لابد من خلايا هى التى تبث فى الحركة مضمونًا ونشاطًا. ينبغى أن تُمكن الجماهير من أن تجتمع وتناقش وتقترح وتتلقى تعليمات. ينبغى أن يستطيع المواطنون أن يتكلموا وأن يعبروا وأن يبتكروا. إن اجتماع الخلية أو اجتماع اللجنة أشبه بصلاة. إنه فرصة فذة تتاح للإنسان فيستطيع أن يصغى وأن يتكلم. وفى كل اجتماع، يغتنى عقل الإنسان تطل عيناه على آفاق ما تنفك تتسع.

وكثرة الشباب فى البلاد المتخلفة تطرح على الحكومة مشكلات خاصة يجب أن تُعالج معالجة واضحة. إن الشبيبة التى تعيش فى المدن ولا تقوم بعمل، والتى هى أمية فى كثير من الأحيان، تنساق فى طرق كثيرة من طرق الانحلال والتفسخ. إن ألهيات البلاد المصنَّعة معروضة على شبيبة البلاد المتخلفة فى أكثر الأحيان. والأمر الطبيعى فى الواقع هو أن هناك تجانسًا بين المستوى العقلى والمادى لأفراد مجتمع من المجتمعات وبين اللذات التى يستمتع بها هذا المجتمع. ولكن الشبيبة فى البلاد المتخلفة تنعم بألهيات خُلقت لشبيبة البلاد الرأسمالية: الروايات البوليسية، ماكينات القمار، للصور الفوتوغرافية الماجنة، الأدب الخليع، الأفلام الممنوعة عمن هم دون السادسة عشرة من العمر، والمشروبات الكحولية خاصة. ففى الغرب نرى الجو العائلى، والمواظبة على المدارس، ومستوى معيشة الطبقات الكادحة، العالى نسبيًا، نرى كل ذلك يحول بعض الشىء دون انجراف الشبيبة فى هذه الألهيات انجرافًا مؤذيًا. أما فى بلد أفريقى، حيث النمو النفسى متفاوت، وحيث يصطدم عالمان اصطدامًا عنيفًا فتزعزع من ذلك التقاليد القديمة تزعزعا كبيرًا ويتفكك عالم الإدراك، فإن عواطف الفتى الأفريقى وحساسيته يخضعان لهجمات الحضارة الغربية ويتأثران بها تأثرًا كبيرًا، وكثيرًا ما تعجز أسرة الفتى عن محاربة هذه الاندفاعات العنيفة بالاستقرار والتجانس.

ففى هذا المجال يجب على الحكومة أن تكون مصفاة وأن تكون عامل استقرار وصمود. إن قادة «منظمات الشبيبة» فى البلاد المتخلفة كثيرًا ما يرتكبون خطأ فادحًا، إذ يتصورون رسالتهم على غرار رسالة قادة «منظمات الشبيبة» فى البلاد المتطورة. إنهم يتكلمون على ضرورة تقوية النفس، وتربية الجسم، وخلق الصفات الرياضية. وعندنا أن على هؤلاء

القادة أن يعزفوا عن هذا المفهوم الخاطيء. إن شبيبة البلد المتخلف شبيبة عاطلة عن العمل فى كثير من الأحيان، فيجب شغلها بالعمل أولاً وقبل كل شيء. لذلك يجب أن يكون قادة منظمات الشبيبة تابعين لوزارة العمل. ووزارة العمل التى هى حاجة ماسة فى البلاد المتخلفة يجب أن تكون على تعاون وثيق مع وزارة التخطيط التى هى حاجة ماسة أخرى فى البلاد المتخلفة. يجب أن لا نوجه الشبيبة الأفريقية نحو الملاعب الرياضية، بل نحو الحقول، ونحو المدارس. ويجب أن لا يكون ملعبهم ذلك المكان المخصص للعرض فى المدن، بل فسحة فى طرف من أطراف الأرض التى يحرثونها ويزرعونها ويقدمونها للأمة. إن المفهوم الرأسمالى للرياضة مختلف اختلافًا أساسيًا عن المفهوم الذى يجب أن تأخذ به البلدان المتخلفة. يجب على السياسى الأفريقى أن لا يُعنى بخلق رياضيين بل بخلق رجال واعين يكونون من جهة أخرى رياضيين. إذا لم نجعل الرياضة متكاملة مع الحياة القومية أى مع البناء القومى، إذا نحن خلقنا رياضيين لا رجالاً واعين، فسرعان ما سنشهد تفسخ الرياضة لعبًا. يجب أن لا تكون الرياضة ألهية تلهو بها بورجوازية المدن. إن المهمة الكبرى التى تقع على عاتقنا هى أن ندرك فى كل لحظة ما يحدث فى بلادنا. يجب أن لا ينصرف همنا إلى إيجاد الفرد الفذ، إلى خلق البطل؛ يجب أن نرفع مستوى الشعب، أن ننمى عقل الشعب، أن نجهز الشعب، أن ننوِّعه، أن نجعله إنسانيًا.

وها نحن أولاء نعود إلى تلك الفكرة الهامة التى نريد أن يعتنقها جميع السياسيين الأفريقيين، أعنى ضرورة تنوير الجهد الشعبى، ضرورة تنوير العمل، وتخليصه من الظلام الذى تراكم عليه عبر التاريخ. إن على من يتحمل مسئولية الحكم فى بلد متخلف أن يدرك أن كل شيء مرهون أخيرًا بتربية الجماهير، بتثقيف الجماهير، برفع مستوى تفكير الجماهير، بما يسمى إدخال الجماهير فى السياسة.

وكثيرًا ما يُظن فى خفة وطيش إجرامى أن إدخال الجماهير فى السياسة إنما يكون بإلقاء خطاب سياسى كبير من حين إلى حين. كثيرًا ما يُظن أنه يكفى أن يتولى الزعيم أو أحد المسئولين أن يتحدث إلى الجماهير بلهجة متفيهقة متعالمة عن كبريات مشكلات الساعة حتى يكون قد قام بواجبه فى مضمار توعية الجماهير وإدخالها فى الحياة السياسية. ولكن التوعية السياسية إنما تعنى فى الواقع فتح الأفهام، إيقاظ العقول،

إقحام الأذهان في العالم. إنها كما قال سيزار: «خلق نفوس». إن إدخال الجماهير في الحياة السياسية لا يكون ولا يمكن أن يكون بإلقاء خطاب سياسي، وإنما يكون بالعمل العنيف الدائب على إفهام الجماهير أن كل شيء رهن بها، فإذا ركدنا فهي المسئولة عن ركودنا وإذا تقدمنا فهي المسئولة أيضًا عن تقدمنا، وأن الشعب هو الخالق، وأنه ما من رجل شهير يمكن أن يكون مسئولاً عن كل شيء، وأن الأيدي الساحرة التي تحقق المعجزات إنما هي أيدي الشعب. ومن أجل تحقيق هذه الأمور، ومن أجل تجسيدها حقًا، لابد من الابتعاد عن السيطرة المركزية إلى أبعد حد ممكن من الابتعاد. إن الانتقال من القمة إلى القاعدة ومن القاعدة إلى القمة يجب أن يكون هو المبدأ الصلب الذي نتمسك به أشد التمسك لا من قبيل الحرص على الشكل، بل لأن التقييد بهذا المبدأ هو الذي يكفل لنا السلامة. فمن القاعدة إنما تصعد القوى التي تحرك القمة وتتيح لنا أن نحقق وثبة جديدة. وأعود فأقول إننا معشر الجزائريين قد أدركنا هذه الأمور بسرعة عظيمة، فما من عضو من أعضاء أية قمة احتكر لنفسه مهمة تحقيق الخلاص. إن القاعدة هي التي تقاتل في الجزائر، وهذه القاعدة لا تجهل أن القمة لا يمكن أن تصمد إلا بما تخوضه القاعدة من كفاح يومي بطولي شاق، لا ولا تجهل أنه ما لم يكن هنالك قمة وما لم يكن هنالك قيادة فإن الفوضى والبلبلة ما تلبثان أن تهدما القاعدة. إن القمة لا تستمد قيمتها وقوتها إلا من وجود الشعب في ساحة القتال، بل قل إن الشعب هو الذي يخلق لنفسه قمة، وليست القمة هي التي تحمل الشعب.

يجب أن تعلم الجماهير أن الحكومة والحزب هما في خدمتها. والشعب الذي يشعر بكرامته، الشعب الذي يعي كرامته، لا يمكن أن ينسى هذه الحقائق. لقد قيل الشعب أثناء الاحتلال الاستعماري إن عليه أن يضحي بحياته في سبيل الكرامة، ولكن الشعوب الأفريقية سرعان ما أدركت أن كرامتها لا يجحدها المحتل فحسب، سرعان ما أدركت أن هناك تساويًا مطلقًا بين الكرامة والسيادة، فالشعب الذي يتمتع بالكرامة هو الشعب الذي يتحمل المسئولية. وليس يجديكم أن «تبينوا» أن الشعوب الأفريقية كالأطفال أو كضعاف العقول. إن للحكومة والحزب شعبًا من الذي يستحقانه، وإن للشعب بعد زمن يقصر أو يطول حكومة هي التي يستحقها.

إن التجربة المحسوسة فى بعض المناطق تدل على وجود مثل هذه المواقف. ففى أثناء بعض الاجتماعات يتفق لبعض أعضاء الحزب أن يعودوا، من أجل حل المسائل الصعبة، إلى هذه الصيغة: «لا شىء إلا . . .». وهذا الاختصار القطعى الذى تسيطر عليه العفوية والتبسيطية سيطرة خطرة ولا يقوم على إنضاج عقلى هو الذى ينتصر فى كثير من الأحيان. فعلينا حين نصادف مثل هذا الصدوف عن المسئولية لدى عضو من أعضاء الحزب أن لا نكتفى بتخطئته، وإنما يجب أن نجعله مسئولاً، أن ندعوه إلى المضى فى تفكيره إلى أقصاه ليلمس بإصبعه ما يتصف به هذا القول: «لا شىء إلا . . .» من قسوة وشراسة ومن بُعد عن الروح الإنسانية، ومن عقم آخر الأمر ما من أحد يستأثر، بالحقيقة، لا القائد ولا العضو. إن البحث عن الحقيقة فى أوضاع محلية إنما هو من شأن الجماعة كلها. قد تكون تجربة بعض الأفراد أغنى من تجربة بعضهم الآخر، قد يكون بعض الأفراد أقدر من بعض فى سرعة البت فى الأمور، قد يكون بعض الأفراد أوسع من بعضهم نظرة بحكم ما أتيح لهم من خبرة. ولكن على هؤلاء أن لا يطفوا على الشعب طغيانًا، لأن نجاح القرار المتخذ متوقف على التزام الشعب كله لهذا القرار التزامًا منسجمًا واعيًا. ما من أحد يمكن أن يتنصل من القضية. إن جميع الناس سيصرعون أو سيعذبون، وإن جميع الناس فى إطار الاستقلال سيجوعون وسيشاركون فى الفقر والركود. إن المعركة الجماعية تستلزم مسئولية جماعية فى القاعدة ومسئولية مشتركة فى القمة. نعم، يجب أن نورط جميع الناس فى المعركة حتى نضمن السلامة العامة والخلاص العام. ليس هناك أيد نقية، ليس هناك أبرياء، ليس هناك «متفرجون». نحن جميعًا بسبيل تلطيخ أيدينا فى مستنقعات أرضنا وفى الفراغ الرهيب الذى يرين على عقولنا. كل «متفرج» جبان أو خائن.

إن من واجب القيادة أن تكون الجماهير معها. والمناصرة تفترض الوعى، تفترض فهم المهمة التى يجب النهوض بها، تفترض حدًا أدنى من إدراك الأمور إدراكًا عقليًا. يجب أن لا نفتن الشعب، يجب أن لا نغرق الشعب فى الانفعال والإبهام. إن البلاد المتخلفة التى تقودها صفوة ثورية منبثقة عن الشعب تستطيع وحدها اليوم أن تتيح للجماهير أن تصعد إلى مسرح التاريخ. ولكننى أعود فأقول يجب علينا أن نعارض معارضة شديدة حاسمة فى نشوء بورجوازية وطنية، فى قيام طبقة من أصحاب الامتيازات. إن إدخال الجماهير فى السياسة معناه أن نجعل الأمة كلها حاضرة فى كل مواطن، معناه أن نجعل تجربة الأمة تجربة

كل مواطن. وكما قال الرئيس أحمد سيكوتورى فى رسالته التى وجهها إلى المؤتمر الثانى للكتاب الأفريقيين: «يستطيع الإنسان على صعيد الفكر أن يتشوف إلى أن يكون دماغ العالم، أما على صعيد الحياة المحسوسة الملموسة حيث نرى كل عمل يؤثر فى الوجود المادى والروحى فإن العالم هو دماغ الإنسان دائمًا، إذ على هذا المستوى إنما تتجمع القدرات والوحدات المفكرة والقوى المحركة التى تحقق التقدم والكمال، على هذا المستوى إنما يتم انصهار الطاقات ويتحقق مجموع القيم الفكرية للإنسان». إن التجربة الفردية متى كانت قومية، متى كانت خيطًا فى نسيج الوجود القومى لم تبق فردية ضيقة، بل أصبحت قادرة على أن تطل على حقيقة الأمة والعالم. وكما كان كل مقاتل فى مرحلة الكفاح يحمل الأمة كلها على ذراعيه، فكذلك يجب فى مرحلة البناء القومى أن يستمر كل مواطن على أن يرتبط فى عمله اليومى المحسوس بمجموع الأمة، على أن يجسد حقيقة الأمة فى حركتها، على أن يريد انتصار الإنسان هنا والآن. إذا كان بناء جسر لا يعنى وعى أولئك الذين يبنون الجسر، فلا كان الجسر. . . وليظل المواطنون يعبرون النهر سباحة أو على قارب. . . يجب أن لا يهبط الجسر من السماء، يجب أن لا ينزل الجسر على المجتمع من أعلى، بل يجب أن يخرج الجسر من عضلات المواطنين ومن أدمغتهم. صحيح أننا ربما احتجنا إلى مهندسين وإلى معماريين قد يكونون أجانب تمامًا، غير أن على المسئولين المحليين فى الحزب أن يعملوا على أن ينفذ التكنيك إلى دماغ المواطن، بحيث يستطيع المواطن أن يفهم الجسر جملة وتفصيلاً وعلى أن يتصوره ويتبناه. يجب أن يستطيع المواطن أن ينسب الجسر إليه. وعندئذ فقط إنما يصبح كل شيء ممكنًا.

إن على حكومة تنادى بأنها قومية أن تحمل مجموع الأمة، والشبيبة فى البلاد المتخلفة هى أهم قطاعات الأمة، فيجب أن نرفع مستوى وعى الشبيبة، يجب أن ننور الشبيبة. وهذه الشبيبة هى التى يجب أن نجدها فى الجيش الوطنى. فمتى قمنا بالشرع والتنوير على مستوى الشبيبة، متى حقق «اتحاد الشبيبة الوطنى» مهمته، أعنى مهمة إدماج الشبيبة فى الأمة، كان فى وسعنا عندئذ أن نتفادى الأخطاء التى آذت بل خبت مستقبل جمهوريات أمريكا اللاتينية. ليس الجيش مدرسة حرب بل مدرسة تنوير للمواطنين، مدرسة سياسية. ليس الجندى فى أمة راشدة جنديًا مستأجرًا بل هو مواطن يدافع عن الأمة بالسلاح لذلك

كان من الأمور الأساسية أن يعرف الجندى أنه فى خدمة بلده لا فى خدمة ضابط من الضباط مهما يكن لهذا الضابط من هيبة وتأثير. يجب أن نستفيد من الخدمة الوطنية، المدنية والعسكرية، فى رفع مستوى الوعى القومى، فى القضاء على القبلية، فى توحيد الصفوف، ويجب فى البلاد المتخلفة أن نعمل بأقصى سرعة ممكنة على تعبئة الرجال والنساء. يجب على البلاد المتخلفة أن تتحاشى الاستمرار على التقاليد الإقطاعية التى تغلب عنصر الرجال على عنصر النساء. يجب أن تنال النساء منزلة كمنزلة الرجال سواء بسواء لا فى مواد الدستور بل فى الحياة اليومية، فى المصنع، وفى المدرسة، وفى المجالس. وإذا كانت البلاد الغربية تضع العسكريين فى ثكنات، فليس هذا أحسن الحلول دائمًا. لسنا مضطرين إلى جعل المجندين عسكريين. إن خدمة العلم يمكن أن تكون مدنية مثلما يمكن أن تكون عسكرية، ويجب على كل حال أن يكون كل مواطن سليم قادرًا على أن ينضم فى كل لحظة إلى وحدة من وحدات القتال دفاعًا عن المكتسبات القومية والاجتماعية.

إن الإنشاءات الكبرى ذات المصلحة المشتركة يجب أن نستطيع تنفيذها بواسطة المجندين. تلكم وسيلة رائعة لتنشيط المناطق الراكدة، ولإطلاع عدد كبير من المواطنين على واقع البلاد. يجب أن نتحاشى تحويل الجيش إلى هيئة مستقلة يحملها الفراغ والتعطل وعدم وجود مهمة تضطلع بها على أن «تعمل فى السياسة» عاجلاً أو آجلاً. إن جنرالات الصالونات يحلمون باستلام السلطة من كثرة ما يختلفون إلى مكاتب السلطة. والسبيل الوحيد إلى تفادى ذلك هى أن نحمل الوعى السياسى إلى الجيش، هى أن ندخل الجيش فى حياة الأمة. وكذلك يجب أن نبادر إلى مضاعفة الحرس الوطنى. فإذا قامت حرب كانت الأمة كلها تقاتل وتعمل. يجب أن لا يكون هناك جنود محترفون، ويجب أن نخفض عدد الضباط المحترفين إلى أدنى حد، أولاً لأن الضباط يُنتَقون فى أكثر الأحوال من بين صفوف الجامعيين الذين يمكن أن يكونوا أنفع كثيرًا فى هذا المجال: إن الأمة أحوج ألف مرة إلى مهندس منها إلى ضابط، وثانيًا لأن علينا أن نتحاشى تبلور عقلية طبقية عسكرية. لقد رأينا على الصفحات السابقة أن الدعوة القومية، هذه الأنشودة الرائعة التى أثارت الجماهير على المتسلط الغاشم، تتحلل غداة الاستقلال، لأنها لم تكن عقيدة سياسية ولم تكن برنامجًا اجتماعيًا. فإذا أردنا حقًا أن نجنب البلاد أمثال هذه النكسات وهذه الوقفات وهذه التدهورات كان علينا أن نسارع إلى الانتقال من الوعى القومى إلى

الوعى السياسى والاجتماعى. لا وجود للأمة إلا ببرنامج تنضجه قيادة ثورية وتعتنقه الجماهير اعتناقًا قائمًا على الفهم الواضح والحماسة الثابتة. ويجب علينا دائمًا أن نضع الجهد القومى فى هذا الإطار العام، إطار البلاد المتخلفة. يجب أن تكون الجبهات التى نقاتل فيها، جبهة الجوع، جبهة الجهل، جبهة البؤس، جبهة تأخر الوعى، يجب أن تكون هذه الجبهات ماثلة فى أذهان رجالنا ونسائنا وفى عضلاتهم؛ يجب أن يكون عمل الجماهير وعزمها على تحطيم الحواجز التى أبعدتها عن تاريخ العقل الإنسانى قرونًا طويلة، يجب أن يكون هذا العمل وهذا العزم مرتبطين بعمل وعزم سائر الشعوب المتخلفة. هناك نوع من الجهد الجماعى والمصير المشترك فى مستوى الناس المتخلفين. إن الأنباء التى تهم شعوب العالم الثالث ليست هى الأنباء التى تتحدث عن زواج الملك بودوان أو عن فضائح البورجوازية الإيطالية. إن ما نريد أن نعرفه هو التجارب التى قام بها الأرجنتينيون أو البرمانيون فى مضمار مكافحة الأمية أو محاربة النزعات الدكتاتورية لدى الحكام. تلكم عناصر تقوينا، وتعلمنا، وتضاعف جدوى عملنا. هكذا ترون أن وجود برنامج أم لابد منه لحكومة تريد حقًا أن تحرر الشعب سياسيًا واجتماعيًا: هو برنامج اقتصادى، ولكنه أيضًا مذهب فى توزيع الثروات وفى العلاقات الاجتماعية. فالواقع أنه يجب أن يكون لنا مفهوم عن الإنسان، يجب أن يكون لنا مفهوم عن مستقبل الإنسانية. معنى ذلك أنه ما من أسلوب ديماغوجى، وما من تواطؤ مع المحتل القديم يمكن أن يغنى عن برنامج. إن الشعوب التى كان ينقصها الوعى ثم أصبحت تسير فى طريق الوعى سيرًا حثيثًا تطالب بهذا البرنامج مطالبة قوية. إن الشعوب الأفريقية، الشعوب المتخلفة، تبنى وعيها السياسى والاجتماعى بسرعة كبيرة خلافًا لما يُظن والأمر الذى يمكن أن يكون خطرًا هو أن تصل إلى هذا الوعى الاجتماعى قبل المرحلة القومية، لذلك قد نجد فى البلدان المتخلفة مطالبة بالعدل الاجتماعى مرتبطة ارتباطًا غريبًا بقبلية كثيرًا ما تكون بدائية. إن سلوك الشعوب المتخلفة هو سلوك أناس جائعين. معنى هذا أن أيام أولئك الذين يتسلون ويلهون فى أفريقيا هى أيام معدودات. أريد أن أقول إن حكمهم لا يمكن أن يستمر إلى غير نهاية. إن البورجوازية لا تقدم للجماهير غذاء غير الحماسة القومية مخفقة فى تحقيق مهمتها، متورطة حتمًا فى سلسلة من المزالق والمهالك. إنك ما لم تبرز مضمون الدعوة وتعمقها، وما تحلها بسرعة إلى وعى سياسى واجتماعى، إلى تطلع إنسانى، فإنك تسير فى طريق

مسدودة غير نافذة. إن القيادة البورجوازية فى البلاد المتخلفة تحيل الشعور القومى إلى شكلية عقيمة. لا شيء غير انخراط جماهير الرجال والنساء فى القيام بأعمال نيرة خصبة يمكن أن يبث فى هذا الشعور القومى مضمونًا، وأن يهب له كثافة. وعندئذ لا يظل العلم الوطنى وقصر الحكومة هما الرمزين اللذين يمثلان الأمة، وإنما تهجر الأمة هذه الأماكن المضاءة بالأنوار، هذه الأماكن الاصطناعية، وتمضى إلى الأرياف تستمد منها الحياة والحركة. إن التعبير الحى عن الأمة إنما هو الوعي الذى يحرك مجموع الشعب، هو العمل المنسق النير يندفع فيه الرجال والنساء. إن تولى الجماعة بناء مصيرها هو تحمل مسئولية على مستوى التاريخ. وإلا فثم الفوضى، والقمع، وظهور الأحزاب القبلية، وظهور الدعوة الفدرالية، وما إلى ذلك على الحكومة القومية، إذا هى أرادت أن تكون قومية، أن تحكم بالشعب ومن أجل الشعب، أن تحكم من أجل المحرومين وبالمحرومين. ما من زعيم، مهما تكن قيمته، يمكن أن يحل نفسه محل الإرادة الشعبية. وعلى الحكومة القومية، قبل أن تُعنى بمهابتها الدولية، أن ترد الكرامة إلى كل مواطن، أن تجهز العقول، أن تملأ الأعين بأشياء إنسانية، أن تملأ الأفق بنظر إنسانى، إنسانى لأنه يسكنه أناس وأعون أسياد..

●●●

فى الثقافة القومية

«ليس يكفى أن تؤلف أغنية ثورية حتى تشارك فى الثورة الأفريقية، وإنما ينبغى أن تصنع هذه الثورة مع الشعب، ثم تأتى الأغانى من تلقاء ذاتها.

من أجل أن تؤثر تأثيرًا صادقًا، يجب أن تكون أنت نفسك جزءًا حيًا من أفريقيا وفكرها، يجب أن تكون عنصرًا من عناصر هذه الطاقة الشعبية المجندة كلها لتحرير أفريقيا وتقدمها وسعادتها. ليس هناك أى مكان فى خارج هذه المعركة.. لا للفنان ولا للمثقف الذى ليس منخرطًا هو نفسه وليس معبأ كله مع الشعب، فى المعركة الكبرى التى تخوضها أفريقيا والإنسانية المعذبة».

سيكوتورى[1]

لا بد لكل جيل أن يكتشف رسالته وسط الظلام، فإما أن يحققها وإما أن يخونها. والأجيال السابقة فى البلاد المتخلفة قد قامت بعملين فى آن واحد: قاومت أعمال الاستنزاف التى تابعها الاستعمار، وهيأت نضج الكفاح الذى نخوضه الآن. فيجب علينا ونحن فى قلب المعركة أن نقلع عن تلك العادة التى تعودناها وهى أن نبخس الأعمال التى قام بها آباؤنا حقها، وأن نتعجب من صمتهم أو سلبيتهم. فالحق أن آباءنا قد ناضلوا كما استطاعوا، ناضلوا بالأسلحة التى كانوا يملكونها أيامئذ، وإذا لم تترجَّع أصداء نضالهم على المستوى الدولى، فليس مرد ذلك إلى نقص بطولتهم بل إلى أن الظرف الدولى فى ذلك العهد يختلف عن الظرف الدولى الحالى اختلافًا كبيرًا. لقد كان لابد أن يقول أكثر من مستعمَر: «لا يمكن أن يدوم هذا الوضع»، وكان لابد أن تقوم أكثر من قبيلة بعصيان، وكان لابد أن تُخمد أكثر من ثورة، وأن تقمع أكثر من مظاهرة، كان لابد من ذلك كله حتى نستطيع نحن اليوم أن نقوم بكفاحنا مؤمنين بالنصر.

إن مهمتنا التاريخية، نحن الذين قررنا أن نمزق أحشاء الاستعمار، هى أن نرتب جميع الثورات وجميع الأعمال المستميتة وجميع المحاولات التى أجهضت أو غرقت فى الدم.

(١) أحمد سيكوتورى، «الزعيم السياسى كممثل لحضارة»، خطاب فى المؤتمر الثانى للكتاب والفنانين السود، روما، ١٩٥٩.

وسأحلل فى هذا الفصل تلك المسألة التى نشعر أنها أساسية، أعنى مشروعية المطالبة بإنشاء أمة. يجب أن نعترف أن الحزب السياسى الذى يعبِّىء الشعب لا يُعنى كثيراً بمسألة المشروعية هذهِ فالأحزاب السياسية تنطلق من الواقع الحى المعيش، وهى باسم هذا الواقع، باسم هذا الواقع الراهن الذى يجثم على الحاضر والمستقبل، إنما تدعو إلى العمل. قد يتحدث الحزب السياسى عن الأمة بعبارات تؤجج العاطفة، ولكن الشىء الذى يهمه هو أن يفهم الشعب الذى يسمع حديثه ضرورة المشاركة فى المعركة إذا هو كان يطمح إلى الوجود والبقاء.

لقد أصبحنا نعرف الآن أن الاستعمار، فى المرحلة الأولى من مراحل الكفاح الوطنى، يحاول أن يشل المطمح القومى، بإسباغ طابع اقتصادى عليه، فتراه منذ بزوغ المطالب الأولى يتظاهر بالفهم ويعترف فى تواضع مسرحى بأن البلاد تشكو من تخلف خطير يوجب بذل جهد اقتصادى واجتماعى كبير.

حتى ليحدث فى الواقع أن يتخذ الاستعمار بعض الإجراءات الخداعة، كفتح ورشات لتشغيل العاطلين هنا وهناك، فإذا بهذه الإجراءات تؤخر تبلور الوعى القومى بضع سنين. ولكن الاستعمار يدرك عاجلاً أو آجلاً أنه ليس فى وسعه أن يحقق إصلاحات اقتصادية اجتماعية يمكن أن ترضى مطامح الجماهير المستعمَرة. فحتى على مستوى البطن يبدو الاستعمار عاجزاً عجزاً راسخًا وسرعان ما تدرك الدولة الاستعمارية أن إسكات الأحزاب الوطنية فى المجال الاقتصادى الصرف سيوجب عليها أن تفعل فى المستعمرات ما لم تشأ أن تفعله فى أراضيها نفسها. وليس من قبيل الصدفة أن نرى النظرية الكارتييرية تزدهر اليوم بعض الازدهار فى كل مكان(1).

إن المرارة التى شعر بها كارتييه إزاء إصرار فرنسا على أن تربط بها أناسًا يجب عليها أن تطعمهم فى حين أن كثيراً من الفرنسيين يعيشون فى حالة إعسار، إن تلك المرارة تُظهر عجز الاستعمار عن أن يصبح برنامجًا مجرداً عن المنفعة للمعونة والمساعدة. لذلك أعود فأقول إن علينا أن لا نضيع وقتنا فى ترديد ذلك الشعار القائل بأن الجوع مع الكرامة خير من

(1) نسبة إلى جاك كارتييه، البحار الفرنسى (١٤٩١ - ١٥٥٧) الذى وصل إلى كندا، وسماه الفرنسيون مكتشف كندا. «المترجم».

الخبز مع العبودية . فإنما يجب أن نقتنع بأن الاستعمار عاجز عن أن يوفر للشعوب المستعمرة الظروف المادية التى يمكن أن تنسيها اهتمامها بالكرامة . وكلما فهم الاستعمار إلى أين يمكن أن يجره أسلوب الإصلاحات الاجتماعية رأيناه يعود إلى طرائقه السابقة ، فيعزز قوى الشرطة ، ويرسل فرق الجيش ، ويقيم نظامًا إرهابيًا يتلاءم مع مصالحه ونفسيته تلاؤمًا أكمل .

إننا نرى بين رجال الأحزاب السياسية حينًا ، وعلى موازاة هذه الأحزاب أحيانًا ، أناسًا من أهل الثقافة المستعمَرين يتخذون المطالبة بحضارة قومية والبرهان على وجود هذه الحضارة القومية ميدانًا لمعركة مفضلة . فبينما نجد السياسيين يتخذون الواقع الراهن ميدانًا لعملهم ، نرى رجال الثقافة هؤلاء يضعون نشاطهم فى إطار التاريخ . ومن الملاحظ أن الاستعمار لا يهتم كثيرًا بالرد على المثقف المستعمَر الذى قرر أن يفند تفنيدًا عنيفًا النظرية الاستعمارية القائلة بأن الهمجية هى التى كانت تسود المستعمرات قبل استعمارها ، لا سيما وأن الأفكار التى تقول بها الطبقة المثقفة المستعمَرة الناشئة يقول بها المختصون الأوروبيون أنفسهم على نطاق واسع ، فإن عددًا كبيرًا من الباحثين الأوروبيين قد أخذوا منذ عدة عقود من السنين يحاولون ، على وجه الإجمال أن يردوا الاعتبار إلى حضارات أفريقيا والمكسيك وبيرو . وقد استغرب بعضهم الحماسة الشديدة التى يظهرها المثقفون المستعمَرون فى الدفاع عن وجود حضارة قومية . ولكن الذين يستنكرون هذه الحماسة المتأججة ينسون أن نفسيتهم ، أن ذواتهم تعتصم مرتاحة وراء حضارة فرنسية أو ألمانية برهنت على نفسها ولا يستطيع أحد أن يجحدها .

وإنى لأسلم بأن وجود حضارة أزتكية قديمة ليس له ، على صعيد الحياة ، كبير شأن ، فهو لا يبدل شيئًا من النظام الغذائى الذى يعيش عليه الفلاح المكسيكى اليوم . وإنى لأسلم أيضًا بأن جميع البراهين التى يمكن الإتيان بها على أن حضارة سونغائية رائعة قد قامت فى الماضى لا تبدل شيئًا من الواقع الذى يعيشه شعب سونغاى اليوم ، وهو أن أفراد هذا الشعب لا ينالون نصيبهم من الغذاء ، ولا يعرفون القراءة والكتابة ، وأنهم مقيمون بين السماء والماء قد فرغت رؤوسهم وفرغت أعينهم . ولكن سبق أن قلنا غير مرة إن هذا البحث المحموم عن حضارة قومية سابقة على العهد الاستعمارى إنما يستمد مشروعيته من

حرص المثقفين المستعمَرين على أن يبتعدوا قليلاً إلى الوراء أمام الحضارة الغربية التى يهون أن يغوصوا فيها. إن هؤلاء الرجال يشعرون بأنهم يوشكون أن يفقدوا أنفسهم، وأن يفقدهم شعبهم، فتراهم يندفعون اندفاعًا عنيفًا، وقد تأججت قلوبهم وطاشت عقولهم، إلى الاتصال بأقدم ينابيع شعبهم، بأبعدها عن عهد الاستعمار.

ولنوغل فى التحليل أكثر من ذلك. إن هذه الحماسة الشديدة وهذا التأجج المحموم ربما كان يغذيهما أو يوجههما على الأقل ذلك الأمل الخفى الذى يقوم فى نفوس هؤلاء المثقفين، وهو أن يكتشفوا وراء البؤس الراهن، وراء هذا الاحتقار للذات، وراء هذا الانسحاب وهذا الإنكار، عصرًا جميلاً جدًا ساطعًا جدًا يرد إلينا الاعتبار فى نظر أنفسنا وفى نظر الآخرين معًا. أقول إننى أردت أن أوغل فى التحليل: لعل المثقفين المستعمَرين قد أرادوا، لا شعوريًا، حين رأوا أنهم لا يستطيعون أن يحبوا التاريخ الراهن الذى تعيشه شعوبهم المضطهدة، ولا أن يعجبوا بتاريخ همجياتهم الحالية، أرادوا أن يذهبوا إلى أبعد من ذلك، أن يهبطوا إلى أبعد من ذلك؛ ويجب أن لا نشك أبدًا فى أنهم حين اكتشفوا أن الماضى لم يكن عارًا بل كرامة ومجدًا وعظمة قد شعروا بنشوة لا تدانيها نشوة. إن البرهان على وجود حضارة قومية قديمة، لا يرد الاعتبار فحسب، لا يدل على أن حضارة قومية جديدة ستقوم فى المستقبل فحسب، وإنما هو أيضًا، على صعيد التوازن النفسى العاطفى، يحقق للمستعمَر وثبة كبرى. لعل الباحثين لم يوضحوا توضيحًا كافيًا إلى الآن كيف أن الاستعمار لا يكتفى بفرض قانونه على حاضر البلاد المستعمرة وعلى مستقبلها، ولا يكتفى بتكبيل الشعب، ولا يكتفى بأن يفرغ عقل المستعمَر من كل شكل وكل مضمون، بل هو يتجه أيضًا إلى ماضى الشعب المضطهد فيحاول بنوع من فجور المنطق أن يهدمه وأن يشوهه وأن يبيده. إن هذه المحاولة التى يحاولها الاستعمار إذ يجرد تاريخ البلاد المستعمرة، السابق على الاستعمار من كل قيمة، إنما تتخذ اليوم دلالتها الجدلية.

إننا إذا فكرنا فى الجهود التى بُذلت من أجل تحقيق الضياع الحضارى الثقافى الذى يتميز به العهد الاستعمارى، أدركنا أنه ما من شىء تم مصادفة، وأن النتيجة الكلية التى ابتغتها السيطرة الاستعمارية هى أن تقنع السكان الأصليين بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام. إن النتيجة التى سعى إليها الاستعمار سعيًا واعيًا هى أن يدخل فى روع السكان الأصليين أن رحيل المستوطن الأوروبى سيردهم إلى الهمجية والوحشية والحيوانية. فالاستعمار لم

يكن يحاول إذن أن يجعل السكان الأصلين ينظرون إليه نظرتهم إلى أم تترفق بهم وتعطف عليهم وتحاول أن تحمى أطفالها من بيئة ضارة، بل نظرتهم إلى أم تعمل بغير انقطاع على أن تمنع طفلاً فاسد التكوين من أن يؤذى نفسه وأن يستطيع الانتحار، وأن ينجرف مع غرائزه الخبيثة. «إن هذه الأم المستعمرة تحمى الطفل من نفسه، من ذاته، من تكوينه الفزيولوجى، من تكوينه البيولوجى، من شقائه الوجودى».

وفى مثل هذا الظرف لا يكون مطمح المثقف المستعمَر ترفًا كماليًا بل ضرورة عملية منسجمة. إن المستعمَر الذى يضع معركته على مستوى المشروعية، الذى يريد أن يأتى ببراهين، الذى يرتضى أن يعرى جسمه فى سبيل أن يعرض تاريخ جسمه عرضًا أصح، إنما هو محمول حملاً على الغوص فى أعماق شعبه.

وليس هذا الغوص قوميًا فحسب. إن المثقف المستعمَر الذى يقرر أن يعلن الحرب على الأكاذيب الاستعمارية، إنما يخوض المعركة على مستوى القارة كلها. إنه يحاول أن يظهر قيمة الماضى بالنسبة إلى جميع الشعوب الأفريقية. إن الحضارة التى ينتزعها من غياهب الماضى لينشرها بكل ما فيها من روعة وسناء، ليست حضارة وطنه وحده. إن الاستعمار لم يفرق فى جهوده التى بذلها فى هذا المضمار بين بلد وبلد، وإنما أكد دائمًا أن الزنجى متوحش، والزنجى عنده ليس هو الأنجولى أو النيجرى، وإنما هو الزنجى عامة على إطلاق القول. لقد تحدث الاستعمار عن «الزنجى». قال إن هذه القارة الواسعة هى مرعى متوحشين، بلد موبوء بالخرافات والتعصب، بلد منحط محتقر ملعون من السماء، بلد يسكنه أكلة لحوم البشر، بلد زنوج. إن الاحتقار الذى يمحضنا إياه الاستعمار يتناول القارة الأفريقية كلها. إن قول الاستعمار بأن العهد السابق عليه كان ظلامًا وهمجية ووحشية يشمل مجموع القارة الأفريقية. فمن المنطقى والحالة هذه أن تتم الجهود الذى يبذلها المستعمَر فى سبيل استرداد اعتباره وفى سبيل الإفلات من هذا الشتم الذى يكيله له الاستعمار، من المنطقى أن تتم هذه الجهود على النطاق الذى يتناوله الاستعمار نفسه. فالمستعمَر المثقف الذى وعى ثقافة الغرب وقرر أن ينادى بوجود حضارة قومية، لن يفعل ذلك باسم أنجولا أو باسم داهومى. بل ستكون الحضارة التى يؤكد وجودها هى الحضارة الأفريقية عامة. إن الزنجى الذى لم ينقطع يومًا عن أن يكون زنجيًا منذ تسلط عليه الأبيض،

لابد أن يدرك حين يقرر أن يبرهن على ثقافة وحين يقرر أن يصنع حضارة، لابد أن يدرك أن التاريخ يفرض عليه أفقًا معينًا، ويدله على طريق معينة، وأن عليه أن يظهر حضارة زنجية.

ولا مشاحة أن المسئولين عن إضفاء هذا الطابع العرقى على الفكر أو على الخطوات التى خطاها الفكر إنما هم الأوروبيون. إن الأوروبيين هم المسئولون عن هذا، وسيظلون مسئولين عنه لأنهم هم الذين ظلوا وما يزالون يقابلون بين حضارة البيض وبين اللاحضارات الأخرى. لقد رأى الاستعمار أن عليه أن لا يضيع وقته فى إنكار حضارات الأمم الأفريقية فرادى، واحدة بعد أخرى، وإنما أنكرها كلها دفعة، لذلك كان رد المستعمر عليه يشمل القارة بأسرها كذلك. إن أدب البلاد المستعمرة الذى ظهر فى أفريقيا فى السنين العشرين الأخيرة ليس أدبًا قوميًا بل هو أدب زنجى. وما هذا الاعتزاز بالانتماء إلى الأدب الزنجى إلا الرد العاطفى، إن لم يكن المنطقى، على الإهانة التى يلحقها الإنسان الأبيض بالإنسانية. إن مثقفى غينيا أو كينيا الذين وجدوا أنفسهم عرضة لتعصب عرقى شامل، ولاحتقار منظم يمحضهم إياه المستعمر المتسلط قد ردوا على ذلك بالزهو بأنفسهم والتغنى بذواتهم. لقد تباهى الغرب بالحضارة الأوروبية بغير تحفظ، فأعقب ذلك أن تباهى الأفريقيون بالحضارة الأفريقية بغير تحفظ أيضًا فرأينا الشعراء الذين يتغنون بالانتماء إلى الزنج يقابلون بين أوروبا التى دبت فيها الشيخوخة وبين أفريقيا الفتية، بين العقل المضجر وبين الشعر، بين المنطق الخانق وبين الطبيعة المنطلقة المتدفقة، بين التجمد والاحتفالات والبروتوكول والريبية وبين صفاء القلب والاندفاع والحرية والفيض والغزارة.

ولا يتردد المتغنون بالزنج عن تجاوز حدود القارة الأفريقية. وها هى ذى أصوات زنجية من أمريكا تتلقف النشيد وتزيده سعة وقوة. سيبزغ فجر «العالم الزنجى. وهؤلاء هم بوزيا الغانى، وبيراغو ديوب السنغالى، وهامبانى السودانى، وسان كلير دراك الشيكاغوى، يؤكدون فى غير تردد، وجود صلات مشتركة واتجاهات واحدة.

ونستطيع أن نضرب هنا مثالاً بالعالم العربى أيضًا. إنكم تعرفون أن القسم الأكبر من الأراضى العربية قد حملته السيطرة الاستعمارية. وقد بذل الاستعمار فى هذه المناطق جهودًا كبيرة من أجل أن يرسخ فى عقول أهلها أن تاريخهم السابق على الاستعمار تاريخ

الهمجية. فرأينا كفاح التحرير القومى مصحوبًا بظاهرة ثقافية تُعرف باسم يقظة الإسلام: رأينا الكتاب العرب يتحمسون أشد التحمس لتذكير شعوبهم بالصفحات الرائعة من تاريخهم، ردًا على أكاذيب المستعمرين، فهم يستعرضون أسماء عظماء الأدب العربى، ويُشهرون تاريخ الحضارة العربيةَ بعنف وقوة كما فعل الأفريقيون بشأن الحضارات الأفريقية، ورأينا القادة العرب يحاولون بعث تلك الحضارة الشهيرة، حضارة الإسلام، التى سطعت سطوعًا عظيمًا فى القرن الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر.

وعلى الصعيد السياسى نرى الجامعة العربية اليوم تجسد هذه الإرادة، إرادة بعث تراث الماضى ودفعه إلى الذروة؛ كما نرى الأطباء العرب والشعراء العرب يتنادون عبر الحدود محاولين خلق ثقافة عربية جديدة، وحضارة عربية جديدة. وباسم الوحدة العربية إنما يجتمع اليوم هؤلاء الرجال، وباسمها إنما يحاولون أن يفكروا. على أننا نلاحظ فى العالم العربى أن الشعور الوطنى، قد احتفظ حتى أثناء السيطرة الاستعمارية، بقوة لا نجد مثلها فى أفريقيا. لذلك لا نرى فى الجامعة العربية ذلك التواصل العفوى بين كل قطر وسائر الأقطار، بل نرى كل قطر يحاول المفاخرة بما حققه. إن الظاهرة الثقافية قد خرجت من اللاتميز الذى تتصف به فى العالم الأفريقى، والعرب لا يتوصلون دائمًا إلى التخلى عن النظرة الذاتية إزاء الواقع الموضوعى. فتراهم لا يعيشون واقعًا ثقافيًا وطنيًا بل عربيًا. والمشكلة التى يطرحها المثقفون العرب أو الأفريقيون على أنفسهم لم تصبح بعد مشكلة إقامة ثقافة وطنية، لا ولا مشكلة اللحاق بحركة الأمم، بل مشكلة تبنى ثقافة عربية أو أفريقية إزاء ما يعمد إليه الاستعمار من إدانة شاملة واحتقار عام. فعلى هذا الأساس نرى، سواء لدى العرب ولدى الأفريقيين، أن مطمح المثقف فى البلد المستعمَر مطمح شامل هو لدى المثقف الأفريقى يشمل القارة كلها، وهو لدى المثقف العربى يشمل العالم العربى كله[1].

---

(١) يلاحظ القارئ العربى فى هذه الفقرة من كلام المؤلف أنه ليس محيطًا بحركة القومية العربية الثورية إحاطة تتيح له أن يستشهد بها فى هذا السياق دون ارتكاب عدة أخطاء. وواضح أن الخطأ الأساسى الذى انحدرت منه الأخطاء الأخرى هو ظنه أن هناك قوميات عربية، كالقوميات الأفريقية، وأن هناك ثقافات قومية عربية كالثقافات القومية الأفريقية. لقد جهل أن العرب فى جميع أقطارهم إنما ينتمون إلى قومية واحدة، وأن نضال العرب فى جميع مراحله إنما كان يهدف دائمًا إلى التحرر القومى وإلى الوحدة القومية معًا، وأن تحقيق الوحدة إنما هو عودة إلى الواقع القومى السابق على الاستعمار، لأن الاستعمار هو الذى جزأ الوطن العربى، وأن الثقافة العربية ثقافة واحدة منذ فجر وجودها إلى يومنا هذا، وأن هناك تراثًا ثقافيًا واحدًا للعرب جميعًا فى=

هذه الظروف التاريخية التى اضطرت رجال الثقافة الأفريقيين إلى أن يضفوا على مطالبهم ومطامحهم طابعًا عرقيًا، فإذا هم يتحدثون عن ثقافة أفريقية أكثر مما يتحدثون عن ثقافة قومية، ستؤدى بهم إلى حرج لا يعرفون كيف يخرجون منه. انظروا مثلاً إلى «الجمعية الأفريقية للثقافة» إن هذه الجمعية قد أنشأها مثقفون أفريقيون أرادوا أن يتعارفوا وأن يتبادلوا الخبرات والتجارب والبحوث. فكان هدف هذه الجمعية إذن هو أن يؤكدوا وجود ثقافة أفريقية، وأن يثمنوا هذه الثقافة فى إطار أمم معينة، وأن يبرزوا الحيوية العميقة فى كل ثقافة من هذه الثقافات الوطنية. ولكن هذه الجمعية كانت تلبى فى الوقت نفسه مطلبًا آخر، هو أن تصطف إلى جانب «الجمعية الأوروبية للثقافة» التى كانت تهدد بأن تصبح «جمعية عالمية للثقافة». فلقد كان من البواعث التى دعت إلى إنشاء هذه الجمعية إذن أن تكون حاضرة فى الاجتماع العالمى، متسلحة لذلك الاجتماع بجميع ما تملك من أسلحة هى ثقافة من أرحام القارة الأفريقية. والواقع أن هذه الجمعية سرعان ما بدت عاجزة عن القيام بهذه المهمات المختلفة، فإذا هى تكتفى بتظاهرات تفاخر، ولا تزيد على أن تبين للأوروبيين المتبجحين النرجسيين أن هناك ثقافة أفريقية، فكذلك كان السلوك المألوف لأعضاء هذه الجمعية. لقد سبق أن أوضحنا أن هذا الموقف طبيعى، وأنه يستمد مشروعيته من الأكاذيب التى أشاعها رجال الثقافة الغربيون. ولكن انهيار أهداف هذه الجمعية قد تفاقم بنشوة فكرة الانتماء إلى العرق الزنجى. إن «الجمعية الأفريقية للثقافة» قد أصبحت جمعية ثقافية للعالم الأسود كله، وأصبحت تشمل جميع الزنوج، وضمت إليها عشرات الألوف من السود المتوزعين فى القارتين الأمريكيتين.

والواقع أن الزنوج الموجودين فى الولايات المتحدة وفى أمريكا الوسطى وأمريكا اللاتينية كانوا فى حاجة إلى أن يتشبثوا بإطار ثقافى. وكانت المشكلة المطروحة عليهم لا تختلف اختلافًا عميقًا عن المشكلة التى يواجهها الأفريقيون. فإن سلوك بيض أمريكا إزاءهم لا يختلف عن سلوك البيض المسيطرين على أفريقيا إزاء الأفريقيين. وقد سبق أن رأينا أن البيض قد اعتادوا أن ينظروا إلى جميع الزنوج نظرة واحدة، أن يضعوهم جميعًا

= وطنهم العربى كله، وأن هذا التراث الثقافى ظل حيًا طوال تاريخ العرب، لم ينقطعوا عنه ولا انقطع عنهم، وإن انقطعوا عن إغنائه خلال فترات مظلمة من تاريخهم، فليست عودتهم إليه كعودة شعوب أفريقيا إلى التغنى بحضارات قديمة ردًا على محاولات الاستعمار. (المترجم).

فى كيس واحد. فلما عُقد المؤتمر الأول «للجمعية الأفريقية للثقافة» بباريز عام ١٩٥٦، رأينا الزنوج الأمريكيين يطرحون مشكلاتهم من تلقاء أنفسهم على نفس الصعيد الذى كان إخوتهم الأفريقيون يطرحون مشكلاتهم عليه.

ولكن الزنوج الأمريكيين ما لبثوا أن أخذوا يدركون شيئًا بعد شىء أن المشكلات الوجودية التى يعانونها لا تلتقى مع مشكلات الزنوج الأفريقيين. لقد كان زنوج شيكاغو لا يشبهون النيجريين والطانغانيقيين إلا من حيث أن هؤلاء وأولئك جميعًا كانوا يعرفون أنفسهم على أساس التعارض بينهم وبين البيض. حتى إذا انتهت المواجهات الأولى، وهدأت الذاتية، أدرك الزنوج الأمريكيون أن المشكلات الموضوعية مختلفة اختلافًا عميقًا، وليس بينها شىء من التجانس. إن سيارات الحرية التى يطوفون عليها بيض وسود منادين بعدم التفريق العنصرى لا تمت فى مبدئها وفى أهدافها بصلة إلى الكفاح البطولى الذى يخوض غماره شعب أنجولا ضد الاستعمار البرتغالى، لذلك رأينا الزنوج الأمريكيين يقررون فى المؤتمر الثانى «للجمعية الأفريقية للثقافة» أن ينشئوا «جمعية أمريكية» لرجال الثقافة السود.

وهكذا فإن فكرة الانتماء إلى العرق الزنجى تصطدم أولاً بالوقائع التى تفسر تاريخية الناس. لقد تفتتت فكرة الثقافة الزنجية، فكرة الثقافة الزنجية الأفريقية، لأن الناس الذين أرادوا أن يجسدوها أدركوا أن كل ثقافة إنما هى ثقافة قومية قبل كل شىء، وأن المشكلات التى أيقظت ريتشارد رايت أو لا نجستون هوجز تختلف اختلافًا أساسيًا عن المشكلات التى أيقظت ليوبولد سنغور أو جومو كنياتا.

كذلك نرى أن المشكلة الثقافية، على نحو ما هى مطروحة فى البلدان المستعمرة، يمكن أن تؤدى إلى التباسات خطيرة. إن اتهام الاستعمار للزنوج بأنهم لا ثقافة لهم قد أدى إلى إسباغ طابع عرقى على هذه الظاهرات الثقافية. إن سعى المثقف فى أفريقيا هو إلى ثقافة زنجية أفريقية لا إلى ثقافة قومية خاصة. وبذلك تنقطع الثقافة عن الواقع الراهن، وتروح تعتصم ببؤرة عاطفية متأججة، وتعجز عن أن تشق لنفسها طرقًا محسوسة هى الطرق الوحيدة التى يمكنها مع ذلك أن تهيىء لها صفات الخصوبة والتجانس والقوة.

وإن كان التاريخ يحد عمل المثقف المستعمَر، فإن عمل هذا المثقف المستعمَر يساهم

مساهمة كبيرة في دعم عمل السياسيين وإظهار مشروعيته. ويجب أن نعترف بأن جهود المثقف المستعمَر قد تأخذ في بعض الأحيان طابع عبادة، طابع دين. ولكننا إذا أردنا أن نحلل هذا الموقف تحليلاً عميقًا، أدركنا أنه يعبر عن إدراك المستعمر لخطر انقطاع آخر روابطه بشعبه. فهذه المناداة الحماسية بوجود ثقافة قومية إنما هي في واقع الأمر عودة حارة مستميتة إلى أي شيء. فالمستعمَر، من أجل أن يكفل خلاصه، من أجل أن يفلت من غلبة ثقافة البيض، يشعر أن عليه أن يرجع إلى الجذر المجهولة، وأن يغرق في خضم هذا الشعب الهمجي مهما يكن من أمر. إن المستعمَر، إذ يحس أنه بسبيل الضياع، بسبيل أن يصبح محل تناقضات قد لا يمكن تجاوزها، ينتزع نفسه من الغدير الذي يوشك أن يغوص فيه، ويقرر بكل اندفاع جسمه واندفاع عقله أن يحمل القضية، وأن يؤكد؛ ويكتشف أن عليه أن يكون مسئولاً عن كل الأمور وعن جميع الناس. ولا يكتفي بعدئذ أن يكون مدافعًا، وإنما يقبل أن يُحشر مع سائر الآخرين، وفي وسعه منذ ذاك أن يسمح لنفسه بالضحك على جُبنه السابق.

وهذا الانتزاع الشائك المؤلم هو مع ذلك أمر ضروري. وما لم يتم فإننا نشهد انبتارات نفسية عاطفية هي على جانب كبير من الخطورة، نشهد أناسًا بلا شاطيء ولا حد ولا لون ولا وطن ولا جذور. كذلك لا نستغرب أن نسمع بعض المستعمَرين يقولون: «إنني أتكلم بصفتي سنغاليا وفرنسيًا... إنني أتكلم بصفتي جزائريًا وفرنسيًا...» لقد كان على المثقف العربي الفرنسي، أو النيجري، حين اضطر إلى حمل جنسيتين، إلى حمل صفتين، أن يختار إنكار إحدى هاتين الصفتين، إذا هو أراد أن يكون صادقًا. ولكن هؤلاء المثقفين، لأنهم في كثير جدًا من الأحيان لا يريدون أو لا يستطيعون أن يختاروا، يلمون جميع الصفات التي فرضها عليهم التاريخ الذي كوّنهم، فإذا هم يضعون أنفسهم رأسًا في «أفق عالمي».

ذلك أن المثقف المستعمَر قد ارتمى على الثقافة الغربية في نهم شديد. وكالطفل المتبنى الذي لا يكف عن تحري الإطار العائلي الجديد إلا حين يتبلور في نفسه حد أدنى من الشعور بالأمن، ترى المثقف المستعمَر يحاول أن يجعل الثقافة الغربية ثقافته. إنه لا يكتفي

بأن يعرف رابليه أو ديدرو، وشكسبير أو إدجار بو، بل هو يشد دماغه إلى أقصى حد من التشارك مع هؤلاء الناس:

ما كانت السيدة وحيدة

بل كان لها زوج

زوج ممتاز

«ما كانت السيدة وحيدة

بل كان لها زوج

زوج ممتاز

يروى راسين وكورناى

وفولتير وروسو

والأب هوجو والفتى موسيه

وجيد وفاليرى

وكثيراً غيرهم»(١)

ولكن حين تعبىء الأحزاب الوطنية الشعب فى سبيل الاستقلال الوطنى، فإن المثقف المستعمَر قد يركل برجليه فى بعض الأحيان هذه المكتسبات التى يحس فجأة أنها تضيعه. ومع ذلك فإن المناداة بالنبذ أسهل من النبذ حقًا. فهذا المثقف الذى تغلغل بتحايل الثقافة إلى المدينة الغربية، ووصل إلى أن يدمج جسمه فى جسمها، أى إلى أن يفقد جسمه، لا يلبث أن يلاحظ أن الثقافة التى يريد الآن أن يحملها لحرصه على الأصالة، لا تملك وجوهًا كثيرة تصمد للمقارنة بينها وبين الوجوه الكثيرة المتألقة، وجوه مدنية المستعمِر المحتل.

صحيح أن التاريخ -وقد كتبه من جهة أخرى غربيون لغربيين- يمكن أن يهب قيمة لبعض عهود الماضى الأفريقى من حين إلى حين. ولكن هذا المثقف، حين يقف أمام حاضر بلاده، ويلاحظ ملاحظة واضحة «موضوعية»، الواقع الراهن الذى تعيشه هذه القارة التى

(١) رونيه دوبستر، «وجهًا لوجه أمام الليل».

يريد أن يجعلها قارته، يشعر برعب مما يرى من فراغ وهمجية وتوحش. وإذ يشعر أنه لابد له من مبارحة ثقافة البيض، وأن عليه أن يبحث عن غيرها فى أى مكان، وإذ يعجز عن العثور على غذاء ثقافى من مستوى الثقافة التى يعرض عليه المستعمر منظرها المجيد الرائع، تراه فى كثير جدًا من الأحيان يرتد إلى مواقع حماسية متعصبة، وتنمو فى نفسه حساسية مفرطة شديدة التأذى سريعة الانجراح منطوية على نفسها. وهذا الانطواء الذى يتصف فى آليته الداخلية وفى ملامحه الظاهرة بأنه انكفاء، يولد حنقًا وتوترًا عضليًا.

وهذا هو السبب فيما يتصف به أسلوب الكتاب المستعمَرين الذين قرروا أن يعبروا عن هذه المرحلة من الوعى الآخذ بالانطلاق، من أنه أسلوب متصادم، ملىء بالصور (إن الصورة هى الجسر الذى يتيح للطاقات اللاشعورية أن تتناثر فى المراعى المجاورة)، عصبى، فياض بالإيقاع، تسكنه هنا وهناك حياة انفجارية، غنى بالألوان، برونزى، ملوح بأشعة الشمس، عنيف هادر. إن هذا الأسلوب الذى أدهش الغربيين فى حينه لا يرجع، كما أرادوا أن يقولوا، إلى طبع عرقى، وإنما هو قبل كل شىء تعبير عن قتال. إنه يكشف عن الضرورة التى وجد المستعمَر نفسه فيها، وهى أن يؤذى نفسه، أن يفصد جسمه لينزف منه دم أحمر، أن يتحرر من جزء من كيانه الذى أصبح يضم بذور تعفن. قتال أليم مرير، سريع، لابد فيه حتمًا من أن تحل العضلات محل التصور.

ولئن بلغ هذا الجهد على مستوى الشعر ذرى لا عهد بمثلها من قبل، فإن المثقف كثيرًا ما يسير على صعيد الوجود فى طريق مسدودة غير نافذة. إنه وقد وصل إلى قمة الاندماج فى شعبه مهما يكن هذا الشعب، لا يحمل من مغامراته حين يقرر أن يرتد إلى طريق الحياة اليومية إلا أمورًا عقيمة لا تؤتى ثمرة من الثمرات. إنه يأخذ يفضل العادات والتقاليد والمظاهر، ويتغنى بها، ولا يزيد جهده عندئذ على التذكير بنوع رخيص من سعى الأجانب إلى غرائب البلاد الأخرى. هذه هى الفترة التى يأخذ فيها المثقفون بالتغنى بأيسر مشهد من مشاهد الحياة فى البلاد، يقدسون البوبو، ويخلعون الأحذية الباريسية أو الإيطالية لينتعلوا البابوج، حتى أنهم ليأخذون يكرهون لغة المستعمر ويشمئزون منها. إن الرغبة فى العودة إلى أحضان الشعب تكون فى بعض الأحيان أثناءَ هذه الفترة رغبة فى أن نكون زنوجًا، لا زنوجًا يشبهون غيرهم من الناس، بل زنوجًا زنوجًا، زنوجًا كلابًا كما يريد لنا البيض أن نكون.

ويقرر المثقف المستعمَر أن يحصى العادات السيئة التى استمدها من العالم الاستعمارى، ويمضى يتذكر عادات الشعب الطيبة وأخلاقه الحميدة، الشعب الذى قرر المثقف أن ينسب إليه أنه مستودع كل حقيقة.

والدهشة التى يولدها هذا المسعى فى صفوف الاستعماريين المقيمين بالبلاد المستعمرة يزيد المستعمَر ثباتًا على خطته. حتى إذا شعر الاستعماريون الذين تذوقوا لذة ظفرهم بتمثل هؤلاء الناس وامتصاصهم، أن هؤلاء الرجال الذين ظنوا أنهم أنقذوهم، قد عادوا إلى صفوف الزنوج، أحسوا أن عهدهم كله يهتز ويترنح. فكل مستعمَر كسبوه، كل مستعمَر انتزعوه، إنما يدلهم حين يقرر أن ينسحب، على أن المشروع الاستعمارى مخفق، كما يرمز لهم إلى أن العمل الذى قاموا به كان عبثًا لا جدوى منه، وكان سطحيًا لا عمق فيه. إن انسحاب كل مستعمَر إنما هو إدانة جذرية للمنهج المتبع وللنظام القائم. ويجد المستعمَر فى هذه الدهشة التى أثارها فى صفوف الاستعماريين مسوغًا لانسحابه ومشجعًا على الاستمرار فيما شرع فيه.

وإذا نحن أردنا أن نعرف من خلال آثار الكتاب المستعمَرين المراحل المختلفة التى يقطعها هذا التطور، رأينا أمام أعيننا مشهدًا ذا ثلاثة أزمان. ففى مرحلة أولى يبرهن المثقف المستعمَر على أنه قد هضم ثقافة المستعمر المحتل، فآثاره توازى آثار أمثاله الغربيين خطوة خطوة، وإلهامه أوروبى، حتى ليمكن بسهولة أن تُربط هذه الآثار بتيار معين من تيارات الأدب الغربى. هذه هى مرحلة التمثل الكامل، وأثناء هذه المرحلة نجد بين الأدباء المستعمَرين برناسيين، ورمزيين، وسرياليين.

وفى مرحلة ثانية يهتز المستعمَر ويقرر أن يتذكر نفسه. وهذه المرحلة من الخلق تقابل على وجه التقرب خطوة الفوضى التى وصفناها منذ قليل. ولكن لما كان المثقف المستعمَر غير متغلغل فى شعبه، لما كانت علاقاته بشعبه علاقات خارجية، فإنه فى هذه المرحلة لا يزيد على أن يتذكر. إنه الآن ينتشل من أعماق ذاكرته مشاهد قديمة من طفولته، ويعود إلى أساطير عتيقة فيحاول إعادة تأويلها على ضوء استطيقا مستعارة، على ضوء استطيقا مستعارة، على ضوء فلسفة فى العالم وضعت تحت سماء غير هذه السماء. وهذا الأدب السابق على المعركة يكون فى بعض الأحيان أدب سخرية ورمز. هذه مرحلة قلق، مرحلة

انزعاج، مرحلة يعانى فيها الأديب تجربة الموت، وتجربة الغثيان أيضًا. إنه يتقيأ، ولكن الضحك ينطلق ها هنا خفية من تحت.

وفى مرحلة ثالثة، مرحلة أخيرة تسمى مرحلة المعركة، نرى المثقف المستعمَر بعد أن حاول أن يغرق فى الشعب، يعمد إلى عكس ذلك، فهو الآن يهز الشعب. إنه الآن بدلاً من أن يغفو غفوة الشعب، يستحيل إلى موقظ الشعب. إنه الآن ينتج أدب معركة، ينتج أدبًا ثوريًا، أدبًا قوميًا. وفى أثناء هذه المرحلة نجد عددًا كبيرًا من الرجال والنساء الذين لم يخطر ببالهم يومًا أن ينشئوا أثرًا أدبيًا، يحسون فجأة حين يوضعون فى ظروف استثنائية، حين يوضعون فى السجن مثلاً أو حين تقرر السلطات تنفيذ حكم الإعدام فيهم، يحسون أن عليهم أن يعبروا عن أمتهم، أن يكتبوا الجملة التى تفصح عن شعبهم، أن يكونوا الناطقين بلسان واقع جديد يتحقق.

وفى أثناء ذلك يدرك المثقف عاجلاً أو آجلاً أن المرء لا يبرهن على وجود أمته بثقافة، بل بخوض المعركة التى يخوضها الشعب ضد قوى الاحتلال. ما من استعمار يبرهن على مشروعيته بكون البلاد التى يحتلها ليس فيها ثقافة. إنك لن تُخجل الاستعمار حين تنشر أمام بصره الكنوز الثقافية المجهولة. إن المستعمَر المثقف حين يهمه أن يضع أثرًا أدبيًا ينسى أن التكنيك الذى يستعمله واللغة التى يكتب بها إنما هما مستعاران من المستعمر المحتل؛ ويكتفى بأن يكسو هذه الأدوات بثوب يريد له أن يكون قوميًا، ولكنه كالأدب الغربى الذى يتكلم عن البلاد الأخرى. إن المثقف المستعمَر الذى يعود إلى شعبه بواسطة مؤلفات أدبية إنما يتصرف فى الواقع تصرف أجنبى. وهو فى بعض الأحيان لا يتردد عن الكتابة بلهجات محلية إظهارًا لرغبته فى أن يكون قريبًا من الشعب إلى أقصى حد ممكن، ولكن الأفكار التى يعبر عنها والمشاغل التى تسكنه لا صلة بينها وبين الظرف المحسوس الذى يعيش فيه الرجال والنساء فى بلاده. إن الثقافة التى يعكف عليها المثقف المستعمَر ليس فى أكثر الأحيان إلا مجموعة من التفردات. لقد أراد أن يلتصق بالشعب، فإذا هو يلتصق بمظهره المنظور. وليس هذا المظهر فى الواقع إلا انعكاس حياة داخلية خفية كثيفة ما تنفك فى حركة وتجدد. إن المظهر الموضوعى الذى يخطف البصر ويبدو مميزًا للشعب ليس فى حقيقة الأمر إلا ثمرة جامدة مُنكرة منذ الآن، لتكيفات معينة، غير منسجمة دائمًا، حققها جوهر

أساسى هو الآن فى حركة تجديدية قومية . فالمثقف بدلاً من أن يمضى باحثًا عن ذلك الجوهر تراه يُفتن بهذه المزق المحنطة التى كان ينبغى أن يدفعه تجمدها إلى الإنكار والتجاوز والابتكار . ينبغى أن تشف الثقافة عن الأعمال ، وأن تبتعد عن النظرة التبسيطية . إن الثقافة هى فى جوهرها نقيض العادات الجامدة التى ليست إلا حطام الثقافة . فإذا أردت أن تلتصق بالتقاليد أو أن تحيى التقاليد البالية كنت تعاكس تيار التاريخ بل كنت تعاكس شعبك . حين يخوض شعب من الشعوب كفاحًا مسلحًا ، أو حتى كفاحًا سياسيًا ضد استعمار غاشم ، فإن التقاليد تتبدل دلالتها . وما كان أسلوبًا للمقاومة يمكن الآن أن يُدان إدانة جذرية . إن التقاليد فى بلد متخلف مكافح ، ليست ثابتة بل متحركة ما تنفك تشقها تيارات متجهة إلى المنبع . لذلك فإن المثقف كثيراً ما يوشك أن يقف فى وجه الزمن . إن الشعوب التى خاضت غمار الكفاح تنفر من الديماغوجية شيئًا بعد شىء ، ويصبح من المستحيل أن تؤثر فيها الديماغوجية . فإذا أسرفت فى ممالأتها فسرعان ما تكتشف فيك انتهازيًا بل وعائقًا يعرقل تقدمها .

لننظر إلى الفنون التشكيلية مثلاً . إن الفنان المستعمَر الذى يريد أن يصنع أثرًا قوميًا مهما كلف الأمر يفرض على نفسه أن ينقل التفاصيل نقلاً جامدًا . إن أولئك الفنانين الذين تعمقوا التكنيك الحديث وشاركوا فى كبرى تيارات التصوير الحديث أو العمارة الحديثة ، يديرون الآن ظهورهم للثقافة الأجنبية وينكرونها ، ويفضلون ، فى بحثهم عن الطابع القومى الحقيقى ، ما يحسبون أنه المقومات الثابتة فى الفن القومى . ولكن هؤلاء الخالقين ينسون أن أشكال التفكير ، وأنواع الغذاء ، والأساليب الحديثة فى الإعلام واللغة والملبس قد طورت دماغ الشعب ، وأن المقومات الثابتة التى كانت سياجًا حارسًا فى عهد الاستعمار تعانى الآن طفرات جذرية هائلة .

إن ذلك الفنان الذى يقرر أن يصف الحقيقة القومية ، يتجه صوب الماضى ، صوب ما ليس له وجود راهن . والحق أن ما يصوره عندئذ إنما هو فضلات الفكر ، إنما هو الظاهر الخارجى ، إنما هو الجثث الميتة ، إنما هو المعرفة المحنطة . يجب على المثقف المستعمَر الذى يريد أن يصنع أثرًا أصيلاً صادقًا أن يدرك أن الحقيقة القومية إنما هى الواقع أولاً وقبل كل شىء . إن عليه أن يغوص إلى المنبع الفوار الذى تتهيأ فيه صورة المعرفة الجديدة .

لقد كان المصور المستعمَر لا يحس قبل الاستقلال مشهد الحياة القومية، فكان يؤثر الفن الذى لا يمثل شيئًا، أو كان فى أكثر الأحيان ينصرف إلى تصوير الطبيعة الصامتة. حتى إذا جاء عهد الاستقلال، رأينا حرصه على الالتحاق بالشعب أصبح يحمله على أن ينقل الواقع القومى نقلاً دقيقًا، نقلاً لا إيقاع فيه، نقلاً هادئًا، ساكنًا، جامدًا، لا يذكر بالحياة بل بالموت. ولئن أخذت الأوساط المثقفة تسكر أمام الحقيقة التى صورها الفنان تصويرًا أمينًا، فإن من حقنا أن نتساءل هل هذه الحقيقة واقعية، أم أن الملحمة التى من خلالها يشق الشعب لنفسه طريقًا نحو التاريخ قد تجاوزت تلك الحقيقة، ونفتها، وأعادت النظر فيها.

ونستطيع أن نقول هذه الملاحظات نفسها بصدد الشعر. فبعد المرحلة التى تمثل فيها الشعراء الوطنيون الشعر الغربى الذى يلتزم القافية، ظهر الإيقاع الشعرى الذى يستلهم الموسيقى الشعبية (تم تم). ولكن يجب أن يفهم الشاعر أن لا شىء يمكن أن ينوب عن الانضمام إلى صفوف الشعب انضمامًا عقليًا لا ينكص. ولذا تشهد مرة أخرى بالشاعر دوبستر.

«لم تكن السيدة وحيدة

كان لها زوج

زوج يعرف كل شىء.

ولكنه، إن شئت الصراحة، لا يعرف شيئًا البتة.

لأن الثقافة لا تكون بغير تنازل.

تنازل المرء عن لحمه ودمه.

تنازله عن نفسه للآخرين.

تنازل هو خير من الكلاسيكية والرومانسية جميعًا.

ومن كل ما يسقى فكرنا»[1].

إن الشاعر المستعمَر الذى يعنيه أن يصنع أثرًا قوميًا، ويصر على أن يصف شعبه،

(١) رونيه دوبستر، «وجهًا لوجه أمام الليل».

يخطيء هدفه، لأنه لم يجعل نفسه قبل القول قادرًا على أن يحقق ذلك التنازل الأساسى الذى يحدثنا عنه دوبستر. لقد فهم الشاعر الفرنسى رونيه شار هذا الأمر حق الفهم حين قال: «إن القصيدة تنبع من فرض ذاتى واختيار موضوعى. القصيدة متحركة من قيم أصلية محددة هى على صلات معاصرة بشخص يجعله هذا الظرف أول»(١).

نعم إن أول واجب يقع على عاتق الشاعر المستعمَر هو أن يحدد، بوضوح، الشعب الذى هو موضوع إبداعه. وليس فى وسعه أن يتقدم فى عزم إلا إذا وعى أولاً ضياعه. لقد أخذنا كل شيء عن الجهة الأخرى. ومن المحقق أن هذه الجهة الأخرى لا تعطينا شيئًا إلا إذا استطاعت بألف حيلة أن تعطفنا إلى اتجاهها، إلا إذا استطاعت بألف مخاتلة، بمائة ألف مراوغة، أن تجذبنا، أن تفتتنا، أن تسجننا. متى أخذنا فقد أصبحنا مأخوذين، على مستويات كثيرة. فليس يكفى إذن أن نفك أنفسنا بالمطالبة تلو المطالبة والإنكار بعد الإنكار. ليس يكفى أن نلحق بركب الشعب فى ذلك الماضى الذى لم يبق له وجود بل ينبغى أن نلحق بركب الشعب فى هذه الحركة المقاتلة التى شرع يقوم بها، والتى ستفضى فجأة إلى إعادة النظر فى كل شيء. إلى ذلك الموضع من التحرك المختبيء، إلى ذلك الموضع الذى يقوم فيه الشعب، إنما يجب أن ننتقل، فهنالك ولا شك إنما تتكون روح الشعب، ويضيء إدراكه ويتوهج إلهامه.

إن كيتا فوديبا، وهو الآن وزير داخلية غينيا، لم يخاتل واقع شعب غينيا، حين كان مدير «الباليه الأفريقى». لقد أبرز جميع الصور الإيقاعية لشعبه وأوضحها وأوّلها على أساس ثورى. ولكنه فعل أكثر من ذلك أيضًا. إننا نجد فى مؤلفاته الشعرية، غير المعروفة كثيرًا، حرصًا دائمًا على إبراز اللحظة التاريخية التى يجتازها الكفاح القومى، وعلى تحديد الميدان الذى يتحقق فيه العمل، والأفكار التى تتبلور حولها الإرادة الشعبية. استمعوا معى إلى هذه القصيدة التى نظمها كيتا فوديبا، والتى هى إهابة صادقة إلى التفكير، إلى التخلص من التضليل، إلى خوض المعركة:

●●●

(١) رونيه شار، «قسمة شكلية».

فجر أفريقى

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر. القرية الصغيرة التى رقصت طوال نصف الليل على أصوات الطبل، أخذت تستيقظ شيئًا فشيئًا. الرعاة الذين يرتدون أسمالاً بالية وينفخون فى الناى، يسوقون قطعانهم فى الوادى. الصبايا اللواتى يتسلحن بطيور الكنارى يدلف بعضهن وراء بعض فى الممر المتعرج الذى يفضى إلى النبع. وفى فناء بيت الشيخ ترتل طائفة من الصبية آيات من القرآن.

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر. النهار يصارع الليل. ولكن الليل قد نضبت قواه، فهو ينسحب على هون. أشعة قليلة من الشمس تظهر فى الأفق طلائع لهذا النصر الذى يفوز به النهار، طلائع بطيئة وَجْلَى شاحبة، والنجوم الأخيرة تنسحب فى رفق وراء الغيوم أشبه بشعل ملتهبة من أزهار.

(موسيقى قيثارة)

كان ذلك عند طلوع الفجر. هناك فى آخر السهل الواسع الذى يحف به الأرجوان، كان رجل منحنيًا على الأرض يعزقها: إنه نعمان، الفلاح فكلما هوى بفأسه على التراب طارت العصافير مذعورة، ومضت تحط بخفق الجناح على الضفاف الهادئة من نهر نيجر العظيم. سروال نعمان، المنسوج من قطن، المخضل بالندى، يصفع العشب على الجانبين. ونعمان يتصبب عرقه، ولكنه لا يتعب، لا يعرف التعب سبيلاً إليه، وما ينفك يقوم وينحنى، هاويًا بفأسه على الأرض فى حذق ومهارة. ذلك أن عليه أن يدفن بذوره فى التراب قبل أن تمطر السماء من جديد.

(موسيقى برق)

كان ذلك عند طلوع الفجر. الطيور تتواثب بين أوراق الشجر مؤذنة بالنهار. وعلى السهل المبتل كان يركض طفل صغير، معلقًا جعبة سهامه على كتفيه، متجهًا إلى نعمان، لاهثًا، ينادى: «أيها الأخ نعمان، رئيس الضيعة يطلب أن يجتمع بك تحت الشجرة».

(موسيقى بوق)

دهش الفلاح من استدعائه فى الصباح المبكر، ووضع فأسه على الأرض ثم مضى إلى القرية التى أصبحت تتلألأ الآن بأشعة الشمس الطالعة. كان «المحاربون القدماء» قد بدأوا اجتماعهم وظهرت فى وجوههم أمارات الجد والوقار. وإلى جانبهم رجل يرتدى ملابس عسكرية قد جلس هادئًا يدخن غليونه.

(موسيقى بوق)

جلس نعمان على جلد خروف. ونهض رئيس القرية ليبلغ المجلس إرادة المحاربين القدماء: «لقد أرسل البيض رسولاً يطلب بلسانهم أن يمضى رجل من رجال القرية إلى الحرب فى بلادهم. وتشاور وجوه القرية فى الأمر فاستقر رأيهم على أن يختاروا لهذه المهمة فتى هو بين فتيان بلادنا أشجعهم، حتى يبرهن فى معركة البيض على ما امتاز به رجالنا دائمًا من بسالة وإقدام».

(موسيقى قيثارة)

إن نعمان الذى تشيد الفتيات كل ليلة بقوامه المهيب وعضلاته القوية هو الفتى الذى وقع عليه الاختيار. اضطربت زوجته الحلوة، قاضية، أشد الاضطراب، فانقطعت عن الدق، ووضعت جرنها تحت النير، ولزمت حجرتها تبكى شقاءها نشيجًا مخنوقًا. لقد خطف الموت زوجها الأول، وهى لا تستطيع أن تتصور أن يخطف البيض زوجها الثانى الذى تستريح عليه جميع آمالها الجديدة.

(موسيقى قيثارة)

فى الغداة، رغم دموعها وآهاتها، قُرعت طبول الحرب تشيع نعمان إلى مرفأ القرية الصغيرة، حيث استقل قاربًا إلى مركز المنطقة. فلما جاء الليل لم ترقص الصبايا فى ساحة القرية على عادتهن، بل جئن إلى كوخ نعمان يتجاذبن أطراف القصص حتى الصباح حول نار الحطب.

(موسيقى قيثارة)

انقضت عدة شهور ولا نبأ من نعمان. بلغ القلق بقاضية الصغيرة أنها لجأت إلى ساحر

القرية المجاورة تستفتيه. وتحدث الشيوخ أنفسهم فى الأمر حديثًا قصيرًا لم يتسرب منه إلى أحد شيء.

(موسيقى بوق)

ووصلت أخيرًا إلى القرية رسالة من نعمان بعثها إلى قاضية. فما كان من قاضية التى كان مصير زوجها يؤرقها، إلا أن ذهبت فى تلك الليلة نفسها إلى مركز المنطقة، بعد ساعات شاقة من السير على الأقدام، ومضت إلى مترجم ليقرأ لها الرسالة.

كان نعمان فى أفريقيا الشمالية. إن صحته جيدة وهو يسأل أن يوافوه بأنباء الحصاد، والاحتفالات، والرقصات، والشجرة التى تنعقد فى ظلها الاجتماعات، والقرية...

(نقرات دف)

فى تلك الليلة أهدت النساء إلى قاضية حق حضور أحاديثهن المألوفة عند المساء فى بيت كبراهن. وسر رئيس القرية بالنبأ، فأولم وليمة لجميع شحاذى القرى المجاورة.

(نقرات دف)

انقضت عدة أشهر أخرى، وعاد الناس جميعًا يقلقون على مصير نعمان، لأنهم لا يعرفون عنه شيئًا. وكانت قاضية قد عقدت نيتها على الذهاب إلى الساحر مرة أخرى تستفتيه، حين وصلت إليها رسالة ثانية. إن نعمان، بعد أن ذهب إلى كورسيكا ثم إلى إيطاليا، أصبح الآن فى ألمانيا. وهو يهنىء نفسه بحصوله منذ الآن على أوسمة.

(نقرات دف)

ومرة أخرى وصلت بطاقة تقول إن نعمان قد أسره الألمان. ثقل النبأ على صدر القرية. وعقد «القدماء» مجلسهم، فقرروا أن يكون لنعمان، بعد الآن، حق الاشتراك فى رقصة الدوجا، رقصة الدوجا، رقصة العقاب المقدمة التى لا يجوز لأحد أن يرقصها ما لم يقم بعمل باهر، رقصة الأباطرة الماليين التى تلخص كل خطوة من خطواتها مرحلة من مراحل تاريخ مالى. كان ذلك عزاء للصغيرة قاضية... لقد واساها أن يرتفع زوجها إلى منزلة الأبطال من رجال البلاد.

(موسيقى قيثارة)

الزمان ينقضى . . . سنتان تمضيان . . . ونعمان ما يزال فى ألمانيا . إنه لا يكتب .

(موسيقى قيثارة)

فى ذات صباح تلقى رئيس القرية من داكار بضع كلمات تقول إن نعمان واصل إلى القرية قريبًا . فما أن ذاع النبأ فى القرية حتى قرعت الطبول ، وأخذ الناس يرقصون ويغنون حتى مطلع الفجر . وألفت الصبايا ألحانًا جديدة لاستقبال العائد ، لأن الألحان القديمة لم تتحدث عن رقصة الدوجا ، عن رقصة العقاب الشهيرة .

(قرع طبول)

ولكن بعد شهر أرسل العريف موسى وهو صديق عزيز من أصدقاء نعمان هذه الرسالة الفاجعة إلى قاضية : «كان ذلك عند طلوع الفجر . كنا فى «تياروى على البحر» ، ففى أثناء مشاجرة كبيرة قامت بيننا وبين رؤسائنا البيض اخترقت رصاصة قلب نعمان . إنه الآن راقد فى أرض سنغالية» .

(موسيقى قيثارة)

حقًا لقد كان ذلك عند طلوع الفجر . كانت أولى أشعة الشمس التى لا تكاد تلامس سطح البحر تذهب أمواجه الصغيرة المتجعدة . وكانت أشجار النخيل التى تهب عليها أنسام خفيفة تحنى جذوعها نحو البحر فى رفق وحنان ، كأنما هدتها هذه المعركة الصباحية . والغربان تتوافد على القرية أسرابًا صاخبة تحمل بنعيقها نبأ المأساة التى أدمت فجر تياروى . وفى الأفق المحترق ، فوق جثمان نعمان تمامًا ، كان ثمة عقاب ضخم يحلق فى ثقل ، كأنه يقول له : «يا نعمان إنك لم ترقص هذه الرقصة التى تحمل اسمى . لسوف يرقصها آخرون» .

(موسيقى بوق)

لئن اخترت هذه القصيدة الطويلة فذلك لما لها من قيمة تربوية لا سبيل إلى جحودها . الأمور هنا واضحة . الشاعر يعرض الأمور عرضًا دقيقًا متدرجًا . إن فهم هذه القصيدة ليس مسيرًا عقليًا فحسب ، بل هو مسير سياسى أيضًا . من فهم هذه القصيدة فقد فهم

الدور الذى يجب عليه أن يقوم به، وأدرك المهمة التى يجب عليه أن ينهض بها، وأخذ يشحذ سلاحه. إن نعمان الذى كان بطل ساحات معركة أوروبا، نعمان الذى كفل القوة والاستمرار للعاصمة التى تستعمر بلاده، نعمان الذى اخترقت قلبه رصاصة من رصاصات قوى الشرطة فى اللحظة التى يرجع فيها إلى أرض آبائه وأجداده، إن نعمان هذا هو صطيف ١٩٤٥، هو فور دى فرانس، هو سايجون، هو داكا، هو لاجوس. إن جميع أولئك الزنوج الذين قاتلوا دفاعًا عن حرية فرنسا أو عن حضارة بريطانيا موجودون فى هذه القصيدة التى نظمها كيتا فوديبا.

ولكن كيتا فوديبا ينظر إلى أبعد من ذلك أيضًا. فالاستعمار بعد أن يستعمل أهل البلاد المستعمرة فى ساحات القتال، يستعملهم كمحاربين قدماء فى تحطيم حركات الاستقلال. إن جمعيات المحاربين القدماء هى فى المستعمرات إحدى القوى التى يستعملها الاستعمار فى محاربة الحركة القومية. وقد أعد الشاعر كيتا فوديبا وزارة الداخلية فى جمهورية غينيا لإحباط المؤامرات التى يحوكها الاستعمار الفرنسى. فبواسطة المحاربين القدماء وغيرهم إنما كانت تنوى الدوائر الفرنسية السرية تحطيم الاستقلال الغينى الناشىء.

إن الإنسان المستعمَر الذى يكتب لشعبه بوصف الماضى إنما يجب عليه أن يفعل ذلك بغية أن يفتح المستقبل، وأن يهب إلى العمل، وأن يعزز الأمل. ولكنك لا تستطيع أن تقوى الأمل وأن نهب له عمقًا وكثافة ما لم تشارك فى العمل، ما لم تنخرط فى المعركة القومية جسمًا وروحًا. إن فى وسعك أن تتكلم عن أى شىء، ولكن متى قررت أن تتكلم عن فتح الأفق، عن إدخال النور إلى ديارك، عن وقوفك وقوف شعبك، فقد وجب عليك أن تشارك فى المعركة بعضلاتك.

إن مسئولية المثقف المستعمَر ليست مسئولية عن الثقافة القومية، بل مسئولية كلية شاهلة عن الأمة بأسرها التى ليست الثقافة إلا جانبًا من جوانبها. ما ينبغى للمثقف المستعمر أن يهمه اختيار المستوى الذى يخوض فيه المعركة، اختيار القطاع الذى يخوض فيه المعركة. فالكفاح فى سبيل الثقافة القومية إنما هو كفاح فى سبيل الحرية القومية، الرحم الذى يكون نشوء الثقافة فيه ممكنًا. ليس هناك معركة ثقافية تقوم على موازاة المعركة الشعبية. إن أولئك الرجال والنساء الذين يقاتلون الاستعمار الفرنسى فى الجزائر بقبضات أيديهم العزلاء إنما

يقاتلون جميعًا فى سبيل الثقافة الجزائرية. إن الثقافة القومية الجزائرية تنشأ أثناء هذه المعارك، فى السجن، أمام المقصلة، فى المراكز العسكرية الفرنسية التى تطوق وتهدم.

ليس يكفى أن نغوص فى ماضى الشعب نتتشل منه عناصر منسجمة ونجابه بها محاولات التزييف والاحتقار التى يقوم بها الاستعمار. وإنما يجب علينا أن نعمل، أن نناضل مع الشعب، من أجل أن نوضح المستقبل، من أجل أن نعد الأرض التى أخذت تتفتح فيها منذ الآن براعم قوية. ليست الثقافة القومية ذلك الفولكلور الذى حسب من ينظرون إلى الأمور نظرة مجردة أنهم يكتشفون فيه حقيقة الشعب. ليست الثقافة القومية تلك الكتلة المتجمدة من الحركات الصرفة التى أصبح ارتباطها بالواقع الراهن يضعف شيئًا بعد شىء. وإنما الثقافة القومية مجموعة الجهود التى يبذلها شعب من الشعوب على صعيد الفكر من أجل أن يصف وأن يبرر وأن يغنى النضال الذى به يتكّون الشعب ويبقى. يجب على الثقافة القومية فى البلدان المتخلفة أن تضع نفسها فى القلب من كفاح التحرير الذى تخوض هذه البلدان معاركه. ينبغى لرجال الثقافة الأفريقيين الذين ما يزالون يناضلون باسم الثقافة «الزنجية الأفريقية»، والذين عقدوا المؤتمرات تلو المؤتمرات باسم وحدة هذه الثقافة، أن يدركوا الآن أن نشاطهم أصبح لا يزيد على المقارنة بين جثث أو المضاهاة بين توابيت.

ليس هناك مصير مشترك بين الثقافتين القوميتين، السنغالية والغينية، بل هناك وحدة فى المصير بين الأمتين الغينية والسنغالية اللتين يسيطر عليهما استعمار واحد هو الاستعمار الفرنسى. وإذا شئتم أن تكون الثقافة القومية السنغالية مشابهة للثقافة القومية الغينية، فليس يكفى أن يقرر قادة الشعبين أن يطرحوا المشكلات على أسس متقاربة: مشكلة التحرير، المشكلات النقابية، المشكلات الاقتصادية. فحتى فى هذه الحالة لا يمكن أن يكون ثمة تماثل مطلق، لأن إيقاع مسير الشعب وإيقاع مسير القادة ليسا إيقاعًا واحدًا.

لا يمكن أن يكون ثمة ثقافات متماثلة تماثلاً دقيقًا. وإذا تخيلت أنك صانع ثقافة زنجية، فقد نسيت أن تمييز الزنوج عن غيرهم هو فكرة آخذة بالزوال لأن الذين أوجدوها يشهدون الآن انحلال تفوقهم الاقتصادى والثقافى[1]. لن يكونُوا هناك ثقافة زنجية، لأنه ما من

(١) فى آخر حفلة لتوزيع الجوائز بمدينة داكار، قرر رئيس الجمهورية السنغالية، ليوبولد سنغور، أن يضع فى برامج التعليم دراسة فكرة العرق الزنجى. فإذا كان اهتمام رئيس جمهورية السنغال اهتمامًا تاريخيًا، فلا يمكن إلا أن نوافقه على ما أراد. أما إذا كان المقصود خلق وجدان زنجى، فإنه لا يزيد عندئذ على أن يدير ظهره للتاريخ الذى تولى تحرير أكثرية الزنوج من التفريق بينهم وبين غيرهم.

رجل من رجال السياسة يتصور أن رسالته هى أن يخلق جمهوريات زنجنية. إنما المشكلة هى أن نعرف المكانة التى يريد هؤلاء الرجال أن ينزلوها شعوبهم، ونوع العلاقات الاجتماعية التى يقرون أن ينشئوها ومفهومهم عن مستقبل الإنسانية. ذلك هو الأمر المهم. وكل ما عداه كلام مزوق وتضليل.

إن المثقفين الأفريقيين الذين اجتمعوا فى روما ١٩٥٩ لم يكفوا عن الكلام عن الوحدة. ولكن واحدًا من كبار المتغنين بهذه الوحدة الثقافية، أعنى جاك راب مانانجارا، يشغل الآن منصب وزير فى حكومة مدغشقر، وبهذه الصفة التى له الآن قرر مع حكومته أن يقفوا ضد الشعب الجزائرى فى اجتماع الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة. فلو كان راب أمينًا لفكرته وفيًا لنفسه لاستقال من تلك الحكومة، وراح يفضح أولئك الرجال الذين يدّعون أنهم يجسّدون إرادة شعب مدغشقر. إن التسعين ألفًا من شهداء مدغشقر لم يكلفوا راب بأن يحارب مطامح الشعب الجزائرى فى الجمعية العامة لهيئة الأمم المتحدة.

إن الثقافة الزنجية الأفريقية إنما تقوى وتشتد حول كفاح الشعوب لا حول الأغانى أو القصائد أو الفولكلور. وهذا سنغور الذى هو أيضًا عضو فى «الجمعية الأفريقية للثقافة» والذى عمل معنا فى مسألة الثقافة الأفريقية هذه، لم يتورع، هو أيضًا، أن يصدر أوامره إلى وفده بتأييد وجهات النظر الفرنسية فى قضية الجزائر. إن المناداة بثقافة زنجية أفريقية، إن وحدة الثقافة الإفريقية إنما تمر أولاً وقبل كل شىء بدعم كفاح التحرير الذى تخوضه الشعوب دعمًا غير مشروط. وليس يريد ازدهار الثقافة الأفريقية وإشعاعها من لا يساهم مساهمة محسوسة فى توفير الظروف التى يتحقق فيها هذا الازدهار وهذا الإشعاع، أعنى تحرير القارة الإفريقية.

أقول: ما من خطاب ولا نداء حول الثقافة، ينبغى أن يصرفنا عن مهماتنا الأساسية التى هى تحرير أرض الوطن بكفاح نخوضه فى كل لحظة ضد الأشكال الجديدة التى يتخذها الاستعمار، ونصر فيه إصرارًا عنيدًا على أن لا نفتن وأن لا نضلل.

●●●

الأسس المشتركة بين الثقافة الوطنية وكفاح التحرر

إن السيطرة الاستعمارية التي تتصف بأنها شاملة كلية لم تلبث أن هدمت الوجود الثقافي للشعب المستعمَر فإنكار الواقع القومي، وإقامة علاقات حقوقية جديدة، ونبذ السكان الأصليين وعاداتهم، وتجريد الأهالي من أملاكهم، واستعباد الرجال والنساء استعباداً منظمًا، هذه الأمور كلها التي عمد إليها الاستعمار قد أتاحت ذلك الامّحاء الثقافي شيئًا بعد شيء.

لقد أوضحت، منذ ثلاث سنين، أمام مؤتمرنا الأول، أن الظرف الاستعماري سرعان ما أحل محل الحيوية والحركة مواقف تمجيدية. فنرى البلاد المستعمرة تحيط مجالها الثقافي بأسيجة وأوتاد. وهذا نوع بدائي من الدفاع عن النفس يشبه منعكسات غريزة البقاء في كثير من الوجوه. وترجع أهمية هذه المرحلة إلى أن المستعمِر المضطهِد يبلغ في تماديه أنه لا يكتفي بأن يلغي الوجود الموضوعي للأمة وللثقافة المضطهَدين، وإنما يبذل جميع الجهود اللازمة من أجل أن يحمل المستعمَر على الاعتراف بتخلف ثقافته التي استحالت إلى تصرفات غريزية، وعلى الاعتراف بأن أمته لا وجود لها، بل وعلى الاعتراف بأن تكوينه البيولوجي نفسه غير منظم وغير كامل.

ولم يكن ردّ المستعمر على هذا الوضع ردًا وحيد الاتجاه. فبينما رأينا الجماهير تتمسك بالتقاليد التي لا تماشي الظرف الاستعماري، وبينما رأينا أسلوب الحرفة يتقوى حتى ليتمجد على شكل ثابت، رأينا المثقف يرتمي ارتماء محمومًا على تحصيل ثقافة المستعمِر، فإما أن يستخف بثقافته القومية، وإما أن يأخذ يشيد بهذه الثقافة إشادة تفصيلية منهجية فياضة بالحماسة عقيمة.

وتتصف هاتان المحاولتان بصفة مشتركة، هي أنهما كلتاهما تدخلان في تناقضات لا يمكن احتمالها. إن المستعمَر، سواء أهرب من الثقافة القومية أم أخذ يمجدها، يظل عاجزًا عن إحداث أي تأثير، لأنه لم يحلل الوضع الاستعماري تحليلاً صحيحًا دقيقًا. إن الوضع

الاستعماري الذي يكاد يتناول كل شيء، يوقف الثقافة القومية. فليس هناك ولا يمكن أن يكون هناك ثقافة قومية، أو حياة ثقافية قومية، أو ابتكارات ثقافية قومية أو تبدلات ثقافية قومية، ما دامت السيطرة الاستعمارية قائمة. وتنبجس في بعض الأحيان هنا وهناك محاولات جريئة لاستئناف الحيوية الثقافية، وإعادة توجيه الموضوعات والأشكال والأنغام. وأنت إذا بحثت عن أهمية مباشرة محسوسة لهذه الانتفاضات لم تجد شيئًا. ولكنك إذا تابعت نتائجها إلى حدودها القصوى أدركت أنها تهيىء لنزع الغشاوة عن وعى الشعب، وللتنديد بالاضطهاد، ولفتح باب كفاح التحرير.

إن الثقافة الوطنية هى فى ظل السيطرة الاستعمارية ثقافة مجمدة تابع الاستعمار تحطيمها متابعة منظمة وسرعان ما تصبح مضطرة إلى التخفى والسرية، حتى لنلاحظ معنى السرية هذه فى ردود الغاصب المحتل الذى يرى فى كل مجاراة التقاليد ثباتًا على الروح القومية ورفضًا للخضوع، فالمستعمِر يرى فى الاستمرار على الأشكال الثقافية التى يستنكرها مظهرًا قوميًا عليه أن يحاربه. غير أن هذا المظهر إنما يرد إلى قوانين العطالة والجمود، فليس ثمة هجوم ولا إعادة تحديد العلاقات، بل انكماش على نواة ما تنفك تزداد ضيقًا وعطالة وفراغًا.

وما هو إلا قرن أو قرنان من الزمان حتى نرى الثقافة الوطنية قد هزلت ويبست حقًا، فإذا هى مجموعة من العادات الحركية والتقاليد المتعلقة بالملابس، والنظم المجزأة المفتتة، فليس فيها حركة ولا إبداع حتى ولا فوران. إن إفقار الشعب، واضطهاد الأمة، ومنع الثقافة، شيء واحد. إننا لا نرى، بعد قرن من السيطرة الاستعمارية، إلا ثقافة متيبسة متجمدة متحجرة. إن بين نضوب الواقع القومى واحتضار الثقافة علاقات ارتباط متبادل. فكيف تتطور هذه العلاقات فى أثناء كفاح التحرير؟ إن ما يعمد إليه المستعمر من إنكار للثقافة القومية، واحتقار لكافة المظاهر القومية الحركية أو الانفعالية، وتحريم لكل تخصص فى التنظيم، يساهم فى توليد سلوك هجومى لدى المستعمَر. ولكن هذا السلوك هو من نوع المنعكسات الغريزية التى تتصف باللاتميز وبالفوضوية، وليس فيه جدوى. ويستمر الاستغلال الاستعمارى، ويستمر بؤس الشعب وجوعه، فيضطر المستعمَر شيئًا بعد شيء إلى خوض كفاح صريح منظم. وتشعر أكثرية الشعب، تدريجيًا أنه لابد من معركة

حاسمة. وتكثر التوترات التى لم يكن لها وجود قبل ذلك. وتأتى الأحداث الدولية وانهيارات الإمبراطوريات الاستعمارية والتناقضات القائمة فى قلب النظام الاستعمارى، يأتى ذلك كله فيغذى ويعزز روح القتال ويرقى بالوعى الشعبى ويقويه.

هذه التوترات الجديدة التى تنشأ على جميع مستويات الواقع الاستعمارى تترجع أصداؤها على المستوى الثقافى. ففى الأدب مثلاً نرى زيادة نسبية فى الإنتاج. ونرى الإنتاج الأدبى القومى يتميز عن الإنتاج الأدبى الغربى. وتتجلى فيه إرادة خاصة، بعد أن كان محاكاة لذلك الإنتاج الغربى. وينحصر هذا الإنتاج أول الأمر فى النطاق الشعرى والتراجيدى، ثم يتناول الرواية والقصة والبحث. فكأن هناك نوعًا من التنظيم الداخلى، كأن هناك قانونًا من قوانين التعبير يُلزم بالإقلال من التجليات الشعرية كلما توضحت أهداف كفاح التحرير وطرائقه. وتندر شيئًا بعد شىء تلك الصرخات المرة اليائسة، وتلك الاندفاعات العنيفة المدوية المجلجلة التى لا يخاف منها المحتل فى حقيقة الأمر بل تطمئنه. والواقع أن الاستعماريين قد شجعوا هذه المحاولات فى الفترة السابقة وسهلوا وجودها. فحرارة التنديد والتشهير، ووصف البؤس، والتعبير عن الانفعال الجامح، ذلك كله إنما يشبهه المستعمر بعملية تفريغ، فإذا هو شجع عليه كان بمعنى من المعانى يتحاشى تحول الأمر إلى كارثة، ويساعد على شىء من انفراج الجو.

غير أن هذا الظرف لا يمكن إلا أن يكون مرحلة مؤقتة. والحق أن تقدم الوعى القومى لدى الشعب يبدل ويوضح التعبير الأدبى الذى يتولاه المثقف المستعمَر. إن استمرار اتحاد الشعب يهيب بالمثقف أن يتجاوز مرحلة الصراخ. فإذا الشكوى تصبح نداء، ثم إذا النداء يصبح فى مرحلة تالية شعارًا. إن تبلور الوعى القومى يقلب الأنواع الأدبية والموضوعات الأدبية رأسًا على عقب، فإذا المثقف المستعمَر الذى كان فى أول الأمر ينتج أدبه للقارئ المستعمَر وحده، سواء للحظوة بإعجابه أو للتنديد به من خلال الإطار العرقى أو الذاتى، إذا هو بعد ذلك يتعود أن يتجه بإنتاجه إلى شعبه شيئًا بعد شىء.

وابتداء من هذه اللحظة إنما نستطيع أن نتحدث عن أدب قومى. ذلك أننا نرى، على مستوى الخلق الأدبى، استئنافًا وتوضيحًا للموضوعات القومية الحقيقية. نحن ها هنا أمام أدب كفاح بالمعنى الأصلى للكلمة، لأنه أدب يحدو شعبًا بأسره إلى النضال فى سبيل

الوجود القومى. هو أدب كفاح لأنه ينير الوعى القومى، ويسبغ عليه شكلاً وحواشى ويفتح له آفاقًا جديدة غير محدودة. هو أدب كفاح، لأنه يحمل تبعة، لأنه إرادة تحقيق فى الزمان.

وعلى مستوى آخر نرى أدب الرواة، والحكايات، والملاحم، والأغانى الشعبية، التى كانت قبل ذلك تستمد من المخزون المجمد، نرى ذلك كله يأخذ بالتجدد. إن الرواة الذين كانوا يقصون على جمهورهم حكايات ميتة، يبثون الآن فى هذه الحكايات حياة، ويبدلونها تبديلاً أساسيًا. إنهم يحاولون أن يجعلوا أقاصيص القتال التى يروونها حكايات راهنة، ويحاولون أن يسبغوا عليها أشكالاً معاصرة، ويستمدون أسماء الأبطال وأنواع الأسلحة من الزمان الحاضر. كانوا قبل ذلك يبدأون حكاياتهم بقولهم: «كان فى القديم...» أما الآن فهم يبدأونها بقولهم: «ما سأقصه عليكم قد حدث فى مكان ما، ولكن يمكن أن يحدث هنا، اليوم أو غدًا». ومثال الجزائر بليغ الدلالة بهذا الصدد. إن الرواة قد أخذوا منذ ١٩٥٢-١٩٥٣ يقلبون طرائقهم فى قص حكاياتهم، وأخذوا يقلبون مضمون هذه الحكايات رأسًا على عقب، بعد أن كانت أقاصيصهم قبل ذلك جامدة مملة. فإذا الجمهور الذى يستمع إليهم يكثر عدده وتتراص صفوفه، بعد أن كان قليلاً مبعثرًا. وعادت الملحمة إلى الظهور، وأخذت تصور أبطالاً نموذجيين. هذا انبثاق ثقافى. ولم يغفل الاستعمار عن ذلك، فإذا هو يعمد منذ عام ١٩٥٥ إلى اعتقال جميع الرواة الذين يتحلق حولهم الناس ليستمعوا إلى قصص البطولة.

إن اتصال الشعب بالحركة الجديدة يجعل للأنفاس المترجعة فى الصدور إيقاعًا جديدًا، ويوقظ العضلات النائمة من سباتها، ويطلق الخيال من عقاله. فكلما قص الراوى على جمهوره مرحلة جديدة من مراحل حكايته، كان يناديهم ويهيب بهم ويحدوهم. إنه يكشف للجمهور عن نموذج إنسان جديد. فما يبقى الحاضر مغلقًا على نفسه بل ينشق عن آفاق جديدة. إن الراوية يرد لخياله الآن حريته، ويجدد، ويخلق. حتى ليتفق له أن يعمد إلى وجوه أناس من قطاع الطرق أو من المتشردين الخارجين على قوانين المجتمع، فإذا هو يقدم منها وجوهًا جديدة يجعلها وجوه أبطال، مع أن ذلك ليس بالأمر اليسير. ليتكم تتبعون فى بلد مستعمَر انبجاس الخيال والخلق فى الأغانى وفى الحكايات البطولية

الشعبية، خطوة خطوة. إذن أرأيتم أن الراوية إنما يستجيب بخطوات متعاقبة لإرادة الشعب، ويمضى باحثًا عن نماذج جديدة، عن نماذج قومية قد نظن أنه يسعى إليها وحده، ولكن فى حقيقة الأمر يستحثه إليها جمهوره الذى يصغى إليه. وتختفى الكوميديا أو تفقد جاذبيتها. أما المأساة فما تظل قابعة فى ضمير المثقف أزمة تعذبه، بل تفقد طابع اليأس والتمرد وتصبح من نصيب الشعب كله جزءًا من عمل يتهيأ أو من عمل قد انطلق.

وعلى مستوى الحرفة نجد الأشكال المترسبة المتجمدة تتحرك شيئًا بعد شيء. فأعمال الخشب مثلاً، التى كانت تنسخ وجوهًا معينة أو أوضاعًا معينة بآلاف النسخ، تتنوع الآن وتتميز. القناع الذى كان لا يعبر، أو كان يعبر عن الشعب والإرهاق، ينتعش الآن، والذراعان تهمان أن تتركا الجسم وأن تندفعا فى فعل. وظهر الجمع بين شخصيتين أو ثلاث أو خمس. أصبحت المدارس التقليدية مدعوة إلى الإبداع بظهور موجات كبيرة من الهواة أو المنشقين. إن هذه القوة الجديدة فى هذا القطاع من الحياة الثقافية تتحقق فى كثير من الأحيان دون أن يلاحظها أحد. ولكن مساهمتها فى الكفاح الوطنى مساهمة كبيرة. فحين يحرك الفنان الوجوه والأجسام وحين يجعل موضوع إبداعه جماعة متراصة من الناس على قاعدة واحدة، فإنه يدعو إلى الحركة المنظمة.

وإذا نحن درسنا أصداء يقظة الوعى القومى فى مجال القيشانى والفخار، كان فى وسعنا أن نذكر هذه الملاحظات نفسها. إن المبدعات فى هذا المجال تهجر أشكالها القديمة: الجرار والخوابى والأطباق تتبدل، تتبدل فى أول الأمر تبدلاً طفيفًا تدريجيًا، ثم تتبدل بعد ذلك تبدلاً قويًا جارفًا. والتلوينات التى كانت فى أول الأمر محدودة خاضعة لقوانين تقليدية فى الانسجام تتكاثر وتترجع فيها الاندفاعية الثورية. إن بعض ألوان الأحمر وبعض ألوان الأزرق، التى كانت محرمة منذ الأزل، كما يبدو، فى مجال ثقافى معين، تفرض الآن نفسها دون أن تثير الاستهجان. وكذلك نرى «اللاتعبيرية» فى الوجه الإنسانى، وهى صفة تتميز بها فى رأى علماء الاجتماع المناطق الموصدة تمامًا، تخف وطأتها. وسرعان ما يلاحظ الاختصاصى من أبناء البلاد المستعمرة هذه الطفرات؛ فتراه على وجه الإجمال يستنكرها باسم أسلوب فنى له قواعده، باسم حياة ثقافية نشأت فى جوّ الوضع الاستعمارى. إن الاختصاصيين الاستعماريين ينكرون هذا الشكل الجديد،

ويروحون يستنجدون بتقاليد المجتمع المستعمَر في التشهير به . إن الاستعماريين هم الذين يصبحون الآن مدافعين عن الأسلوب المحلى . إنكم تتذكرون كل التذكر (ولهذا المثل أهمية خاصة لأن الأمر فيه ليس أمر واقع قومى تمامًا) كيف كان موقف الاختصاصيين الاستعماريين فى الجاز حين رأوا عقب الحرب العالمية الثانية تبلور واستقرار أساليب جديدة مثل الـ«بيبوب» . ذلك أن الجاز ليس إلا حنين المنكسر اليائس الذى يحسه زنجى هرم أحاطت به خمس كؤوس من الويسكى مع اللعنة والاحتقار والحقد العرقى الذى يحمله له البيض . فإذا أدرك نفسه إدراكًا جديدًا ، وإذا أدرك العالم على نحو مختلف ، فانبعث الأمل فى نفسه وفرض على العالم العرقى أن يتراجع ، فلابد أن يميل بوقة إلى الانطلاق ، ولابد أن يجنح صوته إلى التحرر من بحّته . إن الأساليب الجديدة فى الجاز لم تنشأ من التنافس الاقتصادى فحسب ، بل هى ولا شك نتيجة من نتائج انهزام العالم الجنوبى فى الولايات المتحدة انهزامًا لا مناص منه وإن يكن بطيئًا . وليس من قبيل الخيال أن نفترض أن يدافع البيض وحدهم بعد خمسين عامًا من نوع «الجاز الصراخ» الذى يتقيؤه زنجى مسكين ملعون ، لحرصهم على صورة مجمدة لنموذج من الصلات وشكل من الزنجية .

وفى وسعنا أيضًا ، على مستوى الرقص والغناء الميلودى والطقوس والاحتفالات التقليدية ، أن نجد هذه الانطلاقة نفسها وأن نكشف عن هذه الطفرات نفسها ، وعن هذا التحرُّق نفسه إلى الانطلاق . ومعنى ذلك كله أن القارئ الفطن المنتبه يستطيع ، قبل مرحلة كفاح التحرير ، السياسية أو المسلحة ، أن يحس وأن يرى ظهور القوة الجديدة والمعركة المقبلة . فثمة أشكال من التعبير لا عهد بها من قبل ، وثمة موضوعات جديدة لم يسبق أن طُرقت ، موضوعات مزودة لا بقدرة على الإهابة فحسب ، بل أيضًا على تجميع الصفوف ، وتحريضها «فى سبيل هدف» . هذا كله يساهم فى إيقاظ حساسية المستعمَر ، وفى جعل مواقف التأمل ومشاعر الإخفاق شيئًا مضى زمانه وأصبح لا يُقبل . إن المستعمَر حين يجدد أغراض وحركة الحرفة والرقص والموسيقى والأدب وحكايات البطولة إنما يعيد بناء إدراكه للعالم ، فيفقد العالم فى نظره طابع اللعنة ، وتتجمع عندئذ الشروط اللازمة لخوض المعركة التى لابد من خوضها .

لقد شهدنا تحرك التجليات الثقافية ، ورأينا أن هذا التحرك ، أن هذه الأشكال الجديدة

مرتبطة بنضج الوعى القومى. وهذا التحرك يريد أن يتحقق فى واقع موضوعى، يريد أن يصير إلى مؤسسة قائمة، لذلك كان لابد من وجود قومى مهما كلف الأمر.

إن من الأخطاء الفادحة، التى يصعب الدفاع عنها من جهة أخرى، أن نحاول تحقيق تجديدات ثقافية، وأن نحاول رد الاعتبار والقيمة إلى الثقافة الوطنية، ونحن ما نزال فى ظل السيطرة الاستعمارية. وإنى لأنتهى من هذا إلى تقرير نتيجة قد تبدو غريبة مفارقة هى أن أقوى دفاع وأجدى دفاع عن الثقافة القومية إنما يكون بالأخذ بالعقيدة القومية ولو فى أبسط أشكالها وفى أكثر هذه الأشكال بدائية وفجاجة. إن الثقافة هى أولاً وقبل كل شىء تعبير عن أمة، عن مفضلات هذه الأمة وعن محرمتها وعن نماذجها. وعلى كافة مستويات المجتمع بأسره إنما تتكون محرمات أخرى وقيم أخرى ونماذج أخرى. فالثقافة القومية هى مجموع هذه التقديرات كلها، هى محصلة التوترات الداخلية والخارجية فى المجتمع برمته وفى مختلف طبقات هذا المجتمع. فما دام الوضع الاستعمارى قائمًا تنضب وتُحتَضر لأنها تكون محرومة من ركيزتيها، الأمة والدولة. وعلى ذلك فإن التحرير القومى وانبعاث الدولة شرط لوجود الثقافة.

وإذا كانت الأمة هى الشرط اللازم لقيام الثقافة وازدهارها وتجددها المتصل وعمقها، فهى أيضًا حاجة وضرورة. إن الكفاح الذى تخوضه الأمة هو الذى يطلق الثقافة من عقالها ويفتح لها أبواب الإبداع؛ كما أن الأمة، فى مرحلة ثانية، هى التى توفر للثقافة ظروف نمائها وإطار تعبيرها. إن الأمة هى التى تهيىء للثقافة شتى العناصر الضرورية التى تستطيع وحدها أن تهب للثقافة أمانة وصدقًا ونشاطًا وإبداعًا. وكون الثقافة قومية هو الذى يجعلها قادرة على أن تنفذ إليها الثقافات الأخرى، وعلى أن تنفذ إلى الثقافات الأخرى وتؤثر فيها. فما لا وجود له لا يمكن أن يفعل فى الواقع، ولا أن يؤثر فى هذا الواقع فلابد أولاً من أن تقوم الأمة، فإذا قيامها يهب الحياة للثقافة، بالمعنى البيولوجى لهذه الكلمة. هكذا تابعنا تكسّر التحجرات الثقافية شيئًا بعد شىء، وشهدنا تجدّد التعبير وانطلاق الخيال قبل المعركة الحاسمة فى سبيل التحرير القومى.

ويبقى بعد ذلك أن هناك مسألة أساسية تُطرح: ما هى العلاقات القائمة بين الكفاح أو الصراع -سواء أكان سياسيًا أم مسلحًا- وبين الثقافة؟ هل تعانى الثقافة توقفًا أثناء الصراع؟

هل الصراع القومى مظهر ثقافى؟ هل نقول إن الكفاح التحريرى، وإن يكن خصبًا فيما بعد، هو فى ذاته إنكار للثقافة؟ هل كفاح التحرير ظاهرة ثقافية؟

إننا نعتقد أن الكفاح المنظم الواعى الذى يخوضه شعب من الشعوب لاسترداد سيادة الأمة هو أكمل مظهر ثقافى ممكن. ليس نجاح الكفاح وحده هو الذى يهب للثقافة قيمة وصدقًا وقوة، بل إن معارك الكفاح نفسها تنمّى، فى أثناء انطلاقها، مختلف الاتجاهات الثقافية وتخلق اتجاهات ثقافية جديدة، فالكفاح لا ينيم الثقافة أثناء اندفاعه. وكفاح التحرير لا يرد إلى الثقافة الوطنية قيمتها القديمة وأطرها القديمة، ولا يمكن ما دام يهدف إلى إعادة تنظيم العلاقات بين البشر إلا أن يبدل الأشكال والمضامين الثقافية للشعب. إن التحرر بالكفاح لا يزيل الاستعمار فحسب، بل يزيل المستعمَر أيضًا.

فهذه الإنسانية الجديدة، الجديدة لذاتها وللآخرين، لا يمكنها إلا أن تنشىء نظرة إنسانية جديدة، بل إن هذه النظرة الإنسانية الجديدة قائمة مقدمًا فى أهداف ومناهج الكفاح. إن المعركة التى تعبىء جميع طبقات الشعب، التى تعبر عن صبوات الشعب وعن أشواقه المتحرقة، التى لا تخشى أن تعتمد على الشعب وحده تقريبًا، إن هذه المعركة ظافرة لا محالة. وقيمة هذا النوع من القتال إنما تقوم على كونه يحقق الحد الأقصى من الشروط اللازمة للنمو الثقافى والإبداع الثقافى. وبعد التحرير الذى يتم فى هذه الشروط، لا يكون ثمة ذلك النوع من الحيرة الثقافية المريرة التى نراها الآن فى بعض البلدان المستقلة حديثًا. ذلك أن الأمة، فى صورة دخولها إلى العالم، وفى أشكال وجودها، تؤثر فى الثقافة تأثيرًا أساسيًا. إن أمة تنشأ من خوض الشعب نضالاً منسجمًا موحدًا، إن أمة تجسد أشواق الشعب الواقعية، إن أمة تبدل الدولة، لا يمكن أن توجد إلا فى صور من خصوبة ثقافية فذة.

والمستعمَرون الذين تهمهم ثقافة بلادهم ويريدون أن تكون لها أبعاد عالمية، يجب عليهم إذن أن لا يتكلموا فى تحقيق هذه المهمة على مجرد مبدأ الاستقلال الذى لابد منه، دون نفاذ إلى وعى الشعب. فشتان بين التحرير القومى. من حيث هو هدف وبين مناهج المعركة ومضمونها الشعبى. ويخيل إلىَّ أن مستقبل الثقافة وغنى الثقافة القومية متوقفان أيضًا على القيم التى لازمت معركة التحرير.

وهنا تحين لحظة فضح النفاق الذى نراه لدى بعضهم. يقول بعضهم هنا وهناك إن القومية مرحلة قد تجاوزتها الإنسانية، وإن الزمان الحاضر هو زمان التجمعات الكبيرة، وإن على المتأخرين الذين ما زالوا يؤمنون بالقومية أن يصححوا أخطاءهم. ونحن نرى على خلاف ذلك، أن الخطأ الفادح، الخطأ المثقل بالنتائج الخطيرة، هو أن نحاول القفز فوق المرحلة القومية. وإذا كانت الثقافة هى التعبير عن الوعى القومى، فإننى لا أتردد عن القول، فى الحالة التى نحن بصددها الآن، إن الوعى القومى هو أنضج شكل من أشكال الثقافة.

ليس وعى الذات انغلاقًا دون التواصل. حتى لقد علمنا التفكير الفلسفى أن وعى الذات هو ضمانة التواصل. إن الوعى القومى، إن الشعور القومى، الذى ليس تعصبًا قوميًا، هو الأمر الوحيد الذى يهب لنا بعدًا عالميًا. ومشكلة الشعور القومى هذه، مشكلة الثقافة القومية هذه تأخذ فى أفريقيا أبعادًا خاصة. إن نشوء الشعور القومى فى أفريقيا يتصل بالشعور الأفريقى اتصال تعاصر. فمسئولية الأفريقى تجاه ثقافته القومية هى أيضًا مسئولية تجاه الثقافة الزنجية الأفريقية. وهذه المسئولية المنضمة ليست ثمرة مبدأ ميتافيزيقى بل هى ثمرة إدراك لقانون معروف يقول بأن كل أمة مستقلة فى أفريقيا ستظل مطوقة تتربص بها الأخطار فى كل لحظة، إلى أن تُحرَّر أفريقيا كلها من الاستعمار.

إذا كان الإنسان هو ما يفعله هذا الإنسان فإننا نستطيع أن نقول إن الشىء الملح المستعجل اليوم، بالنسبة إلى المثقف الأفريقى، هو بناء أمته. فإذا جاء هذا البناء صادقًا، أى إذا عبر عن إرادة الشعب الواضحة، إذا كشف عن تحرق الشعوب الأفريقية، كان لا محالة مصحوبًا باكتشاف قيم إنسانية شاملة، وكان يرتقى بهذه القيم الإنسانية الشاملة. إن التحرر القومى لا يبتعد بنا عن الأمم الأخرى، بل إنه هو الذى يجعل الأمة حاضرة على مسرح التاريخ. ففى قلب الوعى القومى إنما ينهض الوعى العالمى ويحيا. وليس هذا البزوغ المزدوج، فى آخر الأمر، إلا بؤرة كل ثقافة.

●●●

الحرب الاستعمارية والاضطرابات النفسية

ولكن الحرب مستمرة. وعلينا أن نظل سنين طويلة نضمد الجراح الكثيرة، التى لا تشفى فى بعض الأحيان، الجراح، التى أحدثها فى شعوبنا الاندفاع الاستعمارى.

إن الاستعمار الذى يحارب الآن تحرير البشر، يدع هنا وهناك بذور تفسخ علينا أن نكتشفها وأن نستأصلها من أراضينا ومن أدمغتنا.

ونحن باحثون هنا مشكلة الاضطرابات العقلية الناشئة عن حرب التحرير الوطنى التى يخوضها الشعب الجزائرى.

قد يرى بعض الناس أن هذه الملاحظات التى تتصل بالطب العقلى ليست مناسبة، وأن هذا الكتاب خاصة ليس مكانها. ولكن لا حيلة لنا فى الأمر.

إن لم يكن أمرًا مرهونًا بنا أن أمراضًا عقلية واضطرابات فى السلوك قد ازدادت لدى الذين «يرفضون السلم» أو لدى الذين يُفرض عليهم هذا «السلم». والحقيقة أن الاستعمار فى جوهره كان قبل الآن يصدِّر لمستشفيات الأمراض العقلية كثيرًا من زبائنها. وقد لفتنا نظر علماء الطب العقلى الفرنسيين والعالميين، منذ عام ١٩٥٤، فى بحوث علمية مختلفة، إلى صعوبة «شفاء» مريض من المستعمَرين شفاء سليمًا، أى جعله متجانسًا تجانسًا تامًا مع بيئة اجتماعية من الطراز الاستعمارى.

إن الاستعمار، من حيث هو نفى منظم للآخر، من حيث هو قرار صارم بإنكار كل صفة إنسانية على الآخر، يحمل الشعب المستعمَر على أن يتساءل دائمًا هذا التساؤل: «من أنا فى الواقع»؟.

والمواقف الدفاعية الناشئة عن هذه المواجهة العنيفة للمستعمَر وعن النظام الاستعمارى، تنتظم فى بنيان يكشف عندئذ عن شخصية المستعمَر. ويكفى من أجل أن نفهم هذه «الحساسية» أن ندرس وأن نقدر عدد وعمق الجراح التى تصيب المستعمَر خلال يوم واحد من أيام حياته فى ظل النظام الاستعمارى. ويجب أن نتذكر على كل حال أن الشعب المستعمَر ليس شعبًا مسيطرًا عليه فحسب. لقد ظل الفرنسيون فى عهد الاحتلال

الألماني بشراً، وظل الألمان في عهد الاحتلال الفرنسي بشراً. أما في الجزائر فليس هناك سيطرة فحسب، وإنما هناك عزم على أن لا يتناول الاحتلال في آخر الأمر إلا أرضًا. فالجزائريون، والنساء المرتديات ملاءاتهن («الحايك»)، وكروم البلح، والجمال، ليست عند المستعمرين إلا الصورة الإجمالية أو الأرضية الطبيعية التي يبرز عليها الوجود الإنساني عند الفرنسي.

فالطبيعة المعادية، العصية، المتمردة، إنما هي في المستعمرات: الفيافي، والبعوض، «والسكان الأصليون» وأمراض الحمى. والاستعمار ينجح حين يفلح أخيراً في إخضاع هذه الطبيعة العصية كلها. إن مد الخطوط الحديدية في الفيافي، وتجفيف المستنقعات، وإزالة «السكان الأصليين» من الوجود السياسي والاقتصادي، كل ذلك إنما هو شيء واحد.

وفي مرحلة الاستعمار الذي لا يستنكره نضال مسلح، حين يتجاوز مجموع التهيجات الضارة حداً معيناً، تنهار المواقف الدفاعية للمستعمَرين، فنجد عدداً كبيراً من هؤلاء المستعمَرين في مستشفيات الأمراض العقلية. ففي هذه المرحلة من الاستعمار المنتصر، نرى مقداراً مطرداً كبيراً من الأمراض يحدثه الاضطهاد إحداثًا مباشراً.

واليوم أصبحت حرب التحرير الوطني التي يخوضها الشعب الجزائري منذ سبع سنين، لأنها حرب كلية لدى الشعب، أصبحت هذه الحرب تربة صالحة لانطلاق الاضطرابات العقلية[1]. ونحن ذاكرون هنا عدداً من الحالات هي حالات مرضى جزائريين وفرنسيين عالجناهم، وهي حالات تبدو لنا ناطقة. ومن نافل القول أن نذكر أننا لا نقدم الآن عملاً علميًا فنحن نتحاشى كل مناقشة في الأعراض أو التصنيف أو العلاج. وليس المقصود من

(١) في المقدمة التي لم تنشر في الطبعتين الأولين من كتابنا: «خمس سنين من الثورة الجزائرية» أشرنا إلى أن جيلاً بكامله من الجزائريين، جيلاً غارقًا في بحر إبادة الإنسان إبادة جماعية بدون ثمن، مع كل ما يولده هذا من نتائج نفسية عاطفية، سيكون هو التركة الإنسانية الذي تخلفه فرنسا في الجزائر. إن الفرنسيين الذين يستنكرون التعذيب في الجزائر يتبنون دائمًا وجهة نظر فرنسية تمامًا. ليس هذا مأخذاً، وإنما هو تقدير لواقع: إنهم يريدون أن يحموا ضمير المعذبين الذين يمارسون التعذيب أو سيمارسونه، ويحاولون أن يتحاشوا ما يصيب الشبيبة الفرنسية من فساد أخلاقي. ولا نستطيع، من جهتنا، إلا أن نوافق على هذا. إن عدداً من المشاهدات الطبية التي نجمعها في هذا الكتاب، والحالتان ٤ و ٥ بوجه خاص، مثال على صحة هذا الذى يراود الديمقراطيين الفرنسيين. وغايتنا نحن على كل حال هي أن نبين أن التعذيب يفكك شخصية المعذِّب (بكسر الذال) تفكيكًا عميقًا، وهذا ما لعل القارئ يقدره من تلقاء نفسه.

بعض المصطلحات الطبية إلا أن تكون نقاط استناد. ومع ذلك يجب علينا أن نلح على الأمرين التاليين:

إن الطب العقلي العيادي، بوجه عام، يصنف مختلف الاضطرابات التي لاحظناها في مرضانا في باب «أمراض الذُّهان الاستجابي». وعلى هذا الأساس ننظر بعين الاعتبار خاصة إلى الحادث الذي أطلق المرض، وإن كنا نشير هنا وهناك إلى دور التربة المؤهِّبة للمرض (التاريخ النفسي والعاطفي والجسمي للمريض) وإلى دور البيئة، ويبدو لنا أن الحادث الذي أطلق المرض في الحالات التي نعرضها هنا هو في الدرجة الأولى ذلك الجوّ الدامي الذي لا يرحم، هو تلك الأعمال التي لا تعرف الروح الإنسانية والتي أصبحت عامة شاملة، هو هذا الشعور الدائم الذي لا يبرح نفوس الناس بأنهم يشهدون قيام الساعة.

إن الحالة رقم ٢، من السلسلة «أ» هي حالة ذُهان استجابي نموذجي، ولكن الحالات ١، ٢، ٣، ٤ من السلسلة «ب» تحتمل تعليلاً أكثر تعدداً، ولا يمكن أن نتحدث فيها عن حادث بعينه هو الذي أطلق المرض. فها هنا نقول إن الحرب، هذه الحرب الاستعمارية التي تكتسي في كثير جداً من الأحيان صورة إبادة جماعية للنوع الإنساني، هذه الحرب التي تقلب العالم رأساً على عقب وتحطمه، هي الحادث الذي يطلق المرض. إن في وسعنا أن نسمي المرض هنا ذُهاناً استجابياً إذا نحن حرصنا على استعمال اصطلاح موجود، ولكن يجب عندئذ أن نؤكد تأكيداً خاصاً على ما تتصف به هذه الحرب في جملتها وفي تفاصيلها من أنها حرب استعمارية. إن المؤلفات التي ظهرت بعد الحربين العالميتين عن الأمراض النفسية بين العسكريين الذين يخوضون غمار الحرب وبين المدنيين الذين يرحلون عن ديارهم ويقاسون القصف بالقنابل، ليست قليلة. ولكن الطابع الجديد في بعض اللوحات المرضية التي نعرضها هنا يؤكد، إذا كان ثمة حاجة إلى تأكيد، أن هذه الحرب الاستعمارية تختلف عن غيرها حتى في الأمراض التي تفرزها.

وهناك فكرة أخرى يقررها الباحثون جازمين، وتحتاج في رأينا إلى شيء من التلطيف. هذه الفكرة هي قولهم إن هذه الاضطرابات الاستجابية ليست بالخطيرة خطراً فادحاً. ولئن كان صحيحاً أنهم وصفوا حالات ذات مضاعفات ذُهانية ثانوية، أي حالات تفككت فيها

الشخصية كلها تفككًا نهائيًا، فإن تلك الحالات التى وصفوها كانت حالات استثنائية دائمًا. ونحن نرى، على خلاف ذلك، أن القاعدة هنا هى أن هذه الإصابات المرضية إصابات خطيرة خبيثة. إنها اضطرابات تدوم أشهرًا برمتها، تهاجم الأنا هجومًا قويًا، وتكاد تترك فى جميع الأحوال صدعًا يجعل الشخص مهيئًا للمرض بسرعة، صدعًا يمكن أن يلاحظ عمليًا بالنظر. ولا شك أن مستقبل هؤلاء المرضى غير مكفول. وهذا مثال يوضح ذلك:

فى أحد البلاد الأفريقية التى فازت باستقلالها منذ عدة سنين، صادف أن استقبلنا رجلاً من وطننا كان من المناضلين القدماء. لقد جاء هذا الرجل الذى يبلغ من العمر نحو ثلاثين عامًا يسألنا النصح والمعالجة، فإنه متى اقترب موعد معين من السنة استبد به أرق مصحوب بقلق وبأفكار ثابتة تهيب به إلى تدمير نفسه. وهذا الموعد الحرج من السنة هو الموعد الذى وضع فيه قنبلة فى أحد الأماكن العامة عملاً بتعليمات صدرت إليه من شبكته. فقُتل فى الحادث عشرة أشخاص(١).

السلسلة آ:

نجمع هنا خمس حالات جزائريين أو أوروبيين ظهرت فيهم، على أثر حوادث معينة تمامًا، اضطرابات عقلية من النموذج الاستجابى.

الحالة ١ - عجز جنسى عند جزائرى على أثر اغتصاب زوجته:

ب... رجل فى السادسة والعشرين من عمره. أرسلته إلينا «الدائرة الصحية لجبهة

---

(١) إن ظروف ظهور هذه الاضطرابات هامة من أكثر من ناحية واحدة. لقد تعرَّف الشخص، بعد استقلال بلاده بعد أشهر. إلى أناس من البلاد التى كانت تستعمر وطنه من قبل، فوجدهم أناس لطافًا محببين إلى قلبه. كان هؤلاء الرجال والنساء يحيون الاستقلال الذى فازت به بلاده، ويثنون فى غير تحفظ على الشجاعة التى أظهرها مواطنوه فى نضال التحرير الوطنى. فشعر هذا المناضل عندئذ بدوار (دوخة). وتساءل فى قلق: ترى ألم يكن بين ضحايا القنبلة أناس يشبهون هؤلاء الذين يتحدث إليهم الآن؟ صحيح أن المقهى كان ملجأ لأشخاص عرقيين معروفين، ولكن لا شىء يمنع أحد المارة من الدخول إلى المقهى لاحتساء شىء ما. وقد حاول هذا الشخص، بعد اليوم الذى شعر فيه بأول دوار، أن يتحاشى التفكير فى الحوادث القديمة. فظهرت الاضطرابات الأولى قبل حلول ذلك الموعد الحرج ببضعة أيام، وأصبحت منذ ذلك الحين تتكرر بغير تخلف.

ونقول بتعبير آخر: إن أفعالنا لا تكف عن ملاحقتنا. إن ترتيبها وتنظيمها وتعليلها يمكن أن يتغير بعد ذلك تغيرًا عميقًا. وهذا من أهم الفخاخ التى يوقعنا فيها التاريخ وتحديداته. ولكن هل نستطيع أن نتحاشى الدوار؟ من ذا الذى يجرؤ أن يدعى أن الدوار لا يلازم كل حياة؟

التحرير الوطنى» لأوجاع فى الرأس وأرق. كان سائقًا لسيارة تاكسى، وانخرط فى النضال منذ السنة الثامنة عشرة من عمره فى صفوف الأحزاب الوطنية. وأصبح منذ عام ١٩٥٥ عضواً فى خلية من خلايا جبهة التحرير الوطنى. وقد استعمل سيارته التاكسى عدة مرات فى نقل منشورات وفى نقل مسئولين سياسيين. وإزاء تفاقم أعمال القمع قررت جبهة التحرير الوطنى أن تنقل الحرب إلى مراكز فى المدن، فأصبح «ب» . . . يكلف بأن ينقل الفدائيين إلى مقربة من أماكن الهجوم، وبأن ينتظرهم فى كثير من الأحيان.

وفى ذات يوم، فى قلب مدينة أوروبية، بعد القيام بعمل كبير بعض الشىء، اضطرته محاصرة شديدة غاية الشدة، إلى أن يترك سيارته التاكسى. وتبعثرت فرقة الفدائيين. ولجأ «ب» . . . الذى أفلح فى النجاة من حصار العدو، إلى بيت صديق له. وبعد بضعة أيام صدر إليه الأمر من المسئولين، قبل أن يستطيع العودة إلى بيته، أن يلتحق بأقرب مركز من مراكز المجاهدين.

وظل عدة أشهر لا يتلقى أى نبأ عن زوجته وعن ابنته الصغيرة التى تبلغ من العمر عشرين شهراً. وعلم أيضًا أن الشرطة ظلت تبحث عنه فى المدينة طوال أسابيع كاملة. وبعد سنتين من الإقامة فى ذلك المركز من مراكز المجاهدين تلقى رسالة من امرأته تطلب إليه فيها أن ينساها. لقد تلطخت بالعار. وعليه أن لا يفكر بعد اليوم فى استئناف حياتهما المشتركة. فقلق «ب» . . من ذلك قلقًا فظيعًا، وسأل قائده أن يسمح له بالذهاب إلى منزله خفية، فرفض القائد ذلك. واتخذت الإجراءات اللازمة من أجل أن يتصل أحد أعضاء جبهة التحرير بزوجة الرجل وأبويه.

وبعد أسبوعين وصل إلى قائد الوحدة التى يعمل فيها «ب» . . . تقرير مفصل.

ما إن وُجدت سيارته متروكة (وقد عثروا فيها على ذخيرة) حتى ذهب عدد من الجنود الفرنسيين ومن الشرطة إلى بيته. فلما لم يجدوه اعتقلوا زوجته واحتفظوا بها أكثر من أسبوع.

وقد سألوها عن الأشخاص الذين يعاشرهم زوجها، وظلوا يضربونها ضربًا وحشيًا مبرحًا طوال يومين. ولكن فى اليوم الثالث أخرج أحد العسكريين الفرنسيين (لا تستطيع

أن تذكر هل هو ضابط أم جندى) رفاقه الآخرين، واغتصبها. وبعد قليل اغتصبها شخص آخر، بحضور الآخرين فى هذه المرة، وقال لها: «إذا رأيت صعلوكك مرة أخرى ذات يوم، فلا تنسى أن تذكرى له ما فُعل بك». ولبثت بعد ذلك أسبوعًا دون أن تستجوب مرة أخرى. ثم أعادوها إلى بيتها. فلما قصت على أمها قصتها، أقنعتها أمها بأن تروى لزوجها كل شىء . . . ولذلك ما إن استطاعت أن تتصل بزوجها حتى أفضت إليه بالعار الذى لطخها.

واستطاع «ب» . . . أن يتغلب على نفسه بعد انقضاء الصدمة الأولى، لانخراطه فى العمل فى كل لحظة. وقد ظل يسمع خلال عدة أشهر حكايات عن نساء جزائريات اغتصبن أو عُذبن. وأتيح له أن يرى أزواج نساء مغتصبات، فكان ينزل مصائبه الشخصية وكرامته الجريحة فى المنزلة الثانية من الأهمية.

وفى عام ١٩٥٨ كلف بمهمة فى الخارج. حتى إذا هم أن يعود إلى وحدته بعد مدة، ظهرت فيه أعراض فتور عن العمل وأصبح يعانى أرقًا شديدًا، فقلق من ذلك رفاقه ورؤساؤه، فأجل سفره. وفى هذه اللحظة إنما رأيناه. الاتصال الأول جيد. وجه متحرك، ربما كان كثير الحركة. ابتسامات مبالغ فيها. مرح سطحى: «تحسنت . . . تحسنت . . . أشعر الآن بتحسن. أعطنى بعض المقويات، اعطنى فيتامينات، ودعنى أعود إلى العمل». وكان يظهر وراء ذلك كله قلق أساسى. وأُدخل المستشفى.

انهار التفاؤل الظاهرى منذ اليوم الثانى، وأصبحنا إزاء شخص مهدود القوى، غارق فى التأمل لا يأكل، ولا يبارح سريره. إنه يهرب من المناقشات السياسية، ويظهر عدم الاكتراث بكل ما يتصل بالكفاح الوطنى، ويتحاشى سماع الأنباء الخاصة بحرب التحرير. كانت مواجهة مشكلاته أمرًا شاقًا جدًا. ولكننا استطعنا بعد بضعة أيام أن نؤلف قصته:

لقد قام خلال إقامته فى الخارج بمغامرة جنسية أخفقت. فظن أن مرد هذا الإخفاق إلى التعب، وأنه أمر طبيعى بعد المشى المرهق الذى قام به. وبعد فترات سوء التغذية التى مر بها، واستأنف المحاولة بعد أسبوعين، فأخفق مرة ثانية. أسر بأمره إلى رفيق له، فنصحه هذا الرفيق بتجرع فيتامين ب١٢، فتجرع منه أقراصًا، ثم حاول محاولة جديدة، فأخفق أيضًا. وأكثر من ذلك أنه قبل الفعل ببضع لحظات رغبة لا تقاوم فى أن يمزق صورة فوتوغرافية لابنته الصغيرة.

إن مثل هذا الارتباط الرمزى كان يمكن أن يبعثنا على تصور وجود اندفاعات لا شعورية تحض على الخيانة الزوجية. غير أن عدداً من الأحاديث التى أجريناها معه، بالإضافة إلى حلم من أحلام المريض (أى فى منامه تفسخ قطة صغيرة مع انتشار روائح لا تطاق) قد قادتنا إلى اتجاه آخر مختلف عن هذا كل الاختلاف. لقد قال لنا فى ذات يوم (والحديث عن ابنته الصغيرة): «إن فى هذه البنت شيئًا متفسخًا». ومنذ تلك الفترة أصبح أرقه مؤلمًا أشد الإيلام، ورغم إسعافه بمقادير كبيرة من المهدئات فقد نشأت لديه حالة من فرط التهيج الخائف، أقلقتنا قلقًا شديداً. وحدثنا عندئذ عن امرأته لأول مرة قائلاً: «لقد ذاقت الفرنسيين». وفى هذه اللحظة إنما تصورنا القصة كلها. لقد برزت لحمة الحوادث. وعلمنا منه أنه قبل كل محاولة جنسية كان يفكر فى امرأته. وكل ما أفضى به إلينا بدا لنا ذا أهمية أساسية.

«لقد تزوجت هذه الفتاة بينما كنت أحب ابنة عمى. ولكن أهلها زوجوها من شخص آخر. فقبلت عندئذ الفتاة الأولى التى اقترحها على أبواى. كانت لطيفة مهذبة، لكننى لم أكن أحبها. وكنت أقول لنفسى دائمًا: ما زلت شابًا. فلأصبر قليلاً، حتى إذا وجدت ما يناسب، طلقت وتزوجت زواجًا سعيداً. لذلك كنت قليل الارتباط بزوجتى. وجاءت الحوادث فأبعدتنى عنها مزيداً من الإبعاد. وفى نهاية الأمر كنت أجىء إلى البيت للطعام، وأنام دون أن أكلمها تقريبًا».

وفى المعسكر، حين علمت أن فرنسيين اغتصبوها شعرت أول الأمر بحقد على هؤلاء الأنذال. ثم قلت: «بسيطة. إنها لم تُقتل. وستستطيع أن تستأنف حياتها». وبعد بضعة أسابيع أدركت أنهم اغتصبوها لأنهم كانوا يبحثون عنى. والواقع أنهم اغتصبوها معاقبة لها على صمتها. لقد كان فى وسعها أن تذكر لهم اسم واحد على الأقل من المناضلين، فيهتدوا إلى الشبكة ويحطموها، وربما استطاعوا أن يقتلونى أنا. فالأمر لم يكن إذن مجرد اغتصاب شجع عليه التعطل أو دفعت إليه السادية، كما أتيح لى أن أرى مثل ذلك فى بعض القرى، وإنما هو اغتصاب امرأة عنيدة تحملت كل شىء إلا أن تبيع زوجها. وهذا الزوج هو أنا. لقد أنقذت هذه المرأة حياتى، وحمت الشبكة كلها. وبسببى أنا تلوث شرفها. ولكنها لم تقل لى: «هذا ما قاسيته فى سبيلك»، وإنما قالت: «عليك أن تنسانى، وأن تجدد حياتك، فقد تلطخت أنا بالعار».

«ومنذ تلك اللحظة إنما عزمت في قرارة نفسي على أن أسترد زوجتي بعد الحرب، إذ يجب أن أقول لك إنني رأيت فلاحين يكفكفون دموع زوجاتهم اللواتي اغتصبن على مرأى منهم. لقد هزني ذلك كثيرًا. ويجب أن أعترف لك من جهة أخرى أنني لم أستطع في أول الأمر أن أفهم موقفهم هذا. ولكننا صرنا، شيئًا بعد شيء، نتدخل في هذه الأمور ونشرحها للمدنيين. حتى لقد قابلت مدنيين متطوعين من أجل تزويج فتاة اغتصبها عسكريون فرنسيون وأصبحت حاملاً. وذلك كله أعادني إلى التفكير في مشكلة امرأتي.

«لقد عزمت على أن أستردها، ولكنني لا أعرف بعد كيف يكون سلوكي حين أراها. وحين أنظر إلى صورة ابنتي أشعر في كثير من الأحيان أن شرفها ملطخ هي أيضًا، كأن كل ما يصدر عن امرأتي فاسد نتن. لو أنهم عذبوها، لو أنهم حطموا جميع أسنانها، لو أنهم كسروا ذراعها، لما أثر في ذلك. ولكن هذا الأمر، هل يستطيع المرء أن ينساه؟ وهل كانت مضطرة أن تطلعني على ذلك كله؟».

وسألني عندئذ هل مرد ضعفه الجنسي إلى همومه.

فأجبته: «جائز».

فجلس على سريره وقال:

- ما عساك تفعل لو حدث لك هذا؟

- لا أدري.

- هل تسترد امرأتك؟

- أظن.

- ما... إذن لست واثقًا كل الثقة من أنك تستردها...

وأمسك رأسه بيديه، ثم ترك الغرفة بعد بضع لحظات.

ومنذ ذلك اليوم أصبح يرضى شيئًا بعد شيء أن يسمع مناقشات سياسية، بينما أخذت أوجاع الرأس تتراجع كثيرًا، وأصبح يقبل أن يأكل.

وبعد أسبوعين بوحدته، وهو يقول لي: «إلى اللقاء بعد الاستقلال. سأسترد زوجتي. وإذا انتكست صحتي فسأجيء لأراك بمدينة الجزائر».

الحالة ٢- اندفاعات إلى القتل غير متميزة لدى شخص نجا من الموت أثناء إبادة جماعية.

«س»... عمره ٣٧ سنة. فلاح. يسكن في قرية من مقاطعة قسنطينة. لم يهتم بالسياسة في يوم من الأيام. أصبحت منطقته منذ بداية الحرب ميدان معارك عنيفة بين القوى الجزائرية والجيش الفرنسي. وبذلك أتيح له أن يرى قتلى وجرحى. ولكنه ظل بعيداً. وكان الفلاحون في قريته يساعدون المقاتلين الجزائريين المارين، من حين إلى حين، كما يساعدهم سائر الشعب. ولكن في ذات يوم من أوائل عام ١٩٥٨ أقيم كمين في مكان غير بعيد عن القرية، نشأ عنه سقوط قتلى. فقامت القوى العدوة بحملة عسكرية وحاصرت القرية. وكانت القرية خالية من الجنود. وجُمع سكان القرية جميعًا واستجوبوا، فلم يجب منهم أحد بشيء. ووصل أحد الضباط الفرنسيين بعد بضع ساعات على طائرة هليوكوبتر، وقال: «إن هذه القرية سيئة السمعة، فهدموها!». فأخذ الجنود يحرقون البيوت، ويضربون بأعقاب البنادق النساء اللواتي يحاولن التقاط بعض الملابس أو إنقاذ بعض المؤن. وانتهز بعض الفلاحين هذا الاضطراب، ففروا. وأصدر الضابط أمره بجمع الباقين من الرجال، وقادهم إلى قرب مجرى من مجارى السيول، وبدأ هنالك قتلهم. فمات تسعة وعشرون. وجُرح «س» برصاصتين اجتازت إحداهما فخذه اليمنى واجتازت الثانية ذراعه اليسرى، وسبب له هذا الجرح الثاني كسراً في عظم العضد.

وقد أغمي على «س».. فلما أفاق من إغمائه وجد نفسه وسط جماعة من جيش التحرير الوطني. وعالجته مصلحة الصحة، ثم أجلي حين أصبح في الإمكان نقله. ففي أثناء الطريق كان سلوكه يزداد شذوذاً شيئًا بعد شيء، حتى أصبح يقلق حرسه. كان يطالب ببندقية، في حين أنه مدني وعاجز، وكان يرفض أن يسير أمام أي شخص كان، إنه لا يريد أن يسير أحد وراءه. وفي ذات ليلة استولى على سلاح أحد المقاتلين، وأخذ يطلق الرصاص في خراقة، على الجنود النائمين، فلم يلبث أن جُرد من سلاحه بقسوة. وكُبلت يداه منذ تلك اللحظة. ثم ظلت مكبلة، وعلى هذه الحال إنما وصل إلى المركز.

بدأ بأن قال لنا إنه لم يمت، وإنه دبر «مقلبًا» للآخرين. واستطعنا شيئًا فشيئًا أن نتصور قصة إخفاق قتله. إن «س» . . . لا يعانى حالة خوف، وإنما هو مفرط فى التهيج، مع فترات من اضطراب شديد مصحوب بعويل . . إنه لا يكسر كثيرًا، ولكنه يزعج جميع الناس بثرثرته التى لا تنقطع، وكانت المصلحة فى حالة يقظة دائمة بسبب عزمه الأكيد على أن «يقتل جميع الناس». وفى أثناء وجوده فى المستشفى هاجم نحوًا من ثمانية مرضى بأسلحة عثر عليها مصادفة. وهو لا يستثنى المرضين والأطباء. حتى لقد تساءلنا أليس من الجائز أن نكون إزاء شكل من تلك الأشكال المقنعة من مرض الصرع الذى يتميز بعدوانية شاملة متوترة فى كل لحظة تقريبًا.

وشرعنا فى معالجته بالنوم. وابتداء من اليوم الثالث استطعنا بمحادثات يومية أن نزداد فهمًا لحالته المرضية. اختفت الفوضى العقلية شيئًا بعد شىء. وإليكم هذه الفقرات من تصريحات المريض:

«إن الله معى . . . ولكنه ليس إذن مع أولئك الذين ماتوا . . . لقد خصنى الله بعنايته . . . على المرء فى هذه الحياة أن يقتل حتى لا يُقتل . . . كنت أجهد لأخفى عنهم كل شىء . . إن بيننا فرنسيين. ولكنهم فرنسيون متخفون يتظاهرون بأنهم عرب. يجب قتلهم جميعًا. أعطنى مدفعًا رشاشًا. جميع هؤلاء الذين يُظنون جزائريين إنما هم فرنسيون . . وهم لا يدعوننى وشأنى. كلما أردت أن أنام دخلوا إلى غرفتى. لكننى الآن أعرفهم. جميع الناس يريدون أن يقتلونى. ولكننى سأدافع عن نفسى. لسوف أقتلهم جميعًا بغير استثناء. لسوف أذبحهم بعضًا وراء بعض. وسوف أذبحك أنت أيضًا. إنك تريد أن تقتلنى. ولكن يجب أن تتبع غير هذه الطريقة. لن يكلفنى شيئًا أن أصرعك. الصغار، والكبار، والنساء والأطفال، والطيور، والحمير، هؤلاء جميعًا سيلقون نفس المصير. وبعدئذ أستطيع أن أنام هادئًا مطمئنًا . . .».

قال «س» . . ذلك كله بلغة مقطعة، وظل وضعه أثناء ذلك يعبر عن العداوة والغطرسة والاحتقار.

وزال الاهتياج بعد بضعة أسابيع، غير أن ما لاحظناه فيه من تكتم وميل إلى العزلة جعلنا نخشى تطورًا أخطر. ومع ذلك طلب بعد شهر أن يخرج ليتعلم مهنة تناسب عاهته،

فعهد به عندئذ إلى الدائرة الاجتماعية من جبهة التحرير الوطنى. ورأيناه بعد ستة أشهر، فكانت حالته حسنة.

الحالة ٣: ذُهان خائف خطير من نموذج تفكيك الشخصية بعد قتل امرأة فى حالة خروج عن الطور.

«ج»... طالب سابقًا. عسكرى فى جيش التحرير الوطنى. العمر ١٩ عامًا حين وصل إلى «المركز» كان مريضًا منذ بضعة أشهر. هيئة متميزة: سوداوية قوية، شفتان جافتان، يدان مبتلتان دائمًا. تنهدات لا تنقطع، يرتفع لها صدره. محاولتا انتحار منذ أول الاضطرابات. أثناء الحديث، يبدو مصغيًا إلى هلوسات. وفى بعض الأحيان يحدق إلى نقطة من المكان بضع لحظات، بينما ينتعش وجهه، فيتصور من يراه أنه يشهد منظرًا. أفكار غائمة. بضع ظاهرات تعرف فى الطب العقلى باسم السدّ: يبدأ حركة أو جملة ثم يقطعها على حين فجأة لغير سبب ظاهر. غير أن هناك عنصرًا لفت نظرنا خاصة: إن المريض يحدثنا عن دمه الذى يسفح، عن شرايينه التى تفرغ، عن قلبه الذى فيه رصاصات. إنه يتوسل إلينا أن نوقف النزيف، وأن لا نسمح بأن يُلاحق حتى المستشفى لامتصاص دمه. وكان من حين إلى حين يعجز عن الاستمرار فى الكلام، فيطلب قلمًا، ويكتب: «لم يبق لى صوت. حياتى كلها تذهب». وجعلنا هذا التفكك فى الشخصية نعتقد أن مرضه سيتطور تطورًا أخطر.

وأشار المريض عدة مرات أثناء أحاديثنا معه إلى امرأة توافيه عند هبوط الليل وتندبه. وإذ إننى علمت قبل ذلك أن أمه ميتة، وأنه كان يحبها كثيرًا، وأنه ما من شىء أمكن أن يعزيه عن فقدها (لقد اختنق صوته اختناقًا شديدًا فى تلك اللحظة، وترقرقت فى عينيه دموع)، فقد وجهت بحثى نحو صورة الأم. فلما سألته أن يصف لى تلك المرأة التى تلاحقه، وتعذبه، صرح لى بأن هذه المرأة ليست مجهولة له، وبأنه يعرفها حق المعرفة، لأنه هو الذى قتلها. فأصبح علينا أن نعرف هل نحن إزاء عقدة الذنب اللاشعورية التى تنشأ بعد موت الأم، كما وصف ذلك فرويد فى كتابه «الحداد والكآبة». فطلبنا إلى المريض أن يحدثنا عن هذه المرأة حديثًا أطول، ما دام يعرفها حق المعرفة، وما دام هو الذى قتلها أيضًا. وعلى هذا النحو عرفنا القصة التالية:

«من المدينة التى كنت فيها طالبًا التحقت بمربض المجاهدين. وبعد بضعة أشهر جاءتنى أخبار عن أسرتى. فعلمت أن أمى قد قتلها جندى فرنسى منذ قليل، وأن أختىَّ اقتيدتا إلى بيوت العسكريين. وأنا أجهل حتى الآن ما صارتا إليه. وقد هزنى موت أمى هزًا قويًا. إن أبى مات منذ سبع سنين، وأصبحت الرجل الوحيد فى الأسرة وكان مطمعى الوحيد دائمًا هو أن أصل إلى ما يحسن حياة أمى وأختى. وفى ذات يوم ذهبنا إلى مزارع المستوطنين. كان صاحبها -وهو استعمارى فعّال- قد قتل اثنين من المدنيين الجزائريين. وصلنا إلى المزرعة ليلاً. ولكننا لم نجد الرجل. ولم يكن فى البيت إلا زوجته. فلما رأتنا أخذت تتضرع إلينا أن لا نقتلها. قالت: «أعرف أنكم جئتم من أجل زوجى، ولكنه ليس هنا... كم مرة قلت له أن لا يتدخل فى السياسة». وتقرر أن ننتظر زوجها. ولكننى كنت أنظر إلى المرأة فأتذكر أمى. كانت جالسة على مقعد وكأنها فى غيبوبة. وتساءلت: لماذا لا نقتلها. وأدركت هى فى لحظة من اللحظات أننى أنظر إليها، فارتمت على وهى تصرخ: «لا تقتلنى... أرجوك... عندى أطفال...». فما هى إلا لحظة حتى كانت ميتة. قتلتها بسكينى. جردنى الرئيس من سلاحى، وأمرنى بالانصراف. واستجوبنى قائد القطاع بعد بضعة أيام. واعتقدت أننى سأعدم، ولكننى لم أعبأ(١). وبعد ذلك أصبحت أتقيأ بعد الطعام، وساء نومى. ثم أصبحت هذه المرأة توافينى فى كل مساء تطلب دمى. ودم أمى أين هو؟».

متى هبط الليل، ورقد المريض فى فراشه، «امتلأت غرفته بنساء» لا يتغيرن. إنهن جميعًا نسخ واحدة لامرأة واحدة. فى بطونهن جميعًا طعنة فاغرة. والدم ينزف منهن جميعًا، وقد اصفرت وجوههن، ونحلن نحولاً رهيبًا. وكانت هذه النساء تلاحق المريض وتطالبه أن يرد إليها دمها المسفوح. فإذا بالمريض يسمع فى هذه اللحظة خرير ماء يجرى، ويتسع الخرير حتى يصبح كهدير شلال، ثم إذا به يرى أرض الغرفة يمتلىء بدمٍ هو دمه، بينما النساء تتورد وجوهها شيئًا فشيئًا وتأخذ جروحها بالاندمال. فيستيقظ المريض وقد بلله العرق واستبد به خوف رهيب، ويظل مضطربًا حتى طلوع الفجر.

(١) بعد التقرير الطبى الشرعى الذى أوضح أن الفعل الذى ارتكبه هذا الشخص ذو طابع مرضى، أوقفت الملاحقات القضائية التى طلبتها قيادة جيش التحرير الوطنى.

عولج المريض الشاب بضعة أسابيع، فزالت هذه الكوابيس الليلية. ولكن ظل في شخصيته صدع كبير. فإنه ما إن يتذكر أمه حتى تتراءى له هذه المرأة المبقورة المرعبة إلى جانبها. وقدرنا أن الزمن وحده يمكن أن يحمل بعض التحسن إلى شخصية هذا المريض الشاب المفككة.

الحالة ٥ – شرطي أوروبي مصاب بهبوط نفسي يلتقي في بيئة المستشفى بأحد ضحاياه، وهو مواطن جزائري مصاب بخبل:

«آ» . . . عمره ٢٨ سنة. متزوج، وليس له أولاد. علمنا أنه يعالج نفسه وزوجته منذ بضع سنين من أجل أن ينجبا أولادًا ولكن دون طائل، للأسف. وقد أرسله إلينا رؤساؤه لاضطرابات في سلوكه.

الاحتكاك المباشر به جيد. وقد حدثنا المريض عن صعوباته من تلقاء نفسه إنه على تفاهم تام مع زوجته، ومع أهلها. علاقاته برفاقه في العمل علاقات طيبة. وهو يحظى عدا ذلك بتقدير رؤسائه. والأمر الذي يزعجه هو أنه يسمع في الليل صرخات تمنعه من النوم. وقد ذكر لنا، فعلاً، أنه منذ عدة أسابيع أخذ يغلق النوافذ قبل النوم (نحن في الصيف)، فيزعج بذلك زوجته التي تختنق من شدة الحر اختناقًا. وأكثر من ذلك أنه يضع في أذنيه قطنًا حتى يخفف حدة الصرخات التي يسمعها. بل إنه في بعض الأحيان يفتح جهاز الراديو ليلاً، أو يصغي إلى موسيقى، حتى لا يسمع تلك الصرخات التي تخترق سمعه في الليل.

ثم أخذ.. يعرض لنا قصته في كثير من الإفاضة:

لقد ألحق منذ بضعة أشهر بفرقة لملاحقة جبهة التحرير الوطني. فكلف في أول الأمر بمراقبة بعض المؤسسات أو المقاهي، ولكنه أصبح بعد بضعة أسابيع يعمل في مفوضية الشرطة باستمرار تقريبًا. وعندئذ إنما أتيح له أن يمارس أعمال الاستجواب، وهي أعمال لا تخلو من «إزعاجات»، لأنهم «لا يريدون أن يعترفوا بشيء».

وشرح «آ» . . . يقول: «إن المرء ليتمنى أن يقول لهم: لو كان فيهم شيء من رحمة بنا لتكلموا، دون أن نضطر إلى قضاء ساعات في انتزاع المعلومات منهم كلمة كلمة. ولكن

أنَّى لك أن نشرح لهم ذلك! إنهم يجيبون على جميع أسئلتك بقولهم: لا أعرف. إذا سألتهم عن أسمائهم قالوا: لا أعرف؛ وإذا سألتهم أين يسكنون قالوا: لا أعرف. وطبعًا. . . لابد لنا عندئذ من العمل . . . ولكنهم يصرخون كثيراً. وكان هذا يضحكنى فى أول الأمر. غير أنه بعد ذلك يهزنى. وأصبحت اليوم أستطيع من مجرد سماع صراخ أحدهم أن أعرف أين هو من الاستجواب، وأى مرحلة من مراحله يقطع. فالفتى الذى لُطم لطمتين وضرب بالمطرقة وراء أذنه، له طريقة خاصة فى الكلام والصراخ وفى قوله إنه برىء. حتى إذا ظل ساعتين معلقًا من قبضته أصبح صوته صوتًا آخر. وبعد المغطس يكون له صوت ثالث، وهكذا دواليك. ولكن بعد الكهرباء خاصة إنما يصبح الأمر لا يطاق. يخيل إلى المرء فى كل لحظة أن الرجل مائت لا محالة. هناك طبعًا أشخاص لا يصرخون: هؤلاء هم القساة. ولكنهم يتخيلون أنهم سيُقتلون فوراً. ونحن لا يهمنا أن نقتلهم، وإنما يهمنا أن نحصل منهم على معلومات. لذلك فإن أول ما نفعله بهؤلاء هو أن نجبرهم على الصراخ، وذلك ما يصلون إليه عاجلاً أو آجلاً. هذا وحده نصر. ثم نستمر. لاحظ أننا نتمنى لو نتفادى ذلك كله. ولكنهم لا يسهلون مهمتنا. وقد أصبحت الآن أسمع هذا الصراخ حتى فى بيتى. وخاصة صراخ عدد منهم ماتوا فى المفوضية. لقد اشمأززت من هذا العمل يا دكتور فإذا شفيتنى طلبت نقلى إلى فرنسا، فإن رفضوا نقلى استقلت».

وإزاء هذا أمرت للمريض بإجازة مرضية. وإذ رفض دخول المستشفى، أخذت أعالجه فى بيتى. وفى ذات يوم، قبل حلول موعد جلسة معالجته بقليل، استُدعيت إلى الدائرة استدعاءً مستعجلاً. فلما وصل «آ» . . . إلى بيتى، طلبت إليه زوجتى أن ينتظرنى، ولكنه آثر أن يمضى يجول جولة فى المستشفى فيلقانى هنالك. وبعد بضع دقائق، بينما كنت عائدًا إلى البيت، وجدته فى الطريق، مستنداً إلى شجرة، مرهقًا إرهاقًا واضحًا، مرتجفًا مبللاً بالعرق، يعانى نوبة قلق قوى. فأركبته سيارتى ونقلته إلى بيتى. فلما استقر على الديوان روى لى أنه التقى فى المستشفى بواحد من مرضاى سبق أن استجوب فى مراكز، الشرطة (هو مواطن جزائرى) وهو يعالج الآن من «اضطرابات سلوكية من نوع الخبل». فعلمت عندئذ أن هذا الشرطى قد اشترك فعلاً فى أنواع التعذيب التى أوقعوها فى ذلك المريض. ووصفت للمريض «آ» . . . بعض المسكنات التى من شأنها أن تخفف قلقه. وعدت بعد

انصرافه إلى الجناح الذى يستشفى فيه المواطن. إن الموظفين فى المستشفى لم يلاحظوا شيئًا. ولكن المريض كان قد اختفى. واكتشفوه أخيرًا فى المرحاض يحاول الانتحار (لقد عرف المواطن الشرطى أيضًا، واعتقد أنه جاء يقبض عليه ليقوده مرة أخرى إلى مراكز الشرطة).

وقد جاءنى آ. . . بعد ذلك عدة مرات، حتى إذا تحسنت صحته تحسنًا واضحًا، استطاع أن يحصل على أمر بترحيله إلى بلاده لأسباب صحية. أما المواطن الجزائرى فقد جهد الموظفون فى المستشفى أن يقنعوه بأنه واهم، وبأن رجال الشرطة لا يمكن أن يأتوا إلى المستشفى، وبأنه متعب، وبأنه جىء به إلى هنا للمعالجة، الخ.

الحالة ٥: مفتش أوروبى يعذب امرأته وأولاده:

«ر». . . العمر ثلاثون عامًا. جاء يستشيرنا من تلقاء نفسه. إنه مفتش فى الشرطة، وهو يلاحظ منذ بضعة أسابيع أن حالته ليست طبيعية. متزوج. له ثلاثة أولاد. يدخن كثيرًا: مائة سيجارة فى اليوم. فقد شهوة الطعام، وأصبح نومه مليئًا بأحلام مزعجة (كوابيس). وليس لهذه الكوابيس خصائص معينة. الذى يضايقه أكثر من أى شىء آخر هو ما يسميه «نوبات الجنون». من ذلك أولاً أنه لا يحب أن يُعارض. قال: «فسر لى هذا الأمر يا دكتور. إننى متى صادفت معارضة ما أحسست برغبة فى الضرب. حتى فى خارج عملى أتمنى أن أعذب من يعترض طريقى. أى شىء تافه يثير فى نفسى هذه الرغبة. خذ هذا المثال: ذهبت مرة إلى بائع الجرائد لأخذ جرائدى. كانت هنالك ناس كثير. لابد إذن من الانتظار. مددت ذراعى لأخذ جرائدى (بائع الجرائد صديق لى) فإذا بأحد الواقفين فى طابور الانتظار يقول لى بشىء من التحدى: «انتظر دورك». فشعرت برغبة فى أن ألطمه، وقلت بينى وبين نفسى: «لو أوقفتك بضع ساعات يا عزيزى، لأقللت من المشاغبة بعد ذلك». وهو لا يحب الضجة. وفى البيت يتمنى لو يضرب جميع من فى البيت، طوال الوقت. بل هو يضرب أولاده فعلاً، حتى ابنه الصغير الذى لا يزيد عمره على عشرين شهرًا، يضربهم بوحشية نادرة.

غير أن الأمر الذى أخافه «هو أن امرأته انتقدته فى ذات مساء، لأنه ضرب أولاده (حتى لقد قالت له: يمينًا لقد جُننت) فما كان منه إلا أن ارتمى عليها، وأخذ يضربها، ثم أوثقها على كرسى وهو يقول لها: «سأعلمك إلى الأبد أننى أنا السيد فى هذا البيت».

ومن حسن الحظ أن أولاده أخذوا يبكون ويصرخون. فأدرك عندئذ خطورة ما جنت يداه؛ فحل وثاق امرأته، وقرر في الغداة أن يستشير طبيبًا «أخصائيًا في الأعصاب». قال لنا: «إنه لم يكن من قبل كما هو الآن، وأنه كان لا يعاقب أولاده إلا نادرًا، ولا يتشاجر مع زوجته أبدًا على كل حال، وأن سلوكه الحالي إنما ظهرت أعراضه عند قيام «الأحداث» الجارية. وشرح ذلك بقوله: «إننا نقوم الآن بأعمال سلاح المشاة. في الأسبوع الماضي مثلاً خضنا معركة كما لو كنا ننتمي إلى الجيش. إن هؤلاء السادة، رجال الحكومة، يدَّعون أنه ليس في الجزائر حرب، وأن على قوى الأمن، أي الشرطة، أن يعيدوا الهدوء إلى نصابه. غير أن في الجزائر حربًا، وحين سيدركون ذلك، سيكون الأوان قد فات. والشيء الذي يقتلني خاصة إنما هو التعذيب. أهذا لا يهمك أنت؟ . . . إنني أظل أعذب في بعض الأحيان عشر ساعات. . . ؟

– ما الذي يحدثه التعذيب في نفسك. . .

– أتعب. . . صحيح أن هناك فترات راحة للمعذِّبين. ولكن أحدنا لا يعرف متى يعهد بإتمام العمل إلى زميله. ذلك أن المسألة عندنا هي ما يلي: هل تستطيع أن تحمل هذا الرجل على أن يتكلم؟ إنها مسألة انتصار شخصي. نحن نتنافس. وتتحطم قبضات أيدينا آخر الأمر. وقد أصبحوا يستعينون بالسنغاليين. ولكن هؤلاء السنغاليين إما أن يضربوا ضربًا مسرفًا في الشدة فيهدموا الرجل في نصف ساعة، وإما أن يضربوا ضربًا مسرفًا في اللين، لا يؤدي إلى نتيجة. الواقع أن عمل المرء أن يكون ذكيًا حتى ينجح في هذا العمل. يجب أن يعرف متى يشتد ومتى يلين. المسألة حذق. ولذلك لابد أن يتولى المرء العمل بنفسه، لأنه يستطيع عندئذ أن يراقب تقدم الاستجواب مراقبة أكمل. أنا أخالف أولئك الذين يعهدون بتحضير الشخص إلى آخرين، ولا يزيدون على أن يجيئوا كل ساعة ليروا ما وصل إليه الأمر. ويجب خاصة أن لا يشعر الشخص المعذب بأنه لن يخرج من بين أيدينا حيًا، وإلا قال لنفسه: فيم أتكلم ما دام الكلام لا ينقذ حياتي! وفي هذه الحالة لا يمكن أن نعرف أي شيء. يجب أن نترك للشخص المعذَّب أملاً: الأمل هو الذي ينطقه.

«غير أن ما يزعجني أكثر من أي شيء آخر هو قصة امرأتي. إنه لأكيد أن بي شيئًا من جنون. يجب أن تشفيني من هذا يا دكتور».

وإذ رفضت السلطات التى يتبعها هذا المريض أن تمنحه إجازة راحة، وإذ كان هو نفسه من جهة أخرى لا يريد أن يحصل على شهادة من طبيب أمراض عقلية، فقد بدأنا بمعالجته وهو «يقوم بعمله». وواضح أن مثل هذا الإجراء ضعيف. فلقد كان الرجل يعلم حق العلم أن اضطراباته ناشئة مباشرة عن نوع العمل الذى يقوم به فى قاعات الاستجواب، وإن يكن قد حاول أن يلقى التبعة بوجه إجمالى على «الأحداث» الخارجية. ولما كان لا يفكر فى التوقف عن القيام بأعمال التعذيب (إذ إن معنى ذلك أن يستقيل)، فقد طلب إلىّ، من غير لف ولا دورن، أن أساعده على أن يعذب المواطنين الجزائريين دون أن يصاب من ذلك باضطراب فى السلوك، أى أن يعذبهم بهدوء وجأش رابط[1].

السلسلة ب

جمعنا هنا حالات أو فئات حالات كان فيها الحادث الذى أطلق المرض هو أولاً وقبل كل شىء جو الحرب الشاملة، الذى يرين على الجزائر.

الحالة ١ – اثنان من الفتيان الجزائريين عمرهما ١٣ سنة و١٤ سنة، يقتلان رفيقًا أوروبيًا من رفاقهما فى اللعب:

نحن هنا إزاء تقرير من تقارير الطب الشرعى. صبيان جزائريان عمرهما ١٣ و ١٤ سنة، تلميذان فى مدرسة ابتدائية، اتهما بقتل أحد رفاقهما الأوروبيين. وقد اعترف الصبيان بأنهما ارتكبا هذا الفعل. وأعيد تمثيل الجريمة، وضمت الصور الفوتوغرافية إلى إضبارتهما. ففى هذه الصور نرى أحد الصبيين يمسك الضحية، بينما يطعنها الثانى بسكين. لم يتراجع المتهمان الصغيران عن اعترافاتهما. وقد أجرينا معهما محادثات طويلة. ونحن ننقل إلى القارئ فيما يلى أقوالهما التى لها صفة مميزة:

أ– الصبى الذى عمره ١٣ سنة:

«لم نكن غاضبين منه. كنا نذهب فى جميع أيام الخميس معًا إلى الصيد بالنقّافة، على الرابية التى تعلو القرية. وكان رفيقًا لنا طيبًا. وكان قد انقطع عن الذهاب إلى المدرسة،

(١) نحن فى هذه الحالة إزاء مرض يؤلف مجموعة منسجمة لا تدع شيئًا من الأشياء سليمًا. إن الجلاد يحب الطيور أو يستمتع فى خلوة هادئة بسمفونية أو سوناتة ليست حالته إلا مرحلة، وبعد ذلك تستحيل حياته إلى سادية جذرية مطلقة.

لأنه كان يريد أن يصبح بنَّاء كأبيه. وفى ذات يوم قررنا أن نقتله، لأن الأوروبيين يريدون أن يقتلوا جميع العرب. ونحن لا نستطيع أن نقتل «الكبار»، ولكننا نستطيع أن نقتله هو، لأنه فى مثل سننا. وكنا لا نعرف كيف نقتله. أردنا أن نرميه فى حفرة، ولكن لو رميناه فى حفرة لجُرح فقط. لذلك أخذنا سكينًا من البيت وقتلناه.

– ولكن لماذا وقع اختياركما عليه هو؟

– لأنه يلعب معنا وما كان لولد آخر أن يصعد معنا إلى الرابية.

– ولكنه رفيق لكما؟

– ولماذا يريدون هم أيضًا أن يقتلونا؟ إن أباه منخرط فى المليشيا، ويقول: إنه يجب ذبحنا.

– ولكن هل قال هو لك شيئًا من هذا القبيل؟

– هو؟ لا..

– هل تعلم أنه الآن ميت؟

– نعم..

– ما هو الموت؟

– هو أن ينتهى الأمر، ويذهب الشخص إلى السماء.

– أأنت الذى قتلته؟

– نعم..

– هل تشعر بندامة على أنك قتلت أحدًا؟

– لا، ما داموا يريدون أن يقتلونا...

– هل يزعجك أنك فى السجن؟

– لا..

ب– الصبى الذى عمره ١٤ سنة:

إن هذا الفتى المتهم يختلف عن رفيقه اختلافًا واضحًا. إنه يوشك أن يكون رجلاً من الآن، يوشك أن يكون راشدًا بحركات جسمه، وشكل وجهه، ولهجة كلامه، ومضمون أجوبته. هو أيضًا لا ينكر أنه قتل. فلما سألته لماذا قتل، لم يجبني، بل سألني هل رأيت في حياتي أوروبيًا في السجن، فأجبته بأنني حقًا لم أرَ في حياتي أوروبيين سجناء.

ومع ذلك هناك جزائريون يُقتلون كل يوم؛ أليس هذا صحيحًا؟

- صحيح . . .

- إذن لماذا لا نجد في السجون إلا جزائريين؟ هل تستطيع أن تفسر لي هذا الأمر؟

- لا . . ولكن قل لي لماذا قتلت ذلك الصبي الذي كان رفيقًا لك؟

- سأشرح لك . . . هل سمعت بقضية ريفية[1]؟

- نعم . .

- لقد قُتل اثنان من أقربائي في ذلك اليوم. وقيل يومئذ عندنا إن الفرنسيين حلفوا ليقتلننا جميعًا بعضًا في إثر بعض. فهل اعتقل فرنسي واحد بسبب مقتل جميع هؤلاء الجزائريين؟

- لا أعلم.

- فاعلم إذن أنه لم يعتقل أحد. وقد أردت أنا أن أصعد إلى الجبال، لكني صغير. فقررت مع «س» . . أن من الواجب أن نقتل أوروبيًا.

- لماذا؟

- وما الذي كان يجب أن نفعله في رأيك؟

- لا أدري. ولكنك طفل، وهذه الأمور التي تحدث إنما هي من شأن الكبار.

- ولكنهم يقتلون أطفالاً أيضًا . . .

- ولكن هذا لا يبرر قتلك رفيقك.

(١) قرية أصبحت شهيرة في مقاطعة الجزائر منذ أحد أيام سنة ١٩٥٦. ذلك أن جنودًا من المليشيا الفرنسية هاجموا هذه القرية في ذات مساء، فانتزعوا أربعين جزائريًا من أسرتهم وقتلوهم.

- قتلته. وافعلوا الآن ما تشاؤون.

- هل أساء إليك هذا الرفيق إساءة ما؟

- لم يسىء إلى.

- إذن؟

- هذا ما حصل . . .

الحالة ٢: شاب جزائرى عمره ٢٢ عامًا يهذى هذيان اتهام، ويسلك سلوكًا انتحاريًا مقتنعًا بأنه يقوم «بعمل إرهابى»:

أرسل هذا المريض إلى المستشفى من قبل السلطة القضائية الفرنسية. وقد اتخذ هذا الإجراء بعد شهادة طبية شرعية قدمها أطباء فرنسيون يمارسون مهنة الطب العقلى فى الجزائر.

رجل ناحل، يعانى حالة خلط شديد. جسمه مغطى بكدمات، وفى فكه كسران يجعلان أى ابتلاع للأطعمة مستحيلاً. ولذلك ظل المريض خلال أكثر من أسبوعين يُغذى بحقن مختلفة.

بعد انقضاء أسبوعين خفت حالة الفراغ الفكرى، وأمكننا أن نحقق بعض الاتصال به، أوصلنا إلى تصور القصة الدرامية التى عاشها هذا الشاب:

كان فى فتوته يمارس الكشفية بحماسة نادرة، حتى أصبح من المسئولين الرئيسيين فى الحركة الكشفية الإسلامية. ولكنه حين بلغ التاسعة عشرة من عمره أهمل الكشفية إهمالاً تامًا، وأصبح لا يُعنى إلا بمهنته. فكان يدأب على الدروس دأبًا شديدًا ويحلم أن يصبح إخصائيًا ممتازًا فى حرفته التى انقطع لها، وهى حرفة ميكانوغراف. فلما انطلقت الثورة يوم أول تشرين الثانى من عام ١٩٥٤، كان غارقًا فى مشكلات مهنية صرفة، فلم يستجب أية استجابة لحركة التحرير الوطنى. وكان قد انقطع عن رفاقه القدامى قبل ذلك. وقال عن نفسه يومئذ إنه «مجند لتحسين قدراته التكنيكية».

ومع ذلك ففى منتصف عام ١٩٥٥، أثناء سهرة عائلية، أحس فجأة أن أهله يعدونه

خائنًا. وامَّحى هذا الإحساس بعد بضعة أيام، ولكن بقى له منه شيء من القلق أو شيء من الانزعاج لم يستطع أن يفهمه.

أصبح يتناول طعامه بسرعة، ويهرب من البيئة العائلية، ويعتزل فى غرفته. إنه يتحاشى أى اتصال بأحد. وفى هذه الظروف إنما وقعت كارثته. ففى ذات يوم، بينما كان سائرًا فى الشارع، فى نحو الساعة الثانية عشرة والنصف، سمع صوتًا واضحًا يصفه بأنه خائن. فالتفت إلى وراء ولكنه لم يرَ أحدًا. فحث الخطى وقرر أن لا يذهب إلى عمله بعد اليوم. ولبث فى غرفته ولم يتناول طعام العشاء. وفى أثناء الليل وافته النوبة، فكان خلال ساعات ثلاث يسمع جميع أنواع الشتائم، أصواتًا فى رأسه وفى الليل: «يا خائن، يا جبان... إخوتك جميعًا يموتون... خائن... خائن...».

استولى عليه قلق لا سبيل إلى وصفه: «ظل قلبى، خلال ثمانى عشرة ساعة، يخفق ١٣٠ خفقة فى الدقيقة. واعتقدت أننى مائت».

ومنذ ذلك اليوم أصبح المريض لا يستطيع أن يبلع شيئًا. فنحل نحولاً ظاهرًا، وانزوى فى ظلام مطبق، وأصبح يرفض أن يفتح الباب لأبويه. وفى اليوم الثالث ارتمى يصلى، فكان يظل ساجدًا مدة ١٧-١٨ ساعة كل يوم، كما قال. وبعد أربعة أيام رأى نفسه يندفع إلى الشارع «كالمجنون»، «بلحية كان من شأنها أيضًا أن تحمل من يراه على أن يحسب أنه مجنون». فلما أصبح فى الشارع لم يعرف أين يذهب. ولكنه ظل يسير، فرأى نفسه بعد زمن فى المدينة الأوروبية. وكانت سحنته (يُلاحظ أنه يشبه أن يكون أوروبيًا) تحميه من استيقافات الدوريات الفرنسية ومراقباتها، على حين أن جزائريين وجزائريات كانوا حواليه يُوقَفون ويُضربَون ويُشتَمون ويُفتَّشون.. ومن الصدف أنه لم يكن يحمل أية ورقة. فكان من شأن هذه اللباقة العفوية من جانب الدوريات العدوة أن عززت هذيانه: «جميع الناس يعلمون أنه مع الفرنسيين. حتى الجنود لديهم تعليمات بأن لا يتعرضوا له».

وأكثر من ذلك أن نظرات الجزائريين المستوقَفين الذين رفعوا أيديهم وراء النقرة ينتظرون تفتيشهم، بدت له مليئة بالاحتقار. فاضطرب اضطرابًا شديدًا، وأسرع يبتعد. وفى تلك اللحظة وصل إلى العمارة التى فيها قيادة الجيش الفرنسى فرأى على الباب الحديدى عددًا

من العسكريين يحملون مدافع رشاشة. فتقدم نحو الجنود وهجم على أحدهم يحاول أن ينتزع منه مدفعه وهو يقول: «أنا جزائرى».

فسرعان ما قبضوا عليه، وقادوه إلى مراكز الشرطة، حيث أصر المستجوبون على أن يعترف لهم بأسماء رؤسائه، وبأسماء مختلف أعضاء الشبكة التى ينتمى إليها. وأدرك رجال الشرطة والعسكريون بعد بضعة أيام أن الرجل مريض. فقرروا إحالته إلى الطبيب الشرعى الذى شهد بأنه يشكو من اضطرابات عقلية، ونصح بإدخاله المستشفى. قال لنا: «إن ما كنت أريده هو أن أموت. وحتى عند الشرطة كنت اعتقد وآمل أن يقتلونى بعد التعذيب. كنت سعيداً بالضرب، لأنه يبرهن لى على أنهم يعدوننى أنا أيضًا عدواً لهم. لقد أصبحت لا أطيق أن أسمع تلك الاتهامات دون أن أرد عليها. لست جبانًا. لست امرأة. لست خائنًا»[1].

الحالة ٣- حالة عصابية لدى شابة فرنسية قُتل أبوها، الموظف الكبير، أثناء كمين:

إن هذه الفتاة، وهى طالبة فى العام الحادى والعشرين من عمرها، قد استشارتنى فى أمر ظاهرات صغيرة من نوع القلق تضايقها فى دراستها وفى علاقاتها الاجتماعية. راحتا كفيها مخضلتان دائمًا، حتى لقد تمر فترات مقلقة حقًا «يسيل فيها الماء من يديها سيلانًا». تشعر بانقباضات صدرية مصحوبة بصداع فى الليل. وهى تقضم أظافرها. غير أن الشيء الذى يخطف البصر خاصة هو سهولة الاتصال بها اتصالاً سريعًا جداً، فى حين يُلاحظ أن وراء ذلك قلقًا كبيراً. وحين أشارت المريضة إلى موت أبيها الذى لم يمض على موته زمن طويل، أشارت إلى ذلك بخفة كبيرة جعلتنا نوجه بحوثنا نحو علاقاتها بأبيها. إن الكلام الذى قالته لنا، وهو كلام واضح، صاحٍ كل الصحو، صاحٍ صحواً يقارب فقدان العاطفة، هو الذى كشف لنا بطابعه العقلى نفسه، عن الاضطراب الذى تعانيه هذه الفتاة، وعن طبيعة الصراع الذى يقوم فى نفسها وعن أصل هذا الصراع.

---

(١) فى خلال عام ١٩٥٥ زادت الحالات التى من هذا النوع زيادة كبيرة. ومن المؤسف أنه لم يُتح لجميع المرضى حظ الوصول إلى المستشفى.

«كان أبى موظفًا من كبار الموظفين. كانت منطقة ريفية واسعة تحت إمرته. ومنذ بدأت الأحداث أخذ يطارد الجزائريين بحنق مسعور، حتى أصبح لا يأكل ولا ينام من فرط ما كان يهتاج فى سبيل قمع العصيان. لقد شهدت التحول البطىء الذى عاناه أبى، دون أن أستطيع أن أفعل شيئًا البتة. وقرت أخيرًا أن لا أزوره، وأن أبقى فى المدينة. ذلك أننى كلما ذهبت إلى البيت كنت أظل مستيقظة ليالى برمتها، لأن أصواتًا صاعدة من أسفل كانت تظل تقرع سمعى: ففى القبو وفى الحجرات التى أصبحت أمكنة للتعذيب، كان يُعذب جزائريون بغية الحصول منهم على معلومات. إنك لا تستطيع أن تتصور فظاعة ما يحدثه هذا الصراخ طوال الليل فى النفس. وقد تساءلت فى بعض الأحيان كيف يطيق كائن إنسانى أن يسمع صراخ الألم هذا، ناهيك عن القيام بالتعذيب. وكان ذلك يستمر. وانقطعت آخر الأمر عن المجىء إلى البيت. وفى المرات النادرة التى جاء فيها أبى إلى المدينة كنت لا أستطيع أن أنظر إلى وجهه إلا وأشعر بانزعاج شديد ورعب فظيع. وأصبح يشق على نفسى أن أقبِّله.

«ذلك أننى أقمت فى القرية زمنًا طويلاً. حتى لأكاد أعرف جميع أسرها. وما أكثر ما لعبنا معًا، أنا وهؤلاء الشبان الجزائريون الذين هم فى سنى، حين كنا صغارًا. وكلما جئت إلى البيت أنبأنى أبى أن أشخاصًا آخرين قد اعتقلوا. وأصبحت فى آخر الأمر لا أجرؤ أن أسير فى الشارع ليقينى بأننى سألقى الكره أنى ذهبت. وفى قرارة نفسى كنت أرى أن هؤلاء الجزائريين على حق. فلو كنت جزائرية لالتحقت بالمقاتلين».

وفى ذات يوم أثناء ذلك تلقت برقية تنبئها أن أباها قد أصيب بجراح خطيرة. فذهبت إلى المستشفى فوجدته غائبًا عن وعيه. ومات بعد ذلك بقليل. لقد جرح أبوها أثناء حملة تفتيشية قام بها مع فصيل عسكرى، فوقعت الدورية فى كمين أعده الجيش الوطنى الجزائرى.

قالت الفتاة: «لقد قززنى الدفن. إن جميع أولئك الضباط الذين جاءوا يبكون أبى الذى «جعلته مزاياه الأخلاقية الرفيعة يغزو قلوب سكان البلاد» قد أثاروا فى نفسى الغثيان. لقد كانوا يعلمون جميعًا أن ذلك كذب. وما من أحد يجهل أن أبى كان يدير مراكز

الاستجواب فى المنطقة كلها. إنهم يعلمون أن قتلى التعذيب كان يبلغ عددهم عشرة فى اليوم، وها هم أولاء يرددون الأكاذيب عن الإخلاص والتضحية وحب الوطن وما إلى ذلك . . . يجب أن أقول إن الألفاظ لم يبق لها فى نظرى قيمة، أو لم يبق لها قيمة كبيرة على كل حال. وعدت إلى المدينة فوراً، وتهربت من جميع السلطات. عرضوا على مساعدات مالية، ولكننى رفضت. لا أريد مالهم. إنه ثمن الدم الذى سفحه أبى. لا أريده. سوف أعمل».

الحالة ٤: اضطرابات فى السلوك لدى صبيان جزائريين، عمرهم أقل من ١٠ سنين:

هم أطفال لاجئون، أبناء مجاهدين أو مدنيين قتلهم الفرنسيون، فرحلوا إلى مراكز مختلفة بتونس والمغرب. لقد أُدخل هؤلاء الأطفال المدارس. ويشرف عليهم بعض الأطباء إشرافًا منتظمًا. وبذلك إنما أتيح لنا أن نرى عدداً منهم:

أ- إن لدى هؤلاء الأطفال المختلفين حبًا قويًا جداً للصور التى تمثل الأبوين. فهم يسعون سعيًا حثيثًا إلى كل ما يشبه أبًا أو أمًا، ويحرصون على المحافظة عليه أشد الحرص.

ب- يلاحظ فيهم عامة أنهم يخافون الضجة خوفًا شديداً، ويتأثرون تأثراً قويًا حين يُؤنَّبون. إنهم فى ظمأ شديد إلى الهدوء والعطف.

ج- كثير منهم يعانون الأرق ويسيرون أثناء النوم.

د- يبللون الفراش من حين إلى حين.

هـ- ميل سادى. هذه لعبة شائعة بينهم: قطعة من الورق يشدونها ويأخذون يثقبونها بالدبوس فى كثير من الحنق. يعضون جميعًا أقلامهم. يقضمون أظافرهم بدأب لا ينفع فيه نصح. يتشاجرون كثيراً رغم ما بينهم من عاطفة قوية.

الحالة ٥: حالات ذُهان الولادة لدى اللاجئات:

يطلق اسم ذُهان الولادة على الاضطرابات العقلية التى تظهر فى المرأة عند الأمومة. وهذه الاضطرابات يمكن أن تظهر قبل الولادة رأسًا أو بعد الولادة ببضعة أسابيع. وأسباب هذه الأمراض معقدة جداً. ولكن يقدر الباحثون أن السببين الأساسيين هما البلبلة التى

تطرأ على عمل الغدد الصماء، ووجود «صدمة عاطفية». وهذا العامل الأخير، وإن يكن غامضًا، يشمل كل ما تسميه العامة «انفعالاً كبيرًا».

فمنذ القرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية بأن تُتبع سياسة الأرض المحروقة على مئات الكيلو مترات، أصبح يوجد على الحدود التونسية والمغربية ما يقرب من ٣٠٠,٠٠٠ لاجىء. ويعرف المطلعون حالة العوز الشديد التى يعيش فيها هؤلاء اللاجئون. لقد انتقلت إلى هذه الأماكن بعثات من الصليب الأحمر الدولى، فلما اطلعت على البؤس الشديد وعلى الظروف القلقة التى تكتنف معيشة هؤلاء التعساء أوصت المنظمات الدولية بزيادة المساعدات التى تقدم إليهم زيادة كبيرة جدًا. فمن المتوقع إذن، بسبب سوء التغذية فى هذه المعسكرات، أن تكون النساء الحوامل متأهبات تأهبًا خاصًا لانطلاق أمراض ذهان الولادة فيهن.

إن الغزوات المتكررة التى تقوم بها القطعات الفرنسية، مطبقة «حق التتبع والمطاردة»، وكذلك الحملات الجوية وعمليات القصف بالقنابل -من المعلوم أن عمليات قصف الأراضى المغربية والتونسية بالقنابل من قبل الجيش الفرنسى أصبحت لا يحصى عددها، ويعد قصف ساقية سيدى يوسف، القرية التونسية الشهيرة، أدماها -وأيضًا تبعثر أفراد العائلة نتيجة لظروف الرحيل ذلك كله يحيط هؤلاء اللاجئين بجو دائم من الشعور بعدم الأمان. ويجب أن نعلن أن اللاجئات الجزائريات اللواتى لم تظهر فيهن اضطرابات عقلية قلة قليلة.

وهذه الاضطرابات تكتسى أشكالاً عدة. فهى تارة هيجانات يمكن أن تتجلى فى سورات عنيفة من الحنق، وهى تارة حالات هبوط نفسى شديد يتميز بالسكون مع محاولات انتحار متكررة، وهى تارة حالات خوف مصحوب ببكاء وانتحاب واستغاثة وما إلى ذلك. وكذلك يتنوع مضمون الهذيانات التى تلاحظ فيهن. فهى تارة هذيان اضطهاد مبهم يتناول أى شخص من الأشخاص، وهو تارة هجوم هذيانى على الفرنسيين الذين يريدون الطفل الذى سيولد أو الذى وُلد منذ قليل، وهو تارة شعور بأن الموت وشيك، والمريضات فى هذه الحالة الأخيرة يضرعن إلى جلادين لا يُرون أن لا يقتلوا أولادهن.

ويجب أن نذكر هنا أيضًا أن المضامين الأساسية للهذيان لا يطردها تطامن المرض

وتراجع الاضطرابات، فإن الظروف التى تعيشها المريضة بعد الشفاء تظل تغذى فيها هذه العقد المرضية.

السلسلة ج: تبدلات عاطفية عقلية، واضطرابات نفسية بعد التعذيب.

تجمع فى هذه السلسلة المرضى الذين ظهرت اضطراباتهم، الخطيرة كثيرًا أو قليلاً، بعد التعذيب رأسًا أو أثناء التعذيب، وسنصف فئات فرعية منهم، إذ لقد أدركنا أن لكل طريقة من طرق التعذيب نماذج مرضية خاصة، بغض النظر عن كون إصابة الشخصية قوية أو عميقة.

الفئة أ: بعد التعذيب العام الذى يسمونه تعذيبًا وقائيًا:

نشير هنا إلى الطرائق الوحشية التى لا يُقصَد منها أن تكون تعذيبًا بقدر ما يقصد منها أن تجبر المعذَّب على الكلام. والمبدأ الذى يقول إن الألم حين يبلغ حدًا معينًا يصبح ألمًا لا يطاق، هذا المبدأ له هنا أهمية خاصة، فالغاية إذن هى الوصول إلى هذا الحد الذى لا يطاق، بأقصى سرعة ممكنة. إن التعذيب المحكم لا يستعمل فى هذه الحالة، وإنما يعمد المعذبون إلى هجوم كبير متعدد الأشكال: فيكون هنالك عدد من رجال الشرطة يضربون السجين فى آن واحد، يطوقه أربعة منهم ويأخذون يتراشقونه بالضرب، بينما يحرق واحد صدره بسيجارة ويضرب آخر راحتى قدميه بعصا.. بعض طرائق التعذيب المستعملة فى الجزائر قاسية قسوة خاصة، وقد حدثنا عنها أشخاص استعملت فى تعذيبهم.

أ- حقن الشخص بماء عن طيق الفم، مع غسل بماء قوىٍّ الضغط فيه صابون.

ب- إدخال زجاجة فى الشرج.

وهناك شكلان من التعذيب يقال لهما التعذيب «بالسكون»:

ج- يركع السجين على ركبتيه، ويرفع ذراعيه موازيتين للأرض، موجهًا راحتيهما إلى السماء، جاعلاً صدره ورأسه منتصبين. ولا يسمح له بالقيام بأية حركة. ووراءه يجلس شرطى على كرسى، فإذا تحرك رده إلى السكون بضربات من عصا ذات عقد.

د- يقف السجين جاعلاً وجهه إلى الجدار، رافعًا ذراعيه، لاصقًا يديه بالحائط. وهنا أيضًا لا يجوز له أن يتحرك، حتى إذا استرخى أى استرخاء انهالت عليه الضربات.

ولنذكر هنا أن ثمة نوعين من المعذبين:

١ - أولئك الذين يعرفون شيئًا ما.

٢- أولئك الذين لا يعرفون شيئًا.

١ - فأما الذين يعرفون شيئًا ما فقلما يجيئون إلى المؤسسات الصحية. إنه يُعرف طبعًا أن فلانًا من المواطنين قد عُذب فى السجون الفرنسية، ولكن لا يُرى كمريض.

٢- وأما الذين لا يعرفون شيئًا فإنهم كثيرًا ما يجيئون يستشيروننا. ولسنا نتحدث هنا عن الجزائريين الذين يُضربون أثناء حملة تطهيرية. فهؤلاء أيضًا لا يجيئون إلينا مرضى. وإنما نحن نتكلم عن أولئك الجزائريين غير المنخرطين فى منظمات، الذين يُعتقلون ويُقادون إلى مراكز الشرطة أو مزارع الاستجواب ليُستنطقوا.

الأمراض النفسية المشاهدة

أ- حالات هبوط مضطرب: ٤ حالات.

هم مرضى يبدو عليهم الحزن، من غير خوف حقيقى، يعانون هبوطًا شديدًا، فلا يبارحون أسرَّتهم، ولا يتصلون أى اتصال بالناس، ثم يظهر فيهم على حين فجأة اضطراب عنيف أشد العنف يصعب دائمًا أن تفهم دلالته.

ب- فقدان القدرة على تناول الطعام: ٥ حالات.

إن مشكلات هؤلاء المرضى خطيرة، إذ إن فقدانهم قدرتهم على تناول الطعام لأسباب نفسية، مصحوب بخوف شديد من أية ملامسة جسمية، فإذا اقترب الممرض من المريض وحاول أن يلمسه، أن يتناول يده مثلاً، رده المريض عنه فى قسوة. فليس من الممكن إمداد هؤلاء المرضى بتغذية اصطناعية أو تجريعهم أدوية[1].

ج- فقدان الاستقرار الحركى: ١١ حالة.

نحن هنا إزاء مرضى لا يستقرون فى مكان. وهم منزوون دائمًا، ويصعب أن يقبلوا الانحباس مع الطبيب فى مكتبه.

(١) على الهيئة الطبية أن تتناوب العمل ليلاً نهارًا فى إفهام المريض بالشرح. وواضح أن الطريقة القائلة بقسر المريض قليلاً، لا يمكن أن ينفع استعمالها هنا.

إن هناك شعورين ظهرا لنا شائعين لدى هذه الفئة الأولى من الذين نالهم التعذيب:

أولهما الشعور بالظلم. كأن شيئًا لدى هؤلاء الرجال قد انكسر بعد أن عُذبوا ليالى وأيامًا من أجل لا شىء. وقد عانى أحد هؤلاء المعذبين تجربة مؤلمة خاصة: فبعد أن عذب أيامًا برمتها من غير طائل، اقتنع رجال الشرطة أنهم إزاء شخص مسالم، غريب تمامًا عن تلك الشبكة من شبكات جبهة التحرير الوطنى. ولكن مفتش الشرطة قال لهم رغم ذلك الاقتناع: «لا تتركوه هكذا. شدوا عليه قليلاً أيضًا. فبذلك يبقى هادئًا بعد أن يخرج»[1].

والثانى عدم الاكتراث بأى حجة أخلاقية. فهؤلاء المرضى يعتقدون أنه ليس هناك قضية عادلة، إن القضية المعذَّبة قضية ضعيفة. وعلى المرء إذن قبل كل شىء أن يهتم بزيادة قوته، وأن لا يتساءل عن عدالة قضية من القضايا. فلا قيمة للقوة.

الفئة ٢: بعد التعذيب بالكهرباء:

أدرجنا فى هذه الفئة الوطنيين الجزائريين الذين عُذبوا خاصة بالكهرباء. والواقع أن الكهرباء كانت فى السابق وسيلة من جملة وسائل التعذيب ثم أصبحت ابتداء من شهر أيلول ١٩٥٦ الوسيلة الوحيدة فى بعض الاستجوابات.

الأمراض النفسية المشاهدة

أ- أمراض فى الإحساسات تتناول أجزاء معينة من الجسم أو تشمل الجسم كله: ٣ حالات.

هم مرضى يشعرون بتنميل فى الجسم، بأن اليد تقلع، بأن الرأس ينفجر، بأن اللسان يُبلع.

ب- فقدان العاطفة، فقدان الإرادة، فقدان الاهتمام: ٧ حالات.

هم مرضى ساكتون لا يتحركون، ليس لهم هدف، ليس فيهم دافع، يعيشون حياتهم يومًا يومًا.

(١) أن هذا التعذيب الوقائى يصبح فى بعض المناطق «قمعًا وقائيًا». وعلى هذا الأساس أينا فى ريفه أن المستوطنين الفرنسيين، وقد أرادوا أن لا يؤخذوا على حين غرة، (إذ بدأت المناطق المجاورة تتحرك) قرروا أن يبيدوا، هكذا بكل بساطة، أولئك الذين ربما كانوا أعضاء فى جبهة التحرير الوطنى، فقتلوا أكثر من أربعين جزائريًا فى آن واحد. غم أن الهدوء كان يسود المنطقة.

ج- ذعر فظيع من الكهرباء: خوف من ملامسة مفتاح كهربائى، خوف من إشعال جهاز الراديو، خوف من التلفون.

يستحيل على الطبيب استحالة، مطلقة أن يذكر لهم، ذكرًا عارضًا، أن من الممكن أن يعالجوا بصدمة كهربائية.

الفئة ٣: بعد «مصل الحقيقة»:

مبدأ هذه المعالجة معروف. فالمريض الذى يبدو أنه يشكو من صراع نفسى لا شعورى تعجز المحادثة عن إبرازه إلى الخارج، يُلجأ معه إلى طرائق كيماوية. ومادة البانتوتال التى تحقن فى الوريد هى المادة المستعملة أكثر من غيرها بغية تحرير المريض من صراع يبدو أنه يفوق قدرته على التلاؤم. فمن أجل تخليص المريض من هذا «الجسم الأجنبى» إنما يتدخل الطبيب[1]. وقد لوحظ مع ذلك أن من الصعب أن نتحكم بالانحلال التدريجى للإلحاحات النفسية. ولم يكن أمرًا نادرًا أن نشهد تفاقمات خطيرة، أو ظهور صفات مرضية جديدة لا سبيل إلى تعليلها إطلاقًا. ولذلك عمد الأطباء عامة إلى هجر هذه الطريقة بعض الشىء.

وفى الجزائر وجد الأطباء العسكريون وأطباء الأمراض العقلية أن فى قاعات الشرطة مجالاً كبيرًا للتجريب. فإذا كانت قادة البانتوتال تزيل، لدى المصابين بأمراض العصاب، الحواجز التى تحول دون خروج الصراع النفسى إلى النور، فلابد أن تستطيع هذه المادة أن تحطم لدى الوطنيين الجزائريين الحاجز السياسى وأن تسهل حمل السجين على الإدلاء باعترافات، دونما حاجة إلى استعمال الكهرباء (إن التقاليد الطبية تريد تفادى الألم). ذلك هو الشكل الطبى من أشكال «الحرب المخربة».

وإليكم السيناريو: أولاً: «أنا طبيب، ولست شرطيًا. أنا هنا لمساعدتك»: وبذلك يحصلون بعد بضعة أيام على ثقة السجين. ثانيًا: «سأحقنك ببعض الأدوية، لأنك متعب كثيرًا». ويحقن السجين خلال بضعة أيام بأية مادة، فيتامينات، مقويات، مصول مسكرة، وبعد أربعة أيام أو خمسة يبدأ حقن الوريد بمادة البانتوتال. ويبدأ الاستجواب.

(١) والحق أنه ليس أجنبيًا تمامًا، فالصراع ليس إلا نتيجة التطور الدينامى الذى تطورته الشخصية، وهو تطور لا يمكن أن يكون فيه «جسم أجنبى»، فلنقل، بالأحرى، أنه جسم غير مندمج اندماجًا كافيًا.

الحالات المرضية المشاهدة

أ- تجمد كلامى:

يكرر المريض بغير انقطاع جملاً من هذا النوع: «لم أقل شيئًا، صدقونى، لم أتكلم». ويصحب هذا التكرار المتجمد بخوف دائم. والمريض فى كثير من الأحيان لا يعرف حقًا هل استطاعوا أن ينتزعوا منه بعض المعلومات. ولكنه يشعر أنه أثم فى حق القضية التى يدافع عنها، وفى حق الإخوة الذين أفضى بأسمائهم وعناوينهم، وذلك يؤثر فى نفسه تأثيرًا فاجعًا. وما من تطمين يمكن أن يرد الهدوء إلى هذه الضمائر التى خُربت تخريبًا.

ب- الإدراك العقلى أو الحسى يصبح كتيمًا:

المريض لا يستطيع أن يؤكد وجود الشىء الذى يبصره. وهو يفهم استدلالاً ما، ولكن على نحو غير متميز. إنه عاجز عجزًا أساسيًا عن تمييز الحق من الباطل. كل شىء حق وباطل فى آن واحد.

ج- خوف مرضى من كل انفراد مع شخص من الأشخاص:

ويرجع هذا الخوف إلى شعور المريض بأن من الممكن فى كل لحظة أن يستجوب مرة أخرى.

د- كفّ:

المريض محاذر: يدقق فى السؤال المطروح كلمة كلمة، ويهيىء الجواب كلمة كلمة. ومن ثم شعور بما يشبه الكف والمنع، مع بطء نفسى، وبتر للجمل وعودة إلى الوراء، الخ.

وواضح أن هؤلاء المرضى يرفضون بإصرار شديد أى حقن فى الوريد.

الفئة ٤ بعد غسل الدماغ

لقد تحدث الناس كثيرًا فى هذه الفترة الأخيرة عن «التأثير السيكولوجى» الذى تعمد إليه السلطات الفرنسية فى الجزائر. ولا نريد هنا أن ندرس هذه الطرائق دراسة نقدية. وإنما نكتفى بالإشارة إلى نتائجها من ناحية الأمراض العقلية. إن هناك فئتين من مراكز التعذيب بواسطة غسل الدماغ فى الجزائر، فئة للمثقفين وفئة لغير المثقفين.

١- للمثقفين

المبدأ هنا هو حمل السجين على أن يلعب دوراً. ويدرك القارىء إلى أية مدرسة «نفسية اجتماعية» ترجع هذه الطريقة[1].

أ- يُطلب إلى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين.

يُطلب إلى السجين أن يمثل دور المتعاون مع الفرنسيين، مبرراً هذا التعاون. وبذلك يُضطر إلى أن يعيش حياة مزدوجة لأنه وطني معروف بأنه كذلك، ولكنه سحب من التجول على سبيل الوقاية. إن الهدف من هذا هو أن يهاجموا عناصر الشعور القومي من داخل. فالسجين ليس عليه أن يتعاون مع الفرنسيين فحسب، وإنما يُطلب منه أن يناقش المعارضين أو المترددين «بحرية». وتلك طريقة أنيقة لجعله يدل على الوطنيين، أي لحمله على أن يكون واشياً. فإذا قال إنه لا يجد معارضين، سموا له هؤلاء المعارضين أو طلبوا إليه أن يعمل كما لو كان يناقش المعارضين.

ب- يطلب إلى السجين أن يكتب دراسات عن قيمة المهمة التي تحققها فرنسا، وعن أن الاستعمار يقوم على أسس صحيحة.

ولكي يقوم السجين بهذا العمل على أكمل وجه، يُحاط بعدد كبير من «المستشارين السياسيين»: ضباط لشئون السكان الأصليين. ويحاط، أيضاً، بإخصائيين في علم النفس وعلم الاجتماع، وعلم النفس الاجتماعي، وغير ذلك.

جـ- يطلب إلى السجين أن يتناول حجج «الثورة الجزائرية» بالتفنيد والنقض واحدة واحدة.

الجزائر ليست أمة، ولم تكن في يوم من الأيام أمة، ولن تكون في يوم من الأيام أمة. .

ليس هناك «شعب جزائري».

---

(١) من المعروف أنه نشأ في الولايات المتحدة الأمريكية تيار نفسي اجتماعي (سيكوسوسيولوجي)، يرى أصحابه أن درامة للفرد المعاصر هو أنه أصبح لا يلعب دوراً، وأن الآلية الاجتماعية قد جعلته جزءاً من آلة لا أكثر. ومن ثم يقترحون طريقة في العلاج تسمح للإنسان أن يقوم بأدوار في نشاط اللعب. فيكلف الفرد بأن يمثل أي دور، حتى ليستطيع أن يبدل دوره في اليوم ذاته، وأن يضع نفسه في مكان أي شخص من الأشخاص رمزياً. ويظهر أن الأطباء النفسيين في الولايات المتحدة يحققون خوارق في المعالجة النفسية الجماعية للعمال؛ ذلك أنهم يتيحون لهم أن يتوحدوا مع أبطال، وبذلك ينقص التوتر في العلاقات بين أرباب العمل والعمال نقصاناً كبيراً.

الوطنية الجزائرية سخف.

«الفلاحون» أناس طماعون، مجرمون، ومساكين مضللون.

إن على كل واحد هؤلاء المثقفين أن يلقى حديثًا فى هذه الموضوعات، وعلى الحديث الذى يلقيه أن يكون مقنعًا، وتقدر لهذه الأحاديث علامات (هى «مكافأت»)، وتجمع العلامات فى نهاية كل شهر، وتعتبر هذه العلامات أساسًا فى تقدير استحقاق المثقف للخروج من السجن أو عدم استحقاقه.

هـ- يُفرض على السجين أن يعيش حياة مشتركة مرضية تمامًا:

لأن يعيش وحيدًا فذلك عصيان وتمرد. لذلك يجب أن يكون فى كل لحظة مع شخص آخر. والصمت أيضًا محظور. إن عليه أن يفكر بصوت عال.

شهادة

جامعى اعتقل وأخضع لعملية غسل الدماغ طوال أشهر. وفى ذات يوم هنأه المسئولون عن المعتقل على التقدم الذى حققه، وبشروه بأن إطلاق سراحه قريب.

وإذ كان يعرف مناورات العدو، فقد حاذر أن يأخذ النبأ مأخذ الجد. ذلك أن الخطة المتبعة هى أن يُبشر السجناء بإطلاق سراحهم، قبل الموعد المضروب لعقد جلسة نقد مشترك. حتى إذا عقدت الجلسة كان القرار الذى يتخذ فى كثير من الأحيان هو تأجيل إطلاق سراح السجين، بحجة أنه لم يظهر جميع الدلائل التى تشير إلى أنه شفى شفاءً تامًا. ويقول الاختصاصيون فى علم النفس الذين حضروا الجلسة، يقولون عندئذ: لقد دلت هذه الجلسة على أن جرثومة النزعة القومية موجودة.

على أن الأمر فى هذه المرة لم يكن أمر خدعة. فقد أُطلق سراح السجين فعلاً. حتى إذا خرج من السجن، وصار فى المدينة مع أسرته، هنأ نفسه على أنه أجاد تمثيل الدور، وأسعده أنه أصبح يستطيع الآن أن يستأنف مكانه فى المعركة الوطنية، وحاول أن يعاود الاتصال برؤسائه المسئولين. فإذا بفكرة مباغتة رهيبة تثب إلى ذهنه: لعله لم يخدع أحدًا، لا رجال السجن، ولا المعتقلين معه، ولا نفسه.

ما هو العلاج؟

هنا أيضًا يجب التطمين، وانتزاع وهم الوقوع فى الإثم.

الحالات المرضية المشاهدة

أ- خوف مرضى من كل مناقشة مشتركة. متى كان لقاء مع ثلاثة أشخاص أو أربعة عاد الكف إلى الظهور، واشتد الشك والتردد اشتدادًا قويًا.

ب- عجز عن تفسير وضع معين والدفاع عنه.

تظهر الفكرة زوجين متعارضين. كل ما يؤكده المريض يمكن أن ينكره فى الوقت نفسه بقدر واحد من القوة. لاشك أن هذا آلم نتيجة مرضية من النتائج التى صادفناها فى هذه الحرب. إن «العمل السيكولوجى» الذى وُضع فى خدمة الاستعمار فى الجزائر قد أثمر شخصية حُصارية.

٢- لغير المثقفين

فى مراكز مثل برواغيا، لا يبدأون بالذاتية من أجل تغيير اتجاهات الفرد، وإنما يعتمدون على الجسم، يكسرونه آملين أن يتهدم الشعور القومى. نوع من الترويض الحقيقى. والمكافأة التى ينالها السجين هى الانقطاع عن تعذيبه أو السماح له بأن يأكل.

أ- عليه أن يعترف بأنه ليس من جبهة التحرير الوطنى.

عليه أن يهتف بهذا على ملأ، وأن يردده طوال ساعات.

ب- عليه بعد ذلك أن يعترف أنه كان من جبهة التحرير الوطنى ثم أدرك أن ذلك كان شرًا. إذن: لتسقط جبهة التحرير الوطنى.

بعد هذه المرحلة تأتى مرحلة أخرى: مستقبل الجزائر فرنسى، ولا يمكن أن يكون إلا فرنسيًا.

بدون فرنسا تعود الجزائر إلى القرون الوسطى. نحن فرنسيون. عاشت فرنسا.

إن الاضطرابات التى تشاهد هنا ليست فادحة. والجسم المتوجع المتألم هو الذى يحتاج إلى راحة وتسكين.

السلسلة ٥: اضطرابات نفسية جسمية

إن الحرب الاستعمارية فى الجزائر لم تكثر الاضطرابات العقلية فحسب، ولا سهلت نشوء ظاهرات مرضية خاصة فحسب، وإنما هنالك، عدا الأمراض التى تصيب المعذَّب والأمراض التى تصيب المعذِّب، هنالك أمراض كثيرة ناشئة عن الجو العام، تجعل الأطباء عامة يقولون حين يرون مريضًا لا يفلحون فى فهمه: «كل هذا سينتهى بانتهاء هذه الحرب المقدسة».

ونحن نقترح أن تُدرج، فى هذه السلسلة الرابعة، الأمراض التى تلاحظ لدى الجزائريين الذين سُجن بعضهم فى معسكرات الاعتقال. إن الطابع الذى يميز هذه الأمراض هو أنها من النوع النفسى الجسمى.

يطلق اسم الأمراض النفسية الجسمية على مجموعة الاختلالات العضوية التى ساعد على نشوئها ظرف صراعى[1].. وهى نفسية جسمية لأنها ترجع فى أصلها إلى أسباب نفسية. وهذه الأمراض تُعد طريقة فى الجواب يعمد إليها الجسم، أى طريقة فى التلاؤم مع الصراع الذى يتعرض له، فكأن المرض مرض وشفاء فى آن واحد. ويُجمع الباحثون على القول بصورة أدق أن الجسم (والمقصود أيضًا هو الوحدة اللحائية الحشوية، الوحدة النفسية الجسمية على حد تعبير الأقدمين) يتغلب على الصراع هنا بطرق سيئة، ولكنها طرق اقتصادية على كل حال. فهو يختار أهون الشرين من أجل أن يتحاشى الكارثة.

ولقد أصبحت هذه الأمراض معروفة معرفة جيدة جدًا بوجه الإجمال، وإن تكن الطرائق العلاجية المختلفة (كالاسترخاء، والإيحاء) تبدو لنا خاضعة للصدفة. إن البحوث التى تصف الاضطرابات التى نشأت أثناء الحرب العالمية الثانية فى إنجلترا إبان قصفها بالقنابل وفى الاتحاد السوفياتى لدى السكان المحاصرين وخاصة فى ستالينجراد، بحوث كثيرة. ولقد أصبحنا نعرف الآن حق المعرفة أنه لا حاجة لأن يصاب المرء برصاصة حتى يقاسى جسمه ويقاسى دماغه من وجود الحرب. وقد أوجدت حرب الجزائر، ككل حرب

---

(١) إن هذه التسمية التى تعبر عن مفهوم مثالى أصبحت تهجر شيئًا بعد شىء. والواقع أن الاصطلاحات «اللحائية الحشوية» التى جاءت بها الأبحاث السوفييتية، وخاصة أبحاث بافلوف، تمتاز على الأقل بأنها ترد الدماغ إلى مكانه، أى تعده الرحم الذى تتهيأ فيه الحياة النفسية.

أخرى، نصيبها من الأمراض اللحائية الحشوية. وإذا استثنينا الفئة (ز) التى سنذكرها بعد قليل، لاحظنا أن جميع الاضطرابات التى تُشاهد فى الجزائر قد سبق أن شوهدت فى حروب «كلاسيكية». أما الفئة (ز) فتبدو خاصة بالحرب الاستعمارية الناشبة فى الجزائر. وهذه الصورة الخاصة من المرض (وهى التقبض العضلى الذى يعم الجسم كله) كانت قد لفتت الانتباه قبل انطلاق الثورة. غير أن الأطباء الذين وصفوها قد عدوها آفة ولادية فى «السكان الأصليين»، وصفة تتفرد بها (؟) جملتهم العصبية، وتبرهن على أن المستعمَر تسيطر عليه الجملة «الفوق هرمية» والواقع أن هذا التقبض العضلى لا يزيد على أن يكون مرافقًا جسميًا عضليًا لما يشعر به المستعمَر إزاء السلطة الاستعمارية من صلابة، وحذر، ورفض.

حالات مرضية مشاهدة

أ- قرحات فى المعدة:

حالات كثيرة جدًا. تتفاقم الآلام فى الليل، مع تقيؤ شديد ونحول، وحزن، وتجهم، أما سرعة التهيج فاستثناء. يجب أن نشير إلى أن أكثر هؤلاء المرضى شباب فى ريعان الصبا: من ١٢ إلى ٢٥ عامًا. ونحن لا ننصح، على وجه الإجمال، بإجراء عملية جراحية. لقد أجريت عملية استئصال فى المعدة مرتين، وفى كلتا المرتين اضطروا إلى إجراء عملية جراحية ثانية فى السنة نفسها.

ب- أوجاع فى الحالبين:

هنا أيضًا نجد آلامًا تشتد فى الليل. وليس ثمة حصى طبعًا. ويمكن أن تظهر هذه الأوجاع لدى فتية صغار -من ١٤ إلى ١٦- وذلك نادر.

ج- اضطرابات الطمث لدى النساء:

هذه الحالات المرضية معروفة جدًا، ولن نتلبث عندها، فتارة تظل المرأة ثلاثة أشهر أو أربعة بغير حيض، وتارة تعانى آلامًا شديدة تترجع آثارها فى المزاج وفى السلوك المصاحب لهذا الحيض.

د- حالات ارتعاشات قائمة بذاتها:

المرضى شباب، لا يعرفون الراحة، بسبب ارتعاش يشمل الجسم كله، ارتعاش خفيف يشبه شكلاً كاملاً من أشكال مرض باركنسون. هنا أيضًا يستطيع «رجال العلم!» أن يرجعوا المرض إلى أسباب تتعلق بالجملة العصبية الفوق هرمية!..

هـ- حالات ابيضاض في الشعر في سن مبكرة:

لدى الذين يخرجون من مراكز الاستجواب سالمين، يشيب الشعر فجأة: تشيب خصل منه، أو مناطق، أو يشيب كله. ويصاحب هذه الاضطرابات في كثير من الأحيان وهن شديد، وضعف في الاهتمام، وعجز جنسي.

و- نوبات تسارع مفاجيء في خفقات القلب:

يزداد عدد خفقات القلب على حين فجأة: ١٢٠، ١٣٠، ١٤٠ في الدقيقة ويصاحب هذا التزايد خوف، وشعور باقتراب الموت، وتتميز نهاية النوبة بتعرق شديد.

ز- تقبض عام، تصلب عضلي:

هم مرضى ذكور يشعرون تدريجيًا (وفي حالتين كان ظهور الحالة فجائيًا) بصعوبة القيام ببعض الحركات. صعود سلم، مشي سريع، ركض، ومرد هذه الصعوبة إلى تصلب خاص يذكر حتمًا بإصابة بعض مناطق الدماغ (النوى السنجابية المركزية). وهو تصلب آخذ بالاتساع، بخطى صغيرة. يكاد يستحيل على المريض أن يثني رجليه. ولا يمكنه الحصول على أي استرخاء. المريض متقبض كله، عاجز عن أي إرخاء إرادي، فكأنه قطعة واحدة. الوجه ثابت، ولكنه يعبر عن حيرة كبيرة.

إن المريض لا يبدو قادرًا على أن «يخلص أعصابه من هذا التوتر». إنه متوتر دائمًا، مترقب، بين الحياة والموت. قال لنا واحد من هؤلاء المرضى: «ها أنت ذا ترى أنني متصلب منذ الآن كميت»[1].

في الاندفاع إلى الإجرام لدى أهل أفريقيا في حرب التحرير الوطني

(١) لا حاجة بنا إلى أن نذكر أن هذه الحالة ليست تقبضًا هستيريًا.

ما ينبغى للمرء أن يقاتل فى سبيل حرية شعبه فحسب، وإنما ينبغى له أيضًا ما ظلت هذه المعركة قائمة، أن يعلم هذا الشعب مرة أخرى، وأن يعلم نفسه مرة أخرى حقيقة الإنسان. يجب أن يسير فى دروب التاريخ من جديد، تاريخ الإنسان الذى حكم عليه البشر بالعذاب، وأن يدعو إلى التقاء شعبه بسائر البشر، وأن يجعل هذا اللقاء ممكنًا.

والواقع أن المناضل الذى زج نفسه فى معركة مسلحة، فى كفاح وطنى، ينوى أن يطهر كل يوم أنواع الانحطاطات التى فرضها الاضطهاد الاستعمارى على الإنسان. بل إن المناضل ليشعر فى بعض الأحيان شعورًا مضنيًا بأن عليه أن ينقذ كل شعبه، أن ينتشله من البئر، من الكهف. إن المناضل ليدرك فى كثير جدًا من الأحيان أن عمله لا أن يقاتل القوى العدوة فحسب، بل كذلك حبات اليأس المتبلورة فى جسم المستعمَر. إن فترة الاضطهاد مؤلمة، ولكن المعركة، إذ تعيد إلى الإنسان المضطهد اعتباره تحقق عملية تكامل، خصبة غاية الخصوبة، حاسمة إلى أبعد حد. إن المعركة الظافرة التى يخوضها شعب من الشعوب، لا تكفل له انتصاره فى نيل حقوقه فحسب، وإنما هى تهيىء لهذا الشعب التماسك والانسجام والتجانس. ذلك أن الاستعمار لم يفكك شخصية المستعمَر فحسب، وإنما جعل هذا التفكك واضحًا أيضًا على الصعيد الجماعى فى مستوى البنيانات الاجتماعية، فإذا الشعب المستعمَر ليس إلا مجموعة من الأفراد تستمد أساسها من وجود المستعمِر لا غير.

إن المعركة التى يخوضها شعب من الشعوب فى سبيل تحرره تؤدى به، على حسب الظروف، إما إلى نبذ الحقائق المزعومة التى بثها فى ضميره الحكم المدنى الاستعمارى والاحتلال العسكرى والاستغلال الاقتصادى، وإما إلى حطم هذه الحقائق المزعومة. وما من شىء غير القتال يستطيع حقًا أن يطرد تلك الأكاذيب التى تقال فى حق الإنسان، والتى تدنِّى أكثرنا وعيًا، بل تخرب أكثرنا وعيًا.

كم من مرة رأينا، فى باريز أو فى إيكس، فى مدينة الجزائر أو فى الأراضى الواطئة، أناسًا مستعمَرين يحتجون احتجاجًا شديدًا على الادعاء بأن الزنجى أو الجزائرى أو الفيتنامى إنسان كسول. ونحن لا ندَّعى على كل حال أن الفلاح الذى يتحمس فى العمل، والزنجى الذى يرفض أن يستريح فى ظل النظام الاستعمارى، إنما هما شخصان شاذان

مريضان. ولكننا نقول إن كسل المستعمَر إنما هو تخريب مقصود للآلة الاستعمارية. إنه على المستوى البيولوجى، نوع واضح من حماية الذات، وهو على كل حال تأخير أكيد لسيطرة المحتل على البلاد بكاملها.

إن المقاومة التى تبديها الغابات والمستنقعات، فتحول دون التغلغل الأجنبى هى الحليف الطبيعى للمستعمَر. ولقد كان ينبغى للمدافعين عن المستعمَر أن يفهموا هذا الأمر، فيكفوا عن قولهم إن الزنجى عامل نشيط وحارث ممتاز. إن حقيقة الزنجى فى ظل الحكم الاستعمارى هى أن لا يحرك إصبعه، هى أن لا يساعد المضطهد على مزيد من الإيغال فى فريسته. إن واجب المستعمَر الذى لم يُنضج وعيه السياسى بعد، وقرر أن يرفض الاضطهاد، هو أن لا يقوم بأية حركة إلا أن تنتزع منه انتزاعًا. فهذا مظهر محسوس ملموس للاتعاون، أو «للتعاون فى أضيق الحدود» على كل حال.

وهذه الملاحظات التى تصدق على العلاقات بين المستعمَر والعمل يمكن أن تصدق أيضًا على احترام المستعمَر لقوانين المستعمر المضطهد، وعلى دفع الضرائب والرسوم بانتظام، وعلى العلاقات بين المستعمَر والنظام الاستعمارى. فالاعتراف بالجميل والصدق والشرف إنما هى فى ظل الحكم الاستعمارى ألفاظ جوفاء. لقد أتيح لى فى هذه السنين الأخيرة أن أتحقق من صدق هذا الأمر الكلاسيكى جدًا، وهو: أن الشرف والكرامة والمحافظة على العهد المقطوع وما إلى ذلك لا يمكن أن تظهر إلا فى إطار تجانس قومى ودولى. أما إذا كنت تُصفَّى أنت وأقرانك كالكلاب، فليس لك إلا أن تستعمل جميع الوسائل لاسترداد وزنك كإنسان. وعليك إذن أن تضايق جسم الذى يعذبك أكبر مضايقة ممكنة عسى فكره الضال فى مكان ما أن يهتدى أخيرًا إلى حقيقته الإنسانية العامة. لقد أتيح لى فى هذه السنين الأخيرة أن أرى أن الشرف والتضحية بالنفس، وحب الحياة، وكره الموت، أن ذلك كله يكتسى فى الجزائر المقاتلة صورًا فذة. ولست أتغنى هنا بالمقاتلين. ولكنها حقيقة ظاهرة أسسها أشد الاستعماريين حنقًا، وهى أن للمقاتل الجزائرى طريقة فذة فى القتال وفى الموت. ولا يمكن أن ترجع إلى الإسلام وإلى الجنة الموعودة، تلك التضحية السخية بالنفس، التى يقدمها المقاتل الجزائرى حين يكون عليه أن يحمى وطنه أو أن يفدى إخوته. وما قولك فى ذلك الصمت الساحق -الجسم يصرخ طبعًا!- ذلك الصمت الذى يسحق

المعذب سحقًا؟ إننا نرى هنا ذلك القانون القديم جدًا الذى يحرم على عنصر ما من عناصر الوجود أن يظل ساكنًا بينما الأمة تسير، بينما الإنسان يطالب بإنسانيته اللامحدودة ويؤكد هذه الإنسانية فى الوقت نفسه.

من بين الخصائص التى زعم الاستعمار أن الشعب الجزائرى يتصف بها، سنتحدث الآن عن ميله المذهل إلى الإجرام. لقد أجمع القضاة، ورجال الشرطة، والمحامون، والصحفيون، والأطباء الشرعيون، أجمعوا قبل عام ١٩٥٤ على أن استعداد الجزائرى للجريمة مشكلة من المشكلات، حتى لقد قالوا: إن الجزائرى مفطور على الجريمة، وأنشأوا لهذا نظرية، وجاءوا ببراهين علمية! وظلت هذه النظرية طوال أكثر من عشرين عامًا تُدرس فى الجامعات. وتعلم هذه النظرية شبان جزائريون من طلاب الطب، فإذا بالصفوة تألف، شيئًا فشيئًا، على غير شعور منها، وجود هذه الآفات الطبيعية فى الشعب الجزائرى، كما ألفت الاستعمار: كسالى بالفطرة، كذابون بالفطرة، لصوص بالفطرة، مجرمون بالفطرة.

ونريد هنا أن نعرض هذه النظرية الرسمية، وأن نذكر أسسها المحسوسة وأدلتها العلمية. وسنحاول أن نفسرها تفسيرًا جديدًا.

الجزائرى يقتل كثيرًا: يقول لك القضاة: إن من الأمور الواقعة أن أربعة أخماس القضايا المرفوعة إلى القضاة تتصل بطعنات وجروح، وأن نسبة الجريمة فى الجزائر هى من أعلى النسب، هى من أضخم النسب فى العالم بأسره. وليس هنالك جنح بسيطة، فحين يخالف الجزائرى القانون (ويصدق هذا على جميع أبناء شمالى أفريقيا)، فإنه يمضى فى هذه المخالفة إلى حدها الأقصى.

الجزائرى يقتل بوحشية: يُلاحظ أولاً أن السلاح المفضل إنما هو السكين. والقضاة «الذين يعرفون هذه البلاد»، قد أوجدوا لأنفسهم فلسفة صغيرة حول هذا الموضوع. فرجال القبائل مثلاً يؤثرون المسدس أو البندقية، أما عرب السهل فيؤثرون السكين. وتساءل بعض القضاة: تُرى أليس الجزائرى فى حاجة شديدة إلى رؤية الدم؟ ثم قالوا إن الجزائرى محتاج إلى الشعور بحرارة الدم، إلى أن يستحم فى دم ضحية. ويمضى هؤلاء القضاة رجال الشرطة والأطباء يبحثون بحثًا جادًا فى العلاقة بين روح الإسلام والدم[1]

(١) من المعروف أن الإسلام يقضى بأن لا يؤكل لحم الدابة إلا إذا فرغت من الدم، ولذلك تذبح الدواب ذبحًا.

حتى ليذهب بعض القضاة إلى أن قتل إنسان إنما يعنى فى نظر الجزائرى ذبحه . وتظهر وحشية الجزائرى خاصة فى إكثار الطعنات ، حتى لتراه يطعن القتيل عدة طعنات بعد موته ، وهى طعنات لا فائدة منها . ويقرر تشريح الجثث أمرًا لا سبيل إلى الشك فيه هو : أن القاتل كأنما أراد أن يقتل عددًا من المرات لا حصر له ، لأن جميع الطعنات خطيرة بدرجة واحدة .

الجزائرى يقتل لأمر تافه : كثيرًا ما يحتار القضاة ورجال الشرطة فى أمر البواعث التى حملت على القتل ، حركة بسيطة ، غمزة يسيرة ، كلمة ملتبسة ، ملاسنة حول شجرة زيتون يملكها المتلاسنان ، توغل دابة فى ثمن هكتار من الأرض . . . إنك إذا سألت عن السبب الذى دفع إلى قتل هذا القتيل أو هذين القتيلين أو هؤلاء القتلى الثلاثة أحيانًا ، إذا سألت عن الباعث الذى يعلل هذا القتل ويوضح أساسه ، وجدته أمرًا تافهًا غاية التفاهة ، فتحتار ، ولذلك تشعر فى كثير من الأحيان أن هؤلاء الناس يخفون عنك البواعث الحقيقية .

ومن الملاحظ أخيرًا أن السرقة التى يقوم بها جزائرى هى دائمًا سرقة بكسر ، قد يرافقها قتل وقد لا يرافقها قتل ، ولكنها مصحوبة فى جميع الأحوال بعدوان على المالك .

فهذه العناصر كلها التى تتجمع حزمة حول ميل الجزائريين إلى الإجرام ، بدا أنها تميز الأمر تمييزًا كافيًا من أجل محاولة تنظيمها فى نظرية .

وإذا شوهدت حالات مماثلة فى تونس ومراكش (وإن تكن تلك الحالات أقل بروزًا) ، أصبح المتحدثون يتحدثون شيئًا فشيئًا عن الميل إلى الجريمة لدى سكان شمالى أفريقيا عامة . وأخذت جماعات من الباحثين ، تعمل منذ أكثر من ثلاثين عامًا ، تحت إشراف الأستاذ بورو ، أستاذ الأمراض العقلية فى كلية الطب بمدينة الجزائر ، أخذت تعمل فى توضيح صور التعبير عن هذا الميل إلى الإجرام ، وتعليله تعليلاً سوسيولوجيًا ، وظيفيًا ، تشريحيًا .

وسنستعمل هنا الدراسات الرئيسية التى أفردتها لهذه المسألة مدرسة من مدارس الطب العقلى ، هى مدرسة كلية الجزائر . ولنتذكر أن النتائج التى وصلت إليها هذه الدراسات من بحوث دامت أكثر من عشرين عامًا ، أصبحت تلقى دروسًا أساسية فى كلية الطب -كرسى الأمراض العقلية- .

وهكذا فإن الأطباء الجزائريين الحاصلين على شهاداتهم من كلية مدينة الجزائر قد حُملوا على أن يسمعوا وأن يتعلموا أن الجزائرى مجرم بالفطرة. حتى لقد سمعت واحدًا منا يعرض هذه النظريات التى تعلمها عرضًا يشتمل على كثير من الجد، ثم يضيف قوله: «حقيقة مرة، ولكنها ثابتة علميًا».

أهل شمالى أفريقيا مجرمون بالفطرة، فغريزة الانقضاض على الفرائس معروفة فيهم، وميلهم القوى إلى العدوان واضح تراه الأعين. أهل شمالى أفريقيا يحبون التطرف، لذلك لا تستطيع يومًا أن تثق بهم ثقة كاملة. نرى أحدهم صديقك اليوم، فإذا هو عدوك غدًا. إنهم لا يدركون الفروق الطفيفة، فالروح الديكارتية غريبة عنهم غرابة أساسية. إن الإحساس بالتوازن والاعتدال والقصد يخالف استعداداتهم العميقة أشد المخالفة. أهل شمالى أفريقيا أناس عنيفون، عنيفون بالوراثة. يستحيل على واحدهم أن يُخضع نفسه للنظام، وأن يضبط اندفاعاته. نعم، إن الجزائرى اندفاعى منذ الولادة.

ثم يوضحون قائلين: إن هذه الاندفاعية عدوانية، ميالة إلى القتل. وهنا يصلون إلى تعليل سلوك السوداوى الجزائرى، وهو سلوك يخرج على القاعدة. إن أخصائىّ الطب العقلى الفرنسيين، فى الجزائر، قد وجدوا أنفسهم أمام مشكلة عسيرة. فقد تعودوا، إذا هم رأوا مريضًا مصابًا بالسوداوية، أن يخافوا عليه من الانتحار. ولكنهم رأوا أن السوداوى الجزائرى يقتل. فهذا المرض الذى يصيب الضمير الأخلاقى والذى يصحب دائمًا باتهام للذات ويميل إلى تحطيم الذات يكتسى لدى الجزائريين أشكالاً تميل إلى تحطيم الآخرين. إن السوداوى الجزائرى لا ينتحر، بل يقتل. هذه هى السوداوية الميالة إلى القتل، التى أجاد البروفسور بورو دراستها فى أطروحة تلميذه مونسيرا.

كيف تفسر المدرسة الجزائرية هذا الخروج عن القاعدة؟ إنها تقول أولاً إن قتل المرء نفسه معناه أنه يعود إلى نفسه وينظر فى نفسه، معناه أنه يتعاطى تأمل حياته النفسية (الاستبطان). ولكن الجزائرى عصى على الحياة الداخلية. ليس للأفريقى الشمالى حياة داخلية. الأفريقى الشمالى يتخلص من همومه بالارتماء على ما يحيط به. إنه لا يحلل. ولما كانت السوداوية مرضًا يصيب الضمير الأخلاقى، فواضح أن الجزائرى لا يمكن أن تنشأ فيه إلا سوداويات كاذبة، لأن ضعف ضميره وهزال إحساسه الأخلاقى أمران معروفان

حق المعرفة أيضًا . وهذا العجز فى الجزائرى عن تحليل موقف من المواقف وعن تنظيم نظرة نفسية شاملة يصبح مفهومًا فهمًا كاملاً إذا رجعنا إلى التعليلين اللذين يقدمهما هؤلاء المؤلفون الفرنسيون .

ففيما يتصل بالاستعدادات العقلية أولاً ، يلاحظ هؤلاء المؤلفون أن الجزائرى ضعيف العقل . وإذا أردت أن تفهم ذلك حق الفهم ، وجب أن تتذكر الأعراض التى تصفها المدرسة الجزائرية . إن هذه المدرسة تذكر من خصائص السكان الأصليين المميزات التالية :

- ليس لهم انفعال ، أو لا يكاد يكون لهم انفعال .
- سريعو التصديق إلى أبعد حد ، قابلون للإيحاء إلى أقصى درجة .
- عناد مصر .
- طفولة نفسية ، ينقصها مع ذلك ما يلاحظ لدى الطفل الغربى من حب الاطلاع .
- سهولة الإصابة بالحوادث وسهولة الاستجابات الإيحائية[١] .

الجزائرى لا يدرك المجموع . المسائل التى يطرحها على نفسه تتناول التفاصيل دائمًا ، وتستبعد كل تركيب . إنه يدقق فى الأمور التافهة ، ويظل لاصقًا بالأشياء ، تائهًا فى التفاصيل ، موصدًا دون الفكرة ، عصيًا على التصورات العقلية . تعبيره بالكلام ضعيف إلى آخر حدود الضعف . حركته اندفاعية عدوانية دائمًا . إنه لعجزه عن تأويل الجزء التفصيلى على أساس المجموع الكلى ، يضفى على العنصر قيمة مطلقة ، وينظر إلى الجزء على أنه الكل . لذلك تراه يرد ردودًا كلية على مؤثرات جزئية ، على أمور تافهة : شجرة تين ، حركة ، خروف فى أرض . إن العدوانية التى يتصف بها فطرة تبحث لنفسها عن طرق انطلاق ، وتكتفى بأيسر حجة حتى تنفجر . إنه عدوانية صرفة[٢] .

---

(١) البروفسور بورو ، «الحوليات الطبية النفسية» ١٩١٨ .

(٢) يرى عميد القضاة فى محكمة بمدينة الجزائر أن عدوانية الجزائرى تعبر عن نفسها فى حبه للنزوة ؛ قال عميد القضاة هذا عام ١٩٥٥ : «هذه الثورة كلها ، يخطىء من يظن أنها سياسية ، فإنما الجزائرى يحب المعامع ، فلابد أن ينطلق هذا الحب من حين إلى آخر !» . ويرى هذا الإخصائى فى علم الأقوام أن وضع سلسلة من الاختبارات والألعاب الإضفائية القادرة على ضبط الغرائز العدوانية الشاملة لدى السكان الأصليين كان يمكن أن يكفى عام ١٩٥٥-١٩٥٦ لوقف الثورة فى جبال الأوراس .

بعد هذه المرحلة الوصفية أرادت مدرسة الجزائر أن تنتقل إلى المرحلة التعليلية. وفى مؤتمر أطباء الأمراض العقلية والعصبية الذين لغتهم الفرنسية، فى هذا المؤتمر الذى عقد بمدينة بروكسل عام ١٩٣٥، إنما حدد البروفسو بورو الأسس العلمية لنظريته، وأشار فى معرض مناقشة التقرير الذى وضعه بارون عن الهستريا إلى أن «السكان الأصليين بشمالى أفريقيا يتصفون بأن نشاط المراكز اللحائية العليا عندهم متخلف، فهم أناس بدائيون يسيطر الدماغ المتوسط خاصة على حياتهم التى تقوم على الوظائف الحيوية الدنيا وعلى الغرائز».

ومن أجل أن ندرك أهمية هذا الاكتشاف الذى جاء به البروفسور بورو يجب أن نشير إلى أن ما يميز النوع الإنسانى، إذا قيس بالحيوانات الفقرية الأخرى، هو سيطرة اللحاء. أما الدماغ المتوسط فهو جزء من أكثر أجزاء الدماغ بدائية، والإنسان إنما هو، قبل كل شىء، الحيوان الذى يسيطر عليه اللحاء من الدماغ.

إن البروفسور بورو يرى أن حياة السكان الأصليين بشمالى أفريقيا إنما تسيطر عليها المطالب المتصلة بالدماغ المتوسط. فكأنه يقول إن السكان الأصليين بشمالى أفريقيا محرومون من اللحاء الدماغى. والبروفسور بورو لا يتحاشى هذا التناقض، وها هو ذا فى عام ١٩٣٩ يوضح آراءه، بالتعاون مع تلميذه سوتر الذى أصبح الآن أستاذ الطب العقلى بمدينة الجزائر، قائلاً فى مجلة «الجنوب الطبى الجراحى»: ليست البدائية نقصًا فى النضج، ليست توقفًا ملحوظًا فى نمو الحياة النفسية العقلية، إنها حالة اجتماعية بلغت آخر مراحل تطورها، حالة متلائمة تلاؤمًا منطقيًا مع حياة مختلفة عن حياتنا». ويصل هذان الأستاذان أخيرًا إلى الأساس الذى تقوم عليه عقيدتهما، فيقولان: «ليست هذه البدائية مجرد أسلوب ناشىء عن تربية خاصة، وإنما هى تقوم على ركائز أعمق من ذلك كثيرًا، حتى لنعتقد أن أساسها استعداد خاص فى بنية المراكز الدماغية. أو على الأقل فى التنظيم الطبقى الحركى لهذه المراكز الدماغية. فمن الواضح أن اندفاعية الجزائرى، وكثرة جرائم القتل التى يرتكبها والصفات التى تتصف بها جرائم القتل هذه، وميوله الدائمة إلى اقتراف الجريمة»، وبدائيته، كل ذلك ليس مصادفة، فإنما نحن هنا إزاء سلوك منسجم مع نفسه، إزاء حياة منسجمة مع نفسها يمكن تعليلها تعليلاً علميًا. إن الجزائرى ليس له لحاء دماغى، أو قولوا على نحو أدق إن السيطرة عنده إنما هى للدماغ المتوسط، شأنه فى ذلك شأن

الحيوانات الفقرية الدنيا. فالوظائف اللحائية إن وجدت عنده فهى ضعيفة جدًا، وليست مندمجة فى حركة حياته. لا سر إذن ولا عجب. وإحجام المستوطن الأوروبى عن أن يكل المسئولية إلى السكان الأصليين ليس من قبيل التعصب العرقى، ولا هو من قبيل حب الانفراد بالعمل، وإنما هو إدراك علمى لكون السكان الأصليين محدودي الإمكانيات بيولوجيا.

ولنختم هذا الاستعراض طالبين نتيجة تتناول أفريقيا كلها من الدكتور كلروتر، خبير منظمة الصحة العالمية. لقد جمع هذا الخبير الدولى فى كتاب له ظهر سنة ١٩٥٤، زبدة ملاحظاته[١].

والدكتور كاروتر كان يمارس مهنة الطب فى أفريقيا الوسطى والشرقية، غير أن النتائج التى ينتهى إليها تتفق مع نتائج مدرسة شمالى أفريقيا. فهذا الخبير الدولى يرى أن «الأفريقى قلما يستعمل الفصين الجبهيين من دماغه، ويمكن أن تُرد جميع خصائص الأمراض العقلية فى أفريقيا إلى كسل فى الفص الجبهى من الدماغ»[٢].

ومن أجل أن يوضح الدكتور كلروتر رأيه للقارىء، عقد مقارنة حية جدًا، فقال إن الأفريقى السوى إنما هو الأوروبى استؤصل جزء من دماغه. من المعروف أن المدرسة الأنجلوساكسونية قد ظنت فى ذات يوم أنها اكتشفت علاجًا جذريًا لبعض الأشكال الخطيرة من الأمراض العقلية، هو استئصال جزء هام من الدماغ. ولكن ما لوحظ فى الشخصية بعد الجراحة من تخربات كبيرة جعل أصحاب هذا العلاج يعدلون عنه. ويرى الدكتور كاروتر أن الشبه بين السكان الأصليين بأفريقيا وبين أولئك الذين أجريت لهم تلك الجراحة شبه قوى يخطف البصر.

وبعد أن درس الدكتور كاروتر البحوث التى كتبها أطباء يتعاطون مهنة الطب فى أفريقيا، طلع بنتيجة توحد بين الأفريقيين فى هذا المضمار، قال: «هذه ه أوصاف الحالات التى لا تتناول فئات أوروبية. وقد جمعت فى مناطق شتى من أفريقيا الشرقية، وأفريقيا الغربية، وأفريقيا الجنوبية. كان كل باحث من الباحثين لا يعرف إلا قليلاً أو لا يعرف البتة

(١) كاروتر، «سيكولوجية الأفريقى، السوية والمرضية»، ماسون، باريز، ١٩٥٤.

(٢) المرجع المذكور، ص١٧٦.

الدراسات التى كتبها الباحثون الآخرون. ومع ذلك فإن بين هذه البحوث كلها تماثلاً واضحًا كل الوضوح»[1].

ولنذكر قبل الختام أن الدكتور كاروتر كان يعرف الماو ماو بأنها تعبير عن عقدة حرمان لا شعورية، وأن تكررها يمكن تحاشيه علميًا، بتحقيق تلاؤمات سيكولوجية هامة.

وهكذا فإن هذا السلوك غير المألوف: كثرة إقدام الجزائرى على ارتكاب الجريمة، وتفاهة البواعث الدفاعة إلى ذلك، وما تتصف به المشاجرات من أنها تنتهى إلى القتل، ومن أنها دامية دائمًا، كل ذلك قد طرح على الملاحظين مشكلة تحتاج إلى حل. والتعليل الذى جاؤوا به وأصبح يُلقى دروسًا فى الجامعة هو التعليل التالى فى آخر الأمر: إن طبيعة البنيانات الدماغية لدى أهالى شمالى أفريقيا تفسر ما يتسمون به من كسل، ومن عجز عقلى واجتماعى، ومن اندفاعية كاندفاعية الحيوان، تفسر ذلك كله فى آن واحد. فالاندفاعية الإجرامية لدى أهل شمالى أفريقيا إنما هى تعبير على مستوى السلوك عن نظام معين فى الجملة العصبية، هى استجابة يمكن أن تُفهم نورولوجيا، هى استجابة قائمة فى طبيعة الأشياء، فى طبيعة الشىء البيولوجى. فعدم تكامل الفصين الجبهيين مع عمل الدماغ هو سبب الكسل، والجرائم، والسرقات، والاعتداءات على النساء، والكذب. ونتيجة ذلك إنما أفضى إلى بها نائب محافظ -أصبح الآن محافظًا- وذلك بقوله: «إن هؤلاء الناس الذين هم كائنات طبيعية، إنما يخضعون لقوانين طبيعتهم خضوعًا أعمى، فيجب أن نواجههم بموظفين صارمين لا يعرفون الهوادة، يجب علينا أن نروض الطبيعة لا أن نقنعها»، إن كلمات: الإخضاع للنظام، الترويض، القمع، وكذلك كلمة التهدئة فى هذه الأيام، هى الكلمات التى يستعملها الاستعماريون فى الأراضى المحتلة أكثر ما يستعملون.

لئن أفضنا فى الكلام على النظريات التى جاء بها رجال العلم الاستعماريون، فما ذلك من أجل أن نظهر فقر هذه النظريات وسخفها، وإنما من أجل أن نعالج مشكلة نظية وعملية هى على جانب عظيم من الخطورة. والواقع أنه من بين المسائل التى طرحت نفسها على الثورة، من بين الموضوعات التى أمكن التنافس فيها على مستوى الشرح السياسى وإزالة

(١) المرجع المذكور، ص١٧٨.

التضليل، لم تكن مسألة انتشار الجريمة فى الجزائر إلا قطاعًا فرعيًا. ولكن الأحاديث التى دارت حول هذا الأمر قد بلغت من الخصوبة أنها أتاحت لنا أن نتعمق فكرة التحرير الفردى والاجتماعى، وأن نحيط بها إحاطة أكمل. إنك حين ترى القادة يعالجون أمام المناضلون والمقاتلين مسألة انتشار الجريمة فى الجزائر، وحين تراهم يذكرون العدد الوسطى للجرائم والجنح والسرقات التى وقعت فى العهد السابق للثورة، وحين تراهم يشرحون أن شكل الجريمة وكثرة الجنح تابعان للعلاقات القائمة بين الرجال والنساء، وبين الرجال والدولة، هذه العلاقات التى يفهمها كل واحد، وحيز ترى فكرة الجزائرى أو الإفريقى الشمالى، المجرم بالفطرة، تتبدد من الأذهان بعد أن علقت حتى فى ضمير الجزائرى الذى كان يقول: «نعم، نحن أناس سريعون إلى الغضب ميالون إلى المشاجرة، محبون للشر... هكذا نحن»، حين ترى ذلك كله، تستطيع عندئذ أن تقول: أجل إن الثورة فى تقدم.

والمسألة النظرية الخطيرة الشأن هى أن علينا فى كل لحظة وفى كل مكان، أن نشرح، أن نبدد الأضاليل، أن نطرد الإهانة الموجهة إلى الإنسان. يجب أن لا ننتظر أن تنتج الأمة بشرًا جددًا. يجب أن لا ننتظر أن يتبدل البشر تبدلاً تدريجيًا فى تجديد ثورى دائم. نعم أن هذين الأمرين هامان، غير أن علينا أن نساعد الوعى. فإذا أراد العمل الثورى لنفسه أن يكون محررًا تحريرًا يبلغ أقصى درجات الخصوبة، فإن عليه أن لا يبقى على أى خروج عن القاعدة. إننا نشعر شعورًا قويًا بضرورة أن يصبح الحدث شاملاً كليًا، أن تحريرًا يبلغ أقصى درجات الخصوبة، فإن عليه أن لا يبقى على أى خروج عن القاعدة. إننا نشعر شعورًا قويًا بضرورة أن يصبح الحدث شاملاً كليًا، أن يحمل المرء كل شىء، أن يصفى كل حساب، أن يكون مسئولاً عن كل أمر. إن الوحدة المقاتلة التى تتوغل فى الأرض لا يعنى انتهاؤها من القيام بكمين أن ترتاح، وإنما يعنى أن هذه هى اللحظة التى يجب فيها على الوعى أن يقطع جزءًا من الطريق، لأن الأمور كلها يجب أن تسير معًا.

نعم، لقد كان الجزائرى يسلك من تلقاء نفسه سلوكًا مصدقًا لما يقوله القضاة ورجال الشرطة؛(١) فكان علينا أن ننظر إلى هذه الإجرامية الجزائرية المعيشة على صعيد الزوجية

(١) واضح من جهة أخرى أن تقمص هذه الصورة التى رسمها الأوروبى كان ذا وجهين، فالأوروبى كان فى الواقع يشيد أيضًا بالجزائرى العنيف الوحشى الغيور المتكبر الذى يخاطر بحياتهمن أجل أمر يسير أو كلمة أو ما شابه ذلك. ولنذكر عابرين أن أوروبى الجزائر، يلقون فرنسى فرنسا، أصبحوا يميلون أكثر فأكثر إلى تقمص هذه الصورة التى تمثل الجزائرى فى مقابل الفرنسى.

من حيث إنها تجل للرجولة الحقة، وأن نطرح المسألة طرحًا جديدًا على صعيد التاريخ الاستعمارى. كان علينا أن نبين مثلاً أن جرائم الجزائريين فى فرنسا تختلف اختلافًا أساسيًا عن جرائم الجزائريين الخاضعين للاستغلال الاستعمارى خضوعًا مباشرًا.

وثمة أمر آخر لفت انتباهنا: فى الجزائر، يتم جرم الجزائريين عمليًا ضمن دائرة مغلقة. فيسرق الجزائريون بعضهم بعضًا، ويمزق بعضهم بعضًا، ويمزق بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا. إن الجزائرى قلما يهاجم فى الجزائر الفرنسيين، وهو يتحاشى المشاجرات مع الفرنسيين. ولا كذلك فى فرنسا، فالمهاجر يجعل الجريمة متبادلة بين مجتمعات، بين طوائف اجتماعية.

إن جرم الجزائريين فى فرنسا آخذة فى النقصان، وهى تنصب خاصة على الفرنسيين، والدوافع إليها جديدة كل الجدة. وهناك ظاهرة غريبة ساعدتنا كثيرًا على تبديد الأضاليل من أذهان المناضلين: إننا نلاحظ أن جرائم الحق العام كادت تختفى منذ عام ١٩٥٤، فنحن لا نرى منذ ذلك التاريخ مشاجرات وحوادث قتل لأسباب تافهة، لا نرى رجلاً ينفجر غضبه انفجارًا عنيفًا لأن جاره لمح جبين امرأته أو لمح كتفها اليسرى. فكأن النضال القومى قد وجه الغضب كله، وجعل جميع الحركات العاطفية أو الانفعالية قومية. وهذا أمر قد سبق للقضاة والمحامين الفرنسيين أن لاحظوه؛ ولكن لابد للمناضل أن يصبح واعيًا له، لابد من الوصول به إلى معرفة أسبابه.

ويبقى التعليل.

هل كان علينا أن نقول إن الحرب، وهى التربة المناسبة للتعبير عن عدوانية أصبحت اجتماعية، توجه الميول الإجرامية الوراثية نحو المحتل؟ إن من الأمور المعروفة أن الهزات الاجتماعية الكبرى تقلل نسبة الجنح والاضطرابات العقلية. فكان فى الإمكان إذن أن نعلل نقصان انتشار الجريمة فى الجزائر بوجود هذه الحرب التى تشطر الجزائر شطرين، وتجعل الآلة القضائية والإدارية فى صف العدو.

ولكن هذه الظاهرة نفسها التى لوحظت فى البلاد المغربية أثناء نضالها التحريرى، ظلت قائمة بعد تحرر تلك البلاد ونيلها استقلالها. وهذا يدل على أننا نستطيع أن نؤول انتشار

الجريمة تأويلاً جديدًا بوجود الاستعمار. وذلك ما فعلناه مع المناضلين، فأصبح جميع الناس عندنا يعلمون الآن أن انتشار الجريمة فى الجزائر ليس ثمرة طبع فطر عليه الجزائرى، ولا هو ثمرة بنية الجملة العصبية لديه. إن حرب الجزائر وحروب التحرير الوطنى تخلق القادة الصادقين. قالوا لهم: أن الأهالى فى ظل الظرف الاستعمارى يكونون منحصرين فيما بينهم، فكل واحد منهم يجنح إلى اتخاذ الآخر ستارًا له، وكل واحد منهم يحجب عن الآخر عدو أمته. أن المستعمر الذى يرتمى على بساطه بعد عناء ست عشر ساعة من العمل، فإذا بطفل من وراء الستارة يأخذ بالبكاء فيمنعه من النوم، يقول: هذا جزائرى صغير. وحين يمضى يلتمس شيئًا من الدقيق أو قليلاً من الزيت عند البقال الذى له عليه دين قديم يبلغ بضع مئات من الفرنكات، فيرفض البقال أن يعطيه ما يطلب، فإن موجة كبيرة من الكره تجتاح نفسه، حتى ليتمنى لو يقتل البقال. . . والبقال جزائرى. وحين يحاصره الجابى طالبًا منه دفع «الضرائب»، بعد أن تهرب أسابيع كاملة، فإنه لا يُتاح له أن يصب كرهه على الحاكم الأوروبى، لأن الجابى يمتص هذا الكره، والجابى جزائرى. وحين يكون معرضًا لمحاولات قتل يومية: بالجوع، بالطرد من الغرفة التى لم يدفع أجرها، بجفاف ضرع الأم، بهزال الأولاد الذين صاروا إلى هياكل عظمية، بإغلاق الورشة، بتعطله وتهويمه مع غيره من المتعطلين حول المدير كالغربان الساغبة، فإنه ينتهى من ذلك إلى أن ينظر إلى هؤلاء الناس من السكان الأصليين نظرته إلى أعداء لا يرحمون. وحين تتمزق قدماه العاريتان بحجر كبير فى وسط الطريق، فإن واحدًا من هؤلاء السكان الأصليين هو الذى يكون قد وضع الحجر. والزيتونات القليلة التى كان يستعد لقطفها، قد أكلها فى الليل أبناء فلان. . . نعم أن المرء فى العهد الاستعمارى يمكن أن يفعل أمورًا كثيرة فى سبيل رطل من الدقيق، يمكن أن يقتل عدة أشخاص. ولابد لمن يريد أن يفهم هذه الأشياء أن يكون واسع الخيال أو أن يكون قوى الذاكرة. إن فى معسكرات الاعتقال رجالاً قتل بعضهم بعضًا فى سبيل كسرة من الخبز. وما زلت أتذكر مشهدًا فظيعًا: كان ذلك فى وهران سنة ١٩٤٤. من المعسكر الذى كنا ننتظر فيه الرحيل، أخذ العسكريون يرمون كسرًا من الخبز لجزائريين صغار، فراح الصغار يتشاجرون عليها فى حنق وكره. أن أطباء الحيوانات الداجنة يستطيعون أن يوضحوا لنا هذه الظاهرات بتذكيرنا «بالتنافر» الذى

يلاحظ فى أحواش الدجاج، حيث تتنافس هذه الحيوانات على حبات الذرة تنافسًا لا هوادة فيه، فالطيور القوية تبتلع جميع الحبوب فيما الأخرى تضوى وتهزل لأنها تعدل الأولى هجومًا وعدوانًا. إن كل مستعمرة تميل إلى أن تصبح حوشًا كبيرًا، معسكرًا من معسكرات الاعتقال، لا سيادة فيه لغير قانون السكين.

تغير كل شيء فى الجزائر منذ حرب التحرير الوطنى. إن جميع ما تملكه أسرة من مؤونة يمكن أن يقدم فى ليلة واحدة لجماعة مارة من جماعات المقاتلين. والحمار الوحيد الذى تملكه الأسرة يمكن أن يعار لنقل جريح. وحين يعلم صاحب الحمار بعد بضعة أيام أن حماره قد مات برصاص طائرة، فإنه لا يندفع لاعنًا متوعدًا، ولا يشك فى أن حماره قد مات فعلاً، وإنما هو يسأل قلقًا: هل وصل الجريح سالمًا؟

فى ظل الحكم الاستعمارى يمكن أن يفعل المرء كل شيء من أجل رطل خبز أو من أجل خروف هزيل. . إن علاقات الإنسان بالمادة، بالطبيعة، بالتاريخ، هى فى العهد الاستعمارى علاقات بالغذاء. أن نحيا، فذلك لا يعنى فى النظام الاستعمارى وفى ظروف من الاضطهاد كظروف الجزائر، أن نجد قيمًا، وأن نساهم فى نمو العالم نموًا خصبًا منسجمًا، وإنما يعنى أن لا نموت. البقاء فى هذا النظام، معناه إقامة الأود. كل ثمرة فهى نصر. ليس ثمرة عمل، وإنما هى انتصار يحسه المرء ظفرًا للحياة. لذلك فإن اختلاسك الثمر، وسماحك لخروفك بأن يرعى عشب جارك، ليس إنكارًا لملكية الغير، أو خرقًا لقانون، أو استخفافًا. بل هو محاولة قتل. يجب أن يكون المرء قد رأى، فى مناطق القبائل، كيف يظل الرجال والنساء أسابيع بكاملها ينقلون من قرارة الوادى إلى الجبال ترابًا بالسلال، حتى يدرك أن السرقة محاولة قتل وليست عملاً غير ودى، أو غير شرعى. ذلك أن مدار الأمل كله على هذه المعدة التى ما تنفك تضيق، وما تنفك مطالبها تقل يومًا بعد يوم، ولكن لابد من ارضائها مع ذلك. على من تقع المسئولية؟ الفرنسى يقيم فى السهل مع شرطته وجيشه ودباباته. وفى الجبال ليس إلا جزائريون. فى الجبال السماء ووعودها بخيرات الحياة الآخرة، وفى السهول الفرنسيون ووعودهم المحسوسة الملموسة بالسجن والجلد والإعدام. حتم إذن أن ينكفىء المرء على نفسه. تلكم هى نواة ذلك الكره. للذات الذى يميز الصراعات العرقية فى المجتمعات المنقسمة.

إن ما يُسند إلى الجزائرى من ميل إلى الجريمة ومن عنف فى القتل، ليس إذن ثمرة بنيان جملته العصبية، ولا هو صفة أصيلة من صفات طبعه، وإنما هو نتيجة مباشرة للوضع الاستعمارى. لقد ناقش المناضلون الجزائريون هذه المسألة، ولم يهابوا أن يعيدوا النظر فى الاعتقادات التى ألقاها الاستعمار فى روعهم، وأدركوا أن كل واحد منهم كان ستارة للآخر، وأن كل واحد منهم كان فى . الواقع ينتحر حين يهجم على الآخر. وهذا كله أحدث فى الوعى أثرًا كبيرًا يحتل من الخطورة منزلة أساسية. أعود فأقول إن الهدف الأول الذى يجب أن يسعى إليه المستعمر المقاتل هو أن يقضى على السيطرة. ولكن عليه أيضًا أن يحرص أشد الحرص على إزالة جميع الأكاذيب التى غرسها الاضطهاد فى جسمه. إن الأفكار التى كان يعلنها الاستعمار فى ظل نظام استعمارى كالنظام الذى كان قائمًا فى الجزائر، لم تؤثر فى الأوروبيين فحسب، بل أثرت أيضًا فى الجزائرى. والتحرير الشامل إنما هو التحرير الذى يشمل جميع قطاعات الشخصية. إن ما يقوم به المجاهد من نصب للكمائن ومهاجمة للدوريات، وما يلقاه إخوته من تعذيب وتقتيل، إن ذلك كله يرسخ عزمه على الانتصار، ويجدد لا شعوره ويغذى خياله. حين تقلع الأمة بمجموعها، فإن الإنسان الجديد لا يكون ثمرة هذه الأمة بعد إقلاعها، وإنما هو يوجد معها، وينمو بنموها، وينتصر بانتصارها. وهذه الضرورة الديالكتيكية تفسر لنا الأحجام عن التلاؤم مع مخلفات الاستعمار، ورفض الإصلاحات التى تتناول المظهر وحده. ليس الاستقلال كلمة تقال، وإنما هو الشرط الذى لابد منه لوجود أولئك الرجال والنساء المتحررين حقًا، أعنى المالكين جميع الوسائل المادية التى تتيح لهم أن يبدلوا المجتمع تبديلاً جذريًا.

●●●

خاتمة

هيا، يا رفاق، إنه ليجدر بنا أن نقرر منذ الآن أن ننتقل إلى الضفة الأخرى. الليل الطويل الذى كنا غارقين فيه، يجب أن نهزه وأن نخرج منه. النهار الجديد الذى أخذ يطلع، يجب أن يجدنا حازمين واعين قد عزمنا أمرنا.

ينبغى أن نترك أحلامنا، أن نترك اعتقاداتنا القديمة، أن نترك صداقاتنا التى عقدناها قبل بزوغ الفجر. لا نضيعن وقتنا فى دعوات مملة، وتلوثات تبعث على التقيؤ. لنتك هذه الأوروبا التى لا تفرغ من الكلام على الإنسان وهى تقتله حيثما وجدته، فى جميع نواصى شوارعها وفى جميع أركان العالم.

لقد انقضت قرون وأوروبا تجمد تقدم البشر الآخرين وتستعبدهم لتحقيق أهدافها وأمجادها. انقضت قرون وهى، باسم «مغامرة روحية» مزعومة، تخنق الإنسانية كلها تقريبًا. انظروا إليها الآن وهى تسقط بين تحلل الذرة وتحلل الروح.

ومع ذلك نستطيع أن نقول إنها، فى بلادها، قد نجحت بكل شىء فى مجال التحقيق.

لقد أمسكت أوروبا زمام العالم فى حماسة واستهتار وعنف، وانظروا كم يمتد ظل مبانيها وكم يتكاثر! إن كل حكة قامت بها أوربا قد حطمت حدود المكان وحدود الفكر. ورفضت أوروبا كل مذلة وكل تواضع، ولكنها رفضت أيضًا كل حنان وكل رفق.

لم تظهر بخيلة شحيحة إلا مع الإنسان.

فيا أيها الإخوة، كيف لا نفهم أن هناك ما هو خير لنا من إتباع هذه الأوروبا!..

إن هذه الأوروبا التى لم تنقطع لحظة عن الإدعاء بأنها لا تهتم إلا بالإنسان، نحن نعلم اليوم كم قاست الإنسانية من آلام ثمنًا لكل نصر من انتصار روحها.

هيا يا رفاق، لقد انتهت لعبة أوروبا تمامًا، وعلينا أن نجد شيئًا آخر. إننا نستطيع اليوم أن نفعل كل شىء، شريطة أن لا نقلد أوروبا تقليدًا أعمى وأخرق، شريطة أن لا تحاصرنا الرغبة فى اللحاق بأوروبا.

لقد بلغت أوروبا من فرط السرعة المجنونة الطائشة فى سيها أن زمامها قد أفلت اليوم من كل قيادة ومن كل عقل، وأن دوارًا رهيبًا يعصف برأسها ويودى بها فى هوة يحسن الابتعاد عنها بأقصى سرعة ممكنة.

صحيح أننا فى حاجة إلى نموذج، إلى مثال، إلى قدوة. وإن كثيرًا منا يفتنه النموذج الأوروبى أكثر من أى نموذج آخرز ولكننا رأينا فى الصفحات المتقدمة أنواع الإخفاق التى تقودنا إليها هذه المحاكاة. يجب أن لا تغرينا بعد الآن ولا أن تُفقدنا توازننا الإنجازات الأوروبية والتكنيك الأوروبى والأسلوب الأوروبى.

إنى حين أبحث عن الإنسان فى التكنيك الأوروبى والأسلوب الأوروبى، لا أرى إلا سلسلة من الإنكارات للإنسان، إلا مواكب من جرائم قتل الإنسان.

إن المصير الإنسانى، ومشاريع الإنسان، والتعاون بين البشر فى أعمال تغنى كيان الإنسان، هذه كلها مشكلات جديدة تتطلب تجديدات مبتكرة حقًا.

فلنقرر أن لا نقلد أوروبا، ولنوجه عضلاتنا وأدمغتنا فى اتجاه جديد. لنحاول أن نخلق الإنسان الكلى الذى عجزت أوروبا عن تحقيق الانتصار له.

منذ قرنين قرت مستعمرة أوروبية قديمة أن تلحق بأوروبا، وقد بلغت من النجاح فى ذلك أن الولايات المتحدة الأمريكية أصبحت كائنًا عجيبًا مشوهًا تضخمت فيه تضخمًا رهيبًا عيوب أوروبا وأمراضها ولا إنسانيتها.

أيها الرفاق، أليس علينا أن نفعل شيئًا آخر غير خلق أوروبا ثالثة؟ لقد أراد الغرب أن يكون مغامرة للفكر؛ وباسم هذا الفكر، فكر أوروبا طبعًا، إنما سوغت أوروبا جرائمها، وجعلت استعبادها لخمسة أرباع الإنسانية شرعيًا.

لقد قام الفكر الأوروبى على قواعد عجيبة، وجرى التفكير الأوروبى كله فى أمكنة ما تنفك تخلو من الإنسان، وما تنفك تزداد وعورة، حتى ألفنا أن يختفى منه الإنسان شيئًا بعد شىء.

حوار مع الذات لا ينقطع، ونرجسية ما تفتأ تزداد دعارة، كان ذلك مهادًا لما يشبه

الهذيان، لهذيان يصبح فيه عمل الدماغ عذابًا، لأن الواقع ليست فيه وقائع الإنسان الحى الذى يعمل ويصنع نفسه، بل ألفاظ ومزاوجات شتى بين ألفاظ، وتوترات ناشئة عن الدلالات التى تتضمنها الألفاظ. على أنه قد وُجد أوروبيون يهيبون بالعاملين الأوروبيين أن يحطموا هذه النرجسية وأن يكفوا عن تجريد الواقع هذا التجريد.

ولكن العاملين الأوروبيين لم يستجيبوا للنداء بوجه عام، ذلك أن العاملين قد حسبوا أنهم هم أيضًا مرتبطون بهذه المغامرة العظيمة التى يقوم بها الفكر الأوروبى.

إن جميع العناصر اللازمة لحل كبريات مشاكل الإنسانية قد وجدت فى تفكير أوروبا فى لحظات مختلفة. ولكن عمل البشر الأوروبيين لم يحقق الرسالة المنطوية به، وهى أن يستند استنادًا قويًا إلى هذه العناصر، أن يغير ترتيبها، أن يغير كيانها، أن يبدلها، أن ينقل أخيرًا مشكلة الإنسان إلى مستوى أعلى كثيرًا.

ونحن نشهد اليوم تجمد الدم فى شرايين أوروبا. فلنهرب أيها الرفاق من هذه الحركة الساكنة التى استحال فيها الديالكتيك شيئًا فشيئًا إلى منطق توازن. ولنطرح مشكلة الإنسان من جديد. لنطرح مسألة الواقع الدماغى، مسألة الكتلة الدماغية للإنسانية كلها، هذه الكتلة التى يجب علينا أن نضاعف ارتباطاتها، وأن ننوع شبكاتها، وأن نعيد إلى تواصلها طابع الإنسان.

هيا يا رفاق! إن الأعمال التى يقع على عاتقنا أن نقوم بها أكثر من أن نستطيع تضييع وقتنا فى ألهيات تتسلى بها المؤخرة. لقد صنعت أوروبا ما كان عليها أن تصنعه، بل لقد أحسنت، على وجه الإجمال، صُنع ما كان عليها أن تصنعه. فحسبنا اتهامًا لها، ولكن علينا أن نقول لها بقوة إنها ما ينبغى لها بعد الآن وأن تستمر فى إحداث هذا الضجيج كله. لقد أصبحنا اليوم لا نخشاها، وعلينا إذن أن ننقطع عن حسدها.

إن العالم الثالث يقف الآن أمام أوروبا كتلة عظيمة تريد أن تحاول حل المشكلات التى لم تستطع أوروبا أن تأتى لها بحلول.

ولكن يجب علينا أن لا نتحدث عن وفرة الإنتاج، أن لا نتحدث عن الجهد العنيف، أن

لا نتحدث عن السرعة الكبيرة. وليس معنى هذا «أن نعود إلى الطبيعة»، وإنما معناه أن لا نشد البشر إلى اتجاهات نشوههم، أن لا نفرض على الدماغ إيقاعًا سرعان ما يفسده ويفقده سلامته. يجب علينا أن لا نتذرع بحجة اللحاق فنزعزع الإنسان وننتزعه من ذاته، من صميمه، وأن نحطمه، أن نقتله.

لا، نحن لا نريد اللحاق بأحد، ولكننا نريد أن نمشى طوال الوقت، ليلاً ونهارًا، فى صحبة الإنسان، فى صحبة جميع البشر. وعلينا أن نجعل القافلة متراصة غير متباعدة، وإلا لم يستطع كل صف من الصفوف أن يى الصف الذى تقدمه، ولم يستطع البشر أن يعرف بعضهم بعضًا، وأصبحوا لا يلتقون إلا لماما ولا يتحدث بعضهم إلى بعض كثيرًا.

أن على العالم الثالث أن يستأنف تاريخًا للإنسان يحسب حساب النظرات التى جاءت بها أوروبا وكانت فى بعض الأحيان رائعة، ولكنه يحسب أيضًا حساب الجرائم التى قامت بها أوروبا فى الوقت نفسه، وأبشع هذه الجرائم أنها قد شتتت وظائف الإنسان تشتيتًا مرضيًا، وفتتت وحدته، كما أوجدت فى المجتمع تحطمًا وتكسرًا وتوترات دامية تغذيها طبقات، وكما أوجدت على مستوى الإنسانية أحقادًا عرقية واستعبادًا واستغلالاً بل وقتلاً هو ذلك النبذ المليار ونصف مليار من البشر.

فيا أيها الرفاق، يجب علينا أن لا ندفع جزية لأوروبا بخلق دول ونظم ومجتمعات تستوحى أوروبا.

إن الإنسانية تنتظر منا شيئًا آخر غير هذا التقليد الكاريكاتورى، الفاجر على وجه الإجمال.

إذا أردنا أن نحيل أفريقيا إلى أوروبا جديدة، وأن نحيل أمريكا إلى أوروبا جديدة كان علينا أن نعهد بمصائر بلادنا إلى أوروبيين، لأنهم سيحسنون التصرف أكثر من أعظمنا موهبة.

أما إذا أردنا أن نتقدم الإنسانية درجة، إذا أردنا أن نحمل الإنسانية إلى مستوى مختلف عن المستوى الذى بلغته أوروبا، فعندئذ يجب علينا أن نبتكر، أن نكتشف.

إذا أردنا أن نستجيب لآمال شعوبنا فيجب علينا أن نبحث فى غير أوروبا .

بل إذا نحن أردنا أن نستجيب لما يتوقعه منا الأوروبيون فيجب أن لا نرد إليهم بضاعتهم، أن لا نرسل إليهم صورة، ولو مثالية، عن مجتمعهم وعن تفكيرهم بعد أن أصبحوا يشعرون نحوهما باشمئزاز شديد .

فمن أجل أوروبا، ومن أجل أنفسنا، ومن أجل الإنسانية، يجب علينا يا رفاق، أن نلبس جلداً جديداً، أن ننشىء فكراً جديداً، أن نحاول خلق إنسان جديد .

●●●

مُلحق

غياب البعد الإسلامي في نصوص فانون؛ الإسلام المسكوت عنه في كتاب "معذبو الأرض"[1]

فوزي السليسلي[2]

[1] نُشرت هذه الورقة للمرة الأولى في Critical Middle Eastern Studies Volume 17, Issue 1 March 2008. ونقلها إلى العربيّة محمد سيد علي، وراجعها محمد عبد الرءوف.

[2] فوزي السليسلي، أستاذ الأدب والدراسات الإسلامية والتاريخ العرقي بجامعة "سانت كلاود – Saint Cloud State University" الأمريكية سابقًا. وهو الآن أستاذ النقد الأدبي بقسم اللغة الإنجليزية بجامعة الملك فيصل بالمملكة العربية السعودية. وقد نشرنا هذه الترجمة العربية لورقته البحثية بإذنٍ خاصٍ منه. (الناشر)

مقدمة:

إن شعار «انجُ بنفسك»، وهو الأسلوب الذي ينتهجه الملحد للخلاص والنجاة، هو أمر مرفوض في هذا السياق[1].

هناك حقيقة غائبة في كتاب «معذبو الأرض» لا يريد أحد الحديث عنها. إنَّه الإسلام وتقاليده المناهضة للاستعمار في الجزائر. لطالما استشهد فانون بهذه التقاليد وأثنى عليها، بل ويمكن القول أنَّ الحُكم الشهير الذي أصدره فانون على الأنظمة الاستعمارية بأنَّها «استعمار يحتضر»(*) لم يُولَد إلاَّ من رحم اتِّصَاله بهذه التقاليد المناهضة للاستعمار. ومع أنَّ فانون كثيرًا ما كان يحكي عن هذه التقاليد في كل مكان، إلا أنَّه لم يُشر إلى مرجعيتها قط. لقد تحدَّث فانون عن أساليب المقاومة وأشاد بثقافة الفلاحين الجزائريين، ولكنه لم يُسمِّ هذه التقاليد باسمها الحقيقي؛ تقاليد المقاومة الإسلامية للاستعمار. وبدلاً من ذلك نَسَبَ نجاح هذه المقاومة إلى المزيج الشهير من «العفوية» و«التنظيم». كما أنَّ التأصيل لفكرة «التنظيم» يُنسب إلى النظرية الثورية الماركسية، بينما يُقال إنَّ ذلك الاندفاع والتهوُّر والأفعال المناهضة للاستعمار التي يقوم بها الفلاحون الجزائريون هي مصدر «العفوية». وهو المزيج الذي أصبح السمة المميِّزة لنظرية الثورة عند فانون والسبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار. ومع ذلك، فأنا أزعُم في هذا المقال أنَّ الانطلاق العفوي للفلاحين الجزائريين، والذي بنى عليه فانون نظريته الثورية، لم يكن أمرًا عفويًا. فالقراءة المتأمِّلةُ للفصل الشهير من كتاب فانون «الانطلاق العفوي؛ عظمته ومواطن ضعفه»، ستكشف لنا أنَّ كل الأمثلة التي ذكرها فانون ليُدلِّلَ على «العفوية» الثورية للفلاحين الجزائريين تنتمي بوضوح إلى التقاليد الإسلامية المناهضة للاستعمار، والتي كانت موجودة منذ أكثر من قرن حين كان فانون يكتب كتابه. ولم يستطع فانون أنْ يُقدِّم هذه التقاليد كانفجار عفوي غير منطقي من الفلاحين إلا من خلال صمته عن مصدرها الإسلامي. وفي السياق الجزائري، لا يمكن أن تظهر مقولات «العفوية» و«التنظيم» إلاَّ بطمس كل إشارة إلى الإسلام. وبدلاً

(*) المقصود هنا كتاب فانون «العام الخامس للثورة الجزائرية»، والذي صدر بالفرنسية في ١٩٥٩، ولكنه تُرجم إلى الإنجليزية في ١٩٦٥ بعنوان «استعمار يحتضر» A Dying Colonialism. (المترجم)

من الحديث عن العفوية والتنظيم، فإنَّ ما يصفُه كتاب «معذبو الأرض»، في واقع الأمر، هو مزيج من نسقين مختلفين للتنظيم؛ أحدهما إسلامي والآخر ماركسي.

ما الذى جعل من الفلاحين الجزائريين ثُوَّارًا؟

عجزت الدراسات الماركسية للثورة الجزائرية عن تفسير كيف أصبحت «طبقة الفلاحين» هي المُكوِّن الرئيس للثورة. لقد ابتعدت الثورة الجزائرية عن العقيدة الماركسية والنظرية الثورية بتجاهلها للبروليتاريا وتحريكها للفلاحين. كما أنَّ كارل ماركس نفسه أبدى اهتمامًا ضئيلاً بطبقة الفلاحين كطبقة ثورية. في الواقع، كان ماركس يرى أن الفلاحين محافظون ويفتقدون للوعي الثوري. كما أنَّ كثيرًا من الأنثروبولوجيين وعلماء الاجتماع وصفوا الفلاحين بأنهم عقبة في طريق الإصلاح الاجتماعي والثورة. كذلك وصفت «الاشتراكية العلمية» طبقة الفلاحين بأنَّها طبقة محافظة رجعية. فعلى سبيل المثال، ترى (مارى بيرنبام - Marie Perinbam) أنَّ «تعلُّق الفلاحين بالأرض والثقافة القروية يمنعهم من قبول التغيير الاجتماعي، ناهيك عن الثورة»[٢]. ويقول الناقد الفيتنامى (نجوين نيجي - Nguyen Nghe) إنَّ «الفلاح ذاته لا يمكن أنْ يكون لديه وعي ثوري أبدًا، وإنَّما يجب على الثوار القادمين من المدن أن يبحثوا بتأن وصبر عن العناصر الأكثر موهبة بين الفلاحين الفقراء، وأنْ يُعلِّموهم ويُنظِّموهم، وربما بعد مدة طويلة من الإعداد والعمل السياسى يمكن تعبئة «الفلاحين». ومن ثمَّ، يرى نيجي أنَّ فانون فشل فى إدراك أنَّ الفلاحين بطبيعتهم لم يكونوا ثوريين.

ما الذى جعل ثوريًا مثل فانون يُمجِّد طبقة كانت النظرية الثورية التقليدية تميلُ إلى ازدرائها وتنظر إليها باعتبارها طبقة رجعية وقَبَلية وعاطفية؟ يُلاحظُ النقَّادُ المدافعون عن فانون أنَّ الطبقة العاملة كانت تُشكِّل أقلية صغيرة جدًا فى الجزائر الفَرنسية، أو كما وصفها فانون نفسه بأنَّها: «جزء صغير جدًا من السكَّان، لا يكاد يتجاوز واحدًا فى المائة» (ص١٠٨). كذلك يلاحظ النقَّاد أيضًا أنَّ البروليتاريا عادة ما تكون الطبقة المفضَّلة للمستعمر لأنَّها تندمج فى الاقتصاد الاستعمارى بخلاف بقية «السكان الأصليين». كما عزا فانونَ دورًا كبيرًا إلى «القوميين» الجزائريين الشباب الذين انشقُّوا عن الحزب الوطنى القديم الذى أسَّسَه «مصالى الحاج» وأسَّسُوا جبهة التحرير الوطني الجزائرية FLN[٤]. لجأ

هؤلاء المتمردون إلى الريف فوجدوا فيه الملاذ والدعم الشعبى لبدء حرب التحرير ومساندتها. ويرى النقّاد المدافعون عن فانون أنّ هؤلاء المتمردين هم من تولّوا مسئولية التخطيط للثورة وتوعية الفلاحين وتوجيه طاقاتهم(٥). ومن ثمَّ، لم يكن ثمَّة خيار أمام قادة جبهة التحرير الوطني الجزائرية سوى العمل مع طبقة الفلاحين، بينما كانت النخبة المثقّفة الجزائرية وأحزابها فى هذا الوقت تسعى جاهدة وراء التسوية والتوافق وليس الاستقلال، حتى إنّ الحزب الشيوعى نفسه رأى أنّه من الأفضل لمستقبل الجزائر أنْ تكون إقليمًا تابعًا لفرنسا الاشتراكية. تُوضّحُ هذه الحقائق أنّ الفلاحين كانوا أكثر الجزائريين تقبُّلاً لفكرة مقاومة الاستعمار وطرده. وتذكُر «بيرنبام» أنّ الغالبية العظمى من عمليات مقاومة الوجود الفرنسي ما بين عامى ١٨٣٠ و١٨٧٩ جاءت من المناطق الريفية. إذن، فما الذى جعل الفلاحين أكثر تلبية واستجابة لنداء الثورة من النخبة وأحزابها السياسية؟

ترى «بيرنبام»، مثل فانون، أنّ الفلاحين فى البُلدان المستعمَرة، بخلاف نظرائهم فى الغرب، لديهم طبائع ثورية، فتقول: «دائمًا ما تُلبِّي جماهير الفلاحيين في العالم الثالث نداء الثورة»(٦). إلاّ أنّ الدليل الذى تُقدِّمُه بيرنبام ليس مُقنعًا. فلم يحدث قط أنْ قام الفلاحون الجزائريون بطرد المقاتلين الذين لجأوا إليهم، بل كان الفلاحون يستقبلون المُطارَد ويحيطونه برعايتهم، دون أن يسألوه عن أي شيء، مدفوعين في ذلك بكرمهم وإيثارهم. وتستشهد بفانون فتقول إنّ الفلاحين «لم يتخلّو لحظة عن الثبات على نمط من الحياة مُناهض للاستعمار بطبيعته»؛ ومن ثمّ فإنّ «الفلاح الأصيل» هو الفلاح المناهض للاستعمار. وتتحدّث بيرنبام عن تقاليد للقتال والمقاومة ظلّت حيَّة حتى الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين(٧)، عن «شيء يشعر به الفلاح بشكل غير واضح يدفعه للمُشاركة فى العمل الشعبي». وتشير إلى «أساليب بعينها من التفاعل الجماعى» و«التكيُّف» و«السليقة» التي جعلت الجزائريين يقاومون المستعمر تلقائيًا كأنهم قطيع من الذئاب(٨). إلا أنّ بيرنبام لا تتساءل عن طبيعة ذلك «التفاعل» أو ذلك «التكيُّف» الذى جعل من الفلاحين الجزائريين العمود الفقرى لأعنف حرب ضد الاستعمار فى التاريخ الحديث، ولاتتكبّدُ عناء معرفة طبيعة وخصائص تقاليد القتال والمقاومة التى كانت حاضرة

في الريف الجزائري على امتداد القرن التاسع عشر والتي ظلّت حية حتى الأربعينات والخمسينات من القرن العشرين.

من المؤكَّد أنَّ فانون لم يكن رومانتيكيًا من القرن العشرين يتنابه حنين الرجوع إلى «رحم الطبيعة»، ولم يكن قطعًا «كوليردج» أو «ووردزوث» مفتونًا بنمط الحياة الريفية والبدو النبلاء. كما أنَّه لم يكن من الصعب التمييز بين الريف الجزائري وفلاحيه وبين نظيره الأوروبي المفترض. ورغم هذه الفروق الواضحة، عجَز مؤيِّدو فانون عن تفسير السبب الذى جعل من الفلاحين الجزائريين ثُوَّارًا. ومن المثير أنَّ آراء كلٍّ من مؤيِّدي فانون وناقديه تصبُّ في الاتجاه ذاته. فنجد أنَّ «بيرنبام» تُشير فى آخر مقالها، وبصورة عَرَضيَّة إلى مفهوم الجهاد، فتقول إنَّه مفهوم «تمسَّك به الفلاحون المسلمون توًا في وقت قريب. ومن ثمَّ، لعله ليس مصادفة أنَّ في أثناء حرب ١٩٥٤-١٩٦٢ كان المقاتلون معروفين باسم المجاهدين، أو هؤلاء الذين يخوضون حربًا مقدسة»(٩). كذلك عندما تحدَّث (تيمور تيميفيف - Timur Timefeev)، مدير معهد الحركة العمَّالية العالمية فى الأكاديمية الروسية للعلوم، باستخفاف عن فانون والجزائريين، فإنه أرجَع انحرافهم عن الأرثوذكسية الماركسية إلى التأثير القوي للإسلام(١٠).

الاستعمار والإسلام والجزائريون

كانت حركة مقاومة الوجود الفرنسي النشطة فى الريف الجزائرى خلال القرن التاسع عشر والتى تشير إليها بيرنبام؛ أي تقاليد القتال/ المقاومة التى تقول «بيرنبام» إنَّها ظلَّت حيَّة حتى الخمسينات والستينات من القرن العشرين، كانت ذات طابع إسلامي تمامًا، في أيديولوجيتها وثقافتها وتنظيمها، بل وفي اسمها. وفي شمال أفريقيا، خلال القرنين الثامن عشر التاسع عشر، كانت الطرق الصوفية هى التي رسَّخت لمقاومة الاستعمار. وعلى سبيل المثال، قادت «الطريقة الدرقاوية» انتفاضة كبيرة ضد الحكم العثماني من ١٧٨٣ إلى ١٨٠٥، ثم مرة أخرى من ١٨٠٥ إلى ١٨٠٩، حتى هُزِمت إثر حملة انتقامية ساحقة من العثمانيين، مما اضطر القبائل التى تنتمي إليها للانسحاب إلى ولاية المدية جنوب الجزائر. كذلك بين عامى ١٨٢٢ و١٨٢٧ قاومت «الطريقة التيجانية» دفع الضرائب

للعثمانيين وقاتلتهم فى غرب الجزائر، إلاَّ أنَّ العثمانيين انتصروا فى النهاية وعلَّقوا رأس شيخ الطريقة وقائدها محمد الكبير كتحذير لبقية القبائل والطرق الصوفية[١١].

كذلك لم يتطلَّب الأمر أكثر من سنتين بعد الغزو الفرنسي لكى يشعل الجزائريون إحدى أكثر ثوراتهم المناهضة للاستعمار عنفًا وقسوة، وهي الثورة التى قادها الأمير عبدالقادر وكانت أيضا تحمل راية إسلامية واضحة. وتمكَّن فيها الأمير عبدالقادر من حصار الفرنسيين فى ثلاثة جيوب ساحلية من العام ١٨٣٢ وحتى ١٨٤٨، بينما أقام فى الداخل لدولة إسلامية قائمة على تحكيم الشريعة والتى كان أتباعه يحترمونها إلى حد كبير. كان الجهاد هو العقيدة المُحرِّكة لتحرير الأرض من المستعمرين. وقد وقع الاختيار على الأمير عبدالقادر لأنَّه نال تقدير إخوانه في الدين نتيجة لإخلاصه لمبادئه الإسلامية وسمو أخلاقه. كما أنَّه كان دارسًا للفقه الإسلامى ونال ثقة العلماء. كذلك أقام الأمير عبدالقادر شبكة من الزوايا (مؤسَّسة تتشكَّلُ من مسجد ومدرسة) تابعة للطريقة القادرية الصوفية وأسَّسَ إدارة مُعقَّدَة ومجتمعًا أكثر مساواةً وعدلاً من الذى كان موجوداً سواء تحت حكم الفرنسيين أو العثمانيين. وأثناء مبايعته فى ٢٧ نوفمبر ١٨٣٢ قال كلماته المشهورة: «. . وأنِّي قبلت هذا المنصب مع عدم ميلي إليه، مؤمِّلاً أن يكون واسطة لجمع كلمة المسلمين، ورفع النزاع والخصام بينهم، وتأمين السُّبُل، ومنع الأعمال المنافية للشريعة المُطَّهرة، وحماية البلاد من العدو، وإجراء الحق والعدل نحو القوى والضعيف. . ». وكانت البيعة له أشبه ما تكون بمبايعة الصحابة للنبى محمد ﷺ عام ٦٢٧ ميلادية[١٢].

ظهرت العديد من الثورات المُماثلة المناهضة للاستعمار في القرن التاسع عشر عبر شمال أفريقيا وشرقها وغربها، وكلُّها كان يقودها طرقٌ صوفية أو شيوخٌ صوفيون. وكان الشيخ المقراني والشيخ الحدَّاد والشيخ بوعمامة الشخصيات الأبرز فى الجزائر بعد الأمير عبد القادر. وفي أماكن أخرى، كان الإمام عبدالله حسَّان يُقاتل الإنجليز والإيطاليين فى الصومال، وكان الحاجّ عمر تال الفوتى يقود الجهاد فى غينيا والسنغال ومالى، وقاد محمد السنوسي -مؤسِّسُ الطريقة السنوسية فى ليبيا- المقاومة ضد الإيطاليين، وقاد عثمان بن فودي الجهاد فى نيجيريا، كذلك هناك ماء العينين الشنقيطى فى المغرب. وهؤلاء هم فقط بعض من برزوا من قادة مقاومة الاستعمار. وكانوا جميعًا متصوِّفة، وقد عبَّر الكثير منهم

عن أفكاره من خلال الكتابة. وقد أظهروا جميعا قدراً كبيراً من الاستقلال الثقافي، وقدَّموا فلسفة مختلفة لمفهوم الجهاد وطرقًا جديدة من المقاومة[١٣]. يرى (مارتن برادفورد - Martin Bradford) أنَّ تلك الحركات لم تكن تعبيراً عن ركود الإسلام، بل على العكس؛ أسَّسُوا نموذجًا للبعث والتجديد كان إسلاميًا بلا شك متتبِّعين فيه خُطى الرسول محمد ﷺ.

وحتى بعد أنْ هُزمت هذه الحركات، فإنَّ العقيدة الإسلامية ظلَّت حيَّة وقادرة على إشعال الثورات ومقاومة الاستعمار. والسبب فى ذلك ببساطة أنَّ الإسلام، خلاف باقى الأديان، لا يمكن تحويله إلى مؤسَّسَة، كما أنَّ التماهى مع السلطة يطعن فى استقلال العلماء. وعندما يحدث ويتماهى العلماء مع السلطة فإنَّ الجماهير تبحث عن علماء أكثر استقلالية لكى يتبعوهم. وهذا أمر واضح حتى اليوم في محاولة حكومات مثل السعودية ومصر إنشاء إسلام «رسمي» تَنزِعُ به الشرعية عن المعارضة الإسلامية لها. ودائمًا ما يكون العلماء الذين يشاركون فى تلك البرامج عُرضَة لخطر التشكيك فى أحكامهم وآرائهم من قبَل العامة. وفى سياق كهذا، يمكن حتى لطالب علم صغير أنْ يبعث ويقود تمرُّدًا واسع النطَاق. وقد شرع الفرنسيون والإنجليز بعد استيعاب الحركات الصوفية فى تحويلها إلى مؤسَّسَات متعاونة معهم، أملاً فى أنْ يرعوا إسلامًا «رسميًا» يدعم الاستعمار الأوروبى. كما أنشأ الفرنسيون فى الجزائر ما أسموه «التقسيم الإدارى للمساجد» وبدأوا فى تنظيم رحلات حجٍّ إلى مكة. واعتمدوا قضاءً مدنيًا يحكم بنظام قانونى جديد كان بمثابة ابن غير شرعى نتيجة الدمج بين الفقه الإسلامي والقانون الفرنسي[١٤]. وقد كتب إدموند دوتيه عام ١٩٠٠ يقول إنَّه «لا شكَّ في أنَّ فرنسا يمكنها أنْ تستخدم «المرابطين» (الحركات الصوفية) لخدمة مصالحها. لقد كانوا فى خدمتنا حتى فى الشئون الإدارية المحضة، ورأيناهم يأمرون أتباعهم، باسم الإله وبطلب من مسئول البلدية، بطاعة الأوامر وتنفيذ التعليمات»[١٥].

ورغم ذلك، كان استيعاب الحركات الصوفية شرارة إطلاق حركة الإصلاح التى قادها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده. فقد هاجم محمد عبده الجمود الثقافي والفكري عند الحركات الصوفية وأسهم فى تحديث مناهج التعليم ودعم مقاومة الاستعمار. وبحلول عام ١٩٣٠، كانت الحركات الإصلاحية قوة لا يُستهان بها فى معظم الدول الإسلامية. كما

قادت جمعية علماء المسلمين حركة الإصلاح فى الجزائر، ولا نكون مبالغين إذا قلنا «إنَّ أهمَّ تطور سياسى فى النصف الأول من القرن العشرين فى الجزائر كان العمل الثقافى والتعليمى الذى قامت به جمعية علماء المسلمين؛ فبدون جهود جمعية علماء المسلمين فى المجالين التعليمى والثقافى، ربما كانت حركة الاستقلال الجزائرية التى انطلقت عام ١٩٥٠ تأخرت كثيراً. وبدون مجهوداتهم فى إنشاء قاعدة ثقافية للوطنية الجزائرية، ربما لم تكن الثورة الجزائرية لتنجح أبداً[١٦]».

يمكننا عبر تتبُّع الطرق الصوفية فى القرن التاسع عشر وحتى إصلاحييّ القرن العشرين أنْ نُلاحظ سمة هامة وواضحة للتاريخ الإسلامى؛ فى لحظات الجمود الأيديولوجي والانحطاط الثقافي والديني أو لحظات الغزو الخارجي، تبزُغُ فى التاريخ الإسلامى حركات تحمل راية التجديد الثقافى والسياسى[١٧]. لم تكن تلك الحركات مجرد حركات دينية، بل كانت حركات سياسية تستمد شرعيتها من الإسلام فى لحظات المحن والتهديدات. ويشهد المؤرخون أنَّ قادة هذه الحركات كانوا سياسيين ودبلوماسيين استثنائيين ورجال دولة وقادة عسكريين أفذاذاً وحتى شعراءً وكُتَّابًا مميزين. يقول (رافائيل دانزيجر - Raphael Danziger) عن الأمير عبدالقادر: «كان قائداً إسلاميًا محترفًا ومؤسسًا لدولة»[١٨]. ولم تكن الدولة التى أنشأها وأدارها دولة دينية، وإنَّما كانت دولة بيروقراطية أدارتها بكفاءة نخبة متعلِّمة، وقد اعتمد عليها الفرنسيون إلى حدٍّ كبير بعد أنْ هزموه[١٩]. ويصفه (بيساه شينار - Pessah Shinar) بأنَّه كان «مزيجًا من الشريف والفارس العربى والعالم المسلم، شاعراً مثاليًا رومانتيكيًا، زاهداً صوفي الهوى (على الأرجح)، وقائداً حربيًا ذا شخصية رائعة، ورجل دولة من الطراز الأول»[٢٠]. ويزخر التاريخ السياسى الإسلامى بأمثال هؤلاء القادة، الذين يحوزون الشرعية تلقائيًا فى لحظات غياب العدالة أو السخط الشعبي أوالاحتلال الخارجى أو حتى الكوارث الطبيعية.

إذن، لم تكن ثورة الفلاحين الجزائريين ضد الاستعمار الفرنسي انطلاقًا من غريزة لاواعية أو ردِّ فعلٍ دفاعي، كقطيع ذئاب عند الهجوم عليه، كما ادَّعت التحليلات الغربية. على العكس من ذلك، قدَّمت المرجعية السياسية والاجتماعية فى الإسلام عقيدة أصيلة مناهضة للاستعمار وقادرة على استنفار الفلاحين وسكَّان المدن أيضًا. صحيح أنَّ

الإسلام كدين هو الذي أشعل تلك الثورات وأنَّ المؤسَّسَات الإسلامية هى التي نظَّمتها، لكن أهداف تلك الثورات ظلَّت دائما سياسية وواقعية. وبخلاف التصوُّرات الغربية أيضًا، لم يكن الفلاحون الجزائريون أميين. وبالعودة إلى دراسات البعثات الاستعمارية نفسها نجد أنَّ مُعدَّل الأمية فى الجزائر حين وصل الاستعمار الفرنسى سنة ١٨٣٠ كان أقل من نظيره فى فرنسا فى تلك الفترة[٢١]. كانت الزوايا التى أنشأها الأمير عبدالقادر، مثل كل الزوايا الصوفية، مراكز لتعليم القراءة والكتابة وتدريس الفقه وتعليم الحساب والجغرافيا وعلوم الفلك. كانت مساجد للعبادة، ولكنها كانت كذلك مراكز تعليمية يُعرِّج عليها العلماء من شتى بقاع العالم العربى للزيارة والتعليم.

ما يمكن تبيُّنه بوضوح فى النهاية أنَّه، وبعكس التصور السائد عن نفورهم من التغيير، فإنَّ الفلاحين الجزائريين (المسلمين) أقاموا شرعية وجودهم هم أنفسهم على أساس من التغيير؛ طرد المستعمر من بلادهم. وكما يُلاحظُ فانون، فعبر كل تلك السنوات التى كانت فيها الأحزاب القوميَة تلهَثُ وراء التسوية والحَقوق المدنية ضمن جمهورية فرنسية، أدرك «الفلاحون»، من صميم قلوبهم، أنه لا شيء أقل من الطرد الكامل للمستعمرين يمكنه أنْ يُعيد السلام إلى عالمهم. ومع ذلك، كانت العقيدة الإسلامية، وليس ثقافة الفلاحين البدائية، هى التى جعلت الفلاحين الجزائريين يرون أنَّه من المستحيل بمكان أنْ يتكيَّفوا مع ذلك النظام الاستعمارى الظالم. وعندما حوّل مصالى الحاج مظاهرات دعم إصلاحات «بلوم - فيوليت» فى ٢ أغسطس ١٩٣٦ إلى أول مظاهرة جزائرية كبرى من أجل الاستقلال، كانت مرجعيته القرآن والإسلام[٢٢].

الإسلام في كتاب «معذبو الأرض»

كان فانون شديد الوضوح فى إدانته للمسيحية. ومن المعروف عنه تشبيهه الشهير للمسيحية فى المُستعمرات بالمبيد الحشرىDDT. يقول فانون «إنَّ الكنيسة فى المُستعمرات هى كنيسة البيض؛ كنيسة الأجانب. إنَّها لا تدعو الإنسان المستعمَر إلى طريق الله وإنما تدعوه إلى طَريق الإنسان الأبيض، إلى طريق السيِّد المتسلِّط، إلى طريق المضطهد الغاشم. وأنتم تعلمون أنَّ فى تاريخ البعثات التبشيرية هذا كثيرًا من المكلَّفين، وقليلاً من المختارين» (ص٤٢). أما فيما يتعلَّق بالإسلام، فلم يكن موقف فانون

بالوضوح الكافي. فمن ناحية، كان فانون ثوريًا علمانيًا، وتعامل مع الثورة الجزائرية على أنَّها ثورة علمانية ريفية مناهضة للاستعمار، ومن ناحية أخرى قام بتحرير صحيفة المجاهد الناطقة باسم جبهة التحرير الوطنى الجزائرية. وكان الناس الذين دعمهم بشغف فى تلك الانتفاضة يُسمَّون «مجاهدين» وكانوا منخرطين فى «الجهاد». ولم يمتد موقف فانون السلبى من المسيحية إلى الإسلام قط. بل بتحريره لصحيفة المجاهد وتأييده لثورة قامت فى الأساس على الجهاد، يمكن للمرء القول إنَّه كان مؤيِّدًا بشكل أساسى للجهاد ضد المستعمر. وقد عبَّر فانون لعلي شريعتى، الذى سيصبح المُنظِّر الفكري الرئيس للثورة الإسلامَية فى إيران، عن قلقه ومخاوفه من أنَّ الروح الدينية والطائفية قد تُصبح عقبة فى طريق اتحاد دول العالم الثالث. لكنه مع ذلك شجَّع شريعتى على استغلال المصادر الفكرية والاجتماعية للإسلام فى تحرير وعي الجماهير وإنشاء مجتمع جديد تسوده المساواة بين البشر. كما طلب فانون من شريعتى، فى رسالة له من مكتب صحيفة المجاهد فى تونس، أنْ «ينفخ هذه الروح فى جسد الشرق المسلم»(٢٣)، كذلك كان فانون في كتاب معذبو الأرض واعيًا بقصور الأيديولوجيات الإلحادية عن استيعاب الموقف الجزائري، ويقول: «إنَّ الأسلوب الذي ينتهجه الملحد للخلاص والنجاة، هو أمر مرفوض في هذا السياق» (ص٤٧).

لكن موقف فانون من الإسلام كان أكثر تعقيدًا. ويمكن للقارئ المتأمِّل ملاحظة أن فانون يُشير باستمرار إلى الإسلام دون اعتراف بذلك. فيقول على سبيل المثال «إنَّ ذكرى حقبة مقاومة الاستعمار لا تزال حيَّة قوية فى الريف». هل كان يعرف أنَّ تقاليد مقاومة الاستعمار الجزائرية استنفرتها ونظَّمَتها الطرق الصوفية الإسلامية تحت راية الجهاد لمواجهة الاستعمار؟ يقول فانون: «إنَّ أطفال القرى الذين هم فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة من أعمارهم يعرفون أسماء الشيوخ الذين شَهدوا آخر ثورة» (ص١١٢). وهنا يمكن للمرء أنْ يسأل، من كان هؤلاء الشيوخ؟ هل كان فانون يعرف أنَّه يشير إلى الأمير عبدالقادر، وإلى الحاجِّ المقرانى وإلى الشيخ بوعمامة وإلى الشيخ الحدَّاد وتقاليدهم فى الجهاد؟. كما يقول فانون إنَّ «الجماهير الريفية تظلُّ في عفويَّتها انضباطية وتتصف بالإيثار» (ص١١٢). ويقول إنَّ الفلاحين «لم يتخلَّو لحظة عن الثبات على نمطِ حياة مُناهضٍ للاستعمار بطبيعته»

(ص ١٣٨)، ولذلك «فقد حافظ الفلاحون دائمًا على ذاتيتهم تجاه الاستعمار». علينا أنْ نسأل ما هذا النمط من الحياة الذى كان مُناهضًا للاستعمار بطبيعته؟

إنَّ الخضوع الكامل الذى حاولت فرنسا فرضه على مستعمراتها فى الجزائر، والذى وصفه فانون بشكل بليغ، يُمثِّل استهانة بأصل الإسلام نفسه. فالخضوع الكامل فى الإسلام لا يكون لأي شيء ولا لأي أحد سوى الله. فهذا الخضوع ينطوي على نقض للاعتقاد الأول والوحيد فى الإسلام؛ أيِّ شهادة أنْ لا إله إلا الله. كانت القوة الدافعةَ الكلية للمهمة الحضارية امتهان الإسلام باعتباره دينًا بدائيًا ولغته مُبهمة غير مفهومة أو كما ظلت تُنعت بالفرنسية «شغابية» أى بربرية[٢٤].

كان الجزائري يتحدَّى (المهمة الحضارية - mission civilisatrice) ببساطة من خلال ممارسته لشعائر دينه وتحدُّثه باللغة العربية. ومن ثمَّ، لم يكن مصادفة أنَّ المدارس التى كانت العربية وآدابها تُدرَّسُ فيها بصفة أساسية شكَّلت العصب الرئيس للثورات الصوفية. كذلك ليس مصادفة أنَّ الثورة الجزائرية سنة ١٩٥٠ لم تكن لتحدُثَ دون الأرضية التعليمية التى أقامتها «جمعية علماء المسلمين» فى الثلاثينات. إنَّ «نمط الحياة المُناهض للاستعمار» الذى يقول فانون إنَّ الجزائريين ظلَّوا ثابتين عليه كان ذا طابع إسلامي. فأبطالَ تلك التقاليد المناهضة للاستعمار وأسماؤهم كانت إسلامية في روحها وممارساتها وتنظيمها. هذه أمورٌ معروفة وشائعة فى ثقافات شمال إفريقيا، كما يعرفها التاريخ الاستعمارى جيدًا. فلماذا سمَّى فانون هذه الثقافة المناهضة للاستعمار وتقاليدها بثقافة الفلاحين بدلاً من أنْ يُسمِّيها باسمها الحقيقى؛ ثقافةإسلامية؟

يذكر المناضلون الجزائريون الذين عَرفوا فانون أنَّه اندهش كثيرًا عند اكتشافه أنَّ المقاومة كانت ملمحًا ثابتًا فى التاريخ الجزائري قبل ١٩٥٤[٢٥]. قد يُفسِّر اكتشاف فانون المتأخر لهذه التقاليد معالجته الجزئية لها في كتاب معذبو الأرض، مع أنَّه فى رسالته لشريعتى، يبدو واعيًا بما أسماه «جهود المقاومة الثقافية» التى كانت جمعية علماء المسلمين تقوم بها على امتداد النصف الأول من القرن العشرين. وقد أخبر فانون شريعتى أنَّه رغم عدم اتفاقه بشكل كامل مع جمعية علماء المسلمين، فإنَّه يحترم «مشاركتهم الفعَّالة فى الكفاح ضد الاستعمار الثقافى الفرنسى»[٢٦]. وفي حين يظهر من هذه الرسالة وعي فانون الواضح

بدور جمعية علماء المسلمين، إلا أنَّ هذا الدور نادرًا ما حظي بالذكر فى كتابات فانون عن الجزائر. ولكى نكون أكثر دقة، فإنَّ الجهود الفعلية للجمعية ذُكرت كثيرًا فى أعمال فانون ولكن بعد نزع الطابع الإسلامي عنها وعدم نسبتها لجمعية علماء المسلمين على الإطلاق. وحتى عندما يصف فانون تكتيكات التمرُّد التى حملت رموزًا إسلامية تقليدية، مثل حديثه عن الحجاب في مقال «الجزائر تكشف عن نفسها»، فإنَّه يصمتُ عن ذكر الأصل الإسلامي لتلك التكتيكات ولا يشير للدور الذى لعبته جمعية علماء المسلمين فيها[٢٧]. ومن ثمَّ، بينما يعوِّل فانون كثيرًا على هذه التقاليد «الإسلامية» ليبرهن على أنَّ الفلاحين لديهم تقاليد أصيلة مناهضة للاستعمار، فإنَّه على مايبدو يُزيل عنها مرجعيتها الإسلامية تمامًا. هل كان فانون جاهلاً بتلك التقاليد الإسلامية أم أنَّه اختار أنْ يتجاهلها؟

عندما يتحدَّث فانون عن دين الجزائريين، فإنَّه يشير إلى «جو من التطهُّر» و«حالة من النشوة الجماعية» و لكنه لا يسميه باسمه الحقيقي؛ الإسلام. كما أنَّه يُكبِّد نفسه عناء استعارة كلمات من تقاليد دينية أخرى مثل «أخوية» و«شكل صوفى من الإيمان»، حتى إنَّه يصف الجو الروحي فى القرى الجزائرية بأنَّه يشبه جو الكنيسة فيقول: «كلٌّ هذا يُذكِّر، في وقت واحد، بنوع من الأخوية والكنيسة وشكل صوفي من الإيمان» (ص١٣٢-١٣٣). ومن الغريب، مع ذلك، أنَّ فانون لا يُسمِّي تلك التقاليد الروحية باسم الإسلام، ولو مرة واحدة. بل إنَّه يقول إنَّ «جموع الفلاحين لا يزالون يُقدِّسُون قياداتهم الدينية الذين ينحدرون من أسر عريقة» (ص١٣٦)، ولكنه لا يُسمي هذه الثقافة ولا هؤلاء الناس ولا ممارساتهم ولا هذه القيادات الدينية باسمهم الحقيقي؛ مسلمون.

يبدو جليًا منذ بداية الكتاب، وحتى فى العنوان ذاته، أنَّ فانون عازمٌ على التحدُّث عن «معذبي الأرض». كما أنَّ شغفه بقضيتهم وارتباطه الكامل بها بدا ملموسًا ولافتًا للنظَر. إلا أنَّ فشل فانون فى تسميتهم مسلمين وتسمية ثقافتهم المناهضة للاستعمار ثقافة إسلامية، كان معناه أنَّه لا خيار أمام فانون إلا أن يعزو هذه الثقافة المناهضة للاستعمار إلى القبلية و البدائية. إنَّه ينسب معارضتهم لوجود الاستعمار ببساطة إلى ثقافة ريفية «بدائية نبيلة». بل إنَّه في بعض الأحيان، وتحت تأثير واضح للسريالية، ينحطُّ إلى نزعة استشراقية تُذكِّر برواية جوزيف كونراد «قلب الظلام». فيتحدَّث عن الفلاح الجزائرى قائلاً «إنَّه

يحمي تقاليده في عناد وإصرار» (ص١١١)، كما يقول إنَّ معذبي الأرض أشبه «بجموع الفئران» التي تتصرَّف بالروح البدائية لبيئتها؛ الشجيرة والغابة أو الصحراء (ص١٣٠). وفى النهاية فإنَّ الجزائريين بشكل أساسى هم «القوادون والأوباش و العاطلون والمجرمون الصغار الذين ينخرطون فى كفاح التحرير مقاتلين أقوياء الشكيمة » ولكنهم يحتاجون فى البداية إلى «دفعة من الخلف» (ص١٣٠).

واقع الأمر هو أنَّ تمييز فانون بين الفلاحين وسكَّان المدن فى الجزائر هو تمييز غير دقيق إلى حدٍّ ما. فالثقافة المناهضة للاستعمار التى يشير إليها لم تكن حكرًا على الريف، كما أنَّ جمعية علماء المسلمين كانت أكثر نشاطًا فى المدن، خاصة في الجزائر ووهران وقسنطينة، عنها فى الريف. ومع ذلك فإنَّه بحلول عام ١٩٣٠، فإنَّ تجمُّعاتهم العلمية والتعليمية قد اخترقت الريف ومناطق الجبال وأقاليم البربر وبدأت فى تحطيم الثقافة الصوفية المدجَّنة التى اتَّسمت بالجمود واللامبالاة والتعاون مع الاستعمار[٢٨]. ورغم العقبات التى وضعها الاستعمار فإنَّه بحلول عام ١٩٣٥، كانت الجمعية قد أنشأت ٧٠ مدرسة ابتدائية و ثلاثة معاهد تعليمية. وزاد عدد المدارس الابتدائية فى عام ١٩٤٧ فبلغ ٩٠ مدرسة، ليأتى عام ١٩٥٥ وقد أنشأت الجمعية ١٨١ مدرسة و٥٠ معهدًا تعليميًا و٤٤١ مركزًا تعليميا بفروعها المنتشرة فى كل أنحاء الجزائر وأيضًا فى فرنسا والقاهرة[٢٩]. كما أصدرت الجمعية عددًا من الجرائد و المجلات منها «المنتقد» و«الشهاب». وأصبح شعار الجمعية الشهير «الإسلام ديني، العربية لغتي، الجزائر وطني» صرخة الحشد للثورة المسلحة عام ١٩٥٤. وكان من الصعب أنْ يكون كل هذا نتيجة الطاقة الغريزية للفلاحين وحدها، ومن الصعب أنْ يكون هؤلاء الناس فى وضع مقارنة، كما يفعل فانون، مع «قطعان الذئاب وجموع الفئران» (ص١٣٠). ويرى (جون داميس – John Damis) وغيره من الباحثين أنَّ المجهود الثقافى والتعليمى الذى قامت به جمعية علماء المسلمين كان شرطًا نفسيًا ضروريًا للثورة الجزائرية، وأنَّ هذه الثورة الفكرية، كما يُسمِّيها الجزائريون، «مهَّدت الطريق للثورة المسلحة»[٣٠].

لعله لم يعد بإمكاننا التأكُّد ما إذا كان فانون جاهلٌ فعلاً بالتقاليد الإسلامية المناهضة للاستعمار فى الجزائر، أم أنَّه اختار ببساطة تجاهلها. ومع ذلك، فهناك شيء واحد مؤكد:

إنَّ وصف فانون للأيديولوجية الجزائرية المناهضة للاستعمار بأنها «عفوية» وبدائية ممكن فقط إذا تجاهلنا الإسلام وثقافته القائمة على اللغة العربية وآدابها. وبدون هذا الاستبعاد فإنَّه كان من الأحرى وقتها أنْ يستبدل بالمزيج الذى طرحه فانون من «العفوية» و«التنظيم» مزيج من نموذجين «للتنظيم»؛ أحدهما إسلامى، بمدارسه ومساجده ونخبته الثقافية ولغته وآدابه وعقيدته المناهضة للاستعمار، والآخر غربى ماركسى وثورى. وما يُقدِّمُه «معذبو الأرض» عوضًا عن ذلك هو المزيج الشهير من «العفوية» و«التنظيم»، حيث تُقدَّم «العفوية» على أنَّها الثقافة الأمية للأغلبية القروية من الفلاحين، ويُقدَّم «التنظيم» باعتباره ثقافة ثورية ماركسية تقدِّمها النخبة الغربية الصغيرة.

لقد أكَّد الجزائريون الذين عَرفوا فانون وحاربوا إلى جانبه ضعف معرفته بالإسلام(٣١). لقد أرادوا ببساطة التأكيد على وجود أفكار أخرى مناهضة للاستعمار إلى جانب أفكار فانون. وقد مال النقَّاد الغربيون إلى اتِّهام هؤلاء الجزائريين بأنَّهم «ناكرون لجميل» فانون، أو أنَّهم يحاولون أنْ يُحسِّنوا من صورة نظام ما بعد الاستقلال(٣٢). وبينما ساهم فانون بشكل كبير فى شرح الثورة للقارئ الغربي بلغة ومصطلحات يمكنه استيعابها، فإنَّه من السخيف القول بأنَّ الجزائريين كانوا فى انتظار فانون لكى يُعلِّمهم بديهيَّات مناهضة الاستعمار. وسيكون على نفس القدر من السخافة القول بأنَّ فانون كان له تأثير حاسم على مسار هذه الثورة. لقد اشتعلت حرب التحرير الجزائرية ونُظِّمت واستفاد المقاتلون فيها من تراكم طويل من انتفاضات وثورات ظلَّت مشتعلة هناك منذ أيام الأمير عبدالقادر. وقد استشهد فانون نفسه مرارًا، كما أوضحنا قبلاً، بتلك التقاليد وأشاد بها دون أنْ يردُّها إلى مرجعيتها. إنَّ فشله فى أنْ ينسبها للإسلام يمكن فهمه إذا وضعنا فى الاعتبار جهله بالإسلام فى الجزائر. وأيضًا إذا وضَعنا فى الاعتبار أنَّ خطابه كان موجَّهًا للقارىء الغربى الملحد الذى لا يملك أى إطار معرفى من المرجعية يُمكِّنُه من فهم دور دين غير غربى فى حروب التحرير الوطنية. وببساطة فإنَّ فانون استخدم مصطلحات ثورية مألوفة للقارئ الغربى ونزَع من مكوِّناتها كل إشارة للإسلام.

والنقطة الأكثر أهمية هاهنا أنَّ القاعدة التى بُني عليها كتاب «معذبو الأرض» هى مزيجٌ من «العفوية-التنظيم». وربما أدَّى استحضار الإسلام إلى وقوع اضطراب فى هذا الإطار

النظرى. فبدلاً من مزيج «العفوية-التنظيم»، كان فانون سيكون مُجبراً على أن ينظر إلى مزيج من نموذجين آخرين للتنظيم- الأول هو الإسلامى، بآدابه وفطرته المحمَّلة بعقيدة مناهضة للاستعمار وأساليبه فى التنظيم عبر المدارس والمساجد و علمائه، والآخر غربي ماركسي ملحد ثوري. كان فانون سيتورَّطُ فى خوض مشاكل نظرية لم تكن الأكاديميا الموجودة قد اكتشفتها حتى فى ذلك الوقت. بالإضافة إلى ذلك، فإنَّ فانون كان يخوض حربًا شعبية، وكان على كتاب «معذبو الأرض» أن يكون مفهومًا باعتباره مساهمة فى المجهود الحربى. وفى غمرة الحرب، لا يمتلك الواحد منَّا دائمًا الوقت والرفاهية لكى يتفحَّص الأساس النظرى لكل شيء يكتبه. وفى النهاية، كان فانون شغوفًا بأنْ يصنع من الثورة الجزائرية نموذجًا قابلاً للتطبيق فى بلاد العالم الثالث الأخرى، وخاصة دول إفريقيا السوداء. لذا فلا داعى للاندهاش لو اكتشفنا أنه استبعد الجوانب التى رأى أنَّها خاصة بالحالة الجزائرية (مثل الإسلام) ببساطة لكى يجعل دروس هذه الحرب ملائمة قدر الإمكان لدول إفريقية أخرى.

هذه الاعتبارات تقدِّمُ تبريراً سائغا إلى حدٍّ كبير لاستبعاد فانون للتقاليد الإسلامية التى اعتمد عليها بشكل كبير في كتاب «معذبو الأرض». لقد أمل أنْ يكون كتابه مساهمة منه فى حرب التحرير الجزائرية فى سنواتها الأخيرة. وتحتَ هذه الظروف، يمكننا القول باطمئنان إنَّ فانون ببساطة بذل أقصى ما فى وسعه اعتماداً على المصادر والمعرفة المتوفِّرة له من موقعه.

ومع ذلك، فإنَّ رؤية فانون الجزئية لا تزال سائدة إلى حد كبير فى النقاشات الغربية التى تتعلَّق بحرب التحرير الجزائرية. وإذا كان فانون لم يكتشف أى نظرية معرفية أخرى بجانب الأيديولوجيا الماركسية الغربية، فإنَّ الأكاديميين الغربيين لم يُكلِّفوا أنفسهم عناء البحث عن واحدة أخرى. ويُعتبر فانون فى الغرب المُنظِّر الأيديولوجى الرئيس للثورة الجزائرية. ويُعتبر رأيه الأكثر حضوراً فى معسكر النخبة المتغرِّبة الصغير. ولا تزال الصورة التى رسمها عن الثقافة الإسلامية المناهضة للاستعمار فى الجزائر (البدائية الأمية الغريزية) لا يتطرَّق إليها الشك. هذا الموقف بالكاد يعكس حقيقة أنَّ هذه الثقافة تمتلك لغة مكتوبة وأدبًا ودينًا منظَّمًا له نصٌّ حاكم ونظام تعليمى مؤثِّر يمكنه الانتشار بأقل الإمكانيات. كذلك

كانت هذه الثقافة تمتلك صُحُفًا ومجلات ومراكز ثقافية ونخبة فكرية وعقيدة شجَّعت بقوة الحراك الاجتماعي تجاه التغيير. كما أنَّ الأصوات الجزائرية القليلة التى شاركت فى نقاشاتَ ما بعد الاستقلال والتى كانت غالبيتها العظمى علمانية (إنْ لم تكن ملحدة) لا تساعد أيضًا فى هذا الصدد.

إذا كان سكوت فانون عن التقاليد الإسلامية يمكن تفهُّمه أخلاقيًا وعمليًا، فإنَّه لا يمكن فهم الرفض المستمر للإقرار بالمشاركة الأساسية للتقاليد الإسلامية المناهضة للاستعمار فى كل تلك الانتفاضات والثورات الجزائرية. ويتفق هذا الموقف مع المهمة الحضارية لفرنسا في أنَّ الإسلام فى الجزائر تقاليد قديمة ومتخلِّفة، وأن الحضارة (من المفهوم بالطبع أنَّها شأن حصرى للغرب) عليها إزالته. والحقيقة أنَّها لم تستطع. وبينما يُصِرُّ الأكاديميون على رؤية العالم من منظور «الأسلوب الذي ينتهجُه الملحد فى الخلاص»، فإنَّ التقاليد الإسلامية المناهضة للاستعمار قد عادت فعَّالة بوضوح فى فلسطين ولبنان والعراق وأفغانستان وفى دول إسلامية أخرى. ومثلما كانت «مبهمة» وغير مفهومة وقتها فإنَّها ما زالت غير مفهومة فى وقتنا الحاضر.

إن فرانز فانون الذى كَتَبَ كتاب «معذبو الأرض» هو نفسه نتاجٌ للتقاليد الإسلامية الجزائرية المناهضة للاستعمار. كما أنَّ اعتماده الكبير على تلك التقاليد يجعل المرء يتساءل عمَّا إذا كانت صلابته تلك فى مواجهة الاستعمار لم تكن لتتشكَّل إلاَّ من خلال اتصاله بتلك التقاليد. يقول فانون: «دون طرد المستعمر ليس ثمَّة شيء سوى مواكب الفساتين التنكُّرية وضجيج الأبواق. ليس ثمَّة شيء سوَى إعادة التكيُّف وإصلاحات قليلة فى الأعلى، لا شيء سوى علم يُرفرف» (ص١٤٧). إلى أى مدى كانت التقاليد الإسلامية المناهضة للاستعمار تقف خلفَ الحكم الأسطورى (أو هل يجدر بنا أن نقول الفتوى؟) بالموت والاحتضار الذي أصدره فانون بحقِّ الأنظمة الاستعمارية؟

المراجع:

1- Aron, R., (1962) Les Origines de la guerre d'Algérie Fayard, Paris.

2- Bradford, M., (1976) Muslim Brotherhoods in Nineteenth Century Africa Cambridge University Press, New York.

3- Buss, R., (1970) Wary Partners: The Soviet Union and Arab Socialism Institute for Strategic Studies, London.

4- O'Brien, D. Cruise, (1967) Towards an 'Islamic policy' in French West Africa, 1854-1914. Journal of African History 8:2, pp.303- 316.

5- Damis, J., (1974) The free-school phenomenon: the cases of Tunisia and Algeria.International Journal of Middle East Studies5:4, pp.434-449.

6- Danziger, R., (1977) Abd al-Qadir and the Algerians Holmes &Meier, New York and London.

7- Mili, M. el, (1971) The Algerian revolution and Fanon, alThaqafa, pp.40-54.

8- Mili, M. el, (1971) The Algerian roots of Fanon's thought, alThaqafa, pp.22-45.

9- Mili, M. el, (1971) Fanon and Western thought. al Thaqafa, pp.10-25

10- Emerit, M. ed, (1951) L'Algérie a l'époque d'abd-El-Kader Edition La-rose, Paris.

11- Fanon, F., (1982) L'Algérie se dévoile,.Sociologie d'une Revolution, pp. 16-48. Maspero, Paris.

12- Fanon, F., (1963) The Wretched of the Earth Grove Press, New York.

13- Gendzier, I., (1973) Frantz Fanon: A Critical Study Pantheon Books, New York.

14- Laremont, R. R., (2000) Islam and the Politics of Resistance in Algeria 1783-1992 Africa World Press, Trenton, NJ.

15- Chatelier, A. Le, (1910) Politique Musulmane. Revue du Monde Musulman XII: September, pp.1-165.

16- Nguyen, Nghe, (1963) Frantz Fanon et les problèmes de l'indépendance. La Pensée no. 107:February, p.29.

17- Perinbam, B. M., (1973) Fanon and the revolutionary peasantry -the Algerian case.Journal of Modern African Studies 11:3, pp.427- 445.

18- Revere, R., (1973) Revolutionary ideology in Algeria.Polity 5:4, pp.477-488.

19- Shariati, Sarah, (2004) Le Fanon connu de nous. Ghorba, 14 December, available at (accessed 20 February 2007).

20- Shinar, P., (1965) Abd al-Qadir and Abd al-Krim: religious influences on their thought and action. Asian and African Studies1, pp.139-174.

21- Sivan, E., (1979) Colonialism and popular culture in Algeria. Journal of Contemporary History 14:1, pp.21-53.

ملاحظات:

(١) الطبعة المعتمدة فى هذه الورقة والتى تتضمن الإحالات المشار إليها من النص هى :

Frantz Fanon, The Wretched of the Earth (New York: Grove Press, 1963), p.47.

(2) B. Marie Perinbam, 'Fanon and the revolutionary peasantry - the Algerian case,' Journal of Modern African Studies, 11(3) (1973), p.429.

(3) Nguyen Nghe, 'Frantz Fanon et les problèmes de l'indépendance,' La Pensée, no. 107 (February 1963), p.29.

(٤) كان الحزب التابع لمصالى الحاج هو : (حزب الشعب الجزائرى-حركة الانتصار للحريات الديمقراطية)، الذى انشقت عنه المجموعة التى مثلت نواة جبهة التحرير الوطنى الجزائرية التى قادت الثورة الجزائرية .

(5) Irene Gendzier, Frantz Fanon: A Critical Study (New York:Pantheon Books, 1973), p.209.

(6) Perinbam, Fanon and the revolutionary peasantry, p. 432.

(٧) نفسه، ٤٣٦ .

(٨) نفسه، ٤٤٣ .

(٩)نفسه، ٤٤٢ .

(١٠) انظر :

Gendzier, Frantz Fanon, p.215.

وانظر أيضًا :

Robin Buss,(Wary Partners: The Soviet Union and Arab Socialism, Adel-phiPapers, no73, London: Institute for Strategic Studies, 1970), p.22.

انظر :

(11) Ricardo René Laremont, Islam and the Politics ofResistance in Algeria 1783-1992 (Trenton, NJ: Africa World Press, 2000), pp.27- 40.

(١٢) لمزيد من الاطلاع انظر :

Raphael Danziger, Abd al-Qadirand the Algerians (New York and London: Holmes & Meier,1977).

(١٣) انظر على وجه الخصوص :

Martin Bradford, Muslim Brotherhoods inNineteenth Century Africa, African Studies Series, 18 (New York:Cambridge University Press, 1976).

(14) A. Le Chatelier, 'Politique Musulmane,' Revue du MondeMusulman, XII (September 1910), p.80.

(15) E. Doutté, Les Marabouts (Paris: Leroux, 1900), p.118,

الاقتباس هنا نقلاً عن :

Donal Cruse O'Brien, 'Towards an "Islamic policy" in French West Africa, 1854-1914,' Journal of African History,8(2)(1967), pp.306-307.

(16) Laremont, Islam and the Politics of Resistance, p.80.

(١٧) وهذا واحد من الاستنتاجات الرئيسية ؛ انظر مثلاً :

Martin Bradford, Muslim Brotherhoods in Nineteenth Century Africa.

(18) Danziger, Abd al-Qadir and the Algerians, p.218.

(١٩) ربما يكون أعداءه الفرنسيون هم أكثر من جنى ثمار النظام الذى أسَّسَه الأمير

عبدالقادر حيث استطاعوا وبتعديلات بسيطة تطبيق عين هذا النظام فى الداخل الجزائرى واستمر حتى إلغاء النظام العسكرى بعد انتفاضة الشيخ المقرانى فى ١٨٧١ ، انظر :

Danziger, Abd al-Qadir and the Algerians, pp.215-216.

(20) Pessah Shinar, 'Abd al-Qadir and Abd al-Krim: religious influences on their thought and action, 'Asian and African Studies, 1, p.173.

(٢١) بينما كان معدل الأمية عن نفس الفترة فى فرنسا أعلى من ٤٠٪؛ انظر :

Marcel Emerit (Ed.), L'Algérie al'époque d'abd-El-Kader (Paris: Edition Larose, 1951), p.199.

(٢٢) انظر جزء من خطاب مصالى الحاج فى :

Robert Aron, Les Origines dela guerre d'Algérie (Paris: Fayard, 1962), p.70.

(٢٣) نقلاً عن :

Sarah Shariati, 'Le Fanon connu de nous,' Ghorba,14 December 2004, available at (accessed 20 February 2007).

(٢٤) مثَّل احتقار اللغة العربية العنصر الرئيسى فى السردية الفرنسية عن مدى تخلُّف المسلمين. تُستخدم الكلمة «شغابية» فى المعجم الفرنسى حتى اليوم للإشارة إلى أى لغة يُراد وصمها بـ«البربرية»؛ انظر :

Emanuel Sivan,'Colonialism and popular culture in Algeria,' Journal of Contemporary History, 14 (1) (1979), p.32.

(25) Gendzier, Frantz Fanon, p. 247.

(٢٦) نقلاً عن شريعتى :

Le Fanon connu de nous'.'

(27) Frantz Fanon, 'L'Algérie se dévoile,' in Sociologie d'une révolution (Paris: Maspero, 1982), pp. 16-48.

من بين كل المصادر التى اطلعت عليها فى سبيل الإعداد لهذه الورقة؛ كان روبرت ريفير الوحيد الذى ذكر هذه الحقيقة فيقول فى ملاحظة عابرة: «فشل فانون فى إدراك أثر المجهودات الإصلاحية التى قام بها المجتمع الجزائرى حيث مثّل دور العلماء فى تشجيع التعليم الحر-الغير دينى- خطوة رئيسية فى إيقاظ الروح الوطنية التى أدت إلى إشعال الثورة بعد ذلك»، انظر:

Robert Revere, 'Revolutionary ideology in Algeria',Polity, 5(4) (1973), p.483, n.22.

(28) John Damis, 'The free-school phenomenon: the cases of Tunisia and Algeria,' International Journal of Middle East Studies, 5(4) (1974), p.445.

(29) Laremont, Islam and the Politics of Resistance, p.84.

(30) Damis, 'The free-school phenomenon, p.449.

(٣١) انظر على وجه الخصوص المقالات الثلاثة التى كتبها محمد الميلى بعنوان:

Fanonand Western thought,' al Thaqafa (March 1971), pp. 10-25,' 'The Algerian revolution and Fanon,' al Thaqafa (May 1971), pp. 40-54, 'The Algerian roots of Fanon's thought,' al Thaqafa (November 1971), pp.22-45.

(٣٢) وردت هذه الاتهامات فى:

Irene Gendzier, Frantz Fanon,pp.231-260.

وحقيقة أن دراسة نص فانون «معذبو الأرض» مستمرة دون أى إلمام حقيقى بالسياق الاجتماعى والسياسى والدينى فى الجزائر وقت الثورة، دليل واضح على أن وجهة نظر الشعب الجزائرى الأصيل صاحب الشأن لم تحظ بعد بحق التمثيل فى ما أصبح نقاشًا غربيًا محسومًا.